تجريد البيان لتفسير القرآن

من

صفوة التفاسير

المجلد الأول

جرّده وعني بطبعه
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

الطبعة الأولى

مطابع الدوحة الحديثة

ص.ب: ١٤٥ الدوحة - قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الآية ٤٤ سورة النحل

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾

الآية ١٨٧ سورة آل عمران

« صَدَقَ اللهُ العَظِيم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له ، الداعي إلى الحق في كتابه العزيز ، أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، واصطفى من عباده صفوة اختارهم لأداء الرسالة إلى عباده ، فهدى من اختاره لقربه بنور الإيمان ، وملأ قلوب أصفيائه باليقين فسبحانه له الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، جاء من ربه بالبينات والهدى ، وأخبره أنه أورث صفوة من عباده هذا الكتاب ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام ، وقاد الجميع إلى الخير والسعادة فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْعَظِيم ﴾ فنبتهل إلى الله تعالى أن يجعلنا من السابقين بالخيرات ، اللهم صلِّ على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله الداعي إلى الخير وعلى آله وأصحابه ومن تبع هديه إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيراً .

أما بعـــــد :

فما برحت الدراسات القرآنية هي الينبوع الفياض المغدق الذي يغذي هذه الأمة ، وينير لها طريقها لمعرفة تعاليم السماء وفهم كتاب الله العزيز ، وقد لاحظنا حاجة الأمة الإسلامية إلى الاطلاع والالمام بمعاني القرآن العظيم ، وكم من أسفار الأمة الاسلامية من تفسير قام المحققون بتسجيله وإبرازه ، وإذا أطلقت الفكرة في تلك التفاسير الجمة وأمعنت النظر في التحقيقات التي أبرزها فرسان الميدان من علماء التفسير وجدت البحر الخضم الذي لا ساحل له ، ولا ريب أن القرآن العظيم أعلى وأسمى من أن ينال أحد أقصى المراد ونهاية المرام في شرحه وتفسيره ، إذ أن عجائبه لا تفنى وحكمه لا تستقصى وأوامره ونواهيه لاتعد ولا تحصى ، وهو الجد ليس بالهزل ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يخلق بكثرة الترداد ، ومن أراد الهداية بغيره ضل ، فهو حبل الله المتين ، وكتابه المبين ، وإنما واجب المسلم أن يختار من التفاسير أقله لفظاً ،

وأقصره مدى ، وأوجزه في البلاغة والمعنى ، وأجله نفعاً ، ولقد عنيت بمراجعة صفوة التفاسير لمؤلفه الشيخ محمد علي الصابوني ، فوجدته تفسيراً حاوياً ، موجزاً في المعنى ، رصيناً في المبنى ، غير أنه أضاف إلى التفسير أقساماً من البلاغة وأسباب النزول واللغة ، فلقصد الإيجاز وتقريب التفسير للمبتدئين مثلي أستخرت الله تعالى في تجريد هذا التفسير وسميناه (تجريد البيان لتفسير القرآن من صفوة التفاسير) والله نسأل أن يوفقنا لصالح الأعمال وخالص النيات والأقوال في خدمة الاسلام والمسلمين ، سائلين المولى عز وجل أن يجزل الأجر والثواب لكل من سعى في إخراجه ، وطبعه ، ومراجعته ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبع هديه إلى يوم الدين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

خادم العلم

عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

مدير الشؤون الدينية - بدولة قطر

الدوحة

١ شعبان ١٤٠٢ هـ

٣ حزيران ١٩٨٢ م

كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :

فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد « **صفوة التفاسير** » وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة ، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله ، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقاً كبيراً في الاختيار من أمهات كتب التفاسير التي رجع إليها على علم وبصيرة .

وليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن فقد سبق أن اختصر كتاب « **تفسير ابن كثير** » وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيداً نافعاً خلا من كل تعقيد .

ولقد اختص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه : « **روائع البيان في تفسير آيات الأحكام** » ، وهو كتاب يبين الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم .

وسبق أيضاً أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان : « **التبيان في علوم القرآن** » ، وها هو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهور رائعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير .

ونرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه لكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب .

عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

مكة المكرمة ٢٧ صفر ١٣٩٦ هـ

٢٧ فبراير ١٩٧٦ م

كلمة سماحة الشيخ عبد الله بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للاشراف الديني على المسجد الحرام

الحمد لله وحده ، وبعد بناء على طلب الأخ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني المدرس بجامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة أن أكتب تقريظاً لكتابه « **صفوة التفاسير** » بعد أن قرأ عليَّ بنفسه بعض المواضع من هذا الكتاب ولم يتسع الوقت لسماعه كله .

فقد أجاد المؤلف وأفاد فيما سمعته من كتابه جزاه الله خيراً ، كما اجتهد في جمعه واختار أصح الأقوال وأرجحها في تفسير كتاب الله وجمع في هذا التفسير بين المأثور والمعقول ، بأسلوب واضح ، وطريقة حديثة سهلة ، يذكر بين يدي السورة خلاصة للمقاصد الأساسية لها . يوضح معاني الكلمات وبيان اشتقاقها . والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة ، ويبين السبب الذي نزلت من أجله الآيات . يبدأ بتفسير الآيات دون وجوه الإعراب ، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها ، ويوضح بيان الصور البيانية والنكات البلاغية .

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد وأن يعم النفع بهذا الكتاب ويجزي المؤلف على ما بذل من جهد .

والله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . . .

٧/ ٤/ ١٣٩٧هـ

عبد الله بن حميد
رئيس مجلس القضاء الأعلى
الرئيس العام للاشراف الديني على المسجد الحرام

كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء بلكنهو - الهند

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل ورُوي في الموضوع ، فكانت كتب المؤلفين في التفسير ، والحديث ، والسيرة ، والتاريخ أشبه بموسوعات علمية . وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع ، وتمكين القارىء من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه فقد أحدث مشكلة - خصوصاً في هذا العصر - وهي أن الطالب المبتدىء والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال إلى الصواب ، ويتشتت ذهنه فلا يرسخ فيه قول واحد ويجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب ، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية ، واختيار أقرب الأقوال وأقواها ، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم .

وكان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتشتت الأذهان ، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقاً كل التوفيق في وضع كتابه « صفوة التفاسير » فقد وفّر على طلبة علم التفسير وقتاً طويلاً وأخذ بيدهم إلى ما هو عصارة دراسته وخلاصة التفاسير ، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وحسنت ممارسته لفن التدريس ، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيراً وأثابه وتقبل عمله .

مكة المكرمة
٩/ ٤/ ١٣٩٦ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

كلمة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد:

فإن أشرف ما يقدّمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون، في بحوثهم وتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة.. وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها.. وليس ثـمَّةَ جُهدٌ يُضاهي جُـهْد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمانٍ ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُوْنَ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوْا الأَلْبَابِ﴾. وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاصٍ لمجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعددٍ من جهابذة الأئمة المفسِّـرين، لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، لهو توفيقٌ من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكَّنه جلَّ وعلا من تقديم هذه الكنوز العظيمة، في سِفْرٍ واحد هو «صفوة التفاسير» ليسهِّل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عزَّ وجل. والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

جدة: ١٥ صفر ١٤٠٠ هـ — د. عبد الله عمر نصيف

الموافق: ٣ يناير ١٩٨٠ م — مدير جامعة الملك عبد العزيز

كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، لقد اطلعت على كتاب « صفوة التفاسير » لفضيلة الشيخ الفاضل الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتاباً ثميناً حوى خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فهمه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية . . فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة . جزى الله مؤلّفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتبه الفقير إلى عفو مولاه راشد بن راجح الشريف عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة .

مكة المكرمة ١٥/ ١٠/ ١٣٩٦ هـ .

كلمة فضيلة الشيخ عبد الله خياط
خطيب المسجد الحرام

كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحّة لتفسير للقرآن الكريم في متناول طالب العلم ، يجمل ما تفرق في كتب التفسير المعتبرة ، ويغنيه عن المراجع المطولة ، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن ، وسبب النـزول ، وييسر له المعاني فيكون زاده وعدته ، فكان كتاب « صفوة التفاسير » هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة ، إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة ، ولبى الحاجة .

والله أسال أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية ، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وكتبه الفقير إلى الله عبد الله خياط خطيب المسجد الحرام في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٩٥ هجرية .

كلمة فضيلة الشيخ محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة ، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والآخرة .
وبعد :

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة ، فياض الأداء ، بعيد عن المصطلحات الفنية ، والمناقشات الفلسفية ، همه الأكبر إبراز السياق السماوي ، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء .

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية، إذ يسَّر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملاً من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنياً بالحقائق ، والحكم النافعة . وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مأثورات السلف واجتهادات الخلف ، أي أنه جمع بين المنقول والمعقول ـ كما يقولون ـ فيستطيع القارىء أن يرى أمامه اللونين معاً ، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين .

كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنح إلى أحد الطرفين ، فإما إيجاز شديد وإما إطناب لا يطيقه العصر ، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني ـ جزاه الله خيراً ـ استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجمل كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص .

نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير .

في ٦/ ٤/ ١٣٩٦ هـ

محمد الغزالي
رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين ، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، الذي فتح الله به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وأصحابه الهادين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف ، يحتاج من يرغب الحصول على لآلئه ودرره ، أن يغوص في أعماقه ، ولا يزال القرآن يتحدّى أساطين البلغاء ، ومصاقيع العلماء ، بأنه الكتاب المعجز ، المنزّل على النبي الأمي شاهداً بصدقه ، يحمل بين دفتيه برهان كماله ، وآية إعجازه ، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم : ﴿نَزَلَ به الروحُ الأمينُ. على قَلْبِكَ لِتكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بلسانٍ عَرَبي مُبِين﴾ .

وعلى كثرة ما كتب العلماء وألفوا ـ وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفارٍ ضخمة ، وكتب نفيسة ، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل ـ يبقى القرآن زاخراً بالعجائب ، مملوءاً بالدرر والجواهر ، يطالعنا بين حينٍ وآخر ، بما يبهر العقول ويحيّر الألباب ، بما فيه من الإشراقات الإلهية ، والفيوضات القدسية ، والنفحات النورانية ، بما هو كفيلٌ لتخليص الإنسانية ، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر . . وكلُّ علمٍ شاط واحترق إلا « علم التفسير » فإنه لا يزال بحراً لُجّياً ، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه ، لاستخراج كنوزه الثمينة ، واستنباط روائعه وأسراره ، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله ، يرتشفون من معينه الصافي ولا يرتوون . . ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علماً بكلام ربِّ العزة جلَّ وعلا ، وأن يدرك أسراره ، ودقائقه ، وإعجازه ! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال !!

إنه الكتاب المعجز ، الذي سيظل يمنح الإنسانية ، من علومه ومعارفه ، ومن أسراره وحِكَمِه ، ما يزيدهم إيماناً وإذعاناً بأنه « المعجزة الخالدة » للنبيّ العربي الأميّ محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وإذا كان المسلم قد اضطرته الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه ، وضاقت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة ، التي خدم بها أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ كتاب الله تعالى ، تبياناً وتفصيلاً لآياته ، وإظهاراً لبلاغته ، وإيضاحاً لإعجازه ، وإبـرازاً لما حواه الكتـاب المجيد من تشريع وتهـذيب ، وأحـكام وأخلاق ، وتربية وتوجيه . . فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمـه على النـاس ، بأسلوب واضح ، وبيانٍ ناصع ، لا حشو فيه ولا تطويل ، ولا تعقيد ولا تكلف ، وأن يُبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان ، بما يتفق وروح العصر الحديث ، ويلبي حاجة الشباب المثقف ، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم .

ولم أجد تفسيراً لكتاب الله عز وجل ـ على ما وصفتُ ـ رغم الحاجة إليه، وسؤال الناس عنه، ورغبتهم فيه ، فعزمتُ على القيام بهذا العمل ، رغم ما فيه من مشقةٍ وتعب ، واحتياجـه لوقـتٍ لا يُتـاح في هذا الزمان ، مستعيناً بالله الكريم ، متوكلاً عليه ، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب ، وأن يوفقني لإخراجه بشكلٍ يليق بكتاب الله تعالى ، يعين المسلم على فهم آيات القرآن ، والتزود من بيانه ، ما يزيده إيماناً ويقيناً ، ويدفعه إلى العمل الجادّ الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا .

وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصّلة، مع الاختصار والترتيب ، والوضوح والبيان ، وكلي أملٌ أن يكون اسمه مطابقاً لمسمّاه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية ، بما يوضّح لها السبيل الأقوم ، والصراط المستقيم .

وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي :

أولاً : بين يدي السورة ، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية .

ثانياً : المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

ثالثاً : اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية .

رابعاً : سبب النزول .

خامساً : التفسير .

سادساً : البلاغة .

سابعاً : الفوائد واللطائف .

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنوات ، أواصل فيه الليل بالنهار ، وما كنت أكتب شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة ، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها ، وإنني أشكر المولى جلَّ وعلا أنْ سهَّل لي هذا العمل ، فقد كنت أشعر أنَّ الزمن يُطوى لي ، وكلٌّ ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره ، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين من هجرة سيد المرسلين .

والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي ، ويجزل لي الثواب يوم المآب ، فما عملتُ إلا أملاً بنيل رضاه ، راجياً منه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين ، وأرجو ممن قرأ فيه فاستفاد أن يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة ـ جامعة الملك عبد العزيز

مكة المكرمة ـ غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

تفسير الاستعاذة :

المعنى : أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد ، أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به ، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلاَّ الله رب العالمين . . عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من اللَّيل ، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه)[١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير البسملة:

المعنى : أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء ، مستعيناً به جلَّ وعلا في جميع أموري ، طالباً منه وحده العون ، فإنَّه الرب المعبود ذو الفضل والجود ، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام .

تنبيه:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة مِن سور القرآن ـ ما عدا سورة التوبة ـ ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم ، التماساً لمعونته وتوفيقه ، ومخالفةً للوثنيّين الذين يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، أو باسم الشعب ، أو باسم هبل .

قال الطبري : « إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيّه محمداً ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّةً يستنّون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها فقول القائل : بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تالياً سورة ينبىء عن أنَّ مراده : أقرأ بسم الله ، وكذلك سائر الأفعال »[٢] .

(١) أخرجه أصحاب السنن . (٢) جامع البيان للطبري .

(١) سُورَةُ الفَاتِحَة
مَكيَّة وآياتها سَبع

تفسير سـورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

بين يدي السـورة :

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع ، وتسمى « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول ، وهي ـ على قصرها ووجازتها ـ قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه ، تتناول العقيدة ، والعبادة والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين ، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصده الأساسية .

فضـلها:

(أ) روى الإمـام أحمد في المسند أن « أُبّي بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ .

(ب) وفي صحيح البخاري أنَّ النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلَّ : (لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أُوتيتُه) .

التسميـــــة:

تسمى « الفاتحـــة ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والشافيـة ، والوافية ، والكافية ، والأســـاس ، والحمد » وقد عدّدها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثني عشر إسمًا .

اللغـــــة :

﴿ **الحمد** ﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿ **الله** ﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره ، قال القرطبي : هذا الاسم ﴿ **الله** ﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، وهو اسم للموجود الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إلّه إلَّا هو سبحانه ﴿ **ربّ** ﴾ الربّ : مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره ، قال الهروي : « يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربَّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب »[1] والربُّ يطلق على عدة معان وهي « المالك ، والمصلح ، والمعبود ، والسيد المطاع » ﴿ **العالمين** ﴾ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط ، وهو يشمل : الإنس والجن والملائكة والشياطين وكذا قال الفراء ، وهو مشتق من العلامة لأن العالم عـلامة عـلى وجود الخـالق جل وعـلا ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة ، وقد روعي في كلٍ من ﴿ **الـرحمن** ﴾ و ﴿ **الرحيم** ﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن « فَعْلان » صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران ، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنَّه قيل : العظيم الرحمـة الدائم الإحسان[2] .

قال الخطــابي : الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمَّت المؤمن والكافر ، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيمًا** ﴾ ، ﴿ **الدين** ﴾ الجزاء ومنه الحديث (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تجزى ﴿ **نعبـد** ﴾ **قال الزمخشري** : العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ولذلك لم تستعمل إلاَّ في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم

---

(١) القرطبي ١/١٣٣ . (٢) كشف المعاني تفسير ابن جماعة .

فكان حقيقاً بأقصى الخضوع[1] ﴿ الصـراط ﴾ الطريق وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قال الشاعر :

شحنّا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط

﴿ المستقيم ﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف ﴿ آمين ﴾ أي استجب دعاءنا وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً .

التفسـير :

علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمد لله ، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم ، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، رب الإنس والجن والملائكة ، ورب السموات والأرضين ، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام ، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين ، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب ، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه ﴿ **يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله** ﴾ ﴿ **إيَّاكَ نَعْبُد وإيَّاكَ نستعين** ﴾ أي نخصُّك يا ألله بالعبادة ، ونخصك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحدًا سواك ، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع ، وإيَّاكَ ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم ، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿ **إهدنا الصراط المستقيم** ﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم ، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك ، وأرسلت به خاتم المرسلين ، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام ، من النَّبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ أي لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم ، السالكين غير المنهج القويم ، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين ، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية ، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية . اللَّهُمَّ آمين .

(١) الكشاف ١/١١ .

البلاغـــة:

١ ــ ﴿ **الحمد لله** ﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى أي قولوا « الحمد لله » وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : الكرم في العرب .

٢ ــ ﴿ **إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين** ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال : إيَّاه نعبد ، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك ، كما في قوله ﴿ **وإيَّاي فارهبـون** ﴾ .

٣ ــ قال في البحر المحيط : وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

الأول : حسن الافتتاح وبراعة المطلع .

الثاني : المبالغــة في الثناء لإفادة « أل » الاستغراق .

الثالث : تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله .

الرابع : الاختصاص في قوله ﴿ لله ﴾ .

الخامس : الحذف كحذف صراط من قوله ﴿ **غير المغضوب عليهم** ﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين .

السادس : التقديم والتأخير في ﴿ **إيَّاك نعبد** ﴾ .

السابع : التصريح بعد الإبهام ﴿ **الصراط المستقيم** ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ .

الثامن : الالتفات في ﴿ **إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين** ﴾ .

التاسع : طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿ **إهدنا الصراط** ﴾ أي ثبتنا عليه .

العاشر : السجع المتوازي في قوله ﴿ **الرحمن الرحيم * الصراط المستقيم** ﴾ وقوله ﴿ نستعين ** الضّالين ﴾[١] .

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣١/١ .

الفـــــوائد :

الأولى : الفرق بين ﴿ **الله** ﴾ و ﴿ **الإلـه** ﴾ أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات الباري جلّ وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحقٍ أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الثانية : وردت الصيغة بلفظ الجمع « نعبد ونستعين » ولم يقل « إيَّاك أعبد وإيَّاك أستعين » بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد على الوقوف في باب ملك الملوك فكأنَّه يقول : أنا يا رب العبد الحقير الذليل ، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

الثالثة : نسبَ النعمة إلى الله عز وجل ﴿ **أنعمت عليهم** ﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل : غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى ، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً « الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك » .

خاتمـــــــــــــة
في بيـــــان الأســــــرار القدســــــية
في فاتحـــــة الكـتـا ب العــــــزيز

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة « مقدمة في التفسير » ما نصه : « لا شك أن من تدبرَّ الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه ، فهو يبتدىء ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله ، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإلّه ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ وذكّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله ، وجميل آلآئه البادية في تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثُمَّ تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ، ليست عن رغبة ولا رهبة ، ولكنها عن تفضل ورحمة ، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ومن كمال هذا الإلّه العظيم أن يقرن الرحمن بـ « العدل » ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيُدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿ يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله ﴾ فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء

السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله ﴿ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء ، والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين ، الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه ، آمين . ولا جرم أن « آمين » براعة مقطع في غاية الجمال والحسن ، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب ، والتوجه إلى الله بالدعاء ؟ فهل رأيت تناسقاً أدق ، أو ارتباطاً أوثق ، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة ؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل . .) الحديث وأدم هذا التدبير والإنعام ، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل ، وخشوع وتذلّل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات ، من غير تكلف ولا تطريب ، واشتغال بالألفاظ عن المعاني ، فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضلُ من تلاوة في تدبرٍ وخشوعٍ »[1] .

« انتهى تفســـــــير سورة الفاتحـــــــة »

(١) مقدمة في التفسير ص ٥٩ .

(٢) سورة البقرة مدنية
وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

بين يدي السورة

سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف ، وهي من أوائل ما نزل ، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

* سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق ، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع ، شأنها كشأن سائر السور المدنية ، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية .
* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية : في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وفي أمور الزواج ، والطلاق ، والعدة ، وغيرها من الأحكام الشرعية .
* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، فوضَّحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الكفر والنفاق ، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء .
* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .
* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبوجه خاص بني إسرائيل « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون ، مما يوضح عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة ، بدءاً من قوله تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم** ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ **وَإذ ٱبْتَلى إبراهيمَ رَبُّـه بكلماتٍ فأتمهنَّ** ﴾ .
* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » ، وهم في أمس الحاجة إلى المنهاج الرباني والتشريع السماوي الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات ، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي ، وهو باختصار كما يلي :

« أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل ، أحكام الحج والعمرة ، أحكام الجهاد في سبيل الله ، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج ، والطلاق ، والرضاع ، والعدة ، تحريم نكاح المشركات ، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة ، لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر » .

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن « جريمة الربا » التي تهدِّد كيان المجتمع وتقوِّض بنيانه ، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين ، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله ، وإن تُبْتُم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون** ﴾ .

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب ، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وآخر وحي تنزَّل من السماء إلى الأرض ، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي ، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، بعد أن أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة .

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة ، والتضرع إلى الله جلَّ وعلا برفع الأغلال والآصار ، وطلب النصرة على الكفار ، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ **ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنَّا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين ، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام ، ويلتئم شمل السورة أفضل التئام !!

التســـمية : سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة ، التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قُتل شخص من بنى إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت ، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله .

فضـــلها : عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) أخرجه مسلم والترمذي . وقال ﷺ : (اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) يعني السحرة . رواه مسلم في صحيحه .

تفسير سورة البقــرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين ، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿ الۤمۤ ﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظٌ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بينات ، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على « إعجاز القرآن » فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين ، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الإمام « ابن تيمية » ثم قال : ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف ، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿ **الۤمۤ * ذلك الكتاب** ﴾ ﴿ **الۤمۤصۤ * كتابٌ أُنزل إليك** ﴾ ﴿ **الۤمۤ * تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ ﴿ **حۤمۤ * والكتابُ المبين * إنَّا أَنزلناه في ليلة مباركة إنَّا كنا منذرين** ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن(١) . ثم قال تعالى : ﴿ **ذلك الكتابُ لا ريب فيه** ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتابُ الذي لا يدانيه كتاب ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أي لا شك في أنَّه من عند الله لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ أي هادٍ للمؤمنين المتقين ، **الذين** يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس : المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، وقال الحسن البصري : اتَّقَوْا ما حُرِّم عليهم ، وأدَّوْا ما افتُرِض عليهم . . ثم بينَّ سبحانه وتعالى صفات هؤلاء المتقين فقال : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٢٧ .

البعث ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والحساب ، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ **ويقيمــون الصــلاة** ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها ، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس : إقامتُها : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[1] ﴿ **ومما رزقناهم ينفقــون** ﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان ، والآية عامة تشمل الزكاة ، والصدقة ، وسائر النفقات ، وهذا اختيار ابن جرير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال ، قال ابن كثير : كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، لأن الصلاة حقٌّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه ، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد ، فكلٌّ من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[2] ﴿ **والذين يؤمنـون بما أُنزِلَ إليك** ﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿ **وما أُنزل من قبلك** ﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك ، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿ **وبالآخِرة هم يوقنون** ﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا ، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ ، وجنةٍ ، ونار ، وحساب ، وميزان ، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿ **أولـئك على هدى من ربهم** ﴾ أي أولئـك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة ، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿ **وأولـئك هم المفلحــون** ﴾ أي أولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾

﴿ **إنَّ الذين كفروا** ﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿ **سواءٌ عليهم** ﴾ أي يتساوى عندهم ﴿ **أأنْذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ** ﴾ أي سواءٌ أَحذَّرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به ، فلا تطمع في

---

(١) اقتبسنا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠

إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي هذا تسلية النبي ﷺ عن تكذيب قومه له . . ثم بينَّ تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور ، ولا يُشرق فيها إيمان قال المفسرون : الخَتمُ التغطيةُ والطبعُ ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها ، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾[١] ﴿ **وَعَلى سَمْعِهِم وَعَلى أَبْصَارِهِم غِشَاوَة** ﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون ، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطَّاة بحجب كثيفة ، لذلك يرون الحقَّ فلا يتبعونه ، ويسمعون فلا يعونه **قال أبو حيان** : شبَّه تعالى قلوبهم لتأليبها على الحقِّ ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، وذلك لأنها كانت ـ مع صحتها وقوة إدراكها ـ ممنوعة عن قبول الخير وسماعه ، وتلمح نوره ، وهذا بطريق الاستعارة[٢] ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم** ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديدٌ لا ينقطع ، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله . ﴿ **ومن النَّاس من يقولُ آمنَّا بالله** ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم صدَّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿ **وباليوم الآخر** ﴾ أي وصدَّقنا بالبعث والنشور ﴿ **وما هم بمؤمنين** ﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين ، لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد ، وكلاماً دون تصديق . قال البيضاوي : هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ، لأنهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً ، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم ، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم ، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان ، وضرب لهم الأمثال[٣] ﴿ **يُخَادِعُونَ الله والَّذين آمنوا** ﴾ أي يعملون عمل المخادِع بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر ، يعتقدون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، وما علموا أن الله لا يُخْدع لأنه لا تخفى عليه خافية . قال ابن كثير : النفاق هو إظهار الخير ، وإسرارُ الشر وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار ، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه ، وسرُّه علانيته ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[٤] ﴿ **وما يخدعون إلَّا أنفسهم** ﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلَّا أنفسهم لأن وبال فعله راجع عليهم ﴿ **وما يشعرون** ﴾ أي ولا يُحِسُّون بذلك ولا يفطنون إليه ، لتمادي غفلتهم ، وتكامل حماقتهم

(١) انظر ما كتبه العلاَّمة ابن كثير حول معنى الختم ، ففيه تحقيق وتفصيل جميل .
(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/٥١ . (٣) تفسير البيضاوي ١/١١ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٣ .

﴿ في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرَضاً ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم ، وضلالاً فوق ضلالهم ، والجملةُ دعائية . قال ابن أسلم : هذا مرضٌ في الدين ، وليس مرضاً في الجسد ، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكاً[١] ﴿ ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون ﴾ أي ولهم عذابٌ مؤلِم بسبب كذبهم في دعوة الإيمان ، واستهزائهم بآيات الرحمن . . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم ، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴾ أي وإذا قال لهم بعض المؤمنين : لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن ، والكفر والصَدَّ عن سبيل الله . قال ابن مسعود : الفسادُ في الأرض هو الكفرُ ، والعملُ بالمعصية ، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿ قالوا إنما نحنُ مصلحون ﴾ أي ليس شأننا الإفساد أبداً ، وإنما نحن أناسٌ مصلحون ، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك . قال البيضاوي : تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم ﴿ أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً ﴾ .

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

ولذلك ردَّ الله عليهم أبلغ ردٍّ بتصدير الجملة بِحَرْفَيْ التأكيد ﴿ ألاَ ﴾ المنبهة و ﴿ إنَّ ﴾ المقررة ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل ، والاستدراك بعدم الشعور[٢] فقال ﴿ ألاَ إنهم هم المفسدون ولكنْ لا يشعرون ﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيها الناس ، إنهم هم المفسدون حقاًلا غيرهم ، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسُّون ، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم . ﴿ وَإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَاسُ ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين : آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء ، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال « صهيب ، وعمار ، وبلال » ناقصي العقل والتفكير؟! قال البيضاوي : وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم ، أو لتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال[٣] .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣ . (٢) البيضاوي ١/ ١٢ . (٣) البيضاوي ١/ ١٢ .

﴿ **أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُون** ﴾ أي أَلاَ إنهم هم السفهاء حقاً ، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهاً بلا امتراء ، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . أَكَّدَ وَنَبَّه وَحَصَر السفاهة فيهم ، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا** ﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة ﴿ **وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ** ﴾ أي وَإِذَا انفردُوا وَرَجَعُوا إلَى رؤسائهم وكبرائهم ، أهلِ الضلالِ والنفاق ﴿ **قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِءُون** ﴾أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ، وإنما نستهزىء بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ **اللهُ يَسْتَهزِىءُ بِهِمْ** ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال ، **قَال ابن عبَّاس** : يسخر بهم للنقمة منهم وَيُملي لهم كقوله : ﴿ **وأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِين** ﴾ **قال ابن كثير** : هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه ، فاللفظ متفق والمعنى مختلف ، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿ وَجَزَاء سيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثْلُهَا ﴾ ومثل ﴿ فَمَن اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ فالأول ظلم والثاني عدل ﴿ **وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون** ﴾ أي ويزيدهم - بطريق الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويتردّدون حيارى ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى** ﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهُدَى ﴿ **فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ** ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه المعاوضةِ والبيع ﴿ **وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين** ﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك ، لأنهم خسروا سعادة الدارين .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾
صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ
فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ
لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

ثم ضرب تعالى مثلين وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة فقَالَ ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً** ﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضيء ، فما اتقدت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامس وخوفٍ شديد ﴿ **فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأَمِنَ ، واستأنس بتلك النَّار

المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية ، فتلاشت النَّار وعُدِم النور ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يَبْصِرُون ﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون **قال ابن كثير** : ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله . . فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضَّلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغيَّ على الرشد ، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة(١) ﴿ صُمٌ ﴾ أي هم كالصُمِّ لا يسمعون خيراً ﴿ بُكْمٌ ﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿ عُمْيٌ ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُون ﴾ أي لا يرجعون عمَّـا هم فيه من الغي والضلال ، ثم ثنَّى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادةً في الكشف والإيضاح فقال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمـاءِ ﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قومٍ أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء ، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ﴿ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية ، ورعد قاصف ، وبرقٌ خاطف ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِين ﴾ جملة اعتراضيةأي والله تعالى محيط بهم بقدرته ، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه ، كما لا يفوتُ من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي يقارب البرقُ لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ أي وأذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم . . وفي هذا تصويرٌ لما هم فيه من غاية التحير والجهل ، فإذا صادفوا من البرق لمعه ـ مع خوفهم أن يخطف أبصارهم ـ انتهزوها فرصة فَخَطَوْا خطوات يسيرة ، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة ﴿ وَلَوْ شَـاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ ﴾ أي لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم ، وفي ضوء البرقِ فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء ، لا يعجزه أحدٌ في الأرض ولا في السماء ، **قال ابن جرير** : إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر(٢) .

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٦ .
(٢) تفسير الطبري ١/٧٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾
وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى منبهاً العبادَ إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿ **يَأَيُّهَا النَّـاسُ اعبدوا ربّكم** ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نِعَم الله الجليلة عليكم ، واعبدوا الله ربكم الذي ربَّاكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، اعبدوه بتوحيده ، وشكره ، وطاعته ﴿ **الَّذِي خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم ، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون** ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين ، الفائزين بالهدى والفلاح **قال البيضاوي** : لما عدَّد تعالى فِرَق المكلفين ، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات ، هزاً للسامع ، وتنشيطاً له ، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيمًا لشأنها ، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿ **يَأَيُّها** ﴾ لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد ، وكلُّ ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن ينادى له بالآكد الأبلغ[1] ، ثم عدَّد تعالى نِعَمه عليهم فقال : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً** ﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً ، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها ، وإلّا لما أمكنكم العيش والاستقرار عليها **قال البيضاوي** : جعلها مهيَّأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط ، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة لأنَّ كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[2] ﴿ **والسماء بناءً** ﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿ **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَـاءِ مَاءً** ﴾ أي مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿ **فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ** ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿ **فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون** ﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة ، وأنتم تعلمون أنها لا تَخْلُق شيئاً ولاَ تَرْزق ، وَأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده ، ذو القوة المتين **قال ابن كثير** : شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم ،

(١) البيضـاوي ١/١٦ .
(٢) البيضاوي ١/١٦ رأي البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور روَّادُ الفضاء حولها في هذا العصر .

وإسباغه عليهم النِّعَم ، والمرادُ بالسَّماء هنا السحاب ، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم ، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره[١] .

ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة ، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا** ﴾ أي وإذا كنتم أيها الناسُ في شك وارتياب من صدق هذا القرآن ، المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه ، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ** ﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن ، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿ **وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللهِ** ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه ، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى ، **قال البيضاوي** : المعنى أُدعو للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنِّكم وآلهتكم غيرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالى ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلاَّ الله[٢] ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر ، وجوابُه محذوف دلَّ عليه ما قبله ﴿ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا** ﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورةٍ من سوره ، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿ **وَلَنْ تَفْعَلُوا** ﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله ، والجملةُ اعتراضيةٌ للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله ﴿ **لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهم لبعضٍ ظَهِيرا** ﴾ أي معيناً **قال ابن كثير** : تحدَّاهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا ، و ﴿ **لن** ﴾ لنفي التأبيد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، غير خائفٍ ولا مشفق أنَّ هذا القرآن لا يُعارضُ بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ومن تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيثُ اللفظ ومن حيثُ المعنى ، والقرآنُ جميعه فصيحٌ في غاية الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب ، ويفهم تصاريف الكلام[٣] ﴿ **فَاتَّقُوا النَّـــارَ** ﴾ أي فخافوا عذاب الله ، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿ **الَّتِي وَقُودُهَا النَّـاسُ والحِجَارَةُ** ﴾ أي اتقوا النَّار التي مادتُها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله تعالى ﴿ **إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّم** ﴾ **قال مجاهد** : حجارةٌ من كبريت أنتنُ من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين** ﴾ أي هُيِّئت تلك النَّارُ وأُرصدت للكافرين الجاحدين ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين .

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٨ . (٢) البيضاوي ١/١٧ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٤١ .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

ثم لما ذكر ما أعدَّه لأعدائه ، عطف عليه بذكر ما أعدَّه لأوليائه ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال ﴿ **وبشر الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُو الصَّالِحَات** ﴾ أي وَبَشِّرْ يا محمد المؤمنين المتقين ، الذين كانوا في الدنيا محسنين ، والذين جمعوا بين الإِيمان والعمل الصالح ﴿ **أَنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَار** ﴾ أي بأن لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن ، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة[١] ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً** ﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورُزقُوا رزقاً من ثمار الجنة ﴿ **قالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قبلُ** ﴾ أي هذا مثل الطعام الذي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة **قال المفسرون** : إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها ، تأتيهم به الملائكة ، فإذا قُدِّم لهم مرةً ثانية قالوا : هذا الذي أتيتمونا به من قبل فتقول الملائكة : كلْ يا عبد الله فاللون واحدٌ والطَّعم مختلف[٢] قال تعالى ﴿ **وَأُتوا بِهِ مُتَشَابِهاً** ﴾ أي متشابهاً في الشكل والمنظر ، لا في الطعم والمَخْبر **قال ابن جرير** : يعني في اللون والمرأى وليس يشبه في الطعم **قال ابن عباس** : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلاَّ في الأسماء ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَة** ﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية **قال ابن عبَّاس** : مطهَّرة من القذر والأذى ، **وقال ابن مجاهد** : مطهَّرة من الحيض والنفاس ، والغائط والبول والنخام ، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال الله تعالى ﴿ **إنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً** ﴾ ﴿ **وَهُمْ فيهَا خَالِدُون** ﴾ أي دائمون ، وهذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع . يقول تعالى في الرَّد على مزاعم اليهود والمنافقين ﴿ **إنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِيَ أن يَضْرِبَ مَثَلاً مَا** ﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيَّ مثلٍ كان ، بأي شيءٍ كان ، صغيراً كان أو كبيراً ﴿ **بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أُخدود .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله ﴿ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبل ﴾ أي في الدنيا ، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عبَّاس وغيره أن هذا في الجنَّة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلَّا الأسماء .

في الحقارة والصغر . فكما لا يستكنف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمنوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقّ مِن رَبّهم** ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن هذا المثل من عند الله ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾ ؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون : ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ قال تعالى في الرَّد عليهم ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً** ﴾ أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به ، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به ، فيزيد أولئك ضلالة ، وهؤلاء هدىً ﴿ **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِين** ﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلاَّ الخارجين عن طاعة الله ، الجاحدين بآياته .

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

ثم عدَّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال ﴿ **الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِه** ﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية ، من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم ، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله ، والتصديق بالرسل ، والعمل بالشرائع ﴿ **وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَل** ﴾ من صلة الأرحام والقرابات ، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء ، وقطع الأرحام ، وترك موالاة المؤمنين ﴿ **وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْض** ﴾ بالمعاصي ، والفتن ، والمنع عن الإيمان ، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿ **أولئِكَ هُم الخَاسِرُون** ﴾ أي أولئك المذكورون ، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فصاروا إلى النَّار المؤبدة ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ** ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى : كيف تجحدون بالخالق ، وتنكرون الصانع ﴿ **وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً** ﴾ أي وقد كنتم في العدم نُطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿ **فَأَحْيَاكُمْ** ﴾ أي أخرجكم إلى الدُّنيا ﴿ **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** ﴾ عند انقضاء الآجال ﴿ **ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** ﴾ بالبعث من القبور ﴿ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون** ﴾ للحساب والجزاء يوم النشور . ثم ذكر تعالى برهاناً على البعث فقال ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله

هو الخالق الرازق ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ ﴾ أي ثم وجَّه إرادته إلى السماء ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوات ﴾ أي صيَّرهن وقضاهن سبع سمٰوات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذرأ ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك ـ وهي أعظم منكم ـ قادر على إعادتكم ؟ بلى إنه على كل شيءٍ قدير . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَة ﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا ﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام : كيف تستخلف هؤلاء ، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَـاء ﴾ أي يريق الدِّماء بالبغي والاعتداء !! ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكْ ﴾ أي نعظِّم أمرك ونطهّر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون ﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفيَ عليكم ، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها .

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾
قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم
بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ وَعَلَّمَ آدم الأسماءَ كُلَّهَا ﴾ أي أسماء المسميات كلها ، قال ابن عبَّاس : علَّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلاَئِكَةِ ﴾ أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبكيت ﴿ فَقَالَ انْبِئُونِي ﴾ أي أخبروني ﴿ بِأَسْمَـاءِ هٰؤُلاَءِ ﴾ أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها ﴿ إِن كُنْتُم صَـادِقِين ﴾ أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته ، والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة ، وخصَّه بالمعرفة التَّامة دونهم ، من معرفة الأسماء والأشياء ، والأجناس ، واللغات ، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور ﴿ قَالُوا سُبحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ أي ننزهك يا ألله عن النقص ونحن لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إيَّـاه ﴿ إِنَّـكَ أَنْتَ العَلِيم ﴾ أي الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ الحَكِيم ﴾ الذي لا يفعل إلاَّ ما تقتضيه الحكمة ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِم ﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم ﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء ،

وسمَّى كل شيء باسمه ، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السمٰوات والأرض ﴾ أي قال تعالى للملائكة : ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أي ما تظهرون ﴿ وَمَا كُنْتُم تَكْتُمُون ﴾ أي تسرون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم . روي أنه تعالى لما خلق آدم عليه السَّلام رأت الملائكة فطرته العجيبة ، وقالوا : ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلاَّ كنَّا أكرم عليه منه[1] . ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿ آسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ أي سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ أي سجدوا جميعاً له غير إبليس ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِين ﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم .

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ وَقُلْنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّـةَ ﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا ﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أي من أي مكان في الجنَّة أردتما الأكل فيه ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة ، قال ابن عبّاس : هي الكرمـة ﴿ فتكُونَا مِنَ الظَّالِمِين ﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أي أوقعهما في الزلَّة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة ، أمَّا إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوَّلهما من الجنة[2] ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من نعيم الجنَّة ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي الشيطان عدو لكم فكونوا أعداء له كقوله ﴿ إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدواً ﴾ ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسّرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسنا ﴾ الآيـة ﴿ فَتـابَ عَلَيْهِ ﴾ أي قبل ربه توبته ﴿ إِنَّهُ هُوَ

(١) مختصر ابن كثير جـ١ ص٥٢ ، وأبو السعود جـ١ ص٦٩ .
(٢) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين والأول اختيار الطبري .

﴿ التَّوابُ الرَّحِيمُ ﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة ، واسع الرحمة للعباد ﴿ قُلْنا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً ﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنَّ إقامة آدم وذريَّته في الأرض لا في الجنَّة(١) ﴿ فإمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدًى ﴾ أي رسول أبعثه لكم ، وكتاب أنزله عليكم ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ ﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا ﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُون ﴾ أي هم مخلدون في الجحيم أعاذنا الله منها . ﴿ يا بَني إِسْرائِيلَ ﴾ أي يا أولاد النبي الصَّالح يعقوب ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم ﴾ اذكروا ما أنعمت عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿ وأوفوا بعهدي ﴾ أي أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿ أوف بعهدكم ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿ وَإيَّايَ فارهبون ﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ من القرآن العظيم ﴿ مصدقاً لما معكم ﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوَّة ﴿ ولا تكونوا أوَّل كافرٍ به ﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿ وإياي فاتقون ﴾ أي خافونِ دون غيري ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه ، ولا تحرِّفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿ وتكتموا الحق ﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه السَّـلام ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿ وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ أي أدُّوا ما وجب عليكم من الصَّلاة والزَّكاة ، وصلُّوا مع المصلين بالجماعة ، أو مع أصحاب محمد عليه السلام .

۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ

(١) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين والأول اختيار الطبري .

ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ﴾ أي أتدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ﴿ وتنسـون أنفسكم ﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلوا الخير ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ أي حال كونكم تقرءون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه السَّلام ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه ؟! ثم بينَّ لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات ، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال ﴿ واستعينوا ﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿ بالصبر والصَّـلاة ﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية ، وبالصَّلاة التي هي عماد الدين ﴿ وإنها ﴾ أي الصَّلاة ﴿ لكبيرة ﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿ إلاّ على الخاشعين ﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿ الذين يظنون ﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿ أنهم ملاقوا ربهم ﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿ وأنهم إليه راجعون ﴾ أي معادهم إليه يوم الدين . ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرَّة أخرى فقال ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿ وأني فضَّلتكم ﴾ أي فضَّلت آباءكم ﴿ على العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعلهم سادة وملوكاً ، وتفضيل الآباء شرفٌ للأبناء ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ﴾ أي خافوا ذلك اليوم الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله .

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ وإذْ نجينـاكُم ﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿ من آل فرعون ﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة ، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن

النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿ **يذبحون أبناءكم** ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿ **ويستحيون نساءكم** ﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء ، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر ﴿ **وإذ فَرَقْنَا بكم البحر** ﴾ أي اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿ **فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون** ﴾ أي نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿ **وأنتم تنظرون** ﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة** ﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ **ثم اتخذتم العجل** ﴾ أي عبدتم العجل ﴿ **من بعـده** ﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربِّه ﴿ **وأنتم ظالمون** ﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ أي من بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿ **وإذْ آتينا موسى الكتاب والفرقان** ﴾ أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿ **لعلَّكم تهتدون** ﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ثم بَيَّنَ تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله ﴿ **وإذْ قَالَ مُوسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم** ﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿ **باتخاذكم العجل** ﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم** ﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئاً من العيب والنقصان ﴿ **فاقتلوا أنفسكم** ﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ **ذٰلكم** ﴾ أي القتل ﴿ **خير لكم عند بارئكم** ﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿ **فتاب عليكم** ﴾ أي قبل توبتكم ﴿ **إنَّه هو التواب الرحيم** ﴾ أي عظيم المغفرة وواسع التوبة . ﴿ **وإذْ قلتم يا موسى** ﴾ أي اذكروا يا بني

إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿ **لن نُؤْمِنَ لَكَ** ﴾ أي لن نصدّق لك بأنَّ ما نسمعه كلام الله ﴿ **حتى نرى الله جهرة** ﴾ أي حتى نرى الله علانية ﴿ **فأخذتكم الصَّاعقة** ﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم ﴿ **وأنتم تنظرون** ﴾ أي ما حلَّ بكم ثم لمّا ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم ، قال تعالى ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم** ﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة ، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت . ثم ذكَّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى ﴿ **إذهب أنت وربك فقاتلا** ﴾ فعُوقِبُوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى : ﴿ **وظلّلنا عليكم الغمام** ﴾ أي ستَرناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظُلَّة ﴿ **وأنزلنا عليكم المنَّ والسَّلوى** ﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواعٍ من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب ، والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه[1] ، والسلوى : طير يشبه السماني لذيذ الطَّعم[2] ﴿ **كُلُوا من طيبات ما رزقناكُم** ﴾ أي وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿ **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي أنهم كفروا هذه النعم الجليلة ، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم ، لأن وبال العصيان راجع عليهم .

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

﴿ **وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية** ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه ، ادخلوا بيت المقدس ﴿ **فكلوا منها حيث شئتم رغداً** ﴾ **أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً** ﴿ **وادْخُلوا الباب سُجَّداً** ﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه ﴿ **وقولوا حِطَّة** ﴾ أي قولوا ياربنا حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿ **نغفر لكم خطاياكم** ﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفِّر سيئاتكم ﴿ **وسنزيد المحسنين** ﴾ أي نزيد من أحسن إحساناً ، بالثواب العظيم ، والأجر الجزيل ﴿ **فبدَّل الَّذين ظلموا** ﴾ أي غيَّر الظالمون أمر الله فقالوا ﴿ **قولاً**

(١) هو قول الربيع بن أنس . (٢) قول جمهور المفسرين .

غير الذي قيل لهم ﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني « أدبارهم » وقالوا على سبيل الاستهزاء : « حبة في شعيرة » وسخروا من أوامر الله ﴿ **فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزاً من السَّماء** ﴾ أي أنزلنا عليهم طاعوناً وبلاءً ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً . ﴿ **وَإذِ اسْتسقى موسى لقومه** ﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿ **فقلنا اضرب بعصاك الحجر** ﴾ أي اضرب أي حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿ **فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾ أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة ، وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم ﴿ **قد عَلم كلُّ أُناسٍ مشربهم** ﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿ **كلوا واشربوا من رزق الله** ﴾ أي قلنا لهم : كلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير كدٍّ منكم ولا تعب ، بل هو من خالص إنعام الله ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿ **وَإذْ قُلْتم يا موسى** ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيّكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المنِّ والسلوى ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ أي على نوع واحدٍ من الطعام وهو المنُّ والسلوى ﴿ **فادع لنا ربَّك يخرج لنا مما تُنْبِت الأرض** ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المنَّ والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿ **من بقلها** ﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث ﴿ **وقثائها** ﴾ يعني القثّة التي تشبه الخيار ﴿ **وفومهـا** ﴾ أي الثوم ﴿ **وعدسها وبصلها** ﴾ أي العدس والبصل المعروفان ﴿ **قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير** ﴾ أي قال لهم موسى منكراً عليهم : ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس ! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المنّ والسلوى ؟ ﴿ **اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم** ﴾ أي ادخلوا مصراً من الأمصار وبلداً من البلدان أيًّا كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء . . ثم قال تعالى منبهاً على ضلالتهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة** ﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى

الحياة ﴿ وَبَاءوا بغضب من الله ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿ ذلك ﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً ، وقتلهم رسل الله ظلمًا وعدواناً ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم عَلى أحكام الله .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

ثُمَّ دعا تعالى أصحاب الملل والنحل « المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والصابئين » إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال : ﴿ إنَّ الذين آمنوا ﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿ والذين هادوا ﴾ اليهود أتباع موسى ﴿ والنصـارى ﴾ أتباع عيسى ﴿ والصابئين ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدَّق الله ، وأيقن بالآخرة وعمل صالحاً أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرَّة ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة ، حين يخاف الكفار من العقاب ، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب . ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم ﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التَّوراة ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجدٍّ وعزيمة ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أي أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿ فلولا فضل الله عليكم ﴾ أي بقبول التوبة ﴿ ورحمتـه ﴾ بالعفو عن الزّلة ﴿ لكنتم من الخاسرين ﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلة والإهانة .

فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن
تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

﴿ **فجعلناها** ﴾ أي المسخة ﴿ **نكالاً لما بين يديها** ﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿ **وما خلفها** ﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها ، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿ **وموعظة للمتقين** ﴾ أي عظةً وذكرى لكل عبدٍ صالحٍ متَّقٍ لله سبحانه وتعالى . ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسى لقومه إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿ **قَالُوا أَتتخذنا هُزواً** ﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم : أتهزأ بنا يا موسى ﴿ **قال أَعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ أي ألتجىء إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿ **قالوا ادْع لنا ربَّك يُبيِّنْ لَنا ما هي** ﴾ أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها ؟ ﴿ **قَالَ إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر** ﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿ **عوانٌ بين ذلك** ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿ **فافعلوا ما تؤمرون** ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم ﴿ **قَالُوا ادْع لنا ربَّك يبين ما لونها** ﴾ أي ما هو لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك ؟ ﴿ **قَالَ إنَّه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر النَّاظرين** ﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، حسن منظرها تسر كل من رآها .

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ **قَالُوا ادْع لَناَ ربَّكَ يبيِّنْ لَنا ما هي** ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها ، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثير ﴿ **إنَّ البقر تشابه علينا** ﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿ **وَإنَّا إن شاء الله لمهتدون** ﴾ أي سنهتدي لمعرفتها إن شاء الله ، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ﴿ **قَالَ إنَّه يقول إنها بقرة لَا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث** ﴾ أي ليست هذه البقرة

مسخرة لحراثة الأرض ، ولا لسقاية الزرع ﴿ **مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا** ﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾ أي الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس ، قال تعالى إخباراً عنهم ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة ، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة ، فقال ﴿ **وإذْ قَتَلْتم نفساً** ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿ **فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا** ﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها ، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿ **والله مخرج ما كنتم تكتمون** ﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿ **كذلك يحي الله الموتى** ﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحي الموتى من قبورهم ﴿ **ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال ﴿ **ثم قست قلوبكم** ﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿ **فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿ **وإنّ من الحجارةِ لما يتفجر منه الأنهار** ﴾ أي تتدفق منه الأنهار الغزيرة ﴿ **وإنَّ منها لما يشّقق فيخرج منه الماء** ﴾ أي من الحجارة ما يتصدَّع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿ **وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ أي ومنها ما يتفتت ويتردّى من رءوس الجبال من خشية الله ، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ أي أنَّه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية ، وسيجازيهم عليها يوم القيامة ، وفي هذا وعيد وتهديد . يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم** ﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله** ﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً ﴿ **ثم يحرفونه من بعد**

ما عقلوه ﴾ أي يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل ، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أنهم يرتكبون جريمة أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطإٍ أو نسيان ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا** ﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق ، وأن محمداً هو الرسول المبشَّر به ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض** ﴾ أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ﴿ **قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم** ﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بينَّ الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿ **ليحاجوكم به عند** ربكم ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتِّباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ ؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم .

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

قال تعالى رداً عليهم وتوبيخاً ﴿ **أَوَلاَ يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون ، وأنَّه تعالى لا تخفى عليه خافية ، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان !! ولما ذكر العلماء الذين حرَّفوا وبدَّلوا ، ذكر العوام الذين قلَّدوهم ونبَّه أنهم في الضلال سواء فقال : ﴿ **ومنهم أُمِّيُون لاَ يَعلمون** الكتاب ﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوامّ ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿ **إلاَّ أَمَانِيَّ** ﴾ أي إلَّا **ما** هم عليه من الأماني التي منَّاهم بها أحبارهم ، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ، وأن النَّار لن تمسهم إلاَّ أياماً معدودة ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿ **وإن هم إلاَّ يظنون**﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم ، بل هم مقلِّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء . ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلِّين ، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم** ﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرَّفوا التوراة ، وكتبوا تلك الآيات المحرَّفة بأيديهم ﴿ **ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾ أي يقولون لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السَّلام ، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله

كذباً وزوراً ﴿ ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ أي لينالوا به عرض الدُّنيا وحطامها الفاني ﴿ **فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿ **وويل لهم مما يكسبون** ﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿ **وقالوا لن تمسنا النَّار إلاَّ أياماً معدودة** ﴾ أي لن ندخل النَّار إلاَّ أياماً قلائل ، هي مدة عبادة العجل ، أو سبعة أيام فقط ﴿ **قل اتخذتم عند الله عهداً** ﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ : هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك ؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿ **فلن يخلف الله وعده** ﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿ **أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله ، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله ، والكذب والبهتان عليه جَلَّ وَعَلَا .

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

ثم بينَّ تعالى كذب اليهود ، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال : ﴿ **بلى من كسب سيئة** ﴾ أي بلى تمسكم النَّار وتخلدون فيها ، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر ، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿ **وأحاطت به خطيئته** ﴾ أي غمرته من جميع جوانبه ، وسدَّت عليه مسالك النجاة ، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿ **فأولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون** ﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان ، والعمل الصالح فلا تمسهم النار ، بل هم في روضات الجنات يحبرون ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً ، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الرَّاحمين . ﴿ **وإذْ أخذنا ميثاق بني اسرائيل** ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿ **لا تعبدون إلاَّ الله** ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿ **وبالوالدين إحساناً** ﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ﴿ **وذي القربى واليتامى والمساكين** ﴾ أي وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء ، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿ **وقولوا للنَّاس حُسْناً** ﴾ أي قولاً حسناً بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطَّيب ﴿ **وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة** ﴾ أي صلّوا وزكّوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين « الصلاة ، والزكاة » لأنهما أعظم العبادات البدنية

والمالية ﴿ **ثم توليتم إلاَّ قليلاً منكم وأنتم معرضون** ﴾ أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً ، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلاَّ قليلاً منكم ثبتوا عليه .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم** ﴾ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ **ولا تخرجون أنفسكم من دياركم** ﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الدِّيار ، والإجلاء عن الأوطان ﴿ **ثم أقررتم وأنتم تشهدون** ﴾ أي ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ **ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم** ﴾ أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به ، فقتلتم إخوانكم في الدين ، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل ﴿ **وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم** ﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفاتٍ إلى العهد الوثيق ﴿ **تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان** ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿ **وإن يأتوكم أسارى تفادوهم** ﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿ **وهو محرم عليكم إخراجهم** ﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم ؟ ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ ؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض ؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان ، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقَّب تعالى على ذلك بقوله : ﴿ **فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاَّ خزي في الحياة الدنيا** ﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلاَّ ذلٌ وهوان ، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿ **ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب** ﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشدّ منه ، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ
بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿ **فلا يخفف عنهم العذاب** ﴾ أي لا يُفترَّ عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿ **وَلاَ هُـمْ ينصرون** ﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم ، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم . ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي أعطينا موسى التَّوراة ﴿ **وقفينا من بعده بالرسل** ﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿ **وءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبن مَرْيَمَ البَيْنَاتِ** ﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدَّالة على نبوته ﴿ **وأيدناه بروح القدس** ﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوىٰ أنفسكم** ﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿ **استكبرتم ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون** ﴾ أي تكبرتم عن اتِّباعه فطائفة منهم كذَّبتموهم ، وطائفة قتلتموهم . . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبينَّ ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿ **وقالوا قلوبنا غلف** ﴾ أي في أكنّة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد ، والغرض إقناطه عليه السَّلام من إيمانهم ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ **بل لعنهم الله بكفرهم** ﴾ **أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم** ﴿ **فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ أي فقليلٌ من يؤمن منهم ، أو يؤمنون إيماناً قليلاً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا
أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّقٌ لما معهم** ﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين ، مصدِّقاً لما في التوراة ﴿ **وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون : الَّلهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان ، الذي نجد نعته في التَّوراة ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿ **فلعنة الله على الكافرين** ﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم** ﴾ أي بئس الشيء التَّافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم ﴿ **أن يكفروابما أنزل الله** ﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزل الله ﴿ **بغياً** ﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ﴿ **أن ينزِّل الله من فضله على من يشاء من عباده** ﴾ أي حسداً منهم لأجل أن ينزّل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿ **فباءوا بغضب على غضب** ﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقوبلوا بالإهانة والصغار ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله** ﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدّقوه واتبعوه ﴿ **قالوا نؤمن بما أُنزل علينا** ﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿ **ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم** ﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله ﴿ **قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التَّوراة صحيحاً فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلاً مؤمنين ؟

* وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ
إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات** ﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ **ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور ، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع . ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ أي بعزمٍ وحزمٍ وإلاَّ طرحنا الجبل فوقكم ﴿ **واسمعـوا** ﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿ **قالوا سمعنا وعصينا** ﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك ﴿ **وَأُشْرِبُوا في قلوبهم العجل** ﴾ أي خالط حبُّه قلوبهم ، وتغلغل في

سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم ، كما يدخل الصبغُ في الثوب ، والماء في البدن ﴿ **بكفرهم** ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿ **قل بئسما يأمركم به إيمانكم** ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى : لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿ **قل إن كانت لكم الدّار الآخرة عند الله خالصة من دون النّاس** ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿ **فتمنوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة ، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة . ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى رادّاً عليهم تلك الدعوى الكاذبة ﴿ **ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم** ﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك .

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

﴿ ولتجدنهم أحرص النّاس على حياة ومن الذين أشركوا ﴾ أي ولتجدنَّ اليهود أشدَّ النّاس حرصاً على الحياة ، وأحرص من المشركين أنفسهم ، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿ **يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** ﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة ﴿ **وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّرَ** ﴾ أي وما طول العمر ـ مهما عمر ـ بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ أي مطّلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل** ﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله ، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿ **فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله** ﴾ أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿ **مصدِّقاً لما بين يديه** ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿ **وهدًى وبشرى للمؤمنين** ﴾ أي وفيه الهداية الكاملة ، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿ **من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال** ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله ، وعادى على الوجه الأخص « جبريل وميكائيل » فهو كافر عدو لله ﴿ **فإنَّ الله عدو للكافرين** ﴾ لأن

الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه ، ومن عاداهم عاداه الله ، ففيه الوعيد والتهديد الشديد .
﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات** ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا **محمد** آيات واضحات دالّات على نبوتك ﴿ **وما يكفر بها إلاّ الفاسقون** ﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلاّ الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر .

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم** ﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلّما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم ؟ ﴿ **بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿ **ولما جاءهم** رسول من **عند الله** ﴾ وهو **محمد** ﷺ ﴿ **مُصَدِّقٌ لما معهُم** ﴾ أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿ **نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم** ﴾ أي طرح أحبارهم وعلماؤ هم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة **محمد** ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿ **كأنهم لا يعلمون** ﴾ أي كأنهم لا **يعلمون** من دلائل نبوته شيئاً .

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان** ﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿ وما **كفر سليمان** ﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون النّاس السحر** ﴾ أي ولكنّ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين النّاس ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** ﴾ أي وكما اتبع رؤ ساء اليهود السحر كذلك اتبعوا **ما** أنزل على المَلَكَيْن وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة ، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿ **وما يعلمان** من **أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ أي إن المَلَكَيْن لا يعلمان أحداً من النّاس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نصفه لك إنمّا هو امتحان من الله وابتلاء ، فلا تستعمله

للإضرار ولا تكفر بسببه ، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا ، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل . . قال تعالى ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿ **وما هم بضارين بِهِ من أحد إلاَّ بإذن الله** ﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحدًا إلاَّ إذا شاء الله ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر ، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك .

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا** ﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿ **لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر ، الذي لا يعود عليهم إلاَّ بالويل والخسار والدمار . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿ **لاَ تقولوا راعنا** ﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿ **وقولوا آنظُرْنَا** ﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿ **واسمعوا** ﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه ، عذاب أليم موجع ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم** ﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيء من الخير ، بغضاً فيكم وحسداً لكم ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء** ﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى رداً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها** ﴾ أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر أو **ننسها** يا محمد أي نمحها من قلبك ﴿ **نأت بخيرٍ منها أو مثلها** ﴾ أي نأت بخير لكم **منها** أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل ،

برفع المشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿ **ألم تعلم أن الله على كل شيءٍ قدير** ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلَّا كل خير وإحسان للعباد !

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟
رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ
يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

﴿ **ألم تعلم أنَّ الله له ملك السَّمٰوات والأرض** ﴾ أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء ؟ ﴿ **وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير** ﴾ أي ما لكم وَلِيٌّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل** ﴾ أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم ﴿ **أرنا الله جهرة** ﴾ فتضلوا كما ضلوا ﴿ **ومن يتبدل الكفر بالإيمان** ﴾ أي يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان ﴿ **فقد ضلَّ سواء السبيل** ﴾ أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي ﴿ **ودَّ كثير من أهل الكتاب** ﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى ﴿ **لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً** ﴾ أي لو يصيِّرونكم كفاراً بعد أن آمنتم ﴿ **حسداً من عند أنفسهم** ﴾ أي حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ﴿ **من بعد ما تبينَّ لهم الحق** ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق ﴿ **فاعفوا واصفحوا** ﴾ أي اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم ﴿ **حتى يأتي الله بأمره** ﴾ أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم ﴿ **إنَّ الله على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾
وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾
بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ
لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ **وأقيموا الصَّــلاة وآتوا الزَّكــاة** ﴾ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما « الصَّلاة والزَّكاة » وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴿ **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله** ﴾ أي ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين . ﴿ **وَقالُوا لن يدخل الجنَّــة إلاَّ من كان هُوداً أو نصارى** ﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلاَّ من كان يهودياً ، وقال النصارى لن يدخل الجنَّــة إلاَّ من كان نصرانياً ﴿ **تلك أَمَانِيُّهُم** ﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ أي قل لهم يا محمد أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله** ﴾ أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله ﴿ **وهو محسن** ﴾ أي وهو مؤمن مصدقٌ متبعٌ لرسول الله ﷺ ﴿ **فله أجره عند ربِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عليهم وَلاَ هُمْ يحزنون** ﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعتريهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء** ﴾ أي كفر اليهود بعيسى ، وقالوا ليس النصارى على دين صحيح معتدٍّ به فدينهم باطل ﴿ **وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿ **وهم يتلون الكتاب** ﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علمٍ ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم** ﴾ أي كذلك قال مشركوا العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا : ليس محمد على شيء ﴿ **فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ
لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه** ﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله ، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس ، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش ﴿ **أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاَّ خائفين** ﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلاَّ وهُم في خشية وخضوع

فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿ **لهم في الدنيا خزي** ﴾ أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا ﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ وهو عذاب النَّار . ﴿ **ولله المشرق والمغرب** ﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿ **فأينما تُوَلُّوا فثم وجه الله** ﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم ، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة ﴿ **إنَّ الله واسع عليم** ﴾ أي يسع الخلق بالجود والإفضال ، عليم بتدبير شئونهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم . ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً** ﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في دعواهم فقال ﴿ **سبحانه** ﴾ أي تقدَّس وتنزَّه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿ **بل له ما في السَّمٰوات والأرض** ﴾ بل للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿ **كلٌّ له قانتون** ﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿ **بديع السَّمٰوات والأرض** ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿ **وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر ، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿ **وما أمرنا إلاَّ واحدةٌ كلمح بالبصر** ﴾ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ
قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن
تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

﴿ **وقال الذين لا يعلمون** ﴾ المراد بهم جهلة المشركين وهم كفار قريش ﴿ **لولا يكلمنا الله** ﴾ أي هلاَّ يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿ **أَوْ تَأْتِينا آية** ﴾ أي تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك ، قالوا ذلك استكباراً وعناداً ﴿ **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم** ﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم ﴿ **تشابهت قلوبهم** ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿ **قد بيَّنا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقومٍ يطلبون الحق واليقين ، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به ﴿ **إنَّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيِّرة والدين القويم بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ونذيراً للكافرين من عذاب

الجحيم ﴿ ولاَ تُسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ أي أنت لست مسئولاً عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملَّتهم ﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان « اليهود والنصارى » حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿ قل إنَّ الهدى هدى الله ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق ، وما عداه فهو ضلال ﴿ ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذي جاءك من العلم ﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿ مَالَكَ مِن الله من ولي ولا نصير ﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿ وأني فضَّلتكم على العالمين ﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿ واتقُوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً ، لأن كل نفسٍ بما كسبت رهينة ﴿ ولا يقبل منها عدل ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ أي لا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ﴿ ولا هُمْ ينصرون ﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه . ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ رَبُّهُ بكلمات فأتمهن ﴾ أي أذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل ، وكلَّفه بجملة من التكاليف الشرعية « أوامر ونواهٍ » فقام بهن خير قيام ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومناراً يهتدي بك الخلق ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ أي قال إبراهيم واجعل ياربِّ أيضاً أئمة من ذريتي ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحدٌ من الكافرين .

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

﴿ **وإذ جعلنا البيت مَثَابَةً للناس** ﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿ **وأمناً** ﴾ أي مكان أمن يأمن من لجأ إليه ، وذلك لما أودع الله في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ أي وقلنا للناس اتخذو من المقام ـ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم مصلًّى أي صلوا عنده ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل** ﴾ أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿ **أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلاً للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه ، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : الطائفين ، والمعتكفين ، والمصلين . . ثم أخبرنا تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم فقال ﴿ **وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً** ﴾ أي اجعل هذا المكان ـ والمراد مكة المكرمة ـ بلداً ذا أمن يكون أهله في أمن واستقرار ﴿ **وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر** ﴾ أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات ، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جواباً له ﴿ **قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً** ﴾ أي قال الله وأرزق من كفر أيضاً كما أرزق المؤمن ، أأخلق خلقاً ثم لا أرزقهم ؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة حياته فيها ﴿ **ثم اضطره إلى عذاب النَّار** ﴾ أي ثم أُلجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصاً ﴿ **وبئس المصير** ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم . قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبرّ والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين ، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ** ﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين « إبراهيم وإسماعيل » قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿ **ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي إقبل منا عملنا هذا وأجعله خالصاً لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا .

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

﴿ **ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ** ﴾ أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿ **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿ **وأرنا مناسكنا** ﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿ **وتب علينا إنَّكَ أَنْتَ التَّواب الرحيم** ﴾ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم** ﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولاً من أنفسهم وهذا من جملة دعواتها المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿ **يتلو عليهم آياتك** ﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنَّة المطهرة ﴿ **ويزكيهم** ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب ، الحكيم الذي لا يفعل إلاَّ ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاَّ من سفه نفسه** ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلاَّ من استخف نفسه وامتهنها ﴿ **ولقد اصطفيناه في الدنيا** ﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿ **وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿**إذْ قال له ربُّه أسلم** ﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلصْ نفسك له ﴿ **قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه .

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ
شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿ **ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب** ﴾ أي وصَّى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿ **يا بَنِيَّ إنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدِّينَ** ﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿ **فلا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون** ﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ** ﴾ أي بل أكنتم

شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿ **إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي** ﴾ ؟ أي أيَّ شيء تعبدونه بعدي ؟ ﴿ **قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلهاً واحداً** ﴾ أي لا نعبد إلَّا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون ، والغرض تحقيق البراءة من الشرك ، قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿ **تلك أمة قد خلت** ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿ **لها ما كسبت ولكم ما كسبتم** ﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿ **ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء .

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ
ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أو نصارى تهتدوا** ﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا ، وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا فكلٌ من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿ **قل بل ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتَّبع ملَّة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمناً موحّداً وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذاناً بأنَّ ما هم عليه إنما هو شرك وضلال . ﴿ **قولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا** ﴾ أي قولوا أيها المؤمنون آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿ **وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾ أي وآمنا بما أُنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ﴿ **وما أوتي موسى وعيسى** ﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿ **وما أوتي النَّبيون من ربهم** ﴾ أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدّق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿ **لا نفرّق بين أحد منهم** ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا** ﴾ أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم ﴿ وإن تولوا فإنَّما هم في شقاق ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه

فاعلم أنهم يريدون عداوتك وخلافك ، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله**﴾ أي سيكفيك يا محمد شرَّهم وأذاهم ويعصمك منهم ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾ أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرون في قلوبهم من المكر والشر ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب ، ولا أحد أحسن من الله صبغةً أي ديناً ﴿ **ونحن له عابدون** ﴾ أي ونحن نعبده جلَّ وعلا ولا نعبد أحداً سواه .

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

﴿ **قل أتحاجوننا في الله** ﴾ أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الأنبياء منكم دون غيركم ؟ ﴿ **وهو ربنا وربكم** ﴾ أي ربُّ الجميع على السواء وكلُّنا عبيده ﴿ **ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره ﴿ **ونحن له مخلصون** ﴾ أي قد أخلصنا الدين والعمل لله ﴿ **أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى** ﴾ ؟ أي أم تدعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى ﴿ **قل أأنتم أعْلَمُ أَمِ الله** ﴾ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرَّأهم من اليهودية والنصرانية ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً** ﴾ فكيف تزعمون أنهم على دينكم ؟ ﴿ **ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله** ﴾ أي لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التَّوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ، أوْ لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴿ **تلك أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم لا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾ كرَّرها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، وقد تقدم تفسيرها فأغنى عن الإعادة .

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿ **سيقول السفهاء من النَّاس** ﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من النَّاس ﴿ **ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ أي ما صرفهم وحوَّلهم عن القبلة التي كانوا يصلُّون إليها وهي بيت المقدس ، قبلة المرسلين من قبلهم ؟ ﴿ **قل لله المشرق والمغرب** ﴾ أي قل لهم يا محمد الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿ **يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿ **وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً** ﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمةً عدولاً خياراً ﴿ **لتكونوا شهداء على النَّاس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلَّغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلَّغكم ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها** ﴾ أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿ **إلاَّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ أي إلاَّ لنختبر إيمان النَّاس فنعلم من يصدّق الرسول ، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿ **وإن كانت لكبيرة إلاَّ على الذين هدى الله** ﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلاَّ على الذين هداهم الله ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها ، وذلك حين سألوه ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت ، وقوله تعالى ﴿ **إنَّ الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرَّحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصَّالحة التي فعلوها .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السَّماء** ﴾ لأنه كثيراً ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السَّماء تشوقاً لتحويل القبلة ﴿ **فلنولينَّك قبلة ترضاها** ﴾ أي فلنوجهنَّك إلى قبلة تحبها ، ـ وهي الكعبة ـ قبلة أبيك إبراهيم ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شطر المسجد الحرام** ﴾ أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿ **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنَّه الحق من ربهم** ﴾ أي أن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌّ من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات ﴿ **وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها ، وفيه وعيد وتهديد لهم . ﴿ **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك** ﴾ أي والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك ﴿ **وما أنت بتابعٍ قبلتهم** ﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حوَّلك الله عنها ، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثَبَتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريراً له عليه السلام ﴿ **وما بعضهم بتابعٍ قبلة بعض** ﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم ، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿ **إنَّك إذاً لمن الظالمين** ﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم ، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلَّا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين ، وهو من باب التهييج للثبات على الحق .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟
يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿ **وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾ أي وإن جماعة منهم ـ وهم رؤساؤهم وأحبارهم ـ ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿ **الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿ **الحقُّ من ربك**

فلا تكوننَّ من الممترين ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكوننَّ من الشَّـاكين ، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿ **ولكلٍ وجهةٌ هو مولّيها فاستبقوا الخيرات** ﴾ أي لكل أمة من الأمم قبلةٌ هو مولّيها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿ **أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً** ﴾ أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قُلل الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿ **إنَّ الله على كل شيء قدير** ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿ **ومن حيث خَرَجْت فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام** ﴾ أي من أيِّ مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿ **وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ تقدم تفسيره وكرَّره لبيان تساوي حكم السفر والحضر .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿ **ومن حيث خرجت فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره** ﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة ، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية ، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة ، قال تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ أي عرَّفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا فتكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين : يدَّعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿ **إلاَّ الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني** ﴾ أي إلاَّ الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿ **ولأُتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون** ﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين .

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿ **ولأتم نعمتي** ﴾ والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم ﴿ **يتلوا عليكم آياتنا** ﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿ **ويزكيكم** ﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال ﴿ **ويعلمكم الكتاب والحكمة** ﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد ، والسنة النبوية المطهرة ﴿ **ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿ **فاذكرُوني أذْكُرْكُم** ﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ﴿ **واشكروا لي**

ولا تكفرون ﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان ، روي أن موسى عليه السَّـــلام قال : ياربِّ كيف أشكرك ؟ قال له ربه : « تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني[1] .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلٓهية ، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿ **يَأَيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصَّــلاة** ﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصَّلاة ، فبالصبر تنالون كل فضيلة ، وبالصَّلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿ **إنَّ الله مع الصَّابرين** ﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿ **ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ** ﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم أموات ﴿ **بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون** ﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك لأنهم في حياةٍ برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات** ﴾ أي ولنختبرنكم بشيءٍ يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع ، وذهاب بعض الأموال ، وموت بعض الأحباب ، وضياع بعض الزروع والثمار ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ أي بشر الصَّابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بين تعالى تعريف الصابرين بقوله ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة** ﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿ **قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه** راجعون ﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله يفعل بهم ما يشاء ﴿ **أولئك عليهم صلوات** من ربهم ورحمة **وأولئك هم المهتدون** ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله ، وهم المهتدون إلى طريق السعادة .

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ
أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾

(١) ابن كثير المختصر ١/١٤٢ .

﴿ إنَّ الصفا والمروة ﴾ اسم لجبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿ من شعائر الله ﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبَّدنا بها ﴿ فمن حجَّ البيت أو اعتمر ﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين « الحج » أو « العمرة » ﴿ فلا جناح عليه أن يطَّوَّفَ بهما ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما ، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام ، فاسعوا أنتم لله رب العالمين ، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿ ومن تطوَّع خيراً ﴾ أي من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه ، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء ، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿ من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب ﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله تعالى ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أي أولئك الموصوفون بقبيح الأعمال ، الكاتمون لأوصاف الرسول ، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿ إلاَّ الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ أي إلاَّ الذين ندموا على ما صنعوا ، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان ، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿ وأنَا التَّواب الرَّحيم ﴾ أي كثير التوبة على عبادي ، واسع الرحمة بهم ، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴾ أي كفروا بالله واستمرّوا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنَّاس أجمعين ﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعاً ، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً .

خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ
بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي خالدين في النّـار ـ وفي إضمارها تفخيم لشأنها ـ ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ أي أن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخف عنهم طرفة عين ﴿ لا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون ﴾ ﴿ ولا هُمْ يُنظرون ﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب

حال مفارقة الحياة الدنيا . ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد ، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ **لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** ﴾ أي لا معبود بحق إلاَّ هو جلّ وعلا مُولي النعم ، ومصدر الإحسان ﴿ **إنَّ في خلق السَّمواتِ والأرْض** ﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض بما فيها من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم ، يأتي الليل فيعقبه النهار ، وينسلخ النهار فيعقبه الليل ، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿ **والفُلْك التي تجري في البحر** ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال ﴿ **بما ينفع النَّاس** ﴾ أي بما فيه مصالح النَّـاس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء** ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار ، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿ **وبثَّ فيهَا من كل دابة** ﴾ أي نشر وفرَّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب ، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ أي تقليب الرِّياح في هبوبها جنوباً وشمالاً ، حارة وباردة ، وليِّنة وعاصفة ﴿ **والسحاب المسخّر بين السماء والأرض** ﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله ، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض[1] ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك ، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال ﴿ **ومن النَّـاس من يتخذ من دون الله أنداداً** ﴾ أي ومن النَّاس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً أي رؤساءَ وأصناماً ﴿ **يحبونهم كحب الله** ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحبِ المؤمنين لله ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ أي حب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد ﴿ **ولو يرى الذين ظلموا إذْ**

(١) البحر المحيط ١/٤٦٧ .

يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿ **وأن الله شديد العذاب** ﴾ أي وأن عذاب الله شديد أليم وجواب « لو » محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعُوا** ﴾ **أي تبرأ الرؤساء من الأتباع** ﴿ **ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب** ﴾ **أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودَّات** ﴿ **وقال الذين اتَّبعوا لو أنَّ لنا كرَّة فنتبرأ منهم** ﴾ أي تمنَّى الأتباع لو أنَّ لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم ﴿ **كما تبرءوا منَّا** ﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب . . قال تعالى ﴿ **كذلك يريهم الله عملهم حسرات عليهم** ﴾ أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسراتٍ تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿ **وما هم بخارجين من النَّــار** ﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النَّار ، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

﴿ **يأَيها النَّاس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً** ﴾ **الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا مما أحله الله من الطيبات حال كونه مستطاباً في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول** ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿ **إنه لكم عدوٌّ مبين** ﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء** ﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرَّذائل ﴿ **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرَّم عليكم فتحلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله** ﴾ أي وإذا قيل للمشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿ **قالوا بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى في الرَّد عليهم ﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ أي أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء ، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية

الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاَّ دعاءً ونداءً** ﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ، ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الرَّاعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام المراد ، أو تدرك المعنى الذي يقال لها ، فهؤلاء الكفار كالدَّواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون ، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿ إنْ هُمْ إلاَّ كَالأَنْعام بَلْ هُمْ أَضَلّ سَبِيلاً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ **صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُون** ﴾ أي صـمٌ عن سماع الحق ، بكمٌ أي خرسٌ عن النطق به عميٌ عن رؤ يته فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدَّواب فهم في ضلالهم يتخبطون . وخلاصة المثل ـ والله أعلم ـ مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الرَّاعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عبَّاس .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية ، والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿ **واشكروا الله إن كنتم إيَّاه تعبدون** ﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحداً سواه ﴿ **إنما حرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** ﴾ أي ما حرَّم عليكم إلاَّ الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ **وما أُهِلَّ بِهِ لغيرِ الله** ﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقولهم باسم اللات والعزّى ﴿ **فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ** ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألاَّ يكون ساعياً في فساد ، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة ﴿ **فلا إثم عليه** ﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب** ﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن عباس : نزلت في رؤ ساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿ **ويشترون به ثمناً قليلاً** ﴾ أي يأخذون بدله عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿ **أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاَّ النَّار** ﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجَّج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النَّار ﴿ **ولا يكلمهم الله يوم**

القيامة ﴾ أي لا يكلمهم كلامَ رِضًى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ ﴿ **ولا يزكيهم** ﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ * لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** ﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿ **والعذاب بالمغفرة** ﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿ **فما أصبرهم على النَّـار** ﴾ أي ما أشد صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب ﴿ **ذلك بأن الله نزَّل الكتاب بالحق** ﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿ **التوراة** ﴾ ببيان الحق فكتموا وحرَّفوا ما فيه ﴿ **وإن الذين اختلفوا في الكتاب** ﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿ **لفي شقاق بعيد** ﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأشد العذاب . ﴿ **لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ** ﴾ أي ليس فعلُ الخير وعمل الصالح محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب ﴿ **ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أي ولكنَّ البِرَّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ **والملائكة والكتاب والنبيِّين** ﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿ **وآتى المال على حبه ذوي القربى** ﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم أولى بالمعروف ﴿ **واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ أي وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم ، وابن **السبيل** المسافر المنقطع عن ماله ﴿ **والسَّائلين في الرِّقاب** ﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿ **وأقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة** ﴾ أي وأتى بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله وهو منصوب على المدح ﴿ **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم**

المتقون ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيراتٍ حسان .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿ **يأَيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى** ﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿ **الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بِالعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى** ﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به ، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به ، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى ، مثلاً بمثلٍ ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني ، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿ **فمن عُفي له من أخيه شيء** ﴾ أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء ، بأن ترك وليُّه القود وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية ﴿ **فاتِّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليهِ بإحسان** ﴾ أي فعلى العافي اتباعٌ للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنفٍ ولا إرهاق ، وعلى القاتل أداءٌ للديَّة إلى العافي ـ ولي المقتول ـ بلا مطل ولا بخس ﴿ **ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم ، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفعٌ لأولياء القتيل ، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة ، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل ، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾ أي ولكم ـ يا أولي العقول ـ فيما شرعت من القصاص حياةٌ وأيُّ حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قُتِلَ بها يرتدع وينزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتُحْفَظُ حياة النَّاس ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت** ﴾ أي فرض عليكم إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالاً كثيراً ﴿ **الوصية للوالدين والأقربين** ﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿ **بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألَّا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء ، حقاً لازماً على المتقين لله وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث .

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا
فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

﴿ **فمن بدَّله بعدما سمعه** ﴾ **أي من غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصيٍّ أو شاهد** ﴿ **فإنما إثمه على الذين يبدّلونه** ﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ فيه وعيد شديد للمبدِّلين ﴿ **فمن خاف من موصٍ جنفاً** ﴾ أي فمن علم أو ظنَّ من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿ **أو إثمًا** ﴾ أي ميلاً عن الحق عمداً ﴿ **فأصلح بينهم فلا إثم عليه** ﴾ أي أصلح بين الموصي والموصَى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويُذكي فيهم جَذْوة الإيمان ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ** ﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿ **كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿ **أياماً معدودات** ﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي قلائل ، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدَّةٌ** من **أيامٍ** أُخَر ﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين** ﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو لضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿ **فمن تطوع خيراً** ﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿ **فهو خيرٌ له** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة .

شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ
وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ
ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

ثم بيَّن تعالى وقت الصيام فقال ﴿ **شهر** رمضان الذي أُنزل فيه القرآن **هدًى للنَّاس وبينات**

من الهدى والفرقان ﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿ **ومن كَانَ مَرِيضاً أو على سفرٍ فعدَّة من أيام أُخر** ﴾ أي ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر ، وكرَّر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿ **ولتكملوا العدَّة** ﴾ أي ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿ **ولتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ أي ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه . . ثم بيَّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب** ﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم ، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ ﴿ **أُجيب دعوةَ الدَّاعي إذَا دَعَانِ** ﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿ **فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾ أي أبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿ **هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهنَّ** ﴾ قال ابن عبَّـاس : هنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ ، روى البخاري عن البراء رضي الله تعالى عنه قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ الآية ﴿ **فتاب عليكم وعفا عنكم** ﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم** ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض**

من الخيط الأسود من الفجر ﴾ أي كلوا واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ **ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ أي امسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد** ﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها** ﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿ **كذلك يبيِّن الله آياته للناس لعلهم يتقون** ﴾ أي يتقون المحارم .

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله ﴿ **وتدلوا بها إلى الحكام** ﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿ **لتأكلوا فريقاً** من **أموال الناس بالإثم** ﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿ **يسألونك عن الأهلة** ﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان ؟ ﴿ **قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والزكاة ﴿ وليس **البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿ **ولكنَّ البرَّ من اتقى** ﴾ أي ولكنَّ العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿ **وأْتوا البيوت من أبوابها** ﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه .

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى ، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله ﴿ **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** ﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو

حرم ﴿ **وأخرجوهم من حيث أخرجوكم** ﴾ أي شرّدوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾ أي فتنة المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله ، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم ، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه** ﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿ **فإن قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته والبادي بالشر أظلم ﴿ **كذلك جزاء الكافرين** ﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿ **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿ **فإن انتهوا فلا عدوان إلاَّ على الظالمين** ﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلاَّ على الظالمين ، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم .

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

ثم بيَّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله[1] ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿ **واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ أي راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ أي انفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه : لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين .

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن دخولها ، وكان ذلك لما صدَّ الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ أي أدوهما تامين بأركانها وشروطهما لوجه الله تعالى ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ** ﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرضٍ أو عدوٍ وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرةٍ أو شاة ﴿ **ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهديُ محلَّه** ﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقةٍ أو نسك** ﴾ أي فمن كان منكم معشر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق ، أو كان به أذى من رأسه كقمل وصداع فحلق في الإحرام ، فعليه فدية وهي صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة آصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿ **فإذا أَمِنْتُم** ﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿ **فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي** ﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها ، فعليه ما تيسّر من الهدي وهو ذبح شاة يذبحها لله تعالى ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعةٍ إذا رجعتم** ﴾ أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿ **تلك عشرة كاملة** ﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزىء عن الذبح ، وثوابها كثوابه من غير نقصان ﴿ **ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام** ﴾ أي ذلك التمتع أو الهَدْي خاص بغير أهل الحرم ، أمَّا سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿ **واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ أي خافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

ثم بيَّن تعالى وقت الحج فقال ﴿ **الحج أشهر معلومات** ﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر

المعروفة بين النَّاس وهي شوال وذو القعدة وعشرٌ من ذي الحجة ﴿ **فمن فرض فيهن الحج** ﴾ أي من ألزم نفسه الحجَّ بالإحرام والتلبية ﴿ **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج** ﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه ، فعليه أن يترك الشهوات ، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمْه الله** ﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازيكم عليه الله خير الجزاء ﴿ **وتزودوا فإن خير الزَّاد التقوى** ﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿ **واتَّقُونِ يا أولي الألباب** ﴾ أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية ، وقد كانوا يتأثمون من ذلك فنزلت الآية التي تبيح لهم الإتجار في أشهر الحج ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحـرام** ﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿ **واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضَّالين** ﴾ أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضَّالين ، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض النَّاس** ﴾ أي ثم انزلوا من عرفة حيث نزل الناس لا من المزدلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون : نحن أهل الله وسُكَان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون « الحُمْس » فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿ **واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ أي استغفروا عمَّا سلف من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة .

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً** ﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخركم بل أشدّ ، قال المفسرون : كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمروا أن يذكروا الله وحده ﴿ **فمن النَّاس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق** ﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همَّه فيقول : اللهم اجعل عطائي ومنحتي في

الدنيا خاصة وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك . والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم . . . إلخ ﴿ وقنا عذاب النَّــار ﴾ أي نجنا من عذاب جهنم ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة البصر ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿ ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث ـ وهو النفر الثاني ـ فلا حرج عليه أيضاً ﴿ لمن اتقى ﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

﴿ ومن النَّاس من يعجبك قوله ﴾ أي ومن النَّاس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابك بخلابة لسانه وقوة بيانه ، ولكنه منافق كذَّاب ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي في هذه الحياة فقط أمَّا الآخرة فالحاكم فيها علاَّم الغيوب الذي يطَّلع على القلوب والسرائر ﴿ ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه ﴾ أي يظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿ وهو أَلَدُّ الخصام ﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿ وإذا تولَّى سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً ، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه

« يعطيك من طرف اللسان حلاوة ٭٭٭ ويروغ فيك كما يروغ الثعلب »

﴿ ويُهْلك الحرث والنسل ﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان ومعناه أن فساده عام

يشمل الحاضر والباد ، فالحرث محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلَّا بها ، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿ **والله لا يحب الفساد** ﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزَّة بالإثم** ﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر وذكِّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح ، حملته الأنفة وحميَّةُ الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر على قبول الحق ، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿ **فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً ، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿ **ومن النَّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله** ﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار ، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله ، طلباً لمرضاته ورغبةً في ثوابه لا يتحرى بعمله إلَّا وجه الله ﴿ **والله رءوف بالعباد** ﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفوا عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه . .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة** ﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه ، فلا تأخذوا حكمًا وتتركوا حكمًا ، لا تأخذوا بالصَّلاة وتمنعوا الزَّكاة مثلاً فالإسلام كلٌ لا يتجزأ ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغوائه فإنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيِّنات** ﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿ **فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه ، حكيم في خلقه وصنعه ﴿ **هل ينظرون إلَّا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة** ﴾ أي ما ينتظرون شيئاً إلَّا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق(١) حيث تنشق السماء وينزل الجبار عزَّ وَجَلَّ في

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله ﴿ **أن يأتيهم الله** ﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله ﴿ **واسأل القرية** ﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلاناً وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى ﴿ **هل ينظرون إلَّا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك** ﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى .

ظللٍ من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلاَّ الله ولهم زجل من التسبيح يقولون : سبحان ذي الملكوت ، سبحان ذي العزَّة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ﴿ **وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير ، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً . والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جلَّ وَعلاَ الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه وهو أحكم الحاكمين . . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ أي سلْ يا محمد بني إسرائيل ـ توبيخاً لهم وتقريعاً ـ كم شاهدوا مع موسى من معجزات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿ **ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

﴿ **زين للذين كفروا الحياة الدنيا** ﴾ أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود . ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿ **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة ، فهم في أعلى علّيين وأولئك في أسفل سافلين ، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ أي والله يرزق أولياءه رزقاً واسعاً رغداً ، لا فناء له ولا انقطاع كقوله ﴿ يدخلون الجنَّة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمناً كان أو كافراً ، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى . ﴿ **كان النَّاس أمة واحدة** ﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلفوا وتنازعوا ﴿ **فبعث الله النبيِّين مبشرين ومنذرين** ﴾ أي بعث الله الأنبياء لهداية النَّاس مبشرين للمؤمنين لجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم

﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق** ﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿ **وما اختلف فيه إلاَّ الذين أوتوه** ﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلاَّ الذين أعطوا الكتاب أي إنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أُنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿ **من بعد ما جاءتهم البينات** ﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيِّنة وعلم لا عن غفلةٍ وجهل ﴿ **بغياً بينهم** ﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة** ﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاءٍ وامتحان واختبار ﴿ **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ أي والحال لم ينلكم مثل ما نال من سبقكم من المؤمنين من المحن الشديدة ، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿ **مسَّتهم البأساء والضراء** ﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿ **وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله** ﴾ ؟ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله ؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم ، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة ، فإذا كان الرسل ـ مع علو كعبهم في الصبر والثبات ـ قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها قال تعالى جواباً لهم ﴿ **ألاَ إنَّ نصر الله قريب** ﴾ أي ألاَ فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه ﴿ ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون** ﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون ؟ وعلى من ينفقون ؟ وقد نزلت لَمَّا قال بعض الصحابة يا رسول الله : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ ﴿ **قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿ **وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم** ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم **شيئاً** وفيه كل النفع والخير ﴿ **وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم** ﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئاً وفيه كل الخطر والضرر عليكم ، فلعل لكم في القتال ـ وإن كرهتموه ـ خيراً لأن فيه إمَّا الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر ، ولعل لكم في تركه ـ وإن أحببتموه ـ شر لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه** ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه ؟ ﴿ **قل قتالٌ فيه كبير** ﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿ **وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله** ﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرُهم بالله وصدُّهم عن المسجد الحرام ـ يعني مكة ـ وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته ، كلُّ ذلك أعظم وزراً وذنباً عند الله من قتل من قتلتم من المشركين ، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أنَّ ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿ **ومن يرتددْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿ **وأولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون** ﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله** ﴾ أي إنَّ المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿ **أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة . ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿ **قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس** ﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً وإثماً كبيراً ومنافع مادية ضئيلة ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ أي وضررهما أعظم من نفعهما فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر ، وما يجرُّه القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين ، كلُّ ذلك محسوس مشاهد وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** ﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم ؟ قل لهم : انفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿ **كذلك يبيّن الله لكم الآيات** ﴾ أي كما يبين لكم الأحكام يبين لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿ **لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة** ﴾ أي لتتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو أصلح ، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى . ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير** ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم ؟ فقل لهم : مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿ **وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين ، وأخوّة الدين أقوى من أخوّة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوّة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿ **والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله ﴿ **ولو شاء الله لأعنتكم** ﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدّد عليكم ولكنه يسَّر عليكم الدين وسهَّله رحمة بكم ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء ، الحكيم فيما يشرّع لعباده من الأحكام .

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ
وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

ثم قال تعالى محذراً من زواج المشركات اللواتي ليس لهم دين سماوي ﴿ **ولا تنكحوا المشركاتِ حتى يؤمنَّ** ﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤ منَّ بالله واليوم الآخر ﴿ **وَلَأَمَةٌ مؤمنة خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم** ﴾ أي وَلَأَمَة مؤ منة خير وأفضل من حرة مشركة ، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿ **وَلاَ تُنْكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا** ﴾ أي ولا تزوجوا بناتكم من المشركين ـ وثنيّين كانوا أو أهل كتاب ـ حتى يؤ منوا بالله ورسوله ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشركٍ ولو أعجبكم** ﴾ أي ولأن تزوجوهنَّ من عبد مؤ منٍ خير لكم من أن تزوجوهنَّ من حرٍّ مشركٍ مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿ **أولئك يدعون إلى النّـــار** ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النّار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألاّ تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿ **والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه** ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنَّة ومغفرة الذنوب ﴿ **ويبيِّن آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب . . ثم بين تعالى أحكام الحيض فقال ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى** ﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم ؟ فقل لهم : إنه شيء مستقذر ومعاشرتهنَّ في هذه الحالة فيه أذى للزوجين ﴿ **فاعتزلوا النساء في المحيض** ﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿ **ولا تقربوهنَّ حتى يَطْهُرْنَ** ﴾ أي لا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن . والمرادُ التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤ اكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة ﴿ **فَإِذَا تَطَهَّرن فأتوهنَّ من حَيْثُ أَمَرَكُم الله** ﴾ أي فإذا تَطَهَّرن بالماء فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم ، وهو مكان النسل والولد القُبُل لا الدبر ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ أي يحبُّ التائبين من الذنوب ، المتنزهين عن الفواحش والأقذار .

نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ
مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنَّى شئتم** ﴾ أي نساؤ كم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد ، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره **قال ابن عباس** : « اسق نباتك من حيث ينبت » ومعنى ﴿ **أنَّى شئتم** ﴾ أي كيف شئتم قائمةً وقاعدةً مضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث « الفرج » وهو ردٌّ لقول اليهود : إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دبرها جاء الولد أحول ﴿ **وقدّموا لأنفسكم** ﴾ أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة ﴿ **واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه** ﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم** ﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم : قد حلفتُ بالله ألاَّ أفعله وأريد أن أبرَّ بيميني بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم [1] **قال ابن عباس** : لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير ﴿ **أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين النّـاس** ﴾ أي لا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإِصلاح بين الناس وقد نزلت في « عبد الله بن رواحة » حين حلف ألاَّ يكلّم ختنه « النعمان بن بشير » ولا يصلح بينه وبين اخته ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم . . ثم قال تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم** ﴾ أي لا يؤ اخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم : بلى والله ، ولا والله لا يقصد به اليمين ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كَسَبَتْ قُلوبكم** ﴾ أي يؤ اخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الأيمان إذا حنثتم فيها ﴿ **والله غفور حليم** ﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة . ﴿ **للذين يُؤْلُونَ من نسائهم تربص أربعة أشهر** ﴾ أي للذين يحلفون ألاَّ يجامعوا نساءهم للإِضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿ **فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهم بالمعروف ـ وهو كناية عن الجماع ـ أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم .

(١) وقيل المعنى : لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لإِيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير ، عظيم أو حقير إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاَّف لا يكون براً ولا تقياً .

وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن
يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟
إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

﴿ **وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم** ﴾ أي وإن صمَّموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنيَّاتهم ، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألاَّ يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفّارة ، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة عند أبي حنيفة ، وقال الشافعي : ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق فإن امتنع عنهما طلَّق عليه الحاكم هذا هو خلاصة الإيلاء . . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدّة والطلاق الشرعي ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ أي الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار ـ على قول الشافعي ومالك ـ أو ثلاث حِيَض على قول أبي حنيفة وأحمد ، ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها ، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدَّة عليها لقوله تعالى ﴿ **فما لكم عليهن من عدة** ﴾ ﴿ **ولا يحل لهنَّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن** ﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبلٍ أو حيض استعجالاً في العدة وأبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿ **إن كنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر** ﴾ أي إن كنَّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه ، وهذا تهديد لهنَّ حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان لأنه أمر لا يُعلم إلاَّ من جهتهنَّ ﴿ **وبعولتهنَّ أحق بردهنَّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً** ﴾ أي وأزواجهن أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار ، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿ **ولهنَّ مثل الذي عليهنَّ بالمعروف** ﴾ أي ولهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه ﴿ **وللرجال عليهنَّ درجـــة** ﴾ أي للرجال على النساء ميزةٌ وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليفٍ لا تشريف لقوله تعالى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه حكيم في أمره وتشريعه .

ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ
أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ

وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

ثم بيَّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال ﴿ **الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ** ﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدهما إلاَّ المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسانٍ بألاَّ يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا يُنَفِّر الناس عنها ﴿ **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئاً** ﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو قليلاً ﴿ **إلاَّ أن يخافا ألاَّ يقيما حدود الله** ﴾ أي إلاَّ أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألاَّ يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها ﴿ **فإن خفتم ألاَّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾ أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها مِمَّا لم يشرعه الله ﴿ **ومن يَتَعَدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرَّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد ﴿ **فإن طلقها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره** ﴾ أي فإن طلَّق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه ، بعد أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كما صرَّح به الحديث الشريف ، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿ **فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله** ﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدَّة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿ **وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** ﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور[1] .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا روائع البيان ١/٣٤٣ .

أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنَّ** ﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً وقاربن انقضاء العدة ﴿ **فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهنَّ بمعروف** ﴾ أي فراجعوهنَّ من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿ **ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا** ﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ، وفيه زجرٌ لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدَّة يراجعها للإضرار بها ليطوِّل عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿ **ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه** ﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لأنه عرَّضها لعذاب الله ﴿ **ولا تتخذوا آيات الله هُزُواً** ﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة** ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهَّرة ﴿ **يعظكم به** ﴾ أي يرشدكم ويذكّركم بكتابه وهدي رسوله إلى سعادة في الدارين ﴿ **واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم** ﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن** ﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهنَّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف** ﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما إلى العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ **ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ **ذلكم أزكى لكم وأطهر** ﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون .

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ

أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

﴿ والوالدات يرضعن أولادهنَّ حولين كاملين ﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام ﴿ لَا تُكَلَّف نفسٌ إلاَّ وسعها ﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلّف نفساً إلاَّ وسعها ﴿ لا تضار والدةٌ بولدها ولا مولودٌ له بولده ﴾ أي لا يضرَّ الوالدان بالولد فيفرِّطا في تعهده ويقصِّرا فيما ينبغي له ، أو يضار أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضر أباه بتربيته ، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه ، قاله مجاهـد ﴿ وعلى الوارث مثلُ ذلك ﴾ أي وعلى الوارثِ مثلُ ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها والمراد به وارثُ الأب وقيل : وارثُ الصبي ، والأول اختيار الطبري ﴿ فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما ﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر ، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿ واتقوا الله واعلموا أنَّ الله بما تعملون بصير ﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم .

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً ﴾ أي على

النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن في العدَّة أربعة أشهر وعشرة أيام حداداً على أزواجهنَّ وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها ، وضع الحمل لقوله تعالى ﴿ وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ ﴾ ﴿ **فإذا بلغن أجلهنَّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ بالمعروف** ﴾ أي فإذا انقضت عدتهنَّ فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهنَّ الشرع من الزينة والتعرض للخطّاب ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عَرَّضْتم به من خطبة النساء** ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدّة ، بطريق التلميح لا التصريح قال ابن عبَّاس : كقول الرجل : وددتُ أن الله يسَّر لي امرأةً صالحة ، وإن النساء لمن حاجتي ﴿ **أو أكننتم في أنفسكم** ﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿ **علم الله أنكم ستذكرونهنَّ ولكن لا تواعدوهنَّ سراً إلاَّ أن تقولوا قولاً معروفاً** ﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج ، فاذكروهنَّ ولكنْ لا تواعدوهنَّ بالنكاح سرّاً إلاَّ بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿ **ولا تعزموا عُقْدَة النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله** ﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿ **واعلموا أنَّ الله غفور حليم** ﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه .

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل المساس فقال ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنَّ أو تفرضوا لهنَّ فريضة** ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس « الجماع » وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهراً ، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿ **ومتعوهنَّ على الموسع قدرُهُ وعلى المقتر قَدَرُهُ متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين** ﴾ **أي فإذا طلقتموهنَّ فادفعوا لهنَّ المتعة** تطييباً لخاطرهنَّ وجبراً لوحشة الفراق ، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر ، الموسر بقدر يساره ، والمعسر بقدر إعساره ، تمتيعاً بالمعروف حقاً على المؤمنين المحسنين ﴿ **وإن طلقتموهنَّ من قبل أن تمسوهنَّ وقد فرضتم لهنَّ فريضة فنصف ما فرضتم** ﴾ أي

وإذا طلقتموهنَّ قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهنَّ مهراً معيناً فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمّى لهن لأنه طلاق قبل المسيس ﴿ **إلاَّ أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدةُ النكاح** ﴾ أي إلاَّ إذا أسقطت المطلَّقة حقها أو أسقط وَليُّ أمرها الحق إذا كانت صغيرة ، وقيل : هو الزوج لأنه هو الذي يملك عُقْدَة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير ، وقال الزمخشري : القول بأنّه الوَلِيُّ ظاهر الصحة(١) ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى** ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء قال ابن عبَّـاس : أقربهما للتقوى الذي يعفو ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير** ﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم ، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين ، فإذا كان الطلاق قد تمَّ لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة ووشائج القربى .

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ أي واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿ **وقوموا لله قانتين** ﴾ أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع أي قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً** ﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍ أو غيره فصلّوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿ **فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصَّلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصَّلاة ﴾ والذكرُ في الآية يراد به الصَّلاة الكاملة المستوفية للأركان قال الزمخشري : المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علَّمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدّة ﴿ **والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج** ﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يحتضروا بِأَنْ تُمتَّع أزواجهنَّ بعدهم حولاً كاملاً ، يُنْفق عليهنَّ من

---

(١) هذا القول مروي عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ، قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري : وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بألطف بيان فانظرها في الكشاف ٢١٧/١ .

تركته ولا يُخْرَجن من مَسَاكِنِهِنَّ ـ وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿ **فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ من معروف** ﴾ أي فإن خرجن مختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخُطَّاب ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه .

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يمتِّعن المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌّ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبيّن الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها . ﴿ **أَلَم تَرَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف** ﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿ **حذر الموت** ﴾ أي خوفاً من الموت وفراراً منه ، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً ﴿ **فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم ، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم « حزقيل » فعاشوا بعد ذلك دهراً ، وقيل : هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير : وفي هذه القصة عبرةٌ على أنه لا يغني حذرٌ من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلاّ إليه ﴿ **إن الله لذو فضل على النَّاس** ﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصّرهم بما فيه من سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ **ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون** ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويجحدون ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنَّ الله سميع عليم** ﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله ، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم ، عليم بنيَّاتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها ، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرّب أجلاً ولا يبعده ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، ولإعلاء كلمة الله

في الجهاد وسائر طرق الخير ، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة ؟ لأنه قرضٌ لأغنى الأغنياء ربّ العالمين جَلّ جلاله وفي الحديث (من يقرض غير عديم ولا ظلوم(١)) ﴿ والله **يقبض ويبسط** ﴾ أي يقتّر على من يشاء ويوسع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿ وإليه **تُرجعون** ﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

﴿ **ألَمْ تَرَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى** ﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السَّلام كما دلت عليه الآية ﴿ **إذْ قَالُوا لِنَبِيّ لَهُم ابْعث لَنَا ملكاً نُقاتل في سَبِيل الله** ﴾ أي حين قالوا لنبيِّهم « شمعون » ـ وهو من نسل هارون(٢) أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿ **قال هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألاَّ تقاتلوا** ﴾ أي قال لهم نبيّهم : أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه ﴿ **قالوا وما لنا ألاَّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ أي أيُّ سببٍ لنا في ألاَّ نقاتل عدونا وقد أخذت منَّا البلاد وسُبيت الأولاد ؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿ **فلما كُتب عليهم القتالُ تولّوا إلاَّ قليلاً منهم** ﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلاَّ فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ، قال القرطبي : وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدِّعة ، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جَبُنت وانقادت لطبعها(٣) ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصياناً لأمره تعالى .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول ، وانظر مختصر ابن كثير ٢٢٢/١ .

(٢) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل . (٣) القرطبي ٢٤٥/٣ .

﴿ **وقال لهم نَبِيُّهُمْ إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** ﴾ أي أخبرهم نبيّهم بأن الله تعالى قد ملَّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿ **قالوا أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال** ﴾ أي قالوا معترضين على نبيِّهم كيف يكون ملكاً **علينا** والحال أننا أحقُّ بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا ؟ ﴿ **قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم** ﴾ أي أجاب نبيّهم على ذلك الاعتراض فقال : إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم ، والعمدة في الاختيار أمران : العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة ، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب ، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد ، وقد خصَّه الله تعالى منهما بحظ وافر ، قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم ، وشكل حسن ، وقوةٍ شديدة في بدنه ونفسه[1] ، ﴿ **والله يؤتي ملكه من يشاء** ﴾ أي يعطي **الملك** لمن شاء من عباده من غير إرثٍ أو مال ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ أي واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهلٌ له فيعطيه إياه . . ولما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿ **وقال لهم نبيّهم إنَّ آية ملكه** ﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿ **أن يأتيكم التابوت** ﴾ أي يرد الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم ، وهو كما قال الزمخشري : صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿ **فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة** ﴾ أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة قال ابن عبَّاس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿ **إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي أن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

﴿ **فلما فصل طالوت بالجنود** ﴾ أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حرّ وعطشٌ شديد ﴿ **قال إن الله مبتليكم بنهر** ﴾ أي

(١) مختصر ابن كثير ١/٢٢٤ .

مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ﴿ **فمن شرب منه فليس مني** ﴾ أي من شرب منه فلا يصحبني ـ وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب ـ ﴿ **ومن لم يطعمه فإنه مني** ﴾ أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي ﴿ **إلاّ من اغترف غرفة بيده** ﴾ أي لكن من اغترف قليلاً من الماء ليبلَّ عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك ، فأذن لهم برشفةٍ من الماء تذهب بالعطش ﴿ **فشربوا منه إلاَّ قليلاً منهم** ﴾ أي شرب الجيش منه إلاَّ فئة قليلة صبرت على العطش قال السدي : شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقّى معه أربعة الاف ﴿ **فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه** ﴾ أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم اعتراهم الخوف فقال فريق منهم ﴿ **قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة ﴿ **قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله** ﴾ أي قال الذين يعتقدون بلقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت ﴿ **كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله** ﴾ أي كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته ، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾ أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله .

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده** ﴾ أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرَّب على الحروب ﴿ **قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً** ﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولاً : ربنا أفِضْ علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذَّب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة ، قال تعالى إخباراً عنهم ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابةً لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿ **وقتل داود جالوت** ﴾ أي وقتل داود ـ وكان في جيش المؤمنين مع طالوت ـ رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿ **وآتاه الله الملك والحكمة وعلَّمه مما يشاء** ﴾ أي أعطى الله تعالى

داود الملك والنبوة وعلّمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه ، قال ابن كثير : كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ أي لولا أن يدفع الله شرّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة ، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿ **ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين** ﴾ أي ذو تفضلٍ وإنعام على البشر حيث لم يمكّن للشر من الاستعلاء ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغه دعوة الله عَزَّ وَجَلَّ .

* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم يا محمد هم رسل الله حقاً ، ولقد فضّلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿ **منهم من كلّم الله** ﴾ أي منهم من خصّه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السّلام ﴿ **ورفع بعضهم درجات**﴾ أي ومنهم من خصّه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة ، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات** ﴾ أي ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿ **وأيدناه بروح القدس** ﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات** ﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿ **ولكنْ اختلفوا فمنهم من آمنَ ومنهم من كفر** ﴾ أي ولكنَّ الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم ، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنَّ الله يفعل ما يريد ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكنَّ الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة ، وكلٌّ ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥ ﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم** ﴾ أي انفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إيَّاه ، ادفعوا الزَّكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿ **من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعة** ﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمالٍ تقدمونه فيكون كالبيع ، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب ، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلاَّ أن يأذن الله رب العالمين ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً ، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب . ﴿ **الله لآ إلَهَ إلاَّ هُوَ الحي القَيُّومُ** ﴾ أي هو الله جلَّ جَلاَله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ذو الحياة الكاملة ، الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبر ﴿ **لا تأخذه سنةٌ ولا نوم** ﴾ أي لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم كما ورد في الحديث (إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه) ، ﴿ **له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ أي جميع ما في السمٰوات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلاَّ بإذنه** ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلاَّ إذا أذن له الله تعالى ، قال ابن كثير : وهذا بيانٌ لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلاَّ بإذن المولى ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿ **ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاَّ بما شاء** ﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلاَّ بما أعلمهم إيَّاه على ألسنة الرسل ﴿ **وسع كرسيه السمٰوات والأرْض** ﴾ أي أحاط كرسيّه بالسموات والأرض لبسطته وسعته ، والسمواتُ السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاة ، وروي عن ابن عبَّاس ﴿ وسع كرسيّه ﴾ قال : **علمه** بدلالة قوله تعالى ﴿ ربنا وسعتَ كل شيء رحمةً وعلمًا ﴾ فأخبر أن علمه وسع كل شيء[1] وقال الحسن البصري : الكرسي هو العرش ، قال ابن كثير : والصحيح أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿ **ولا يؤودُهُ حفظهما وهو العلي العظيم** ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السموات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ .

(١) قال ابن جرير : . . . وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن ولأن أصل الكرسي العلم ، ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير .

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ
لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿ **لا إكراه في الدِّين قد تبيَّن الرشد من الغي** ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام ، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿ **لا انفصام لها** ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿ **الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم ، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤ هم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال ﴿ **أولئك أصحاب النَّــار هم فيها خالدون** ﴾ أي ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً .

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ
وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿ **أَلَمْ تَرَ إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه** ﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر ، المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو « النمروذ بن كنعان » الذي جادل إبراهيم في وجود الله ؟ ﴿ **أن آتاه الله الملك** ﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره على إنكار وجود الله ، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿ **إذ قال إبراهيم رَبِّيَ الذي يحيي ويميت** ﴾ أي حين قال له إبراهيم مستدلاً على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿ **قال أنا أحيي وأميت** ﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضاً أحيي وأميت ، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال : هذا قتلتهُ ، وأمر بإطلاق الآخر وقال : هذا أحييتهُ ، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إفحاماً ﴿ **قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ أي إذا كنت تدعي

الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جلَّ جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿ **فبهت الذي كفر** ﴾ أي أُخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة ، وأصبح مبهوتاً دهشاً لا يستطيع الجواب ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين .

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

﴿ **أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها** ﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثلٌ لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خرَّبها بختنصر ﴿ **قال أنَّىٰ يحيي هذه الله بعد موتها** ﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه « عزير » على الرأي الأشهر : كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها ؟ قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار ، وكان راكباً على حماره حينما مرَّ عليها ﴿ **فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿ **قال كم لَبِثتَ قَالَ لَبِثتُ يَوْماً أو بعض يوم** ﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثتَ في هذه الحال ؟ قَالَ يوماً ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال : أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله ﴿ **قال بل لبثتَ مائة عام** ﴾ أي بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة ﴿ **فانظر إلى طعامك وشرابك لن يَتَسَنَّهْ** ﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنبٌ وتين وعصيرٌ فوجدها على حالها لم تفسد ﴿ **وانظر إلى حمارك** ﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلاً من البلى ﴿ **ولنجعلك آية للنَّاس** ﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿ **وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحمًا** ﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركِّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحمًا بقدرتنا ﴿ **فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال أيقنت وعلمت علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

﴿ **وإذْ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى** ﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى : اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبه بقوله ﴿ **قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن ليطمئنَّ قلبي** ﴾ أي أولم تصدِّق بقدرتي على الإحياء ؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤ ية ذلك ﴿ **قال فخذ أربعةً من الطير فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ** ﴾ أي خذ أربعة من طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهنَّ ثم اخلط بعضهنَّ ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ **ثم اجعل على كل جبلٍ منهنَّ جزءاً** ﴾ أي فرِّق أجزاءهن على رءوس الجبال ﴿ **ثم ادعهنَّ يأْتينك سعياً** ﴾ أي نادهنَّ يأتينك مسرعات قال مجاهد : كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً فذبحهن ثم فعل بهن **ما** فعل ثم دعاهنَّ فأتين مسرعات ﴿ **واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ أي لا يعجز عما يريده حكيم في تدبيره وصنعه . قال المفسرون : ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤ ها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزَّأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيراً كما كانت وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤ ية لما سأل ذكره ابن كثير . ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل** ﴾ قال ابن كثير : هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله **وابتغاء** مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿ **في كل سنبلةٍ مائة حبة** ﴾ أي كل سنبلةٍ منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّت سبعمائة حبة ، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾ **أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله** ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ أي واسع الفضل عليم بنيَّة المنفق .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

﴿ **الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى** ﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلاَّ وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه كقوله قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك ، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ أي لهم ثواب ما قدَّموا من الطاعة عند الله ﴿ **ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي لا يعتريهم فزعُ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائت من زهرة الدنيا ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقةٍ يتبعها أذى** ﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفحُ عن إلحاحه ، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذلّ السؤال ﴿ **والله غني حليم** ﴾ أي مستغنٍ عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره . . ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال ﴿ **يَأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى** ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى ﴿ **كالذي ينفق ماله رئاء النَّاس** ﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿ **ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أي لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿ **فمثله كمثل صفوان عليه تراب** ﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظانُّ أرضاً طيبةً منبتةً ﴿ **فأصابه وابلٌ فتركه صلداً** ﴾ أي فإن أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولهذا قال تعالى ﴿ **لا يقدرون على شيء مما كسبوا** ﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً ﴿ **والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال ﴿ **ومثل الذين ينفقون**

أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسكم ﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً بلقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿ **كمثل جنةٍ بربوة** ﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكانٍ مرتفع من الأرض ، وخُصَّت بالرَّبوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها ﴿ **أصابها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضعفين** ﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنيَّة مضاعفة ، ضعفي ثمر غيرها من الأرض ﴿ **فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ** ﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنَّة من نخيل وأعناب** ﴾ أي أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غنَّاء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿ **تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿ **له فيها من كل الثمرات** ﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿ **وأصابَهُ الكِبَرُ ولَهُ ذريَّة ضعفاء** ﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ﴿ **فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت** ﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿ **كذلك يبيِّن الله لَكُم الآيات لَعَلَّكُم تَتفكَّرُون** ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ
وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا
كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

﴿ **يأَيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم** ﴾ أي انفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿ **ومما أخرجنا لكم من الأرض** ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿ **ولا تيمَّموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدقوا منه ﴿ **ولستم بآخذيه إلاَّ أن تغمِضوا فيه** ﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلاَّ إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله !! ﴿ **واعلموا أن الله غني حميد** ﴾ أي أنه سبحانه **غني** عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء . . ثم حذَّر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء** ﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل

ومنع الزَّكاة ﴿ **والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً** ﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء** ﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿ **ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿ **وما يذّكر إلاَّ أولُوا الألباب** ﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلاَّ أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى . ﴿ **وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإنَّ الله يعلمه** ﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ أي وليس لمن منع الزَّكاة أو صرف المال في معاصي الله ، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله .

إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

﴿ **إن تبدوا الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ** ﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿ **ويكفّر عنكم من سيئاتكم** ﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء آثامكم ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي هو سبحانه مطَّلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ، والآية ترغيب في الإسرار ﴿ **ليس عليك هداهم ولٰكنَّ الله يهدي من يشاء** ﴾ أي ليس **عليك** يا محمد أن تهدي النَّاس فإنَّك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد ، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب ، والله يهدي من يشاء من عباده إلى الإسلام ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** ﴾ أي أيّ شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿ **وما تنفقون إلاَّ ابتغاء وجه الله** ﴾ خبرٌ بمعنى النهي أي لا تجعلوا إنفاقكم إلاَّ لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿ **وما تنفقوا من خيرٍ يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ أي فإنَّ أجره وثوابه أضعافاً مضاعفةً تنالونه أنتم ولا تنقصون منه **شيئاً** من حسناتكم ﴿ **للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله** ﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء **الذين** حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿ **لا يستطيعون ضرباً في الأرض** ﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد

السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿ **تعرفهم بسيماهم لا يسألون النَّاس إلحافاً** ﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد ، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح قيل معناه : إن سألوا سألوا بلطفٍ ولم يلحّوا ﴿ **وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية** ﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات ، من ليل أو نهار ، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿ **فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوه ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا . ﴿ **الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلاَّ كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء النَّاس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلاَّ كما يقوم المصروع من جنونه ، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سوياً ، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الرِّبا** ﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرَّمه الله ، وقولهم : الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ **وأحلّ الله البيع وحرّم الربا** ﴾ أي أحلّ الله البيع لما فيه من تبادل المنافع ، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، لأن فيه زيادة مقتطعةً من جهد المدين ولحمه ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف** ﴾ أي من بلغه نَهْيُ الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿ **وأمره إلى الله** ﴾ أي وأمره موكول إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿ **ومن عاد فأولئك أصحاب النَّـار هم فيها خالدون** ﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحلّه بعد تحريم الله له فهو من المخلّدين في نار جهنم .

يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿ **يمحق الله الربا وَيُرْبِي الصَّدَقَات** ﴾ أي يُذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر ، ويُكْثِر الصدقات وينمّيها وإن كانت نقصاناً في الشَّاهد ﴿ **والله لا يحب كل كفَّار أثيم** ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذاناً بأنه من فعل الكفار ، ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ﴿ **إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة** ﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنَّة ، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدّنيا ﴿ **يَأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون ، واتركوا ما لكم من الربا عند النَّاس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله** ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم ، قال ابن عباس : يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب ﴿ **وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمُون ولاَ تُظْلَمُون** ﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿ **وإن كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ** ﴾ أي إذا كان المستدين معسراً فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إمّا أَن تَقْضِي وَإِمّا أَنْ تُرْبِي ﴿ **وإن تصدَّقُوا خَير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أي إن تجاوزتم عما لكم فهو أكرم وأفضل ، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم ثم حذَّر تعالى عباده من ذلك اليوم الرَّهيب الذي لا ينفع فيه إلاَّ العمل الصالح فقال ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفسٍ حسابها وأنتم لا تظلمون ، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي ، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد ، قال ابن كثير : هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليالٍ ثم انتقل إلى الرَّفيق الأعلى .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمًّى فاكتبوه** ﴾ أي إذا تعاملتم بدينٍ مؤجل فاكتبوه ، وهذا إرشاد منه تعالى بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها ﴿ **وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل** ﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين ﴿ **ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علَّمه الله** ﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علّمه الله ﴿ **فليكتب وليملل الذي عليه الحق** ﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدينُ وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿ **وليتق الله ربَّه ولا يبخسْ منه شيئاً** ﴾ أي وليخشَ الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿ **فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً** ﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبياً أوشيخاً هرماً ﴿ **أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ** ﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيٍّ أو خرسٍ أو عُجْمة فليملل قيِّمه أو وكيله بالعدل من غير نقصٍ أو زيادة ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم** ﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء** ﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثق بدينهم وعدالتهم ﴿ **أن تُضِلَّ إحدَاهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكّرها الأخرى ، وهذا علةُ لوجوب الإثنتين لنقص الضبط فيهن ﴿ **ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا** ﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿ **ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله** ﴾ أي لا تملّوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده ﴿ **ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاَّ ترتابوا** ﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه

تعالى ، وأثبت للشهادة لئلا تنسى ، وأقرب أن لا تشكّوا في قدر الدَّيْن والأجل ﴿ **إلاَّ أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم** ﴾ أي إلاَّ إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوض ﴿ **فليس عليكم جُناح ألاَّ تكتبوها** ﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحظور ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ أي اشهدوا على حقكم مطلقاً سواءً كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿ **ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد** ﴾ أي لا يضر صاحب الحق الكُتّاب والشهود ﴿ **وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم** ﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء .

* وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

﴿ **وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة** ﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجلٍ مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن بدل الكتابة رهانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقةً لدينه ﴿ **فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾ أي فإن أمن الدائن المدين واستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿ **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه** ﴾ أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير ، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجراً ، وخُصّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء ، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿ **والله بما تَعْملونَ عليم** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد . ﴿ **لله ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السمٰوات والأرض المطَّلع على ما فيهن ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبْكم به الله** ﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿ **فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ أي يعفوا عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿ **آمَنَ الرَّسُول بما أُنزِلَ إليه من رَبّه والمؤمنون** ﴾ أي صدَّق محمد ﷺ **بما** أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿ **كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدَّق بوحدانية الله ، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿ **لا نفرِّق بين أحدٍ من رسله** ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿ **وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربَّنا وإليك المصير** ﴾ أي أجبنا دعوتك **وأطعنا** أمرك فنسألك ياألله المغفرة لما اقترفناه من الذنوب وإليك وحدك ياألله المرجع والمآب . ﴿ **لا يكلّف الله نفساً إلاَّ وسعها** ﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير ، وجزاء ما اقترفت من شرّ ﴿ ربَّنا **لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم والمعنى لا تعذبنا يا ألله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿ **رَبَّنَا وَلاَ تَحمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا** ﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلَّفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ﴿ **رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه** ﴾ أي لا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿ **واعف عنَّا واغْفِر لَنَا وَارْحمنَا** ﴾ أي امحُ عَنَّا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿ **أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ أي أنت يا ألله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا ، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين ، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذّبوا برسالة نبيك ﷺ . روي أنَّه عليه السَّلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة : قد فعلتُ .

(تم بحمـد الله تفسـير سـورة البقـرة)

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِائَتَانِ

بين يدي الســـــــورة

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما : **الأول** : ركن **العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جل وعلا** . **الثاني** : **التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله** . . أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكرٍ ، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذَّبوا برسالة محمد ، وأنكروا القرآن ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة ، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام ، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود ، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب ، أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفريضة الحج والجهاد ، وأمور الربا ، وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أُحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهزموا في أُحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل ، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس ، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين ، ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السمٰوات والأرض وما فيهما من إتقانٍ وإبداعٍ ، وعجائب وأسرار تدل على وجودِ الخالق الحكيم ، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذَّة الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم الفلاح والنجاح ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، وآتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

فضـــلها : عن النواس بن سمعان قال سمعت النبي ﷺ يقول : (يُؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقْدمهم سورة البقرة وآل عمران)[١] .

التســـمية : سميت السورة بـ « آل عمران » لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة « آل عمران » والد مريم أم عيسى ، وما تجلّى فيها من مظاهر القدرة الإلهيّة بولادة مريم البتول وابنها عيسى عليهما السلام .

(١) أخرجه مسلم .

تفسير سورة آل عمـــران

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿ **الٓمٓ** ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدّم في أول البقرة ﴿ **الله لَا إلهَ إلاَّ هُو** ﴾ أي لا ربَّ سواه ولا معبود بحقٍ غيره ﴿ **الحي القيّوم** ﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون عباده ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحق** ﴾ أي نزّل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿ **مصدّقاً لما بين يديه** ﴾ أي من الكتب المنزَّلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿ **وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للنَّاس** ﴾ أي أنزل الكتابين العظيمين « التوراة » و « الإنجيل » من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقيل : المراد بالفرقان القرآنُ وكرّر تعظيمًا لشأنه(١) ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله** ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿ **والله عزيز ذو انتقام** ﴾ أي غالب على أمره لا يغلب ، منتقم ممن عصاه ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء** ﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمرٌ من الأمور ، فهو مطَّلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿ **هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحَسن وقبيح ﴿ **لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم** ﴾ أي لا ربَّ سواه ، متفردٌ بالوحدانية

(١) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان مصدر بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿ **نزَّل عليك الكتاب** ﴾ .

والألوهية ، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنبَّه تعالى بكونه مصوّراً في الرحم ، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد .

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب** ﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿ **فيه آياتٌ محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب** ﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام ، هنَّ أصل الكتاب وأساسه ﴿ **وأُخَر متشابهات** ﴾ أي وفيه آيـات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من النَّاس ، فمن ردّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى ، وإن عكس فقد ضلَّ ولهذا قال تعالى ﴿ **فأمَّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه** ﴾ أي فأمَّا من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال فيتبع المتشابه منه ويفسره على حسب هواه ﴿ **ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ أي طلباً لفتن النَّاس في دينهم ، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله ، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ﴾ على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادَّعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى ﴿ **إن هو إلاَّ عبدٌ أنعمنا عليه** ﴾ **الدال على أنه عبد** من عباد الله ورسول من رسله ﴿ **وما يعلم تأويله إلاَّ الله** ﴾ أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلاَّ الله وحده ﴿ **والرَّاسخون في العلم يقولون آمنَّا به** ﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ﴿ **كلٌ** من **عند** ربنا ﴾ أي كلٌ من المتشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله ، قال تعالى ﴿ **وما يذَّكر إلاَّ أولُوا الألباب** ﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلاَّ أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿ **رَبَّنا لاَ تُزِغ قُلُوبنا** ﴾ أي لا تُمِلْهَا عن الحق ولا تضلنا ﴿ **بعد إذ هديتنا** ﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿ **وهب لنا** من **لدُنْك** رحمة ﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبيتاً بها على دينك الحق ﴿ **إنَّكَ أنت الوهَّاب** ﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿ ربنا **إنَّك** جامع النَّاس ليوم **لا** ريب **فيه** ﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب « يوم الحساب » الذي لا شك فيه ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ أي وعدك حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد ، كقوله تعالى ﴿ الله لا إله إلاَّ هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ ؟!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم** ﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد ، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿ **من الله شيئاً** ﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿ **وأولئك هم وقود النَّار** ﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسْجر وتوقد به النَّار ﴿ **كدَأب آل فرعون** ﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون ، وصنيعُهم مثلُ صنيعهم ﴿ **والذين من قبلهم** ﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿ **كذّبوا بآياتنا** ﴾ أي كذَّبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ أي أليم العذاب شديد البطش ، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم ، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء . ﴿ **قل للذين كفروا** ﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿ **ستُغلبون** ﴾ أي تُهزمون في الدنيا ﴿ **وتحشرون إلى جهنم** ﴾ أي تُجمعون وتُساقون إلي جهنم ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿ **في فئتين التقتا** ﴾ أي في طائفتين التقتا في القتال يوم بدر ﴿ **فئةٌ تقاتل في سبيل الله** ﴾ أي طائفة مؤمنـة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿ **وأخرى كافرة** ﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿ **يرونهم مثليهم** ﴾ أي يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم مرتين ﴿ **رأي العين** ﴾ أي رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجرّدة لا بالوهم والخيال ، وقيل : المراد يرى الكافرون المؤمنين ضعفيهم في العدد ، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبهم ويجبنوا عن قتالهم ، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿ **رأي العين** ﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿ **والله يؤيد بنصره من يشاء** ﴾ أي يقوي بنصره من يشاء ﴿ **إن في ذلك لعبرة** ﴾ أي لآية وموعظة ﴿ **لأولي الأبصار** ﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة . ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء ، وأن النصر لا يكون بكثرة العَدد والعتاد ، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده كقوله ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾

ثم أخبر تعالى عن اغترار النَّاس بشهوات الحياة الفانية فقال ﴿ **زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهوات مِنَ النِّساء** ﴾ أي حُسِّن إليهم وحُبِّب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات ، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والإلتذاذ بهن أكثر وفي الحديث (ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء)[1] ثم ذكر ما يتولد منهنَّ فقال ﴿ **والبنين** ﴾ وإنما ثّنى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين كما قال القائل :

وإنما أولادنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغَمْض

وقُدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه للمال ﴿ **والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** ﴾ أي الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة ، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات ، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾ والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خُصَّا بالذكر ﴿ **والخيل المسوّمة** ﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿ **والأنعام** ﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿ **والحرث** ﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم** ﴾ أي قل يا محمد أأخبركم بخيرٍ مِمَّا زُيِّن لِلنَّاس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزَّائل ؟ والاستفهام للتقرير ﴿ **للذين اتقوا عند ربهِّم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿ **وأزواجٌ مطهرة** ﴾ أي منزهةٌ عن الدنس والخبث ، الحسي والمعنوي ، لا يتغوَّطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ، ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿ **ورضوانٌ من الله** ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأيُّ رضوان ، وقد جاء في الحديث (أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلاً بحسب

---

(١) أخرجه البخاري .

ما يستحقه من العطاء . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال ﴿ **الذين يقولون ربَّنا إننا آمنا** ﴾ أي آمنا بك وبكتبك ورسلك ﴿ **فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النَّار** ﴾ أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النَّار .

ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

﴿ **الصَّابرين والصَّادقين والقانتين** ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء ، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء ، والمطيعين لله في الشِّدة والرخاء ﴿ **والمنفقين** ﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ أي وقت السحر قُبَيل طلوع الفجر . ﴿ **شَهد الله أنَّه لاَ إلَهَ إلاَّ هو** ﴾ أي بيَّن وأعلم تعالى بانفراده بالوحدانية ، قال الزمخشري : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿ **والملائكة وأولوا العلم** ﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿ **قائمًا بالقسط** ﴾ أي حال كونه مقيمًا للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿ **لاَ إلَهَ إلاَّ هو** ﴾ أي لا معبود في الوجود إلاَّ هو ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿ **إنَّ الدين عند الله الإسلام** ﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام ، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاَّ من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوّة محمد عليه السلام ، إلاَّ بعد أن علموا بالحجج النيِّرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر ، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد ، فكانوا ممن ضلَّ عن علم ﴿ **بغياً بينهم** ﴾ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿ **ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب** ﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره .

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله** ﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدِّين فقل لهم : أنا عبد الله قد استسلمتُ بكليتي لله ، وأخلصت عبادتي له وحده ، لا شريك له ولا نِدّ ولا صاحبة ولا ولد ﴿ **ومن اتبعن** ﴾ أي أنا وأتباعي على ملَّة الإسلام ، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين** ﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿ **أأسلمتم** ﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿ **فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿ **وإن تولوا فإنما عليك البلاغ** ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضرّوك يا محمد إذ لم يكلفك الله بهدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿ **والله بصير بالعباد** ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها ، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا : أسلمنا فقال عليه السلام لليهود : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله ! فقالوا معاذ الله ، فقال للنصارى : أتشهدون أنَّ عيسى عبد الله ورسوله ! فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله عزَّ وَجَلّ ﴿ **وإن تولوا** ﴾[1] . ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله** ﴾ أي يكذبون بما أنزل الله ﴿ **ويقتلون النَّبيّين بغير حق** ﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلاَّ لكونهم دعوهم إلى الله ، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله ، قال ابن كثير : « قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبيّ من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره » ﴿ **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من النَّاس** ﴾ أي يقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل ﴿ **فبشرهم بعذابٍ أليم** ﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجع المهين ، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم : الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقتل الدّعاة إلى الله قال تعالى مبيناً عاقبة إجرامهم ﴿ **أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات ، ولم يبق لها أثر في الدَّارين ، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

(١) تفسير أبي مسعود ١ /٢٢٣ .

عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه .

ثم ذكر تعالى طرفاً من لَجَاج وعناد أهل الكتاب فقال ﴿ **ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب** ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ! فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب ، قال الزمخشري : يريد أحبار اليهود وأنهم حصَّلوا نصيباً وافراً من التوراة ﴿ **يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم** ﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون في صحته ، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ **ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** ﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ، وجملة ﴿ **وهم معرضون** ﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق ، والاصرار على الباطل ، والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا : لا نجد في كتابنا إلاَّ التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرَّجم فرجما ، فغضبوا فشنَّع تعالى عليهم بهذه الآية[1] ﴿ **ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النَّار إلاَّ أياماً معدودات** ﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلاَّ مدة يسيرة ـ أربعين يوماً ـ مدة عبادتهم للعجل ﴿ **وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي غرَّهم كذبهم على الله ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه** ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب !! وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأهوال ﴿ **ووفيت كلُّ نفس ما كسبت** ﴾ أي نالت كل نفسٍ جزاءها العادل ﴿ **وهم لا يُظْلَمُون** ﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب .

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

﴿ **قل اللَّهُمَّ مالك الملك** ﴾ أي قل : يا ألله يا مالك كل شيء ﴿ **تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء** ﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان ، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿ **وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء** ﴾ أي تعطي العزَّة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿ **بيدك الخير إنَّك على كل شيء قدير** ﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت على كل شيء قدير . ﴿ **تولج الليل في النهار وتولج**

(١) أنظر القصة في صحيح البخاري كتاب التفسير .

النهار في الليل ﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل ، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس ، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿ **وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي** ﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والبيضةَ من الدجاجة والدجاجةَ من البيضة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير ، وقال الطبري : « وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال : يخرج الإنسان الحيَّ والأنعام والبهائم من النطف الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء »[1] ﴿ **وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضييق . . ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري : نُهوا أن يوالوا الكافرين لقرابةٍ بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يُتَصادق بها ويُتَعاشر ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء** ﴾ أي من يوالِ الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿ **إلاَّ أن تتقوا منهم تقاةً** ﴾ أي إلاَّ أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم ، فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب ، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي « إنّا لنبش في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم » ﴿ **ويحذِّركُم اللهُ نفسه** ﴾ أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿ **قل إن تُخْفُوا ما في صدوركم أو تُبْدُوه يَعْلَمْهُ الله** ﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطّلع عليه لا تخفى عليه خافية ﴿ **ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي عالم بجميع الأمور ، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره ، وهو تهديد عظيم .

---

(١) تفسير الطبري ٥/٣٠٩ وللشهيد سيد قطب قول رائع في معنى الآية الكريمة ننقله بإيجاز من الظلال يقول قدَّس الله روحه : وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرّك الأفلاك ، وتلفُّ هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ـ يعني الشمس ـ وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء ، شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار ، وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام ، شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء ، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف . . كذلك الحياة والموت يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج ، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة ، خلايا حيَّة منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، هكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري ، ولا يستطيع إنسان أن يدَّعي أنه هو الذي يصنع من هذا كلّه شيئاً ، ولا يزعم عاقل أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ، وإنما هي حركة خفية هائلة تديرها يدُ القادر المبدع اللطيف المدبر » . ظلال القرآن ٣/١٧٠ .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ
نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ **يومَ تجد كلّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ مُحْضَراً** ﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فإن كان عمله حسناً سرّه ذلك وأفرحه ﴿ **وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾ أي وإن كان عمله سيئاً تمنى أن لا يرى عمله ، وأحبَّ أن يكون بينه وبين عمله القبيح غايةً في نهاية البعد أي مكاناً بعيداً كما بين المشرق والمغرب ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أي ويخوفكم عقابه ﴿ **والله رءوف بالعباد** ﴾ أي رحيم بخلقه يحبّ لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله يحببكم الله ﴿ **ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن كثير : « هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادَّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنَّه كاذب في دعواه تلك حتَّى يتّبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله »[1] ثم قال تعالى : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿ **فإن تولّوا**) **أي أعرضوا عن الطاعة** ﴿ **فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ .

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى
سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

﴿ **إن الله اصطفى آدم** ﴾ أي اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿ **ونوحاً** ﴾ شيخ المرسلين ﴿ **وآل إبراهيم** ﴾ أي عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿ **وآل عمــران** ﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿ **على العالمين** ﴾ أي عالمي زمانهم قال القرطبي : وخصَّ هؤلاء

(١) مختصر ابن كثير ١/٢٢٧ .

بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ ذُرية بعضها من بعض ﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتُّقى والصلاح ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها « حنَّة بنت فاقود » ﴿ ربِّ إني نذرت لك ما في بطني ﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿ محرراً ﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿ فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيّتي ﴿ فلما وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثى ﴾ أي لمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار ياربِّ إنها أنثى ، قال ابن عبَّاس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلَّا الذكور فقبل الله مريم قال تعالى ﴿ والله أعلم بما وضعَتْ ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أو لم تقله ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي ليس الذكر الذي طَلَبْته كالأنثى التي وُهِبتها بل هذه أفضل والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيمًا لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتها أنثى وإني سميتُها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرَّب ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ أي أُجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿ فتقبلها ربّها بقبول حسن ﴾ أي قبلها قبولاً حسناً ، قال ابن عباس : سلك بها طريق السعداء ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ أي ربَّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿ وكفَّلها زكريا ﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها ، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿ كلَّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾ أي كلّما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً ، قال مجاهد : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿ قال يا مريم أَنّى لَكِ هَذَا ﴾ ؟ أي من أين لك هذا ؟ ﴿ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿ هنالك دعا زكريا ربَّه ﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا

ربَّه متوسلاً ومتضرعاً ﴿ قال ربِّ هبْ لي من لدنك ذريّة طيبة ﴾ أي اعطني من عندك ولداً صالحاً - وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿ إنَّك سميع الدُّعاء ﴾ أي مجيب لدعاء من ناداك ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائمًا في الصَّلاة ﴿ أنَّ الله يبشرك بيحيى ﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿ مصدقاً بكلمةٍ من الله ﴾ أي مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته ، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة « كن » من غير أب ﴿ وسيداً ﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿ وحصوراً ﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفةً وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك ، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنّيناً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء[1] ﴿ ونبياً من الصَّالحين ﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير : وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿ إنَّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[2] .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَام ﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿ وقد بلغني الكبر ﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿ وامرأتي عاقر ﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة ، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكلٌ من السببين مانع من الولد ﴿ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر ﴿ قال ربِّ اجعل لي آية ﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿ قال آيتك ألاَّ تكلم النَّاس ثلاثة أيام إلاَّ رمزاً ﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام النَّاس إلاَّ بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سويٌ صحيح والغرض أن يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿ واذكر ربَّك كثيراً ﴾ أي اذكر الله

(١) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عِيَاض « إعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قال بعضهم إنه كان عنّيناً أو لا ذَكَر له ، بل قد أنكر هذا حذّاق المفسرين وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السَّلام ، وإنما معناه أنَّه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنَّه حصور أو يمنع نفسه من الشهوات ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام » انتهى .

(٢) مختصر ابن كثير ١/٢٨١ .

ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة ، فقد منع عن الكلام ولم يُمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿ **وسبِّح بالعشي والإبكار** ﴾ أي نزّه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله . وقيل : المراد صلِّ لله ، قال الطبري : يعني عظِّم ربك بعبادته بالعشي والإبكار . ﴿ **وإذْ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله اصطفاك** ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة أي جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصَّكِ بالكرامات ﴿ **وطهّرك** ﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة ﴿ **واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿ **يا مريم اقنتي لربِّك** ﴾ أي الزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه ﴿ **واسجدي واركعي مع الرَّاكعين** ﴾ أي صليِّ لله مع المصلين ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا ويحيى إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** ﴾ أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته ﴿ **وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم ، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير . . روي أن حنَّة حين ولدتها لفَّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النَّذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها[1] قال ابن كثير : وإنما قدَّر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علمًا جماً وعملاً صالحاً .

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه** ﴾ أي بمولودٍ يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿ **اسمه المسيح عيسى ابن مريم** ﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح ، وَنَسَبَهُ إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب ﴿ **وجيهاً في الدنيا والآخرة** ﴾ أي سيداً ومعظمًا فيهما ﴿ **ومن المقربين** ﴾ عند الله ﴿ **ويكلم النَّاس في المهد وكهلاً** ﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً قال الزمخشري : « ومعناه يكلم النَّاس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة

---

(١) الطبري ٦/٣٥١ .

وحال الكهولة »[١] ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿ قالت ربِّ أنَّى يَكُون لِي وَلَدٌ وَلَم يَمْسَسْنِي بَشَر ﴾ أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ؟ ﴿ قال كذلك يخلق الله ما يشاء ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخرٍ ولا حاجةٍ إلى سبب ، يقول له كن فيكون .

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

﴿ ويعلمه الكتاب ﴾ أي الكتابة ﴿ والحكمة ﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير : وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم ﴿ أنِّي قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ أي بأني قد جئتكم بعلامةٍ تدل على صدقي وهي ما أيَّدني الله به من المعجزات ، وآية صدقي ﴿ أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ﴾ أي أصور لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿ فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله .
قال ابن كثير : وكذلك كان يفعل ، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عَزَّ وَجَلّ الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه مرسل[٢] ، وهذه المعجزة الأولى ﴿ وأبرىء الأكمه والأبرص ﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص ، وهذه المعجزة الثانية ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته ، وقد أحيا أربعة أنفس : عازر وكان صديقاً له ، وابن العجوز ، وبنت العاشر ، وسام بن نوح . هكذا ذكر القرطبي وغيره ، وكرر لفظ « بإذن الله » دفعاً لتوهم الألوهية ، وهذه المعجزة الثالثة ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم ﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكُّون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادَّخر في بيته وهذه المعجزة الرابعة ﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدِّقين بآيات الله .

---

(١) الكشاف ١/٢٧٨ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٢٨٤ .

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ * فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

ثم أخبرهم أنَّه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال ﴿ **ومصدِّقاً لما بين يَديَّ من التوراة** ﴾ أي وجئتكم مصدِّقاً لرسالة موسى ، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿ **ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم** ﴾ أي ولأحل لكم بعض ما كان محرَّماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير : وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التَّوراة وهو الصحيح ﴿ **وجئتكم بآية من ربكم** ﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرَّر تأكيداً ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿ **إن الله ربي وربكم فاعبدوه** ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جلَّ وعلا ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته ، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه . ﴿ **فَلَمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر** ﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضَّلال وإرادتهم قتله ﴿ **قال من أنصاري إلى الله** ﴾ أي من أنصاري في الدّعوة إلى الله ، قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله** ﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿ **آمنَّا بالله واشهد بأنَّا مسلمون** ﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿ **ربَّنا آمنَّا بما أنزلت واتبعنا الرَّسول فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ أي آمنَّا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق .

وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

ثم أخبر تعالى عن اليهود المتآمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ أي أرادوا قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إلى السَّماء دون أن يمسَّ بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن

« يهوذا » وسـمّي مكراً من باب المشاكلة[١] ولهذا قال ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ أي أقواهم مكراً بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم وفي الحديث (اللَّهُمَّ امكرْ لي ولا تمكر عليَّ) ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ** ﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعه إلى السماء سالماً دون أذى قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ثم متوفيك بعد ذلك ، وقد ذكره الطبري فقال : وقال آخرون معنى ذلك : إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلَيَّ ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إيَّاكَ إلى الدنيا[٢] ﴿ **ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ أي ومخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال الحسن : طهّره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿ **وجاعل الذين اتَّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوّتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة ، وقال في تفسير الجلالين : ﴿ الذين اتَّبعوك ﴾ أي صدَّقوا بنبوّتك من المسلمين والنصارى ﴿ فوق الذين كفروا ﴾ وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ﴿ **ثُمَّ إلَيَّ مرجعكم فَأَحْكُم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿ **فأمَّا الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة** ﴾ أي أمَّا الكافرون بنبوتك المخالفون لملتك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي ، وبالآخرة بنار جهنم ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿ **وأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم** ﴾ أي وأمَّا المؤمنون فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملةً غير منقوصة ﴿ **والله لا يحب الظالمين** ﴾ أي لا يحب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده ؟

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

﴿ **ذلك نتلوه عليك** ﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿ **من الآيات والذكر**

(١) المشاكلة : الاتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى وقد تقدَّم .

(٢) الطبري ٤٥٨/٦ ، وأما قول بعض المفسرين أنَّه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع وقول بعضهم المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد ردَّه المحققون ، قال القرطبي : « والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السَّماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عبَّاس » .

الحكيم ﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم** ﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب ـ وهو في بابه غريب ـ كشأن آدم ﴿ **خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ أي خلقَ آدَم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان ، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿ **الحق من ربّك فلا تكن من الممترين** ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿ **فقل تَعالَوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ أي هلمّوا نجتمع ويدعوا كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحُسيناً فقال : اللَّهُمَّ هؤلاء أهلي ﴿ **ثم نبتهل فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين** ﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول : اللَّهُمَّ العنْ الكاذب منَّا في شأن عيسى ، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عبَّاس أنه قال « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » قال أبو حيان : « وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوّته »[1] ثم قال تعالى ﴿ **إن هذا هو القصص الحق** ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿ **وما من إله إلاّ الله** ﴾ أي لا يوجد إله غير الله ، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿ **وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾ أي هو جلَّ شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٞۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ **فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء .

﴿ **قل يا أهل الكتاب تَعالَوْا إلى كلمـةٍ سـواءٍ بيننا وبينكم** ﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿ **ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً** ﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله** ﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيراً وعيسى ، وأطاعوا

(١) البحر المحيط ٢/٤٨٠ .

الأحبار والرهبان فيما أحلّوا لهم وحرّموا ، روي أن الآية لَمّا نزلت قال عدي بن حاتم ما كنّا نعبدهم يا رسول الله ، فقال ﷺ أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال : نعم فقال النبي ﷺ هو ذاك ﴿ **فإن تولوّا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون** ﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحّدون مسلمون ، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم** ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿ **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده** ﴾ أي والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلاّ من بعده بقرونٍ كثيرة فكيف يكون من أهلها ؟ ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ بطلان قولكم ! فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف يقول بذلك عاقل ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم** ﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿ **فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم** ﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم ؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة ؟ ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي والله يعلم الحقَّ من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك ، قال أبو حيان : « وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه : اسمع فإني أعلم ما لا تعلم »(١) .

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

ثم أكذبهم الله تعالى في دعوى إبراهيم فقال ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً** ﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية ، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى ، وكذلك النصرانية ملّة محرّفة عن شرع عيسى ﴿ **ولكن كان حنيفاً مسلمًا** ﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدِّين القيم ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ أي كان مسلمًا ولم يكن مشركاً ، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، وردٌّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتَّبعُوه** ﴾ أي أحق النَّاس بالانتساب إلى إبراهيم

(١) البحر المحيط ٢/٤٨٦ .

أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿ **وهذا النبي** ﴾ أي محمد ﷺ ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿ **والله وَلِيُّ المُؤْمِنين** ﴾ أي حافظهم وناصرهم . . ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله ﴿ **ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم** ﴾ أي تمنَّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿ **وما يضلون إلاَّ أنفسهم** ﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلاَّ عليهم إذ يُضاعف به عذابهم ﴿ **وما يشعرون** ﴾ أي ما يفطنون لذلك ، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿ **يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله** ﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿ **وأنتم تشهدون** ﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿ **يا أهل الكتاب لم تَلْبِسُون الحقَّ بالباطل** ﴾ أي لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشُّبه والتحريف والتبديل ؟ ﴿ **وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك .

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم ، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدّوا عنه في آخره ليشككوا النّاس في دين الإسلام فقال ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار** ﴾ قال ابن كثير : وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من النّاس أمر دينهم ، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدّوا إلى دينهم ليقول الجهلة من النّاس إنما ردّهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصةٍ وعيبٍ في دين المسلمين[1] ﴿ **واكفروا آخره** ﴾ أي اكفروا بالإسلام آخر النهار ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أي لعلهم يشكّون في دينهم فيرجعون عنه ﴿ **ولا تؤمنوا إلاَّ لمن تبع دينكم** ﴾ هذا من تتمة كلام اليهود حكاه الله عنهم والمعنى : لا تصدّقوا ولا تظهروا سرّكم وتطمئنوا لأحدٍ إلاَّ إذا كان على دينكم ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله ، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين ، والجملة اعتراضية ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك بقية كلام اليهود فقال ﴿ **أن يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم** ﴾ أي يقول

(١) مختصر ابن كثير ١/٢٩١ .

اليهود بعضهم لبعض : لا تصدّقوا إلا لمن تبع دينكم ، وانظروا فيمن ادعى النبوّة فإن كان متبعاً لدينكم فصدّقوه وإلاّ فكذّبوه ، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلاّ إذا كان على دينكم ، خشية أن يؤ تى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم ، فإذا أقررتم بنبوّة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة ، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أي قل لهم يا محمد أمر النبوّة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤ تيه من يشاء ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿ **يختص برحمته من يشاء** ﴾ **أي يختص بالنبوّة من شاء** ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ أي فضله واسع عظيم لا يحُدُّ ولا يُمنع .

* وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك** ﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أدّاه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأدّاها إليه ﴿ **ومنهم من إن تأمنهُ بدينار لا يؤدّه إليك** ﴾ أي ومنهم من **لا** يؤ تمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده ﴿ **إلاّ ما دمت عليه قائماً** ﴾ أي إلاّ إذا كنت ملازماً له ومُشهداً **عليه** ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيلٌ** ﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين ـ يعني العرب ـ روي أن اليهود قالوا ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤ ه ﴾ والخلق لنا عبيد ، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا ، وقيل إنهم **قالوا** إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿ **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم **يعلمون** أنهم كاذبون مفترون ، روي أنهم لما قالوا ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ قال نبي الله ﷺ : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلاّ هو تحت قدميَّ هاتين إلاّ الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر[1] ، ثم قال تعالى ﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكنْ من أدّى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً** ﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا

(١) القرطبي ٤/١١٩ .

عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿ **أولئك لا خلاق لهم في الآخرة** ﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿ **ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة** ﴾ أي لا يكلمهم كلام أنسٍ ولطف ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿ **ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ أي لا يطهرهم من أوضار الأوزار ، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ **وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب** ﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عبَّاس : يحرِّفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿ **لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب** ﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرَّف من كلام الله وما هو إلَّا تضليل وبهتان ﴿ **ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله** ﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله ﴿ **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله ، ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحدٍ من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ **ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله** ﴾ أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله ، والنفيُ في مثل هذه الصيغة ﴿ **ما كان** ﴾ إنما يؤ تى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوتُه والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوّة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد النَّاس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه ؟ ﴿ **ولكن كونوا ربَّانيِّين** ﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيّين قال ابن عباس : حكماء علماء حلماء والمعنى : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿ **بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ أي بتعليمكم النَّاس الكتاب ودراستكم إيَّاه ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً** ﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله ـ ملائكة أو أنبياء ـ لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له

﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله ، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله ؟ والاستفهام إنكاري تعجبي .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيِّين ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيّين ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال الطبري : المعنى لمَهْما آتيتكم أيها النبيّون من كتاب وحكمة ﴿ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ﴾ أي ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿ لتؤمننَّ به ولتنصرنه ﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي ؟ ﴿ قالوا أقررنا ﴾ أي اعترفنا ﴿ قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿ فمن تولى بعد ذلك ﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿ فأولـئك هم الفاسقون ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيبتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله ؟ ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض ﴾ أي ولله استسلم وانقاد وخضع أهل السمٰوات والأرض ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة : المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك[1] قال ابن كثير : فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعاً ، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولاَ يُمانع[2] ﴿ وإليه يُرجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاًّ بعمله .

(١) الطبري ٦/٥٧٦ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٢٩٧ .

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ
مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ
وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ **قل آمنَّا بالله وما أنزل علينا** ﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله وبالقرآن المنزَّل علينا ﴿ **وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسبـاط** ﴾ أي آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي ، والأسباطُ هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿ **وما أوتي موسى وعيسى** ﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿ **والنبيّون من ربهم** ﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿ **لا نفرِّق بين أحدٍ منهم** ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً . ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه** ﴾ أي يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصَّـلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿ **وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ أي مصيره إلى النَّار مخلّداً فيها ﴿ **كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم** ﴾ استفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿ **وشهدوا أن الرسول حق** ﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿ **وجاءهم البينات** ﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة ، قال الحسن : هم اليهود والنصارى رأوا صفة النبي ﷺ في كتابهم ، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم[١] ﴿ **أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ أي جزاؤ هم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين .

خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) الطبري ٦/٥٧٥ .

أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

﴿ **خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون** ﴾ أي ماكثين في النَّار أبد الآبدين ، لا يُفترّ عنهم العذاب ولا هم يمهلون . ﴿ **إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ أي إلاَّ من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً** ﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿ **لن تقبل توبتهم** ﴾ أي لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿ **وأولئك هم الضَّالون** ﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي ، ثم أخبر تعالى عمَّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفَّار** ﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿ **فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به** ﴾ **أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً** ﴿ **أولئك هم عذاب أليم** ﴾ أي مؤلم موجع ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه . ﴿ **لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مِمَّا تحبون** ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنَّـة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿ **وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم** ﴾ أي وما تبذلوا من شيء في سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء .

* كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

﴿ **كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل** ﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل ﴿ **إلاَّ ما حرَّم إسرائيل على نفسه** ﴾ أي إلاَّ ما حرَّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرّمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبةً لهم على معاصيهم ﴿ **من قبل أن تنزَّل التوراة** ﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلُوها إن كنتم صادقين** ﴾ أي قل لهم يا محمد ائتوني بالتوراة واقرءوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم قال الزمخشري : وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدِّ

عن سبيل الله فلما حاجَّهم بكتابهم وبكّتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة ، وفي ذلك الحجة البينة على صدق محمد ﷺ[1] ﴿ **فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك** ﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿ **قل صدق الله** ﴾ أي صدق الله في كل ما أوحي إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿ **فاتبعوا ملَّة إبراهيم** ﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملَّة الإسلام التي هي ملَّة إبراهيم ﴿ **حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن الأديان الزَّائفة كلِّها ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ برَّأه مما نسبه **اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية ، وفيه تعريض بإشراكهم** ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكّة** ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿ **مباركاً وهدى للعالمين** ﴾ أي وضع مباركاً كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم .

فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾

ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿ **فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، وفيه زمزم والحطيم ، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود ، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة للمسلمين ؟ ﴿ **ومن دخله كان آمناً** ﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحَرَمَ بدعوة الخليل إبراهيم ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ ﴿ **ولله على النَّاس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾ أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين ، وعبّر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس : **من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه**[2] ، ثم أخذ يبكّت أهل الكتاب على كفرهم فقال ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله** ﴾ أي لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿ **والله شهيد على ما تعملون** ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم

(١) الكشاف ١/٢٩٥ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٣٠٣ .

فيجازيكم عليها ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن** ﴾ أي لم تصرفون النَّاس عن دين الله الحق ، وتمنعون من أراد الإيمان به ؟ ﴿ **تبغونها عوجاً** ﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجّة ، وذلك بتغيير صفة الرسول ، والتلبيس على النَّاس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً ﴿ **وأنتم شهـــداء** ﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ تهديد ووعيد ، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين : الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا النَّاس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من النَّاس .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿ **يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ أي يصيِّروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان ، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله** ﴾ إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزّل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌّ بين أظهركم ؟ ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم** ﴾ أي من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق ، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود : « هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يُشكر فلا يكفر »[1] والمراد بالآية ﴿ **حق تقاته** ﴾ أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتناب جميع معاصيه ﴿ **ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون** ﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا** ﴾ أي

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٠٤ .

تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿ **إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم** ﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداءً ألدَّاءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿ **وكنتم على شفا حفرة من النَّار فأنقذكم منها** ﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منه بالإسلام ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته** ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدَّارين .

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ **ولتكن منكم أمَّة يدعون إلى الخير** ﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أي هم الفائزون ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ﴿ **وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿ **فأمَّا الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم** ﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال والمعنى أما أهل النَّار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ : أكفرتم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿ **وأمَّا الذين ابيضت وجوههم** ﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿ **ففي رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾ أي فهم في الجنَّة مخلّدون لا يخرجون منها أبداً ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿ **وما الله يريد ظلمًا للعالمين** ﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكنَّ النَّاس أنفسهم يظلمون .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي الجميع ملكٌ له وعبيده ﴿ **وإلى الله تُرْجَعُ الأمور** ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة ﴿ **كنتم خير أمـة أخرجت للنّاس** ﴾ أي أنتم يا أمّة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للنّاس ولهذا قال ﴿ أُخرجت للناس ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم ، روي البخاري عن أبي هريرة ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس ﴾ قال : خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا الإسلام ﴿ **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال « من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها »[1] ثم قال تعالى ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم** ﴾ أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدَّقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة ﴿ **منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام ، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ، ﴿ **لن يضروكم إلاّ أذى** ﴾ أي لن يضرّوكم إلاّ ضرراً يسيراً بألسنتهم من سبٍّ وطعن ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار** ﴾ أي ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً ﴿ **ثم لا يُنصرون** ﴾ أي ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا ينصرون ، والجملة استئنافية ﴿ **ضربت عليهم الذّلة أينما ثقفوا** ﴾ أي لزمهم الذّل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿ **إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس** ﴾ أي إلاّ إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس : بعهدٍ من الله وعهدٍ من النّاس ﴿ **وباءوا بغضبٍ من الله** ﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿ **وضربت عليهم المسكنة** ﴾ أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق** ﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار ، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلمًا وطغياناً ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى .

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣١١ .

* لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

﴿ **ليسوا سواءً** ﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء ، وهنا تمّ الكلام ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿ **من أهل الكتاب أمّة قائمة** ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿ **يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ أي يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح ﴿ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿ **ويسارعون في الخيرات** ﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿ **وما يفعلوا من خير فلن يكفروه** ﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر المتقين ، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً ﴿ **وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون** ﴾ أي مخلّدون في عذاب جهنم .

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

﴿ **مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا** كمثل ريحٍ **فيها صرٌ** ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا بقصد الثناء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿ **أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** ﴾ أي أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به ؛ فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصّالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه

﴿ **وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب ، ثم حذَّر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** ﴾ أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودّونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿ **لا يألونكم خبالاً** ﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿ **ودّوا ما عَنِتُّم** ﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم** ﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿ **وما تخفي صدورهم أكبر** ﴾ أي وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه ﴿ **قد بيَّنا لكم الآيات** ﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿ **إن كنتم تعقلون** ﴾ أي إن كنتم عقلاء ، وهذا على سبيل الهزّ والتحريك للنفوس كقولك إن كنت مؤمناً فلا تؤذ النَّاس وقال ابن جرير المعنى : إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه ، ثم بيّن سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿ **ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم** ﴾ أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم ، تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم ، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنَّا** ﴾ أي وهذا من خبثهم إذ يظهرون أمامكم الإيمان نفاقاً ﴿ **وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم ، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين ﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾ هو دعاء عليهم أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا[1] ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أي إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين .

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

(١) هذا قول الطبري وكثير من المفسرين وقيل المراد منه : التقريع والإغاظة والمعنى أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في القرطبي ١٨٣/١ .

ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿ **إن تمسسكم حسنة تَسُؤْهم** ﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرة وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم ﴿ **وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجدبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم ، فبيَّن تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم ، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿ **إن الله بما يعملون محيط** ﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدَبّرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة . ﴿ **وإذ غدوتَ من أهلك** ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك ﴿ **تُبَوِّىءُ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ أي تنزل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿ **والله سميعٌ عليم** ﴾ أي سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشَلاَ** ﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وَهَمَّتَا بالرجوع وهما « بنو سلمة » و « بنو حارثة » وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأُحُد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل « عبد الله بن أُبي » بثلث الجيش وقال : علاَمَ نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فَهَمَّ الحيَّان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿ **والله وليهما** ﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم ، ثم ذكّرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عَمَّا أصابهم من الهزيمة يوم أحد فقال ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدد ﴿ **فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ أي اشكروه على ما منَّ عليكم من النصر ﴿ **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين** ﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم .

بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾
وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾
لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا** ﴾ بلى تصديق للوعد أي بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره ﴿ **ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ أي يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿ **يُمددْكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين** ﴾ أي يزدكم الله مدداً من الملائكة معلَّمين على السلاح ومدربين على القتال[1] ﴿ **وما جعله الله إلاَّ بشرى لكم** ﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلاَّ بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً ﴿ **ولتطمئنَّ قلوبكم به** ﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿ **وما النصر إلاَّ من عند الله** ﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العدَدَ والعُدَد ، ما النصر في الحقيقة إلاَّ بعون الله وحده ، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ أي الغالب الذي لا يغلب في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿ **ليقطع طرفاً من الذين كفروا** ﴾ أي ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، ويهدم ركناً من أركان الشرك ﴿ **أو يكبتهم** ﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿ **فينقلبوا خائبين** ﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم ، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين وأعزَّ الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة أحد ، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشُج وجهه الشريف قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟! فنزلت ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿ **أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم ، أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿ **ولله ما في السمٰوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ أي له جل وعلا ملك السمٰوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾ هذا نهيٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير : كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن : إمّا أن تَقْضي وإمَّا أن تُرْبي ! فإن قضاه وإلاَّ زاده فيُ المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً[2] ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أي لتكونوا من الفائزين .

---

(١) وقيل مسوّمين : أي معلمين بعلامة قال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ، انظر الطبري والكشاف .

(٢) مختصر ابن كثير ٣١٨/١.

وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿ **واتقوا النَّار التي أعدت للكافرين** ﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلّكم ترحمون** ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تناهم رحمة الله ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿ **وجنةٍ عرضها السموات والأرض** ﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض كما قال في سورة « الحديد » ﴿ **عرضُها كعرض السماء والأرض** ﴾ والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنّك بطولها ؟ ﴿ **أعدت للمتقين** ﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿ **الذين ينفقون في السراء والضرَّاء** ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أي يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿ **والعافين عن النَّاس** ﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾ أي ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر[1] ﴿ **أو ظلموا أنفسهم** ﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ **ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلاّ الله** ﴾ استفهام بمعنى النفي أي **لا يغفر الذنوب** إلاّ الله وهي جملة اعتراضية لتطييب، نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبيان أن الذنوب ـ وإن جلّت ـ فإن عفوه تعالى أجلّ ورحمته أوسع ﴿ **ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون .

أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم** ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿ **وجنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي ولهم جنَّات تجري

---

(١) قال ابن عبَّاس : الفاحشة والزنا وظلم النفس ما دونه من النظر واللَّمسة .

خلال أشجارها الأنهار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ أي نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله ، ثم ذكر تعالى تتمة تفصيل غزوة أُحد بعد تمهيد مبادىء الرشد والصلاح فقال ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن** ﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿ **هذا بيان للناس** ﴾ أي هذا القرآن[1] فيه بيانٌ شاف للناس عامة ﴿ **وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة ، وإنما خصَّ المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر النَّاس ، ثم أخذ يسليهم عمّا أصابهم من الهزيمة في وقعة أُحد فقال ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا** ﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتلٍ أو هزيمة ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أُحد فقد أبليتم فيهم يوم بدر ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا .

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿ **إن يمسْسْكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرح مثلُه** ﴾ أي إن أصابكم قتلٌ أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين النَّاس** ﴾ أي الأيام دول ، يوم لك ويوم عليك ، ويوم تُساء ويوم تُسر ﴿ **وليعلم الله الذين آمنوا** ﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿ **والله لا يحب الظالمين** ﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخذلوا عن نبيه يوم أُحد ﴿ **وليمحّص الله الذين آمنوا** ﴾ أي ينقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿ **ويمحق الكافرين** ﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنَّة** ﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنَّة بدون ابتلاء وتمحيص ؟ ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد ؟ قال الطبري المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا

(١) اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين .

كرامة ربكم ولَمَّا يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه !![1]

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿ **من قبل أن تلقوه** ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته ، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿ **فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا ، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون : إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿ **وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ أي ليس محمد إلاَّ رسول مضت قبله رسل ، والرسل منهم من مات ومنهم من قُتل ﴿ **أفإيْن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم ؟ ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً** ﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله ، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿ **وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفسٍ أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿ **وما كان لنفسٍ أن تموت إلاَّ بإذن الله** ﴾ أي بإرادته ومشيئته ﴿ **كتاباً مؤجلاً** ﴾ أي كتب لكل نفسٍ أجلها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجُبْنُ لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿ **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها** ﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها وليس له في الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم ، فبيَّن تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبذولة للبر والفاجر ﴿ **ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها** ﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسّمنا له من الدنيا كقوله ﴿ من كان يريد حرْث الآخرة نزِدْ له في حرثه ﴾ ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم .

---

(١) تفسير الطبري .

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

﴿ **وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير** ﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون[1] وعُبَّاد صالحون قاتلوا فقُتل منهم من قتل ﴿ **فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله** ﴾ أي ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿ **وما ضعفوا** ﴾ **عن الجهاد** ﴿ **وما استكانوا** ﴾ أي ما ذلّوا ولا خضعوا لعدوّهم ﴿ **والله يحب الصَّابرين** ﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿ **وما كان قولهم إلاَّ أن قالوا ربَّنا اغفر لنا ذنوبنا** ﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلاَّ طلب المغفرة من الله ﴿ **وإسرافنا في أمرنا** ﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ أي انصرنا على الكفَّار ﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة** ﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته ، وخصَّ ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله ولأنه المعتد به عند الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا** ﴾ أي إن أطعتم الكفَّار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿ **يردّوكم على أعقابكم** ﴾ أي يردّوكم إلى الكفر ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ أي ترجعوا إلى الخسران ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عبَّاس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أُحد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿ **بل الله مولاكم** ﴾ **بل** للإضراب أي ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿ **وهو خير**

(١) ذهب الطبري إلى أن معنى ﴿ **ربيُّون كثير** ﴾ أي جموع كثيرة وهذا قول قتادة وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون .

الناصرين ﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره ، ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿ **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفزع ﴿ **بما أشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطاناً** ﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿ **ومأواهم النَّار** ﴾ أي مستقرهم النَّار ﴿ **وبئس مثوى الظالمين** ﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم ، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده** ﴾ أي وفى الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿ **إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر** ﴾ أي حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿ **وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون** ﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم ، روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم : لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير ، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرّماة فانهزم المشركون ، فلما رأى الرماة ذلك قالوا : الغنيمة الغنيمةَ ونزلوا لجمع الأسلاب ، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين فذلك قوله تعالى ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ أي من بعد النصر ﴿ **منكم من يريد الدنيا** ﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل ﴿ **ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم « عبد الله بن جبير » ثم استشهدوا ﴿ **ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ أي صفح عنكم مع العصيان ، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم ولهذا قال ﴿ **والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ أي ذو منٍّ ونعمةٍ على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال .

* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ
وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ

وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

﴿ **إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد** ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لآخر ﴿ **والرسول يدعوكم في أخراكم** ﴾ أي ومحمد ﷺ يناديكم من وراءكم يقول (إليَّ عِبَادَ الله ، إليَّ عِبَادَ الله ، أَنَا رَسُول الله ، مَن يكرُّ فَلَهُ الجَنَّـة) وأنتم تمعنون في الفرار ﴿ **فأثابكم غمًّا بغم** ﴾ أي جازاكم على صنيعكم غمًّا بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم أمره[1] ﴿ **لكيلا تحزنوا على ما فاتكم** ﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ﴿ **ولا ما أصابكم** ﴾ أي من الهزيمة ، والغرض بيان الحكمة من الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم وذلك من رحمته تعالى بهم ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أي يعلم المخلص من غيره ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً** ﴾ وهذا امتنانٌ منه تعالى عليهم أي ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة ولتأمنوا على أنفسكم من عدوكم فالخائف لا ينام ، روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاسُ ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه » ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمنة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص ، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿ **يغشى طائفةً منكم** ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون ﴿ **وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم** ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلَّا نجاتها وهم المنافقون ، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال ، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمنة فناموا ، وأمَّا المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفَّار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿ **يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظنِّ أهل الجاهلية ، قال ابن كثير : وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك السَّاعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة[2] ﴿ **يقولون هل لنا من الأمر من شيء** ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء ، ولو كان لنا إختيار ما خرجنا لقتال ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرّفه كيف شاء ﴿ **يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك** ﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك ﴿ **يقولون لو**

---

(١) ذهب الطبري إلى أن الباء بمعنى على والمعنى : فجزاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غمًّا على غم ، كقوله ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي على جذوع النخل ، وقد رجح هذا القول ابن القيم واعتمده ابن كثير .

(٢) مختصر ابن كثير ١ / ٣٣٠ .

كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا ﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج ، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير : أُرسل علينا النوم ذلك اليوم وإني لأسمع قول « معتّب بن قشير » والنعاس يغشاني يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا[١] ﴿ **قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدَّر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم ، فَقَدَرُ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿ **وليبتلي الله ما في صدوركم** ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿ **وليمحّص ما في قلوبكم** ﴾ أي ولينقي ما في قلوبكم ويطهّره فعل بكم ذلك ﴿ **والله عليم بذات الصدور** ﴾ أي عالم بالسرائر مطَّلع على الضمائر وما فيها خير أو شر .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أُحد فقال ﴿ **إن الذين تولّوا منكم** ﴾ أي انهزموا منكم في المعركة ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿ **إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** ﴾ أي إنما أزلَّهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿ **ولقد عفا الله عنهم** ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴿ **إن الله غفور حليم** ﴾ أي واسع المغفرة حليم لا يعجل العقوبة لمن عصاه ، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا** ﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿ **وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض** ﴾ أي وقالوا لإخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿ **أو كانوا غزى** ﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا ، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم** ﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿ **والله يحيي ويميت** ﴾ ردٌّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ أي مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿ **ولئن قتلتم في سبيل**

(١) تفسير القرطبي ٤/٢٤٢ .

الله ﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿ أو متم ﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿ لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون ﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني .

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم ، فآثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته ، ولله در القائل حيث يقول :

فإن تكن الأبـدان للموت أُنشئت فقتـل امـرىءٍ بالسيف في الله أفضل

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي فبسبب رحمةٍ من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيناً لين الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفا ، لتفرقوا عنك ونفروا منك ، ولمَّا كانت الفظاظة في الكلام نفي الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، واطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم في جميع أمورك ليقتدي بك الناس ، قال الحسن : « ما شاور قومٌ قط إلَّا هُدوا لأرشد أمورهم »[1] ، وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوّض أمرك إليه ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ أي يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحدٍ أن يغلبكم ﴿ وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم ، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أُحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله ، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿ وما كان لنبي أن

(١) الطبري ٧/٣٣٤ .

يَغُلَّ ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبي من الأنبياء أن يخون في الغنيمة ، والنفيُ هُنا نفيٌ للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل لأنَّ المراد أنه لا يتأتىّ ولا يصحُّ أن يُتصوّر فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿ **ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة** ﴾ أي ومن يَخُن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحةً على رءوس الأشهاد ﴿ **ثم تُوفى كل نفسٍ ما كسبت** ﴾ أي تعطي جزاء ما عملت وافياً غير منقوص ، ﴿ **وهم لا يُظلمون** ﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص ، فلا يزاد في عقاب العاصي ، ولا ينقص من ثواب المطيع .

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

﴿ **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله** ﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه ، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿ **ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النَّار مستقراً له ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾ أي متفاوتون في المنزل قال الطبري : هم مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتبع رضوان الله الكرامةُ والثواب الجزيل ، ولمن باء بسخطٍ من الله المهانةُ والعقاب الأليم[1] ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجازيهم عليها ، ثمَّ ذكَّر تعالى المؤمنين بالمنّة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولاً عربياً من جنسهم ، عرفوا أمره وخبروا شأنه ، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين ، لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿ **يتلو عليهم آياته** ﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿ **ويزكيهم** ﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿ **وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر ، فنقلوا من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة** ﴾ أي أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثةٌ يوم أحد فقُتل منكم سبعون ﴿ **قد أصبتم مثْليها** ﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿ **قلتم أنَّى هَذَا** ﴾ ؟ أي من أين هذا البلاء ، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر ، وموضع التقريع قولهم ﴿ أنى هذا ﴾ ؟

(١) الطبري ٣٦٧/٧ .

مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لِقضائه .

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله** ﴾ أي وما أصابكم يوم أُحد ، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإرادته الأزلية وتقديره الحكيم ، ليتميز المؤمنون عن المنافقين ﴿ **وليعلم المؤمنين** ﴾ أي ليعلم أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ **وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا** ﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أُبي بن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أُحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون : تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿ **قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم** ﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لقاتلنا معكم ، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿ **هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان** ﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم** ﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿ **والله أعلم بما يكتمون** ﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا** ﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿ **لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿ **قل فادرءوا على أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم ، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة .

وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ

ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

﴿ **ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً** ﴾ أي لا تظنَّن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتاً لا يحسُّون ولا يتنعمون ﴿ **بل أحياء عند ربهم يُرزقون** ﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنان الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشياً قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿ **فرحين بما آتاهم الله من فضله** ﴾ أي هم منعَّمون في الجنَّة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم** ﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿ **ألاَّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي بأنْ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنَّات النعيم ﴿ **يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ أكَّد استبشارهم ليذكر ما تعلّق به من النعمة والفضل والمعنى : يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ، فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم ، والفضلُ ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح** ﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أُحد قال ابن كثير : وهذا كان يوم « حمراء الأسد »[1] وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرّوا راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أنَّ بهم قوة وَجَلَداً ، ولم يأذن لأحدٍ سوى من حضر أحدًا فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عزَّ وَجَلّ ولرسوله ﷺ[2] . ﴿ **للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ أي لمن أطاع أمر الرسول وأجابه إلى الغزو ـ على ما به من جراح وشدائد ـ الأجرُ العظيم والثوابُ الجزيل ﴿ **الذين قال لهم النَّاس إن النَّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً** ﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم : إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصى فخافوا على أنفسكم فما زادهم هذا التخويف إلاَّ إيماناً ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ أي قال المؤمنون الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جلَّ وعلا .

---

(١) حمراء الأسد مكانٌ على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة . (٢) مختصر ابن كثير ١/٣٣٨ .

فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ أي فرجعوا بنعمة السَّلامة وفضل الأجر والثواب ﴿ **لم يمسسهم سوء** ﴾ أي لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿ **واتَّبعوا رضوان الله** ﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿ **والله ذو فضل عظيم** ﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه** ﴾ أي إنما ذلكم القائل ﴿ إن النَّاس قد جمعوا لكم ﴾ بقصد تثبيط العزائم هو الشيطان يخوفكم أولياءه وهم الكفار لترهبوهم ﴿ **فلاَ تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم ، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا ، والمراد بالشيطان « نعيم بن مسعود الأشجعي » الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين ، قال أبو حيان : وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشىء عن وسوسته وإغوائه وإلقائه[1] ﴿ **وَلاَ يَحْزُنكَ الذينَ يُسارِعُونَ في الكُفر** ﴾ تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم ، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿ **إنهم لن يضروا الله شيئاً** ﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم ﴿ **يريد الله ألاَّ يجعل لهم حظاً في الآخرة** ﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشيئته ألاَّ يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم** ﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل ، لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

﴿ **ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ** ﴾ أي لا يظنَّن الكافرون أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب ، وإطالتنا لأعمارهم خير لهم ﴿ **إنما نملي لهم ليزدادُو إثمًا** ﴾ أي إنما نمهلهم

(١) مختصر ابن كثير ١ / ٣٤٠ .

ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿ **ولهم عذاب مهين** ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنَّه سيميز له المؤمن المنافق والمعنى : لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في غزوة أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير « أي لابدّ أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفضح بها عدوه ، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر ، كما ميَّز بينهم يوم أُحد »[1] . ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويله : أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء كما ميَّز بينهم يوم أُحد بالبأساء وجهاد عدوه[2] ﴿ **ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء** ﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطَّلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله ﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم** ﴾ أي وإن تصدّقوا رسلي وتتقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم** ﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النَّفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله والمعنى لا يحسبنَّ البخيلُ أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه ، بل هو مضرّة عليه في دينه ودنياه ﴿ **بل هو شرٌّ لهم** ﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخلُ شرٌّ لهم ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في صحيح البخاري (من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ـ أي ثعباناً عظيماً ـ له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﷺ ﴿ ولا يحسبنَّ الذين يبخلون ﴾ الآية ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾) أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أي مطّلع على أعمالكم . ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إنَّ الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٤٠ . (٢) الطبري ٧/ ٤٢٧ .

عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير ، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿ من ذَا الَّذِي يُقرض الله قرضاً حسناً ﴾ قالوا : إن الله فقير يقترض منا كما قالوا ﴿ يد الله مغلولة ﴾ قال القرطبي : وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا ، وغرضُهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منَّا[1] ﴿ **سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق ، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة : ذوقوا عذاب النَّار المحرقة الملتهبة .

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

﴿ **ذلك بما قدَّمت أيديكم** ﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿ **وأن الله ليس بظلَّام للعبيد** ﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق ، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم ، وعدلِ الله تعالى فيكم ، قال الزمخشري : ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن[2] ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ أي هم الذين قالوا إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿ **ألاَّ نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النَّار** ﴾ أي أمرنا بأن لا نصدّق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدّم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿ **قل قد جاءكم رسلٍ من قبلي بالبيِّنات وبالذي قلتم** ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وإظهاراً لكذبهم : قد جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتم ﴿ **فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ أي فلم كذَّبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله والتصديق برسله ؟ ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ ﴿ **فإن كذَّبوك فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك** ﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذَّبت أسلافهم من قبلُ رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة ﴿ **جاءوا بالبينات** ﴾ أي كذَّبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿ **والزُّبُرِ والكتاب المنير** ﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بِالحِكَمِ والمواعظ ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل .

---

(١) القرطبي ٤/٢٩٤ . (٢) الكشاف ١/٣٤٤ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس ميّتة لا محالة كقوله ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ﴿ **وإنما توفَّون أجوركم يوم القيامة** ﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة ﴿ **فمن زُحْزِحَ عن النَّار وأُدخل الجنَّة فقد فاز** ﴾ أي فمن نُحي عن النَّار وأُبْعِدَ عنها ، وأُدخل الجنَّة فقد فاز بالسعادة السرمدية والنعيم المخلّد ﴿ **وما الحياة الدنيا إلاَّ متاع الغرور** ﴾ أي ليست الدنيا إلاَّ دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور قال ابن كثير : الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة[1] ﴿ **لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم** ﴾ أي والله لتمتحننَّ وتختبرنَّ في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿ **ولتسمعنَّ من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً** ﴾ أي ولينالنَّكم من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير ، وهذا إخبارٌ منه جلَّ وعَلاَ للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجّار ، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأنَّ الجنة حفت بالمكاره ولهذا قال ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا** ﴾ أي وإن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿ **فإنَّ ذلك من عزم الأُمور** ﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها لأنها مِمَّا أَمَرَ الله بها .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب** ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿ **لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه** ﴾ أي لتظهرن ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها ، قال ابن عباس : هي لليهود أُخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه[2] ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً** ﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حُطام الدنيا ﴿ **فبئس ما يشترون** ﴾ أي بئس هذا الشراء

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٤٣ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٢٦ .

وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿ **لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا** ﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن النَّاس ﴿ **ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿ **فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب** ﴾ أي فلا تظنَّنهم بمنجاة من عذاب الله ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيَّاه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إيَّاه ما سألهم عنه[1] ﴿ **ولله ملك السمٰوات والأرض** ﴾ أي له سبحانه جميع ما في السمٰوات والأرض فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً ؟ والآية ردٌّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم . ﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض** ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿ **لآيات لأولي الألباب** ﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته ، ولا يظهر ذلك إلَّا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم .

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾ أي يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿ **ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض** ﴾ أي يتدبرون في ملكوت السموات والأرض ، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿ **ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة ﴿ **سبحانك فقنا عذاب النَّار** ﴾ أي ننزهك يا ألله عن العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم ﴿ **ربنا إنَّك من تدخل النَّار فقد أخزيته** ﴾ أي من أدخلته النَّار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله . والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس

(١) الكشـاف ١/٣٤٥ .

وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ﴿ **ربَّنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان** ﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿ **أن آمنوا بربكم فآمنَّا** ﴾ أي يقول هذا الداعي أيها النَّاس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدَّقنا بذلك واتبعناه ﴿ **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا** ﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿ **وكفِّر عنَّا سيئاتنا** ﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿ **وتوفنا مع الأبرار** ﴾ أي الحقنا بالصالحين قال ابن عباس : الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم ﴾ فلا تكرار إذاً ﴿ **ربَّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك** ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي اعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن عباس ﴿ **ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿ **إنَّك لا تخلفُ الميعاد** ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة .

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى** ﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أبطل عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل أو أنثى قال الحسن : ما زالوا يقولون ربَّنا ، ربَّنا ، حتى استجاب لهم[١] ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ أي الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر[٢] ﴿ **فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم** ﴾ أي هجروا أوطانهم فارين بدينهم ، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿ **وأوذوا في سبيلي** ﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿ **وقاتلوا وقتلوا** ﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿ **لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم** ﴾ أي الموصوفون بما تقدَّم لأمحونَّ ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿ **ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله** ﴾ أي ولأدخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿ **والله عنده حسن الثواب** ﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عيْن رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم نبَّه تعالى إلى ما عليه الكفَّار في هذه الدَّار من النعمة والغبطة والسرور ، وبيَّن أنه نعيم زائل فقال ﴿ **لا يغرَّنك**

(١) القرطبي ٤/٣١٨ .

(٢) قال الطبري : بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين ، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر .

تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد ﴾ أي لا يخدعنَّك أيها السَّامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنَّم وبئس المهاد ﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول هذا النعيم ، ومصيرهم في الآخرة إلى النَّار ، وبئس الفراش والقرار نار جهنم .

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلَّدين فيها أبداً ﴿ نزلاً من عند الله ﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار ، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزَّائل ، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم ﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والنجاشي وأتباعه ﴿ خاشعين لله ﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا يحرِّفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرضٍ من الدنيا خسيس كما فعل الأحبار والرهبان ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفاً كما قال ﴿ أولئك يُؤتون أجرهم مرَّتين ﴾ ﴿ إنَّ الله سريع الحساب ﴾ أي سريعٌ حسابُه لنفوذ علمه بجميع المعلومات ، يعلم ما لكل واحدٍ من الثواب والعقاب ، قال ابن عبَّاس والحسن : نزلت في النجاشي وذلك أنَّه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه : قوموا فصلُّوا على أخيكم النجاشي ، فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلي على علج من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾[1] الآية . ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدَّارين فقال : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا اصبروا ﴾ أي اصبروا على مشاقّ الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿ وصابروا ﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿ ورابطوا ﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين .

---

(١) البحر المحيط ١٤٨/٣ ، القرطبي ٣٢٢/٤ .

(تم بعونـه تعـالى تفسـير سورة آل عمـران)

(٤) سورة النساء مدنية
وآياتها ست وسبعون ومائة

بين يدي الســـــــــورة

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة ، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية ، التي تنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وهي تُعْنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والدولة ، والمجتمع ، ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ، ولهذا سميت « سورة النساء » !!

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام ـ وبخاصة اليتيمات ـ في حجور الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج ، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة .

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها ، وحفظت كيانها ، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر ، والميراث ، وإحسان العشرة .

* كما تعرضت بالتفصيل إلى « أحكام المواريث » على الوجه الدقيق العادل ، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة ، وتحدثت عن المحرمات من النساء « بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة » .

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت انها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية ، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً ، وإنما هو عطاء يوثق المحبة ، ويديم العشرة ، ويربط القلوب .

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية ، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين ، وبيَّنت معنى « قوامة الرجل » وانها ليست قوامة استعباد وتسخير ، وإنما هي قوامة نصحٍ وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته .

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى « دائرة المجتمع » فأمرت بالإحسان في كل شيء ، وبيَّنت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان .
* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها ، فأمرت بأخذ العدَّة لمكافحة الأعداء .
* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية .
* واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين ، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم .
* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام .
* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى بن مريم حيث غالوا فيه حتى عبدوه ثم صلبوه[1] مع اعتقادهم بألوهيته ، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين ، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية « عقيدة التوحيد » وصدق الله حيث يقول : ﴿ **ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلَـه واحد** ﴾ .

التســـمية : سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السورة ولذلك أُطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق .

---

(١) أي زعموا أنه صلب وقد أحسن من قال : إذا صلب الإلَـه بفعل عبدٍ يهودي فما هذا الإلَـه ؟

تفسير سورة النســــــاء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾

افتتح الله جلَّ ثناؤه سورة النساء بخطاب النَّاس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، منبهاً لهم على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ **يَأَيها النَّاس اتقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة** ﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصلٍ واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿ **وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً** ﴾ أي نشر وفرَّق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً ﴿ **واتقوا الله الذي تَسَاءلون به والأرحام** ﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول : أسألك بالله ، وأنشدك بالله ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم ، وقد أكَّد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين : في أول الآية ، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده ، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية ، فالنَّاس جميعاً من أصل واحد ، وهم إخوة في الإنسانية والنسب ، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان ، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس ، وتقضي على الكهل والوليد ، ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم** ﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿ **ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** ﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿ **ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم** ﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً ﴿ **إنَّه كان حوباً كبيراً** ﴾ أي ذنباً عظيمًا ، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف ، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال ﴿ **وإن خفتم ألاَّ تقسطوا في اليتامى** ﴾ أي إذا كانت تحت حَجْر أحدكم يتيمة وخاف ألاَّ يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه[1] ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهنَّ إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً ﴿ **فإن خفتم ألاَّ تعدلوا فواحدة** ﴾ أي إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على الواحدة ﴿ **أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهنَّ من الحقوق كما للزوجات ﴿ **ذلك أدنى ألاَّ تعولوا** ﴾ أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألاَّ تميلوا وتجوروا ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ أي أعطوا النساء مهورهنَّ عطيةً عن طيب نفس ﴿ **فإن طبنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً** ﴾ أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيءٍ من الصَّداق ﴿ **فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالاً طيباً ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً** ﴾ أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها ، قال ابن عبَّاس : السفهاء هم الصبيان والنساء وقال الطبري : لا تؤتِ سفيهاً ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره ، صبياً كان أو رجلاً ، ذكراً كان أوأنثى[2] ﴿ **وارزقوهم فيها واكسوهم** ﴾ أي اطعموهم منها واكسوهم ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ أي قولاً ليناً كقولكم إذا رَشَدْتم سلمنا إليكم أموالكم .

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا

(١) اختار الطبري أن المعنى إن خفتم ألاَّ تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضاً ألاَّ تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهنَّ ، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير .

(٢) الطبري ٧/٥٦٥ .

عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذابلغوا النكاح** ﴾ أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سنَّ النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح ﴿ **فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾ أي إن أبصرتم منهم صلاحاً في دينهم وما لهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿ **ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا** ﴾ أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذّروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿ **ومن كان غنياً فليستعفف** ﴾ أي من كان منكم غنياً أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته ﴿ **ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ أي ومن كان فقيراً فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله ﴿ **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم** ﴾ أي فإذا سلَّمتم الى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشهدوا على ذلك لئلا يجحدوا تسلمها ﴿ **وكفى بالله حسيباً** ﴾ أي كفى بالله محاسباً ورقيباً ، ثم بيَّن تعالى أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء فقال ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضاً الجميع فيه سواء يستوون في أصل الوارثة وإن تفاوتوا في قدرها ، وسببها أن بعض العرب كانوا لا يورِّثون النساء والأطفال وكانوا يقولون : إنما يرث من يحارب ويذبُّ عن الحوزة فأبطل الله حكم الجاهلية ﴿ **مِمَّا قلَّ منه أو كثر** ﴾ أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ﴿ **نصيباً مفروضاً** ﴾ أي نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين .

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

﴿ **وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه** ﴾ أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمساكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطييباً لخاطرهم ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾ أي قولاً جميلاً بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم** ﴾ نزلت في الأوصياء أي تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم وعامل اليتامى الذين في حَجْرك بمثل ما تريد أن يُعامل به أبناؤ ك بعد فقدك ﴿ **فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾ أي فليتقوا

الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا ﴾ أي يأكلونها بدون حق ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ أي ما يأكلون في الحقيقة إلاَّ ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿ وسيصلون سعيراً ﴾ أي سيدخلون ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير .

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

﴿ **يوصيكم الله في أولادكم** ﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ أي للإبن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿ **فإن كنَّ نســاءً فوق اثنتين** ﴾ أي إن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿ **فلهن ثلثا ما ترك** ﴾ أي فللبنتين فأكثر ثلثا التركة ﴿ **وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة . . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين لأن الفرع مقدَّم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿ **ولأبويه لكل واحد منهما السدس** ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿ **مما ترك** ﴾ أي من تركة الميت ﴿ **إن كان له ولد** ﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿ **فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه** ﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معهما أحد الزوجين ﴿ **فلأُمه الثلث** ﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿ **فإن كان له إخوة فلأمه السدس** ﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت « اثنان فأكثر » فالأم ترث حينئذٍ السدس فقط والباقي للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿ **من بعد وصية يُوصي بها أو دين** ﴾ أي إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلاَّ بعد ذلك ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله** ﴾ أي إنَّه تعالى تولى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة ، فقسَّم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿ **إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا** ﴾ أي إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض .

* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿ **ولكم نصف** ما ترك **أزواجكم** إن لم يكن لهنَّ **ولد** ﴾ أي ولكم أيها **الرجال** نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿ **فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن** ﴾ أي من ميراثهن ، وألحق بالولد في ذلك ولد الإبن بالإجماع ﴿ **من بعد وصية يوصين بها أو دين** ﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿ **ولهنَّ الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد** ﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهنَّ أو من غيرهنَّ ﴿ **فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم** ﴾ أي فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿ **من بعد وصيةٍ توصون بها أو دين** ﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفى . ﴿ **وإن كان رجلٌ يورثُ كلالةً** ﴾ أي وإن كان الميت يورث كلالة أي لا والد له ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿ **أو امرأة** ﴾ عطف على رجل والمعنى : أو امرأةٌ تورث كلالة ﴿ **وله أخ أو أخت** ﴾ أي وللمورِّث أخ أو أخت من أم ﴿ **فلكل واحد منهما السدس** ﴾ أي فللأخ من الأم السدس وللأخت للأم السدس أيضاً ﴿ **فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث** ﴾ أي فإن كان الأخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، قال في البحر : وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿ **من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مضار** ﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السَّلام (الثلث والثلث كثير) ﴿ **وصيةً من الله** ﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿ **والله عليم حليم** ﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ

ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

﴿ **تلك حدود الله** ﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدَّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخلْه جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بيَّن ، يدخله جنَّات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ما كثين فيها أبداً ﴿ **وذلك الفوز العظيم** ﴾ أي الفلاح العظيم ﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده** ﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول ويتجاوز ما حدَّه تعالى له من الطاعات ﴿ **يدخله ناراً خالداً فيها** ﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرُج منها أبداً ﴿ **وله عذاب مهين** ﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال . ﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعة منكم** ﴾ أي اللواتي يزنين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿ **فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوت** ﴾ أي فإن ثبتت بالشهود جريمتهن فاحبسوهنَّ في البيوت ﴿ **حتى يتوفاهنَّ الموت** ﴾ أي احبسوهنَّ فيها إلى الموت ﴿ **أويجعل الله لهنَّ سبيلاً** ﴾ أي يجعل الله لهنَّ مخلصاً بما يشرعه من الأحكام قال ابن كثير : كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيِّنة العادلة حُبِست في بيت فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم[1] .

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

﴿ **واللذان يأتيانها منكم** ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿ **فآذوهما** ﴾ أي بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال ﴿ **فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما** ﴾ أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفّوا عن إيذاء لهما ﴿ **إنَّ الله كان تواباً رحيمًا** ﴾ أي مبالغاً في قبول التوبة وواسع الرحمة . قال الفخر الرازي : « خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٦٦ .

هذه المعصية ، وأمَّا الرجل فإنَّه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة[1] ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة** ﴾ أي إنَّما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مقدِّراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب ﴿ **ثم يتوبون من قريب** ﴾ أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت ﴿ **فأولئك يتوب الله عليهم** ﴾ أي يتقبل الله توبتهم ﴿ وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ **أي عليمًا بخلقه حكيمًا في شرعه** ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيِّئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن** ﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة[2] وفي الحديث (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) ﴿ **ولا الذين يموتون وهم كفَّار** ﴾ أي يموتون على الكفر فلا يُقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿ **أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليمًا** ﴾ أي هيأنا وأعددنا لهم عذاباً مؤلماً .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

﴿ **يَأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرهاً** ﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهنَّ بعد موت أزواجهنَّ كرهاً عنهنَّ ، قال ابن عبَّاس : كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤ ه أحقَّ بامرأته إن شاءوا تزوَّجها أحدهم ، وإن شاءوا زوجوها غيرهم ، وإن شاءوا منعوها الزواج[3] ﴿ **ولا تعضلوهنَّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنَّ** ﴾ أي ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصَّداق ﴿ **إلاَّ أن يأتينَّ بفاحشة مبيَّنة** ﴾ أي إلاَّ في حال إتيانهنَّ بفاحشة الزنا وقال ابن عبَّاس : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ﴿ **وعاشر وهنَّ بالمعروف** ﴾ أي صاحبوهنَّ بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿ **فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل**

(١) التفسير الكبير للرازي ٩/٢٣٥ .

(٢) قال الشهيد سيد قطب في الظلال : « فهذه توبة المضطر لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة ، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا في الاتجاه » .

(٣) القرطبي ٥/٩٤ .

الله فيه خيراً كثيراً ﴾ أي فإن كرهتم صحبتهنَّ فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فعسى أن يرزقكم الله منهنَّ ولداً صالحاً تَقَرُّ به أعينكم ، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث الصحيح (لا يَفْرِكْ « أي لا يبغض » مؤمنٌ مؤمنة إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر) ثم حذَّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوج ﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿ وآتيتم إحداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ أي والحال أنكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً ﴿ فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر ﴿ أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ استفهام إنكاري أي أتأخذونه باطلاً وظلماً ؟

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهنَّ بالمعاشرة الزوجية ؟ ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً هو « عقد النكاح » قال مجاهد : الميثاق الغليظ عقدة النكاح وفي الحديث (اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ﴾(١) . ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النِّساء إلاَّ ما قد سلف ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوَّج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿ إنَّه كان فاحشة ومقتاً ﴾ أي فإن نكاحهنَّ أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة ، وبلغ الذروة العليا من الفظاعة والبشاعة ، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ؟ ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي بئس ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقاً ، ثم بيَّن تعالى المحرّمات من النساء فقال ﴿ حُرِّمت عليكم أمهاتكم ﴾ أي حرَّم عليكم نكاح الأمهات وشمل اللفظ الجدَّات من قبل الأب أو الأم ﴿ وبناتكم ﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلن ﴿ وأخواتكم ﴾ أي شقيقة كانت

---

(١) أخرجه مسلم .

أو لأب أو لأم ﴿ **وعماتكم** ﴾ أي أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم ﴿ **وبنات الأخ وبنات الأخت** ﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن ، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهنَّ كما تقدم « **الأمهات ، البنات ، الأخوات ، العمات ، الخالات ، بنات الأخ ، بنات الأخت** » ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿ **وأمهاتكم اللآتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ نزَّل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمّى المرضعة أماً للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك ، وكذلك أختك من الرضاع ، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى « **الأمهات والأخوات** » وقد وضَّحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه السَّــلام (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[1] ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرِّم الأم ﴿ **وربائبكم اللاتي في حجوركم** ﴾ أي بنات أزواجكم اللآتي ربيتموهن ، وذكرُ الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع ﴿ **من نسائكم اللآتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللآتي أدخلتموهنَّ الستر قاله ابن عبَّاس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهنَّ وفارقتموهنَّ فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ أي وحُرِّم عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين ولدتموهنَّ من أصلابكم بخلاف من تبنيتموهنَّ فلكم نكاح حلائلهم ﴿ **وأن تجمعوا بين الأختين إلاَّ ما قد سلف** ﴾ أي وحُرِّم عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلاَّ ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه ﴿ **إن الله كان غفوراً رحيمًا** ﴾ أي غفوراً لما سلف رحيمًا بالعباد .

* وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿ **والمحصنات من النساء إلاَّ ما ملكت أيمانكم** ﴾ أي وحُرِّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلاَّ ما ملكتموهنَّ بالسبي فيحل لكم وطؤهنَّ بعد الاستبراء ولو كان لهنَّ أزواج في دار الحرب لأنَّ بالسبي تنقطع عصمة الكفر ﴿ ولا تمسكوا بعِصم الكوافر ﴾ ﴿ **كتاب الله عليكم** ﴾ أي

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

هذا فرض الله عليكم ﴿ وأُحلَّ لكم ما وراء ذلكم ﴾ أي أُحلَّ لكم نكاح ما سواهنَّ ﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهنَّ المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهنَّ مهورهنَّ فريضةً فرضها الله عليكم بقوله ﴿ وآتوا النساء صدقاتهنَّ نحلة ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ أي لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهنَّ كقوله ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ قال ابن كثير : أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿ إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا ﴾ أي عليمًا بمصالح العباد حكيمًا فيما شرع لهم من الأحكام .

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر المؤمنات ﴿ فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللآتي يملكهنَّ المؤمنون ﴿ والله أعلم بإيمانكم ﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفسٍ واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهنَّ فربَّ أمة خير من حرة ، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرةُ بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿ فانكحوهنَّ بإذن أهلهنَّ ﴾ أي تزوجوهنَّ بأمر أسيادهنَّ وموافقة مواليهن ﴿ وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروف ﴾ أي ادفعوا لهن مهورهن عن طيب نفسٍ ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات ﴿ محصنات غير مسافحات ﴾ أي عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ أي ولا مستترات بالزنى مع أخدانهن قال ابن عبَّـاس : الخِدنُ هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفوحش ما ظهر منها وما بطن[1] ﴿ فإذا أُحصنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ أي فإذا أُحصنَّ بالزواج ثم زنين فعليهن نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى ﴿ ذلك لمن خشي العَنت منكم ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿ وأن تصبروا خير لكم ﴾

(١) البحر المحيط ٣/٢٢٢ .

أي صبركم وتعففكم عن نكاحهنَّ أفضل لئلا يصير الولد رقيقاً وفي الحديث (من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فلينكح الحرائر)[1] ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة .

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿ **يريد الله ليبيِّن لكم** ﴾ أي يريد الله أن يفصّل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿ **ويهديكم سنن الذين من قبلكم** ﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿ **ويتوب عليكم** ﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم** ﴾ كرَّره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام ، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿ **ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيمًا** ﴾ أي ويريد الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم** ﴾ أي يريد تعالى بما يسَّر أن يسهّل عليكم أحكام الشرع ﴿ **وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً** ﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن اتباع الشهوات ، ثم حذر تعالى من أكل أموال النَّاس بالباطل فقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿ **إلاَّ أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾ أي إلاَّ ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلَّها الله قال ابن كثير : الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها[2] ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا** ﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزَّجر ، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم .

(١) أخرجه ابن ماجة عن أنس مرفوعاً .
(٢) مختصر ابن كثير ١/ ٣٧٨ .

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلمًا ﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظالماً لا سهواً ولا خطأً ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّرْ عنكم سيئاتكم ﴾ أي إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عزَّ وَجَلّ عنها نمح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾ أي نُدخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم ، التي فيها ما لا عيْن رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! . ﴿ ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض ﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خصَّ الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري : نهُوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض النَّاس على بعض من الجاه والمال لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ أي لكلٍ من الفريقين في الميراث نصيبٌ معين المقدار قال الطبري : كلٌ له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر[1] ، ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ أي وسلوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهّاب ﴿ إن الله كان بكل شيء عليمًا ﴾ أي ولذلك جعل النَّاس طبقات ورفع بعضهم درجات .

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿ ولكلٍ جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ أي ولكل إنسانٍ جعلنا عصبةً يرثون ماله ممَّا تركه الوالدان والأقارب من الميراث ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث ، وقد كان هذا في

(١) الطبري ٨/٢٦٧ .

ابتداء الإسلام ثم نسخ ، قال الحسن : كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسبٌ فيرث أحدُهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله ﴿ وأُولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض ﴾ وقال ابن عباس : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ ولكلٍ جعلنا موالي ﴾ نسخت[1] ﴿ **إن الله كان على كل شيء شهيداً** ﴾ أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه . . ثم بيَّن تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسئولية والتوجيه فقال ﴿ **الرجال قوامون على النِّساء** ﴾ أي قائمون عليهنَّ بالأمر والنهي ، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرَّعية ﴿ **بما فضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب قال أبو السعود : « والتفضيلُ للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة ، ولذلك خصّوا بالنبوّة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك »[2] ﴿ **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، وقد ذكر تعالى أنهنَّ قسمان : قسم صالحات مطيعات ، وقسم عاصيات متمردات ، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهنَّ ، قائمات بما عليهنَّ من حقوق ، يحفظن أنفسهنَّ عن الفاحشة وأموال أزواجهنَّ عن التبذير كما أنهنَّ حافظات لما يجري بينهنَّ وبين أزواجهنَّ مما يجب كتمه ويجمل ستره وفي الحديث (إن من شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة ، الرجلُ يُفْضي إلى امرأته وتُفضي إليه ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه) ﴿ **واللآتي تخافون نشوزهنَّ** ﴾ هذا القسم الثاني وهنَّ النساء العاصيات المتمردات أي واللآتي يتكبرن ويتعالين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح ﴿ **فعظوهنَّ واهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ** ﴾ أي فخوفوهنَّ الله بطريق النصح والإرشاد ، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهنَّ في الفراش فلا تكلِّموهنَّ ولا تقربوهنَّ قال ابن عباس : الهجر ألَّا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره[3] ، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرّح ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلا** ﴾ أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ﴿ **إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهنَّ . . أنظر كيف يعلمنا الله سبحانه أن نؤدِّب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون للضعفاء وملاذ المظلومين !!

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٨٤ . (٢) إرشاد العقل السليم ١/٣٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٣٨٦ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) ﴾

﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها** ﴾ أي وإن خشيتم أيها الحكام مخالفةً وعداوةً بين الزوجين فوجهوا **حكمًا** عدلاً من أهل الزوج وحكمًا عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ﴾ أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿ **إن الله كان عليمًا خبيراً** ﴾ أي عليمًا بأحوال العباد حكيمًا في تشريعه لهم ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾ أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنمًا أو غيره ، واستوصوا بالوالدين براً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً ﴿ **وبذي القربى واليتامى والمساكين** ﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿ **والجار ذي القربى** ﴾ أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿ **والجار الجنب** ﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿ **والصاحب بالجنب** ﴾ قال ابن عباس : هو الرفيق في السفر ، وقال الزمخشري : « هو الذي صحبك إمّا رفيقاً في سفر ، أو جاراً ملاصقاً ، أو شريكاً في تعلم علم ، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك ، من له أدنى صحبةٍ التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل : هي المرأة »[1] ﴿ **وابن السبيل** ﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿ **وما ملكت أيمانكم** ﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿ **إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً** ﴾ أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم ، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق ، ومن تدبرها حق التدبر أغنتْه عن كثير من مواعظ البلغاء ، ونصائح الحكماء . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق ، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات ، وهي مع ذلك عامة ﴿ **ويكتمون ما آتاهم الله من فضله** ﴾ أي يخفون ما عندهم من

(١) الكشاف ١/٣٩٣ وهذا الرأي اختيار الطبري أيضاً .

المال والغنى ، ويخفُون نعته عليه السَّــلام الموجود في التوراة[١] ﴿ **واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليمًا مع الخزي والإذلال لهم .

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾

﴿ **والذين ينفقون أموالهم رئاء النَّاس** ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله ﴿ **ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾ أي ولا يؤ منون الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والآية في المنافقين ﴿ **ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً** ﴾ أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب ﴿ **وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعةٍ ووبالٍ عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ؟ قال الزمخشري : وهذا كما يقال للمنتقم : ما ضرّك لو عفوت ؟ وللعاقّ : ما كان يرزؤك لو كنت باراً ؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة[٢] ﴿ **وكان الله بهم عليمًا** ﴾ وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرَّة** ﴾ أي لا يبخس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرَّة وهي الهباءة وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير ﴿ **وإن تَكُ حسنة يضاعفها** ﴾ أي وإن كانت تلك الذرَّة حسنة ينمّها ويجعلها أضعافاً كثيرة ﴿ **ويؤت من لدنه أجراً عظيمًا** ﴾ أي ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيمًا وهو الجنة ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ أي كيف يكون حال الكفَّار والفجار حين نأتي من كل أمةٍ بنبيها يشهد عليها ، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذّبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان ؟ كيف يكون موقفهم ؟ وكيف يكون حالهم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع .

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا

(١) هذا ما رجحه الطبري وأبو السعود . (٢) الكشــاف ١/٣٩٥ .

فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

﴿ **يومئذٍ يود الذين كفروا وعصوا الرسول** ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ﴿ **لو تُسَوّى بهم الأرض** ﴾ أي لو يدفنوا في الأرض ثم تُسوّى بهم كما تُسوَّى بالموتى ، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله ﴿ يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كُنْتُ تراباً ﴾ وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿ **ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾ أي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه(١) . . ثم أمر تعالى باجتناب الصَّلاة في حال السكر والجنابة فقال ﴿ **يَأَيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ أي لا تصلُّوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روي الترمذي عن علي كرَّم الله وجهه أنه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منّا وحضرت الصَّلاة فقدَّموني فقرأت « قل يَأَيها الكافرون * أعبد ما تعبدون * ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله ﴿ **يَأَيها الذين آمنوا لا تقربوا الصَّلاة وأنتم سكارى** ﴾(٢) الآيــة ﴿ **ولا جنباً إلاَّ عابري سبيل حتى تغتسلوا** ﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزالٍ أو إيلاج إلاَّ إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلُّوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿ **أو لامستم النِّساء** ﴾ قال ابن عباس : هو الجماع ﴿ **فلم تجدوا ماءً** ﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿ **فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿ **إن الله كان عفواً غفوراً** ﴾ أي يرخّص ويسهّل على عباده لئلا يقعوا في الحرج .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ

(١) هذا التفسير على الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل : إن الجملة معطوفة على السَّابق أي يودون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون أن تسوّى بهم الأرض ، أنظر الكشاف ٣٩٦/١ .

(٢) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

﴿ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب** ﴾ الاستفهام للتعجيب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم أي ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿ **يشترون الضَّــلالة** ﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿ **ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿ **والله أعلم بأعدائكم** ﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالِّين منكم فاحذروهم ﴿ **وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ أي حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم . . ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللعناء فقال ﴿ **من الذين هادوا يحرّفون الكَلِم عن مواضعه** ﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدّلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيَّروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿ **ويقولون سمعنا وعصينا** ﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان سمعنا قولك وعصينا أمرك قال مجاهد : سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿ **واسمع غير مسمع** ﴾ أي اسمع ما نقول لا سمعتَ والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لا سمعتَ مكروهاً ولكنَّ اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعكَ الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت ﴿ **وراعنا** ﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سبّ من الرعونة وهي الحُمْق فكانوا سخريةً وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلّمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ولهذا قال تعالى ﴿ **لياً بألسنتهم وطعناً في الدين** ﴾ أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام قال ابن عطية : وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربّون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير[1] ﴿ **ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ أي عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا ﴿ **واسمع وانظرنا** ﴾ أي عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿ **لكان خيراً لهم وأقوم** ﴾ أي لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿ **ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً** ﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السَّابق فلا يؤمنون إلاَّ إيماناً قليلاً ، قال الزمخشري : أي ضعيفاً ركيكاً لا يُعبأ به[2] وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل .

(١) البحر المحيط ٢٦٤/٣ . (٢) الكشّــاف ٤٠١/١ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال ﴿ **يَاأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزَّلنا** ﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزَّلناه على محمد ﷺ ﴿ **مصدّقاً لما معكم** ﴾ أي مصدقاً للتوراة ﴿ **من قبل أن نطمس وجوهاً فنردَّها على أدبارها** ﴾ أي نطمس منها الحواس من أنفٍ أو عين أو حاجب حتى تصير كالأدبار ، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عبَّاس[١] ﴿ **أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت** ﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿ **إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿ **ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا** ﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثمًا عظيمًا قال الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله . .[٢] ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم** ﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى ؟ والاستفهام للتعجيب من أمرهم ، قال قتادة : ذلكم أعداء الله اليهود زكُّوا أنفسهم فقالوا ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ وقالوا : لا ذنوب لنا[٣] ﴿ **بل الله يزكي من يشاء** ﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿ **ولا يُظْلمون فتيلًا** ﴾ أي لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثلٌ للقلة كقوله ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرَّة ﴾ ﴿ **انظر كيف يفترون على الله الكذب** ﴾ هذا تعجيب من افترائهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟ ﴿ **وكفى به إثمًا مبيناً** ﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزراً بيِّناً وجرماً عظيمًا .

---

(١) وهو اختيار الطبري حيث قال : أي من قبل أن نطمس أبصارها نمحو آثارها فنسوِّيها كالأقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقرى .

(٢) الطبري ٤٥٠/٨ .

(٣) الطبري ٤٥٢/٨ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت** ﴾ الاستفهام للتعجيب والمراد بهم أيضاً اليهود أُعطوا حظاً من التوراة وهم مع ذلك يؤمنون بالأوثان والأصنام وكلّ ما عبد من دون الرحمن ﴿ **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** ﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه ، قال ابن كثير : يفضّلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بين أيديهم[1] قال تعالى إخباراً عن ضلالهم ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله** ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ **ومن يلعنِ الله فلن تجد له نصيراً** ﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله ؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِن المُلْك** ﴾ أي أم لهم حظٌ من الملك ؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس لهم من الملك شيء ﴿ **فإذاً لا يؤتون النّاس نقيراً** ﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم ، والنقير مثلٌ في القلة كالفتيل والقمطير وهو النكتة في ظهر النواة ، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿ **أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ قال ابن عبَّاس حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى : بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضّل الله بها محمداً وشرّف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العزّ والتمكين ؟ ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيمًا** ﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلأي شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم ؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم .

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٠٣ .

﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه ﴾ أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿ فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ ﴿ وكفي بجهنم سعيراً ﴾ أي كفى بالنَّار المسعَّرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم . . ثم أخبر تعالى بما أعدَّه للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿ كلَّما نضجت جلودهم بدَّلناها جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ أي كلَّما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بدَّلناها جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ، قال الحسن : تُنْضجهم النَّار في اليوم سبعين ألف مرَّة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فعادوا كما كانوا ، وقال الربيع : جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وبطنُه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النَّار جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها وفي الحديث (يعظم أهل النَّار في النَّار حتى إنَّ بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضرسه مثل أحد)[1] ﴿ إنَّ الله كان عزيزاً حكيمًا ﴾ أي عزيز لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذِّب إلاَّ بعدل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنَّات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿ لهم فيها أزواجٌ مطهرة ﴾ أي لهم في الجنة زوجات مطهّرات من الأقذار والأذى قال مجاهد : مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ أي ظلاً دائمًا لا تنسخه الشمس ولا حرّ فيه ولا برد ، قال الحسن : وُصف بأنَّه ظليل لأنَّه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم ، وفي الحديث (إن في الجنة لشجرة يسير الرَّاكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ﴾)[2] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

﴿ إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواءً كانت حقوق الله أو العباد ، قال الزمخشري : الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة[3]، والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها قال ابن كثير : يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عزَّ وَجَلّ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفَّارات وغيرها ، ومن حقوق العباد

(١) أخرجه أحمد في المسند . (٢) أخرجه الشيخان . (٣) ، الكشاف ١/٤٠٥ .

بعضهم على بعض كالودائع وغيرها[1] ﴿ **وإذا حكمتم بين النَّاس أن تحكموا بالعدل** ﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين النّاس في أحكامكم ﴿ **إنَّ الله نعما يعظكم به** ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿ **إن الله كان سميعا بصيراً** ﴾ فيه وعدٌ ووعيد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم ﴿ **يَأَيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وفي قوله ﴿ **منكم** ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم أن يكونوا مسلمين حِسّاً ومعنى ، لحمًا ودماً ، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول** ﴾ أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردّوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل : إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ **ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً . .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدّعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه فقال : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ تعجيبٌ من أمر من يدّعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت** ﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت قال ابن عباس هو « كعب بن الأشرف » أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿ **وقد أُمروا أن يكفروا به** ﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ﴿ **ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾ **أي ويريد الشيطان بما زيّن لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى** ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول** ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٠٥ .

فيما تنازعتم فيه ﴿ **رأيتَ المنافقين يصدّون عنك صدوداً** ﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً ﴿ **فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدَّمت أيديهم** ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب ؟ ﴿ **ثم جاءُوك يحلفون بالله إن أردنا إلاَّ إحساناً وتوفيقاً** ﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للإعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلاَّ الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك .

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾

قال تعالى تكذيباً لهم ﴿ **أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم** ﴾ أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام المعسول ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ أي فأعرضْ عن معاقبتهم للمصلحة ولا تُظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجلٍ وحذر ﴿ **وعظهم** ﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿ **وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً** ﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً ، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلاَّ ليطُاع بإذن الله** ﴾ أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلاَّ ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعةٌ لله ومعصيته معصيةٌ لله ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله** ﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم ﴿ **واستغفر لهم الرسول** ﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿ **لوجدوا الله تواباً رحيًما** ﴾ أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بيَّن تعالى طريق الإيمان الصادق فقال ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم** ﴾ اللام لتأكيد القسم أي فَوربك يا محمد لا يكوننَّ مؤمنين حتى يجعلوك حكمًا بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليمًا** ﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً لقضائك ، من

غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة ، فحقيقة الإِيمان الخضوع والإِذعان ﴿ **ولو أنَّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿ **ما فعلوه إلاّ قليل منهم** ﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلاّ قليل منهم لضعف إيمانهم ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً** ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشدَّ تثبيتاً لإِيمانهم ، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق .

وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ
ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾
وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾

﴿ **وإذاً لآتيناهم من لَدُنَّآ أجراً عظيمًا** ﴾ أي أرشدناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم ، ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم** ﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله ، فإن الله عزَّ وَجلّ يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿ من النَّبيين **والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين** ﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصدِّيقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿ **وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم ، وَحَسُن رفيق أولئك الأبرار ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصِّديقين والشهداء والصَّالحين ﴾ فعلمتُ أنَّهُ خير[1] ﴿ **ذلك الفضل من الله** ﴾ أي ما أُعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى ﴿ **وكفى بالله عليمًا** ﴾ أي وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع عالماً بمن يستحق الفضل والإِحسان . ﴿ **يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم** ﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿ **فانفروا ثُباتٍ أو انفروا جميعاً** ﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين ، سريَّةً بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف ، فخيَّرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿ **وإنَّ منكم لَمن**

(١) مختصر ابن كثير ١/٤١١ .

ليبطئنَّ ﴾ أي ليتثاقلنَّ ويتخلّفن عن الجهاد ، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظّاهر ﴿ **فإن أصابتكم مصيبة** ﴾ أي قتلٌ وهزيمة ﴿ **قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً** ﴾ أي قال ذلك المنافق قد تفضَّل الله عليَّ إذ لم أشهد الحرب، معهم فأُقتل ضمن من قتلوا .

وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿ **ولئن أصابكم فضلٌ من الله** ﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿ **ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودَّة يا ليتني كُنت معهم فأفوز فوزاً عظيمًا** ﴾ أي ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة يا ليتني كُنْتُ معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة ، وجملة ﴿ كأن لم تكن ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم ، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزَّة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام ، ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿ **فلْيقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿ **ومن يقاتل في سبيل الله فيُقْتَل أو يَغْلب فسوف نؤتيه أجراً عظيًا** ﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواءً غَلَبَ أَوْ غُلِبَ أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فَيُستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنيين : الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يُخْرِجهُ إلاَّ جِهَادٌ فيَ سبيلي ، وَإِيمَانٌ بِي وتَصْدِيقٌ بِرُسلي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِن أَنْ أُدْخِلهُ الجَنَّــة أَوْ أُرجعه إلى مسكنه الذي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِن أَجْر أَوْ غَنِيمة)[1] ﴿ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والمستضعَفِينَ مِنَ الرِّجَال والنِّسَــاءِ وَالوِلْدَان** ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي : وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد ؟! وقوله ﴿ **من الرجال والنساء والولدان** ﴾ بيانٌ للمستضعفين قال

(١) أخرجه مسلم .

ابن عباس : كنتُ أنا وأمي من المستضعفين ، وهم الذين كان يدعوا لهم الرسول ﷺ فيقول : اللَّهُمَّ أنْج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام . . . إلخ كما في الصحيح ﴿ **الذين يقولون ربَّنا أخرجنا من هذه القرية** ﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضُّر عنهم قائلين : ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة إذ أنها كانت موطن الكفر ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿ **الظَّالم أهلُها** ﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿ **واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً وسخّر لنا من عندك ولياً وناصراً ، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولّى عليهم « عتَّاب بن أسيد » فأنصف مظلومهم من ظالمهم .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

ثم شجع تعالى المجاهدين ورغَّبهم في الجهاد فقال ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله** ﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سامٍ وغاية نبيلة وهي نصرة دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿ **والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغوت** ﴾ أي وأمَّا الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان** ﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم ، فشتَّان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان ، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يَغْلب لأنَّ الله وليُّه وناصرهُ ، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ولهذا قال ﴿ **إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ أي سعيُ الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله ؟! قال الزمخشري : كيدُ الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه[1] ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة** ﴾ أي لا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم : أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته وأعدُّوا نفوسكم بإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ﴿ **فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون النَّاس كخشية الله أو أشد خشية** ﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد

(١) الكشاف ١/٤١٤ .

من ذلك ، قال ابن كثير : كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصَّلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين وكانوا يتحرَّقون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم فلما أمروا بما كانوا يودُّونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة النَّاس خوفاً شديداً(١) ﴿ **وقالوا ربَّنا لم كتبت علينا القتال** ﴾ أي وقالوا جزعاً من الموت ربَّنا لم فرضت علينا القتال ؟ ﴿ **لولا أخَّرتنا إلى أجلٍ قريب** ﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاَّ أي هلاَّ أخرتنا إلى أجل قريب حتى نموتَ بآجالنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء ! ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتَّقى** ﴾ أي قل لهم يا محمد إن نعيم الدنيا فانٍ وإن نعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتَّقى الله وامتثل أمره ﴿ **وَلاَ تُظْلمون فتيلاً** ﴾ أي لا تُنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق النواة قال في التسهيل : إنَّ الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنَّوا أن يؤمروا به ، فلما أُمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت ، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام(٢) .

أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

﴿ **أينما تكونوا يُدْرِككُّمُ الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيدة** ﴾ أي في أي مكانٍ وجدتم فلابدّ أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله** ﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنةٌ من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿ **وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك** ﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة وجوع وشبه ذلك يقولوا هذا بسبب اتِّباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه ، قال السدِّي : يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿ وإن تصبهم سيئةٌ يطيَّروا بموسى ومن معه ﴾ ﴿ **قل كلٌ من عند الله** ﴾ أُمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان

(١) مختصر ابن كثير ١/٤١٣ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٤٨ ، واختار هذا القرطبي وأبوحيان وهو الأرجح ، قال في البحر : الظاهر أن القائلين هذا هم منافقون لأنَّ الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسألُ عن علته من هو خالصُ الإيمان ولهذا جاء السياق بعده ﴿ **وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك** ﴾ وهذا لا يصدر إلاّ من منافق اهـ البحر ٣/٩٢٨ .

أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء : الحسنةُ والسيئة والنعمةُ والنقمة كلٌّ ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿ **فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً** ﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله ؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم . . ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان ﴿ **ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك** ﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً ، وما أصابك من بليَّة ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ . . ثم قال تعالى مخاطباً الرسول ﴿ **وأرسلناك للنّاس رسولاً وكفى بالله شهيداً** ﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس أجمعين تبلّغهم شرائع الله وحسبك أن يكون الله شاهداً على رسالتك ، ثم رغّب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله لأنه مبلّغٌ عن الله ﴿ **ومن تولىَّ فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلَّا البلاغ .

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

﴿ **ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول** ﴾ أي ويقول المنافقون : أمرك يا محمد طاعة كقول القائل : « سمعاً وطاعة » فإذا خرجوا من عندك دبَّر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿ **والله يكتب ما يبيتون** ﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿ **فأعرضْ عنهم وتوكل على الله** ﴾ أي اصفح عنهم وفوّض أمرك إلى الله وثق به ﴿ **وكفى بالله وكيلاً** ﴾ أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه ، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلقاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزَّه عن ذلك فأخباره صدق ، ونظمه بليغ ، ومعانيه محكمة ، فدلَّ على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿ **وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾

أي إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدَّثوا به من قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿ **ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ أي لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردُّوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتَّبعتم الشيطان إلاَّ قليلاً** ﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإنزال القرآن لاتَّبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلاَّ قليلاً منكم .

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾

ثم أمر الرسول بالجهاد فقال ﴿ **فقاتل في سبيل الله لا تُكلَّف إلاَّ نفسك** ﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنَّك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف المنافقين عنك ﴿ **وحرِّض المؤمنين** ﴾ أي شجِّعهم على القتال ورغِّبْهم فيه ﴿ **عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا** ﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم و﴿ عسى ﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شرَّ الكفرة الفجار ، وقد كفَّهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكَّة ﴿ **والله أشدُّ بأساً وأشدّ تنكيلاً** ﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة ، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ أي من يشفع بين النَّاس شفاعة موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئةً يكن له كفلٌ منها** ﴾ أي ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿ **وكان الله على كل شيء مقيتاً** ﴾ أي مقتدراً فيجازي كل أحدٍ بعمله ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردّوها** ﴾ أي إذا سلَّم عليكم المسلم فردّوا عليه بأفضل مما سلّم أو رُدُّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿ **إنَّ الله كان على كل شيء حسيباً** ﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿ **الله لا إلهَ إلاَّ هُو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ليحشرنَّكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شكَّ فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ للجزاء والحساب ﴿ **ومن أصدق من الله حديثاً** ﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي : لا أحد أصدقُ في الحديث والوعد من الله رب العالمين .

* ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا** ﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين ، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول لا نقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكَّسهم وردهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿ **أتريدون أن تهدوا من أضلَّ الله** ﴾ أي أتريدون هداية من أضلَّه الله ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين ، والمعنى : لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير لأن الله حكم بضلالهم ﴿ **ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿ **ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً** ﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستووا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿ **فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله** ﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿ **فإن تولَّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم** ﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرمٍ ﴿ **ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً** ﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة .

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

﴿ **إلاَّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ أي إلاَّ الذين ينتهون ويلجأون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحِلْف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم** ﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلاَّ الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ **ولو شاء الله**

لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أي من لطفه بكم أن كفّهم عنكم ولو شاء لقوّاهم وجرّأهم عليكم فقاتلوكم ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً** ﴾ أي فإن لم يتعرَّضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم طالما سالموكم ﴿ **ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم** ﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم ، قال أبو السعود : هم قوم من « أسد وغطفان » كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وهاعدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم[١] ﴿ **كلّما ردّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها** ﴾ أي كلّما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقُلبوا فيه على أسوأ شكل فهم شرٌ من كل عدو شرير ﴿ **فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم** ﴾ أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿ **فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم** ﴾ أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿ **وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً** ﴾ أي **جعلنا** لكم على أخذهم وقتلهم حجَّة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً** ﴾ أي لا ينبغي لمؤمنٍ ولا يليق به أن يقتل مؤمناً إلاّ على وجه الخطأ لأنَّ الإيمان زاجرٌ عن العدوان ﴿ **ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ ودية مسلمةٌ إلى أهله إلاّ أن يصَّدقوا** ﴾ أي ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبةٍ مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، وعليه كذلك ديةٌ مؤداة إلى ورثة المقتول إلاّ إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الديَّة ، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين : الكفَّارة وهي **تحرير** رقبة مؤمنة في مال القاتل ، والدِّية وهي مائة من الإبل على العاقلة ﴿ **فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنة** ﴾ أي إن كان المقتول خطأً مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفَّارة فقط دون الدِّية لئلاَّ يستعينوا بها على المسلمين ﴿ **وإن كام من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ أي وإن كان المقتول خطأً من قوم كفرة بينكم وبينهم

(١) أنظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣٢٦/٣ ، وفي ابن كثير ٤٢٢/١ من المختصر .

عهد كأهل الذِّمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق رقبة مؤمنة ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله** ﴾ أي فمن لم يجد الرَّقبة فعليه صيام شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿ **وكان الله عليمًا حكيمًا** ﴾ أي عليمًا بخلقه حكيمًا فيما شرع . . ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنَّم** خالداً **فيها** ﴾ أي ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها على الدَّوام ، وهذا محمول عند الجمهور على من استحلَّ قتل المؤمن ، قال ابن عبَّاس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً ﴿ **وَغَضِبَ الله عليه وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيمًا** ﴾ أي ويناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيَّنوا** ﴾ أي إذا سافرتم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقوا إليكم السلام لست مؤمناً** ﴾ أي ولا تقولوا لمن حيَّاكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه ﴿ **تبتغون عرض الحياة الدنيا** ﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطامٌ سريع الزوال ﴿ **فعند الله مغانم كثيرة** ﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعدَّه لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿ **كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا** ﴾ أي كذلك كنتم كفَّاراً فهداكم للإسلام ومنَّ عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ أي مطّلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿ **لا يستوي القاعدون** من **المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم** ﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض ، قال ابن عبَّاس : هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها ، ولما

نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال : يا رسول الله ! هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾ ﴿ **فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة** ﴾ أي فضَّل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ : (إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلَّا وهم معكم فيه قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم . حبسهم العذر)[1] ﴿ **وكلاً وعد الله الحسنى** ﴾ أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضررٍ لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿ **وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيمًا** ﴾ أي وفضَّل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم .

دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

﴿ **درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا** ﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث (إن في الجنَّة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)[2] . ﴿ **إن الذين توفَّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم** ﴾ أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿ **قالوا فيم كنتم قالوا كنَّا مستضعفين في الأرض** ﴾ أي تقول لهم الملائكة في أيّ شيء كنتم من أمر دينكم ؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتذرين : كنَّا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿ **قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً : أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دارٍ تقدرون فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة ؟ قال تعالى بياناً لجزائهم ﴿ **فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً** ﴾ أي مقرهم النَّار وساءت مقراً ومصيراً ، ثم استثنى تعالى منهم الضَّعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿ **إلاَّ المستضعفين من الرِّجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً** ﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة .

(١) أخرجه البخاري . (٢) أخرجه النسائي .

فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

﴿ **فأُولئك عسى الله أن يعفو عنهم** ﴾ أي لعلَّ الله أن يعفوا عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ﴿ **وكان الله غفوراً رحيمًا** ﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار ، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغمًا كثيراً وسعة** ﴾ هذا ترغيبٌ في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء يجد مُهَاجراً ومتجولاً في الأرض كبيراً يراغم به أنف عدوه ويجد سعةً في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابغ على العباد ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعة فإيَّاي فاعبدون ﴾ ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركّه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿ **وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ أي ساتراً على العباد رحيمًا بهم ﴿ **وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تَقْصروا من الصَّلاة** ﴾ أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصَّلاة فتصلُّوا الرباعية ركعتين ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الَّذين كفَرُوا** ﴾ أي إن خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة ، وذكرُ الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلوا من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤيده حديث « يعلى بن أميَّة » قال قلت لعمر بن الخطَّاب : إن الله يقول ﴿ إن خفتم ﴾ وقد أمن النَّاس . فقال : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال (صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) ﴿ **إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً** ﴾ أي إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم .

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

﴿ **وإذ كنت فيهم فأقمت لهم الصَّلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم** ﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم يصلُّون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك **طائفة** منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو ﴿ **فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلُّوا فليصلُّوا معك** ﴾ أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصلِّ إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿ **وليأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم** ﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿ **ودَّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة** ﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرَّة ، ويشدوا عليكم شدَّة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلُّون والمعنى : لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أُمرتم به ﴿ **ولا جناح عليكم إن كان بكم أذًى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم** ﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها ﴿ **وخذوا حذركم** ﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما استطعتم ﴿ **إن الله أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ أي أعدَّ لهم عذاباً مخزياً مع الإهانة ، روي ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عيَّاش الزرقي قال : كنَّا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد ـ وهم بيننا وبين القبلة ـ فصلىَّ بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت الصَّلاة ﴾[1] الآية .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة الخوف فقال ﴿ **فإذا قضيتم الصَّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾ أي فإذا فرغتم من الصلاة فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم واذكروه في جميع الحالات لعلَّه ينصركم على عدوّكم ﴿ **فإذا اطمأننتم فأقيموا الصَّلاة** ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها كما أُمرتم بخشوعها وركوعها

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٣١ .

وسجودها وجميع شروطها ﴿ **إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾ أي فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه ، ثم حثَّ تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال ﴿ **ولا تهنوا في ابتغاء القوم** ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدّوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴿ **إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون** ﴾ أي إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضاً منه كما تتألمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم ﴿ **وكان الله عليمًا حكيمًا** ﴾ أي عليمًا بمصالح خلقه حكيمًا في تشريعه وتدبيره ، قال القرطبي : نزلت هذه الآية في حرب أُحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألَّا يخرج معه إلَّا من حضر في تلك الوقعة ، وقيل : هذا في كل جهاد[1] . ﴿ **إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين النَّاس بما أراك الله** ﴾ أي إنَّا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبساً بالحق لتحكم بين النَّاس بما عرَّفك الله وأوحى به إليك ﴿ **ولا تكن للخائنين خصيمًا** ﴾ أي لا تكن مدافعاً ومخاصمًا عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم ، والمراد به « طعمة بن أبيرق » وجماعته ﴿ **واستغفر الله** ﴾ أي استغفر الله مما هممت به من الدفاع عن طُعْمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه ﴿ **إنَّ الله كان غفوراً رحيمًا** ﴾ أي مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره .

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

﴿ **ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم** ﴾ أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي ﴿ **إن الله لا يحب من كان خواناً أثيمًا** ﴾ أي لا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام ﴿ **يستخفون من النَّاس ولا يستخفون من الله** ﴾ أي يستترون من النَّاس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يُستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿ **وهو معهم إذ يبيِّتون ما لا يرضى من القول** ﴾ أي وهو معهم جلَّ وَعَلا عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿ **وكان الله بما يعملون محيطاً** ﴾ أي لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوت . . ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طُعْمة ﴿ **ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا** ﴾ أي ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في

(١) القرطبي ٥/٣٧٤ .

الدنيا ﴿ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ أي فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ ﴿ أم من يكون عليهم وكيلا ﴾ ؟؟ أي من يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه ؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ أي من يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا ﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ، قال ابن عبَّاس : عرض اللهُ التوبة بهذه الآية على بني أُبيرق .

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

﴿ ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ أي من يقترف إثمًا متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليمًا بذنبه حكيمًا في عقابه ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إثمًا كبيراً ﴿ ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثمًا مبيناً ﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمَّل جرماً وذنباً واضحاً ، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلُّوك ﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لهمت جماعة منهم أن يضلُّوك عن الحق ، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرىء صاحبهم « طُعْمة » من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضَّل الله عزَّ وَجَلّ على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿ وما يُضِلُّون إلاَّ أنفسهم ﴾ أي وبال إضلالهم راجع عليهم ﴿ وما يضرونك من شيء ﴾ أي وما يضرونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلُّونك وهو تعالى يُنَزِّل عليك الكتاب ويوحي إليك بالأحكام ﴿ وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا ﴾ أي علَّمك ما لم تكن تعلمه من الشَّرائع والأمور الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة .

لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

﴿ **لا خير في كثير من نجواهم** ﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿ **إلاَّ من أمر بصدقةٍ أو معروف أو إصلاح بين النَّاس** ﴾ أي إلاَّ نجوى من أمر **بصدقةٍ** ليعطيها سراً أو أمر بطاعة الله ، قال الطبري : المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير ، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين[١] ﴿ **ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله** ﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿ **فسوف نؤتيه أجراً عظيمًا** ﴾ أي فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة ، قال الصاوي : والتعبير بسوف إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى** ﴾ أي يخالف أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿ **نولِّه ما تولىَّ ونصله جهنم** ﴾ أي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿ **وساءت مصيراً** ﴾ أي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً** ﴾ أي فقد بَعُدَ عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً .

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

﴿ **إن يدعون من دونه إلاَّ إناثاً** ﴾ أي ما يدعوا هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلاَّ أوثاناً سموها بأسماء الإناث « اللآت والعزَّى ومناة » قال في التسهيل : كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة[٢] ﴿ **وإن يدعون إلاَّ شيطاناً مريداً** ﴾ أي وما يعبدون إلاَّ **شيطاناً** متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربِّه ﴿ **لعنه الله وقال لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً** ﴾ أي أبعده الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً : لأتخذنَّ من عبادك الذين أبعدتني من

(١) الطبري ٩/٢٠١ .
(٢) وهذا اختيار الطبري وقيل : إن المراد بالإناث الملائكة كقوله تعالى ﴿ ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله .

أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة ، وفي صحيح مسلم يقول الله **تعالى** لآدم يوم القيامة « إبعثْ بعثَ النَّار فيقول : وما بعثُ النَّار ؟ فيقول من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون » ﴿ **وَلأُضِلنَّهم ولأمنينَّهم** ﴾ أي لأصرفنَّهم عن طريق الهدى وأعدهم الأماني الكاذبة وأُلقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿ **ولآمرنَّهم فليبتكُنَّ آذان الأنعام** ﴾ أي ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام ، قال قتادة : يعني تشقيقها وجعلها علامة للبحيرة والسَّائبة كما كانوا يفعلون في الجاهليَّة ﴿ **ولآمرنهَّم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ** ﴾ أي ولآمرنهَّم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره ، وقيل : المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي[1] وإحلال ما حرَّم الله وتحريم ما أحلَّ ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله** ﴾ أي ومن يتولَّ الشيطان ويطعْه ويترك أمر الله ﴿ **فقد خسر خسراناً مبيناً** ﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النَّار المؤبَّدة وأي خسرانٍ أعظم من هذا ؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿ **يعدهم ويمنِّيهم** ﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالأكاذيب والأباطيل ، قال ابن كثير : هذا إخبارٌ عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك[2] ﴿ **وما يعدهم الشيطان إلاَّ غروراً** ﴾ أي وما يعدهم إلاَّ باطلاً وضلالاً ، قال ابن عرفة : الغُرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه ، فهو مزيّن الظاهر فاسد الباطن ﴿ **أولئك مأواهم جهنم** ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم ﴿ **ولا يجدون عنها محيصاً** ﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينًا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرار فقال ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ أي مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿ **وعد الله حقاً** ﴾ أي وعداً لا شكَّ فيه ولا ارتياب ﴿ **ومن أصدق من**

---

(١) هذا مروي عن ابن عبَّاس ومجاهد والضحاك وهو اختيار الطبري .

(٢) مختصر ابن كثير ١/٤٣٩ .

الله قيلاً ﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً ؟ والاستفهام معناه النفيُ أي لا أحد أصدق قولاً من الله ، قال أبو السعود : والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه[١] ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِي أَهْلِ الكِتَاب** ﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصَّالح ، قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتمني ولكنْ ما وَقَرَ في القلب وصدَّقَهُ العمل ، إن قوماً ألْهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظَّن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿ **مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿ **ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن** ﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواءً كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿ **فأولئك يدخلون الجنَّــة ولا يظلمون نقيراً** ﴾ أي يدخلهم الله الجنة ولا يُنقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف لا والمجازي أرحم الراحمين !! وإنما قال ﴿ وهو مؤمن ﴾ ليبين أن الطَّاعة لا تنفع من دون الإيمان ، ثم قال تعالى ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله** ﴾ ؟ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿ **وهو محسن** ﴾ أي مطيعٌ لله مجتنبٌ لنواهيه ﴿ **واتَّبَعَ ملَّة إبراهيم حنيفاً** ﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن ، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلاً** ﴾ أي صفياً اصطفاه لمحبَّته وخلَّته ، قال ابن كثير : فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبَّة وما ذاك إلَّا لكثرة طاعته لربه[٢] ﴿ **ولله ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا رادَّ لما قضى ولا معقِّب لما حكم ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطاً** ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

﴿ **ويستفتونك في النِّســاء** ﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النِّساء ﴿ **قل الله يفتيكم فيهنَّ وما يتلى عليكم في الكتاب** ﴾ أي قل لهم يا محمد : يبين الله لكم ما سألتم في شأنهنَّ ويبين

(١) أبو السعود ١/٣٨٤ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٤٤٢ .

لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهنّ ﴿ **في يتامى النِّســاء اللآتي لا تؤتونهنَّ ما كُتب لهنَّ وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ أي ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللَّواتي ترغبون في نكاحهنَّ لجمالهن أو لمالهنَّ ولا تدفعوا لهن مهورهنَّ كاملة ، فنهاهم الله عَزَّ وَجَلّ عن ذلك ، قال ابن عبَّاس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة وأحبَّها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرِّجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها ، فحرَّم الله ذلك ونهى عنه ﴿ **والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط** ﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر ، وقد كان أهل الجاهلية لا يورِّثون الصغار ولا النساء ويقولون : كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً ! فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿ **وما تفعلوا من خير فإنَّ الله كان به عليمًا** ﴾ أي وما تفعلوه من عدلٍ وبرٍّ في أمر النساء واليتامى فإنَّ الله يجازيكم عليه ، قال ابن كثير : وهذا تهييجٌ على فعل الخيرات وامتثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء(١) ، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً** ﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجمل منها ﴿ **فلا جُناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً** ﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودَّته وصحبته ، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت : هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول : لا تطلقني وأنت في حلٍّ من شأني(٢) . ﴿ **والصلح خير** ﴾ أي والصلح خيرٌ من الفراق ﴿ **وأُحضرت الأنفسُ الشح** ﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا** ﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿ **فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء .

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٤٣ . (٢) الطبري ٩/٢٧١ .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾

ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغٌ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق ، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء** ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسوّوا بينهن في المحبة والأُنس والاستمتاع ﴿ **ولو حرصتم** ﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿ **فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلَّقة التي ليست بذات زوج ولا مطلَّقة ، شبِّهت بالشيء المعلَّق بين السماء والأرض ، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء ، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا** ﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿ **فإن الله كان غفوراً رحيمًا** ﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿ **وإن يتفرَّقا يُغْنِ الله كلاً من سعته** ﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ، فإنَّ الله يغنيه بفضله ولطفه ، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه ، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿ **وكان الله واسعاً حكيمًا** ﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيمًا في تدبيره لهم ﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيَّاكم** ﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿ **أن اتقوا الله** ﴾ أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته ﴿ **وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنَّه مستغنٍ عن العباد وهو المالك لما في السموات والأرض ﴿ **وكان الله غنياً حميداً** ﴾ أي غنياً عن خلقه ، محموداً في ذاته ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

﴿ **ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً** ﴾ أي كفى به حافظاً لأعمال عباده ﴿ **إن يشأْ يُذْهبكم أيها النَّاس ويأت بآخرين** ﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين

... ﴿ وكان الله على ذلك قديراً ﴾ أي قادراً على ذلك ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأخسَّ ولا يطلب الأعلى ؟ فليسأل العبد ربّه خيري الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم . ﴿ يأَيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ أي يا من آمنتم بالله وصدَّقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿ قوَّامين ﴾ حتى لا يكون منهم جورٌ أبداً ﴿ شهداء لله ﴾ أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً ﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحماً وإشفاقاً ﴿ فالله أولى بهما ﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما في صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين النَّاس ، قال ابن كثير : أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض النَّاس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل على كل حال[1] ﴿ وإن تَلْووا أو تعرضوا ﴾ أي وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تُعرضوا عن إقامتها رأساً ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ فيجازيكم عليه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

﴿ يأَيها الذين آمَنُوا آمِنوا بالله ورسوله ﴾ أي اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه ﴿ والكتاب الذي نزّل على رسوله ﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال أبو السعود : المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية[2] ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى ، وبَعُدَ عن القصد كل البعد ﴿ إن الذين

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٤٧ .
(٢) أبو السعود ١/٣٨٩ .

آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ﴾ هذه الآية في المنافقين[1] آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر ، قال ابن عبَّاس : دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر ، وقال ابن كثير : يخبر تعالى عمَّن دخل في الإيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى الإيمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنَّه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى[2] ولهذا قال تعالى ﴿ **لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً** ﴾ أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة ، قال الزمخشري : ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردَّة لم يُقبل منهم ولم يُغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنَّه أمر لا يكاد يكون ، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات ، والغالب أنَّه يموت على شر حال[3] ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿ **بَشِّر المنافقين بأَنَّ لهم عذاباً أليمًا** ﴾ عبَّر تعالى بلفظ ﴿ بَشِّرْ ﴾ تهكمًا بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النَّار الأليم ﴿ **الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿ **أيبتغون عندهم العزَّة** ﴾ أي أيطلبون بموالاة الكفَّار القوة والغلبة ؟ والاستفهام إنكاري أي إنَّ الكفار لا عزَّة لهم فكيف تُبْتغى منهم ! ﴿ **فإنَّ العزَّة لله جميعاً** ﴾ أي العزَّة لله ولأوليائه ، قال ابن كثير : والمقصود من هذا التهييجُ على طلب العزَّة من جناب الله .

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

﴿ **وقد نزَّل عليكم في الكتاب** ﴾ أي نزَّل عليكم في القرآن ، والخطابُ لمن أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق ﴿ **أَنْ إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتهزأ بها** ﴾ أي أنزل عليكم أنَّه إذا سمعتم القرآن يَكْفر به الكافرون ويَسْتهزىء به المستهزءون ﴿ **فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره** ﴾ أي لا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزءون بآيات الله حتى يتحدَّثوا بحديث آخر ويتركوا

---

(١) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة واختاره الطبري .
(٢) مختصر ابن كثير ١/٤٤٨
(٣) الكشـــــاف ١/٤٤٧ .

الخوض في القرآن ﴿ **إنَّكم إذاً مثلهم** ﴾ أي إنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر ﴿ **إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً** ﴾ أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنَّم لأن المرء مع من أحب ، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم . . ثم ذكر تعالى تربصهم السوء بالمؤمنين فقال ﴿ **الذين يتربصون بكم** ﴾ أي ينتظرون بكم الدوائر ﴿ **فإن كان لكم فتحٌ من الله** ﴾ أي غلبةٌ على الأعداء وغنيمة ﴿ **قالوا ألم نكن معكم** ﴾ أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين ﴿ **وإن كان للكافرين نصيب** ﴾ أي ظفرٌ عليكم يا معشر المؤمنين ﴿ **قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين** ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم ونتمكنْ من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتم عليهم ؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نواليكم ولا نترك أحداً يؤذيكم قال تعالى بياناً لمآل الفريقين ﴿ **فالله يحكم بينكم يوم القيامة** ﴾ أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق ﴿ **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً** ﴾ أي لن يمكِّن الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم[١] قال ابن كثير : وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكليَّة وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة[٢] .

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم ، وقد أعدَّ لهم الدرك الأسفل من النَّار في الآخرة ، فسمَّى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم راجع عليهم ﴿ **وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا كسالى** ﴾ أي يصلُّون وهم متثاقلون متكاسلون ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ﴿ **يراءون النَّاس** ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء

(١) ذكر القرطبي خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل : إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه الطبري حيث قال : يعني حجةً يوم القيامة واستدل له بمآ روي أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال : أدن مني ثم قرأ عليه ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ أي يوم القيامة وقد ضعَّف هذا الرأي ابن العربي ، انظر القرطبي ٥/٤١٩ .

(٢) مختصر ابن كثير ١/٤٤٩ .

والسمعة ولا يقصدون وجه الله ﴿ **ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً** ﴾ أي لا يذكرون الله سبحانه إلاَّ ذكراً قليلاً ﴿ **مُذَبْذَبِين بين ذلك** ﴾ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان ، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴿ **لاَ إلى هؤلاء ولاَ إلى هٰؤلاء** ﴾ أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴿ **ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾ أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى السَّعادة والهدى ، ثم حذَّر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال ﴿ **يأَيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة ﴿ **أتريدون أن تجعلوا لِلهِ عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله حجة بالغة عليكم أنَّكم منافقون ؟ قال ابن عبَّاس : كل سلطانٍ في القرآن حجةٌ ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿ **إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النَّــار** ﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات ، قال ابن عبَّاس : أي في أسفل النَّار ، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله ، والنَّارُ دركات كما أن الجنَّــة درجات . ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله .

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

﴿ **إلاَّ الذين تابوا** ﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿ **وأصلحوا** ﴾ أي أعمالهم ونيَّاتهم ﴿ **واعتصموا بالله** ﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿ **وأخلصوا دينهم لله** ﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلاَّ وجه الله ﴿ **فأولئك مع المؤمنين** ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿ **وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيمًا** ﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنَّــة ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾ أي أيُّ منفعةٍ له سبحانه في عذابكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ، أم يدفع به الضر ويستجلب النَّفع وهو الغني عنكم ؟ ﴿ **وكان الله شاكراً عليمًا** ﴾ أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل . ﴿ **لاَ يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِٱلسُّــوءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ** ﴾ أي لا يحب الله الفُحْش في القول والإيذاء باللسان إلاَّ المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء ، قال ابن عبَّاس : المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلاَّ أن يكون مظلوماً[1] ﴿ **وكان الله سميعاً عليمًا** ﴾ أي سميعاً لدعاء المظلوم عليمًا بالظالم

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٥٢ .

﴿ إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ﴾ أي إن أظهرتم أيها النَّاس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عمَّن أساء إليكم ﴿ فإنَّ الله كان عفواً قديراً ﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة ، قال الحسن : يعفو عن الجانبين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى[1] حثَّ تعالى على العفو وأشار إلى أنَّه عفوٌّ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم ؟!

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره ، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل ، وكفرَهُم بالرسل كفراً بالله تعالى ﴿ ويريدون أن يفرِّقوا بين الله ورسله ﴾ التفريقُ بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله ، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم ، وقد فسَّره تعالى بقوله بعده ﴿ ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض ، قال قتادة : أولئك أعداء الله اليهود والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله[2] ﴿ ويريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان ولا واسطة بينهما ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان ﴿ واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم ﴾ أي صدَّقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ أي سنعطيهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسله ﴿ وكان الله غفوراً رحيمًا ﴾ أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام .

(١) أبو السعود ١/٣٩٣ .
(٢) الطبري ٩/٣٥٤ .

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تُنزِّلَ عَليهم كتاباً** من السماء ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة ، وإنما طلبوا على وجه التعنت والعناد ، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أفظع وأشنع تسلية للنبي ﷺ للتأسي بالرسل فقال ﴿ **فقد سألوا موسى** أكبر من ذلك **فقالوا أرنا الله جهرة** ﴾ أي سألوا موسى رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ عياناً ﴿ **فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ أي جاءتهم من السماء نارٌ فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ **ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات** ﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها ، قال أبو السعود : وهذه المسألة ـ وهي طلب رؤية الله ـ وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم[1] ﴿ **فعفونا عن ذلك** ﴾ أي عفونا عما ارتكبوه مع عظم جريمتهم وخيانتهم ﴿ **وآتينا موسى سلطاناً مبيناً** ﴾ أي حجة ظاهرة تظهر صدقه وصحة نبوته ، قال الطبري : وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها[2] ﴿ **ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم** ﴾ أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿ **وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّداً** ﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مطأطئين رءوسكم خضوعاً لله فخالفوا ما أُمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاءً ﴿ **وقلنا لهم لا تعدوا في السبت** ﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا ﴿ **وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

(١) أبو السعود ١/٣٩٤ . (٢) الطبري ٩/٣٦٠ .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ميثاقهم ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق لعنَّاهم وأذللناهم و ﴿ ما ﴾ لتأكيد المعنى ﴿ وكفرهم بآيات الله ﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السَّـلام ﴿ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ ﴾ أي قولهم للنبي ﷺ قلوبنا مغشَّاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلاَّ قليلاً ﴾ أي بل ختم تعالى عليها بسبب الكفر والضلال فلا يؤمن منهم إلاَّ القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيمًا ﴾ أي وبكفرهم بعيسى عليه السلام أيضاً ورميهم مريم بالزنى وقد فضَّلها الله على نساء العالمين ﴿ وقولهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى آبن مريم رسول الله ﴾ أي قتلنا هذا الذي يزعم أنَّه رسول الله ، وهذا إنما قالوه على سبيل « التهكم والاستهزاء » كقول فرعون ﴿ إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون ﴾ وإلاَّ فهم يزعمون أن عيسى ابن زنى وأمه زانية ولا يعتقدون أنه رسول الله قال تعالى ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّـه لهم ﴾ أي وما قتلوا عيسى ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شَبَهُهُ ، قال البيضاوي : روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأُخذ وصُلب وهم يظنون أنَّه عيسى[1] ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله ، روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا : إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ فاختلفوا فقال بعضهم هو عيسى ، وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره ، فأجمعوا أن شخصاً قد قتل واختلفوا من كان[2] ﴿ ما لهم به من علم إلاَّ اتبَّاع الظن ﴾ أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظنَّ الذي تخيّلوه ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجَّاه الله من شرهم فرفعه إلى السَّماء حياً بجسده وروحه كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة[3] ﴿ وكان الله عزيزاً حكيمًا ﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيمًا في صنعه .

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

(١) البيضاوي ص ١٤١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٦٣ .

(٣) منها ما رواه الشيخان (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) الحديث وانظر كتاب « التصريح بما تواتر في نزول المسيح » للكشميري تحقيق الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة .

﴿ وإن من أهل الكتاب إلاَّ ليؤمننَّ به قبل موته ﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلَّا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى وبأنَّه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه ، قال ابن عبَّاس : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى قيل له : أرأيت إن ضُربت عُنق أحدهم ؟ قال : يلجلج بها لسانه وكذا صحَّ عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين[1] ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذَّبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم ﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرَّمنا عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محلَّلة لهم ﴿ وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ أي وبمنعهم كثيراً من النَّاس عن الدخول في دين الله ، قال مجاهد : صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿ وأخذهم الربا وقد نهُوا عنه ﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرَّمه الله عليهم في التوراة ﴿ وأكلهم أموال النَّاس بالباطل ﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرَّمة ﴿ واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليمًا ﴾ أي وهيأنا لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجع .

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

﴿ لكن الراسخون في العلم منهم ﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته ﴿ والمؤمنون ﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب ﴿ يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء ﴿ والمقيمين الصَّـلاة ﴾ أي أمدح المقيمين الصَّلاة فهو نصبٌ على المدح ﴿ والمؤتون الزَّكاة ﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿ والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ﴿ أولئك سنؤتيهم أجراً عظيمًا ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنَّـة . ﴿ إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوحٍ والأنبياء من بعده ، وإنما قدَّم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب

(١) اختار الطبري أن الضمير في ﴿ قبل موته ﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى : لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلَّا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب السَّاعة ، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود والكشاف والجلالين .

والأ... وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم و... خصّ تعالى بالذكر هؤلاء تشريفاً وتعظيمًا لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه ... وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنَّه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال ... ﴿وجعلنا في ذريّته النبوة والكتاب﴾ وقدَّم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو ... في الطعن فيه والنصارى في تقديسه ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ أي وخصصنا داود بالزبور ، قال ... : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكمٌ من الأحكام وإنما هي حِكَمٌ ومواعظ[1] .

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾

﴿ **ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل** ﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿ **ورسلاً لم نقصصهم عليك** ﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿ **وكلَّم الله موسى تكليمًا** ﴾ أي وخصَّ الله موسى بأن كلَّمه بلا واسطة ولهذا سُمي الكليم ، وإنما أكَّد ﴿ تكليمًا ﴾ رفعاً لاحتمال المجاز ، قال ثعلب : لولا التأكيد لجاز أن تقول : قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً فلما قال تكليمًا لم يكن إلَّا كلاماً مسموعاً من الله تعالى[2] ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين** ﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنَّار من عصى ﴿ **لئلَّا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل** ﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أُرسل إليَّ رسولٌ لآمنت وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيمًا** ﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيمًا في صنعه ، ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزَلَ إليك** ﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز ﴿ **أنزله بعلمه والملائكة يشهدون** ﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره ﴿ **إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً** ﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا النَّاس عن الدخول في دين الله قد ضلُّوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً لأنهم جمعوا بين الضلال

(١) القرطبي ٦/ . (٢) البحر ٣/٣٩٨ .

والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات ﴿ **إن الذين كفروا وظلموا** ﴾ قال الزمخشري : أي جمعوا بين الكفر والمعاصي[1] ﴿ **لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً** ﴾ أي لن يعفوا الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنّة لأنهم ماتوا على الكفر .

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿ **إلاَّ طريق جهنَّم خالدين فيها أبداً** ﴾ أي لن يهديهم إلاَّ إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلَّدين فيها أبداً ﴿ **وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه ﴿ **يأيها النَّــاس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم** ﴾ أي ياأيها النَّاس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة السمحة من عند ربكم ﴿ **فآمنوا خيراً لكم** ﴾ أي صدِّقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيراً لكم ﴿ **وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السموات والأرض** ﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضرُّه كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿ **وكان الله عليمًا حكيمًا** ﴾ أي **عليمًا** بأحوال العباد حكيمًا فيما دبره لهم ، ولما ردَّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الرَّد على ضلالات النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم** ﴾ أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدَّ في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿ **ولا تقولوا على الله إلاَّ الحق** ﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾ أي ما عيسى إلاَّ رسولٌ من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿ **وكلمتــه ألقاها إلى مريم** ﴾ أي وقد خلق بكلمته تعالى « كُنْ » من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ **وروحٌ منه** ﴾ أي ذو روح مبتدأةٍ من الله وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى ، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ أي آمنوا بوحدانيته

(١) وقال الطبري : أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر .

وصدقوا رسله أجمعين ﴿ **ولا تقولوا ثلاثة** ﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، أو الله ثلاثة : الأب والإبن وروح القدس ، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزَّه عن التركيب وعن نسبة المركَّب إليه ﴿ **انتهوا خيراً لكم** ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿ **إنما الله إله واحد** ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿ **سبحانه أن يكون له ولد** ﴾ أي تنزَّه الله عن أن يكون له ولد ﴿ **له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿ **وكفى بالله وكيلاً** ﴾ تنبيه على غناه عن الولد ، أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولدٍ أو معين لأنه مالك كل شيء .

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

ثم ردَّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله** ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنَّه إلهٌ عن أن يكون عبداً لله ﴿ **ولا الملائكة المقربون** ﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله ﴿ **ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً** ﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿ **فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم** ﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ أي بإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ **وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليمًا** ﴾ أي وأمَّا الذين أنفوا وتعظَّموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ أي ليس لهم من يتولاَّهم أو ينصرهم من عذاب الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

﴿ يأَيها النَّاس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴾ أي صدَّقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿ فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ﴾ أي سيدخلهم في جنَّته دار الخلود ﴿ ويهديهم إليه صراطاً مستقيمًا ﴾ أي يهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنَّة في الآخرة ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والدٌ أو ولد من يرثه ؟ ﴿ إِنِ آمْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي قل لهم من مات وليس له والدٌ أو ولد وهي الكلالة ﴿ وله أختٌ فله نصف ما ترك ﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ﴿ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أي وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخواتٍ فللذكر منهم مثل نصيب الأختين ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ أي يبين الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا ﴿ والله بكل شيءٍ عليم ﴾ أي يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات .

(تم بحمـــد الله تفســير ســورة النســـــاء)

(٥) سورة المائدة مدنية
وآياتها عشرون ومائة

بين يدي الســـــــــورة

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة ، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهابٍ مثل سورة البقرة ، والنســـاء ، والأنفال ، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب ، قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة[١] .

* نزلت هذه السورة منصرفَ رسول الله ﷺ من الحديبية ، وجِمَاعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار .

* أما الأحكام التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي : « أحكام العقود ، الذبائح ، الصيد ، الإحرام ، نكاح الكتابيات ، الردة ، أحكام الطهارة ، حدّ السرقة ، حدّ البغي والإفساد في الأرض ، أحكام الخمر والميسر ، كفارة اليمين ، قتل الصيد في الإحرام ، الوصية عند الموت ، البحيرة والسائبة ، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله » إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية .

* وإلى جانب التشريع قصَّ تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة ، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى ، وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من « اليهود » حين قالوا لرسولهم ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون** ﴾ وما حصل لهم من التشرد والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة .

* ثم قصة ابني آدم وهي قصةٌ ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر ، ممثلة في قصة « قابيل وهابيل » حيث قتل قابيل أخاه هابيل ، وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البرىء الطاهر ، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية : نموذج النفس الشريرة

---

(١) القرطبي ٦/٣٠ .

الأثيمة ، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ﴿ **فسوَّلت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ كما ذكرت السورة قصة « المائدة » التي كانت معجزة لعيسى بن مريم ، ظهرت على يديه أمام الحواريين . والسورة الكريمة تعرض أيضاً لمناقشة « اليهود والنصارى » في عقائدهم الزائفة ، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرفوا التوراة والإنجيل ، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل ، وقد ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدْعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رءوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق** ﴾ وياله من موقف مخزٍ لأعداء الله ، تشيب لهوله الرءوس ، وتتفطر من فزعه النفوس !!

فضـــلها : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها[1] .

التســـمية : سميت سورة « المائدة » لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجبُ ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطفٍ عظيم من الله العلي الكبير .

(١) أخرجه أحمد .

تفسير سورة المـــائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢)﴾

﴿ يٰأَيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقدٍ وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان والإنسان قال ابن عبَّاس : العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرَّم وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام[١] ﴿ أُحلت لكم بهيمة الأنعام إلاَّ ما يتلى عليكم ﴾ أي أُبيح لكم أكل الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلاَّ ما حُرِّم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير . . . إلخ . ﴿ غير مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ أي أُحلَّت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلُّوا الصيد وأنتم محرمون ﴿ إنَّ الله يحكم ما يُريد ﴾ أي يقضي في خلقه بما يشاء لأنَّه الحكيم في أمره ونهيه ﴿ يٰأَيها الذين آمنوا لا تُحلُّوا شعائر الله ﴾ أي لا تستحلوا حُرمات الله ولا تعتدوا حدوده ، قال الحسن : يعني شرائعه التي حدَّها لعباده ، وقال ابن عبَّاس : ما حرَّم عليكم في حال الإحرام[٢] ﴿ ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ﴾ أي ولا تستحلوا الشهر

(١) هذا القول اختاره الطبري والزمخشري ، والأرجحُ العموم فهو أمرٌ بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب البحر وجمع من المفسرين ، قال ابن أسلم : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين كذا في ابن كثير .

(٢) القول الأول أرجح وهو اختيار الطبري لعموم الآية .

الحرام بالقتال فيه ، ولا ما أُهدي إلى البيت أو قُلِّد بقلادة ليعرف أنَّه هدي بالتعرض له ولأصحابه ﴿ **ولا آمِّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً** ﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة ، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدِّهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أُبيح لكم الصيد ﴿ **ولا يجرمنَّكم شنآن قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا** ﴾ أي لا يحملنكم بغضُ قوم كانوا قد صدُّوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ أي تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات ، وعلى كل ما يقرب إلى الله ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ أي خافوا عقابه فإنَّه شديد العقاب لمن عصاه .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** ﴾ أي حُرِّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير ، قال الزمخشري : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يحرم من فُزد - أي فصد - له[1] وإنما ذكر لحم الخنزير ليبيِّن أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿ **وما أُهلَّ لغير الله به** ﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللآت والعزَّى ﴿ **والمنخنقة** ﴾ هي التي تُخْنق بحبل وشبهه ﴿ **والمَوْقُوذَةُ** ﴾ هي المضروبة بعصاً أو حجر ﴿ **والمُتَرَدِّيَةُ** ﴾ هي التي تسقط من جبل ونحوه ﴿ **وٱلنَّطِيحَةُ** ﴾ هي التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت بالنطح ﴿ **وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ** ﴾ أي أكل بعضه السَّبع فمات ﴿ **إلاَّ ما ذكيتم** ﴾ أي إلاَّ ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت ، قال الطبري معناه : إلاَّ ما طهَّرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً[2] ﴿ **وما ذبح على النُّصب** ﴾ أي وما ذُبح على الأحجار المنصوبة ، قال قتادة : النُّصبُ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك ، قال الزمخشري : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت

(١) الكشاف ١/٤٦٨ . (٢) الطبري ٩/٥٠٢ .

يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿ **وأن تستقسموا بالأزلام** ﴾ أي وحرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قُسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح ، قال في الكشاف : كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها : نهاني ربي ، وعلى بعضها أمرني ربي ، وبعضُها غُفْلٌ فإن خرج الآمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد[1] ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علاّم الغيوب[2] ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم** ﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم ، قال ابن عبَّاس : يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿ **فلا تخشوهم واخشون** ﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿ **وأتممتُ عليكم نعمتي** ﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿ **ورضيتُ لكم الإسلام ديناً** ﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه ﴾ ﴿ **فمن اضطر في مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثم فإنَّ الله غفورٌ رحيم** ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة ، في مجاعةٍ حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك ، فإن الله لا يؤاخذه بأكله ، لأنَّ الضرورات تُبيح المحظورات .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿ **يسألونك ماذا أُحلَّ لهم** ﴾ أي يسألونك يا محمد ما الذي أُحل لهم من المطاعم والمآكل ؟ ﴿ **قل أُحلَّ لكم الطيبات** ﴾ أي قل لهم أُبيح لكم المستلذات وما ليس منها بخبيث ، وحُرِّم كل

(١) الكشاف ١/٤٦٩ .

(٢) هذا إذا قلنا إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عبَّاس وهو الرَّاجح ، واختار الطبري أن الإشارة تعود إلى المحرمات وكل صحيح .

مستقذر كالخنافس والفئران وأشباهها ﴿ **وما علمتم من الجوارح** ﴾ أي وأُحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصاد به ﴿ **مكلِّبين** ﴾ أي مُعلِّمين للكلاب الاصطياد ، قال الزمخشري : المكلب مؤدبُ الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكَلَب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب[1] ﴿ **تعلمونهن مما علَّمكم الله** ﴾ أي تعلِّمونهنَّ طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد ، وهذا جزءٌ مما علَّمه الله للإنسان ﴿ **فكلوا مما أمسكن عليكم** ﴾ أي فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه ، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث (إذا أرسلت كَلْبَكَ المُعَلَّم فقتَلَ فَكُلْ ، وَإِذَا أَكَلَ فَلَا تَأْكُل فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نفسه)[2] وعلامة المعلم أن يسترسل إذا أُرسل ، وينزجر إذا زُجر ، وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه ، وأن يذكر اسم الله عند إرساله فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلَّم ﴿ **واذكروا اسم الله عليه** ﴾ أي عند إرساله ﴿ **واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ أي راقبوا الله في أعمالكم فإنَّه سريع المجازاة للعباد ﴿ **اليوم أُحلَّ لكم الطيبات** ﴾ أي أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها ﴿ **وطعام الذين أُوتوا الكتاب حلٌّ لكم** ﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلالٌ لكم ﴿ **وطعامكم حلٌّ لهم** ﴾ أي ذبائحكم حلالٌ لهم فلا حرج أن تطعموهم وتبيعوه لهم ﴿ **والمحصناتُ من المؤمنات** ﴾ أي وأُبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات ﴿ **والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أونصرانيات) وهذا رأي الجمهور ، وقال عطاء : قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذٍ ﴿ **إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ** ﴾ أي إذا دفعتم لهنَّ مهورهن ﴿ **مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى ﴿ **ولا متخذي أخدان** ﴾ أي وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهنَّ سراً ، قال الطبري : المعنى ولا منفرداً ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقةً يفجر بها[3] ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ أي ومن يرتدّ عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

(١) الكشاف ١/٤٧١ . (٢) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم . (٣) الطبري ٩/٥٩٠ .

ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة** ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصَّلاة وأنتم محدثون ﴿ **فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾ أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق ﴿ **وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ أي امسحوا رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين أي معهما ، قال الزمخشري : وفائدة المجيء بالغاية ﴿ إلى الكعبين ﴾ لدفع ظن من يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تُضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث (ويلٌ للأعقاب من النَّار)[1] وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسحُ لا الغسل ، والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب ﴿ وأرجلَكُمْ ﴾ فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب ﴿ **وإن كنتم جنباً فاطَّهروا** ﴾ أي إن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر** ﴾ أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء ﴿ **أو جاء أحدٌ منكم من الغائط** ﴾ أي أتى من مكان البراز ﴿ **أو لامستم النِّســاء** ﴾ أي جامعتموهنَّ ﴿ **فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً** ﴾ أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به ﴿ **فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾ أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضَّحت السنة النبوية ﴿ **ما يريدُ الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾ أي ما يريدُ بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم ﴿ **ولكن يُريد ليطهركم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم ، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي وَاثَقَكُم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ الخطاب للمؤمنين والنعمةُ هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزَّة أي اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام الذي عاهدكم عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ﴿ **واتقوا الله إنَّ الله عليم بذات الصدور** ﴾ أي اتقوا الله فإنَّه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(١) الكشاف ١/٤٧٤ .

﴿ يٰأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ﴾ أي كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوَّام للمبالغة ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿ ولا يجرمنَّكم شنآن قـوم على ألاَّ تعدلوا ﴾ أي لا يحملنَّكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿ أعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿ واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون ﴾ أي مطَّلع على أعمالكم ومجازيكم عليها ، قال الزمخشري : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[1] ؟! ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي وعد الله المؤمنين المطيعين ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم هو الجنَّـة ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في درجات الجحيم دائمون في العذاب ، قال أبو حيان : وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع ، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النَّـار فهم دائمون في عذاب الجحيم[2] ﴿ يأَيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إيَّاكم من أعدائكم ﴿ إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾ أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ﴿ فكفَّ أيديهم عنكم ﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿ واتقوا الله ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم .

* وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ﴾ أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿ وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً ـ النقيبُ أمير القوم القائم بأمورهم ـ من كل سبطٍ نقيبٌ يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقةً عليهم ، قال الزمخشري : لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى « أريحاء » بأرض الشَّـام وكان يسكنها الكنعانيون

(١) الكشاف ١/٤٧٦ . (٢) البحر ٣/٤٤١ .

الجبابرة وقال لهم : إني كتبتها لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سِبْطٍ نقيباً فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسَّسون الأخبار فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ولهم قوةٌ وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدَّثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدَّثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدَّثوا إلاَّ اثنين منهم[1] ﴿ **وقال الله إني معكم** ﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿ **لئن أقمتم الصَّلاة وآتيتم الزَّكاة** ﴾ اللام للقسم أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أديتم ما فرضتُ عليكم من إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ﴿ **وآمنتم برسلي وعزَّرتموهم** ﴾ أي وصدَّقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿ **وأقرضتم الله قرضاً حسناً** ﴾ أي بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿ **لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم** ﴾ أي لأمحونَّ عنكم ذنوبكم ، وهذا جواب القسم ، قال البيضاوي : وقد سدَّ مسدَّ جواب الشرط[2] ﴿ **ولأدخلنَّكم جنَّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿ **فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل** ﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق ، فقد أخطأ الطريق السويّ وضلَّ ضلالاً لا شبهة فيه .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **فبما نَقْضِهِم ميثاقهم لعنَّاهم** ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿ **وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان[3] ﴿ **يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه** ﴾ قال ابن كثير : تأوَّلوا كتابه ـ التوراة ـ على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقل[4] ، ولا جُرْم أعظمُ من الاجتراء على تغيير كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ **ونسوا حَظاً مما ذُكِّروا به** ﴾ أي تركوا نصيباً وافياً مما أُمروا به في التوراة ﴿ **ولاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلاَّ قليلاً منهم** ﴾ أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانةٍ منهم بنقض العهود وتدبير المكايد ، فالغدرُ والخيانة عادتهُم وعادةُ أسلافهم إلاَّ قليلاً منهم ممن أسلم ﴿ **فاعف عنهم واصفحْ إنَّ الله يحب المحسنين** ﴾ أي لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم ، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور ﴿ **ومن الذين قالوا إنَّا**

(١) الكشاف ١/٤٧٨ . (٢) البيضاوي ص ١٤٧ قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرطٍ وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

(٣) هذا قول ابن عباس كما في البحر . (٤) مختصر ابن كثير ١/٤٩٧ .

نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ أي ومن الذين ادَّعوا أنهم أنصار الله وسمُّوا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضاً الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله ﴿ **فنسوا حظاً مما ذُكِّروا به** ﴾ أي فتركوا ما أُمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق ﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ أي ألزمنا وألصقنا بين فِرَق النَّصارى العداوة والبغضاء إلى قيام السَّاعة ، قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين ، يكفِّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وكل فرقةٍ تمنع الأخرى دخول معبدها[1] . . وهكذا نجد الأمم الغربية ـ وهم أبناء دين واحد ـ يتفنَّن بعضهم في إهلاك بعض ، فمن مخترعٍ للقنبلة الذريَّة إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية ، وهي مواد مدمِّرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلفٍ بالغ وهلاك شامل ﴿ إنما يريد الله أن يعذِّبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾ تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

﴿ **يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة وغير ذلك مما كنتم تخفونه ﴿ **ويعفوا عن كثير** ﴾ أي يتركه ولا يبيِّنه وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه ، ولو ذكر كل شيء لفضحكم ، قال في التسهيل : وفي الآية دليل على صحة نبوته لأنه بين ما أخفوه في كتبهم وهو أميٌّ لم يقرأ كتبهم[2] ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾ أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز ﴿ **يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سُبُل السَّــلام** ﴾ أي يهدي بالقرآن من اتَّبع رضا الله طرق النجاة والسَّلامة ومناهج الاستقامة ﴿ **ويخرجهم من الظلمات إلى النُّور بإذنه** ﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ﴿ **ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ هو دين الإسلام .

---

(١) مختصر ابن كثير ٤٩٨/١ .

(٢) التسهيل ١٧٢/١ .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) ﴾

ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ أي جعلوه إلهاً وهم فرقةٌ من النصارى زعموا أن الله حَلَّ في عيسى ولهذا نجد في كتبهم « وجاء الرَّب يسوع » وأمثاله ، ويسوع عندهم هو عيسى[1] ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأُمه ومن في الأرض جميعاً** ﴾ أي قل لهم يا محمد لقد كذبتم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً ؟ فعيسى عبد مقهور قابلٌ للفناء كسائر المخلوقات ، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ، ولو كان إلهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت ﴿ **ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما** ﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي لا يعجزه شيء ، ثم حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبَّاؤه** ﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه ، قال ابن كثير : أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا[2] ﴿ **قل فلم يعذِّبكم بذنوبكم** ﴾ ؟ أي لو كنتم كما تدَّعون أبناءه وأحبَّاءه فلم أعدَّ لكم نار جهنَّم على كفركم وافترائكم ؟ ﴿ **بل أنتم بشرٌ ممن خلق** ﴾ أي أنتم بشر كسائر النَّاس وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ **يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ أي يغفر لمن شاء من عباده ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه ولا رادَّ لأمره ﴿ **ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وإليه المصير** ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب .

---

(١) قال أبو حيان : ذكر سبحانه أنَّ من النصارى من قال إن المسيح هو الله ، ومنهم من قال هو ابن الله ، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة ، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تسترَّ بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بـ « الاتحاد والوحدة » كالحلاج والصفَّار وابن اللبَّاج وأمثالهم وإنما ذكرتهم نصحاً لدين الله وقد أولع جهلة من ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه ، البحر المحيط ٣/٤٤٨ .

(٢) مختصر ابن كثير ١/٤٩٩ .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم على فترةٍ من الرسل** ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضِّح لكم **شرائع** الدين على انقطاع من الرسلِ ودروسٍ من الدين ، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿ **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير** ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿ **فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ هو محمد ﷺ ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ قال ابن جرير : أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه ، **ثم** ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم تذكَّروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿ **إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً** ﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه ، قال البيضاوي : لم يُبعث في أمةٍ ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء[1] ﴿ **وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين** ﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ونحوها ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض** المقدَّسة التي **كتب الله لكم** ﴾ قال البيضاوي : هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين[2] ومعنى ﴿ **التي كتب الله لكم** ﴾ أي التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل وقضى أن تكون لكم ﴿ **ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة ، قال في التسهيل : روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدَّسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهُّموا أن يرجعوا إلى مصر[3] .

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَاۖ فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ

(١) البيضاوي ص ١٤٨ . (٢) البيضاوي ص١٤٨ . (٣) التسهيل ١ / ١٧٣ .

فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

﴿ **قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبَّارين** ﴾ أي عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد ﴿ **وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾ أي لن ندخلها حتى يسلِّموها لنا من غير قتال ﴿ **فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون** ﴾ أي لن يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما** ﴾ أي فلما جبنوا حرضهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصَّلاح واليقين ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنَّكم غالبون** ﴾ أي قالا لهم لا يهولنكم عِظَم أجسامهم ، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي اعتمدوا على الله فإنَّه ناصركم إن كنتم حقاً مؤمنين ﴿ **قالوا يا موسى إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنتَ وربّك فقاتلا إنَّا هٰهنا قاعدون** ﴾ وهذا إفراط في العصيان ومع سوء الأدب بعبارةٍ تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله ، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ : لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك اذهب أنت وربّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ؟! ﴿ **قال ربِّ إني لا أملك إلاَّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ أي قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرءاً من مقالة السفهاء : ياربِّ لا أملك قومي ، لا أملك إلاَّ نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل .

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿ **قال فإنَّها محرَّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض** ﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التِّيه أربعين سنة ، والمعنى : قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرَّم علهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج منها ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون للعقاب ، قال في التسهيل : روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه[1] . ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ** ﴾

(١) التسهيل ١/١٧٤ .

أي اقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر « قابيل وهابيل » ابني آدم ملتبسة بالحق والصِّدق وذكِّرهم بهذه القصة فهي قصة حق ﴿ **إذ قرَّبَا قرباناً فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر** ﴾ أي حين قرَّب كلٌ منهما قرباناً فتُقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل ، قال المفسرون : سبب هذا القربان أنَّ حواء كانت تلد في كل بطنٍ ذكراً وأنثى وكان يزوِّج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر فلما أراد آدم أن يزوِّج قابيل أخت هابيل ويزوِّج هابيل أخت قابيل رضي هابيل وأبى قابيل لأن توأمته كانت أجمل فقال لهما آدم : قرِّبا قرباناً فمن أيكما تُقبل تزوجها ، وكان قابيل صاحب زرع فقرَّب أرذل زرعه ، وكان هابيل صاحب غنم فقرَّب أحسن كبشٍ عنده فقبل قربانُ هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعَّده بالقتل[١] ﴿ **قال لأقتلنَّك** ﴾ أي قال قابيل لأخيه هابيل لأقتلنَّك قال : لِمَ ؟ قال لأنه تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني قال : وما ذنبي ؟ ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ أي إنما يتقبل ممن اتقى ربه وأخلص نيته ، قال البيضاوي : توعَّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنَّك أُتيت من قِبَل نفسك بترك التقوى لا من تِبَلي وفيه إشارة إلى أن الطاعة لا تُقبل إلاَّ من مؤمن متَّقٍ لله[٢] ﴿ **لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يَدِيَ إليكَ لأقتلك** ﴾ أي لئن مددت إليَّ يدك ظلمًا لأجل قتلي ما كنتُ لأقابلك بالمثل ، قال ابن عبَّاس المعنى : ما أنا بمنتصر لنفسي ﴿ **إني أخاف الله ربَّ العالمين** ﴾ أي لا أمدُّ يدي إليك لأني أخاف ربَّ العالمين ، قال الزمخشري : قيل : كان هابيل أقوى من القاتل ولكنه تحرَّج عن قتل أخيه خوفاً من الله[٣] .

إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ **إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النَّار** ﴾ أي إن قتلتني فذاك أحبُّ إلي من أن أقتلك ، قال أبو حيان : المعنى إن سبق بذلك قدرٌ فاختياري أن أكون مظلوماً ينتصر الله لي لا ظالماً[٤] وقال ابن عبَّاس : المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإثم قتلي إن قتلتني ، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النَّار ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أي عقاب من تعدَّى وعصى أمر الله ﴿ **فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ أي زيَّنت له نفسه وسهَّلت له قتل أخيه فقتله فخسر وشقي ، قال ابن عبَّاس : خوَّفه بالنَّار فلم ينته ولم ينزجر ﴿ **فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه** ﴾ أي أرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليُري

(١) الكشاف ١/٤٨٤ والقرطبي ٦/١٣٤ . (٢) البيضاوي ص ١٤٩ . (٣) الكشاف ١/٤٨٥ .
(٤) البحر ٣/٤٦٣ .

القاتل كيف يستر جسد أخيه ، قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه ، وكان ابن آدم هذا أول من قُتِلَ ، وروي أنَّه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه قال ﴿ **يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي** ﴾ أي قال قابيل متحسراً : يا ويلي ويا هلاكي أضعفتُ أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب ؟ ﴿ **فأصبح من النادمين** ﴾ أي صار نادماً على عدم الاهتداء إلى دفن أخيه لا على قتله ، قال ابن عبَّاس : ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة له[1] .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنَّه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض** ﴾ أي من أجل حادثة « قابيل وهابيل » وبسبب قتله لأخيه ظلماً فرضنا وحكمنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردّة وقطع الطريق ﴿ **فكأنما قتل النَّاس جميعاً** ﴾ أي فكأنه قتل جميع الناس ، قال البيضاوي : من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجرأ النَّاس عليه ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحياءئها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها[2] ﴿ **ومن أحياها فكأنما أحيا النَّاس جميعاً** ﴾ اي ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقذها من الهَلَكَة فكأنما أحيا جميع النَّاس ، قال ابن عبَّاس في تفسير الآية : من قتل نفساً واحدةً حرَّمها الله فهو مثلُ من قتل النَّاس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفسٍ حرَّمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا النَّاس جميعاً[3] ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات** ﴾ أي بعد ما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم وجاءتهم رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات ﴿ **ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون** ﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته ، قال ابن كثير : هذا تقريعٌ لهم

(١) القرطبي ٦/١٤٢ . (٢) البيضاوي ص ١٥١ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٥٠٩ .

وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها ، وقال الرازي : إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى ، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود[١] ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطَّاع الطريق فقال ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ أي يحاربون شريعة الله ودينه وأولياءه ويحاربون رسوله ﴿ **ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء ﴿ **أن يُقتَّلوا** ﴾ أي يُقتلوا جزاء بغيهم ﴿ **أو يصلبوا** ﴾ أي يقتلوا ويُصلبوا زجراً لغيرهم ، والصيغةُ للتكثير ﴿ **أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف** ﴾ معناه أن تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ﴿ **أو يُنفوا من الأرض** ﴾ أي يُطردوا ويُبعدوا من بلدٍ إلى آخر[٢] ﴿ **ذلك لهم خزيٌ في الدنيا** ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور ذلٌ لهم وفضيحة في الدنيا ﴿ **ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ هو عذاب النَّار ، قال بعض العلماء : الإمام بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل ، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك . وقال ابن عبَّاس : لِكُلّ رتبةٍ من الحِرَابة رتبةٌ من العقاب فمن قَتَلَ قُتِلَ ، وَمَن قَتَلَ وأَخَذَ المَال قُتِلَ وصُلِبَ ، وَمَن اقتصر على أخذ المال قُطِعت يده ورجله من خِلَاف ، وَمَن أَخَاف فقط نُفِيَ من الأرض ، وهذا قول الجمهور[٣] .

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿ **إلاَّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقُطَّاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم ﴿ **فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب يقبل توبته ويغفر زلَّته ، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته ، قال قتادة : تقرَّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ﴿ **وجاهدوا في سبيله لعلكم**

(١) التفسير الكبير ١١/٢١١ .

(٢) قال الشافعي : النفي من بلدٍ إلى بلد لا يزال يطلب وهو هاربٌ فزعاً وقال أبو حنيفة : النفي السجنُ ، واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه . (٣) الفخر الرازي ١١/٢١٥ .

تفلحون ﴾ أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه** ﴾ أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه ﴿ **ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجع ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النَّار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ أي دائم لا ينقطع ، وفي الحديث (يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أَرَأَيْتَ لو كان لَكَ مِلء الأرض ذَهباً أَكُنْتَ تفتدي به ؟ فيقول نعم . فيقال له : قَدْ كُنْتَ سُئِلتَ ما هو أيسرُ من ذلك ألَّا تشركَ بي فأبيت فيؤمر به إلى النَّار)[1] .

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿ **والسارق والسَّارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿ **جزاءً بما كسبا** ﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿ **نكالاً من الله** ﴾ أي عقوبة من الله ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلمًا ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه** ﴾ أي رجع عن السرقة ﴿ **وأصلح** ﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿ **فإن الله يتوب عليه** ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، ثم نبَّه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقِّب لحكمه فقال ﴿ **ألم تعلم أنَّ الله له ملك السموات والأرض** ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السموات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿ **يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ أي يعذِّب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق .

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿ من الذين قالوا آمنَّا بأفواههم ولم تؤمن قُلُوبُهُم ﴾ أي من المنافقين الذين لم يجاوز الإيمان أفواههم يقولون بألسنتهم آمنا وقلوبهم كافرة ﴿ ومن الذين هادوا ﴾ أي ومن اليهود ﴿ سمَّاعون للكذب ﴾ أي هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿ سمَّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك ﴾ أي مبالغون في قبول كلام قومٍ آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر ، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿ يحرِّفون الكَلِم من بعد مواضعه ﴾ أي يُزيلونه ويميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى ، قال ابن عبَّاس : هي حدود الله في التوراة غيَّروا الرجم بالجلد والتحميم[1] - يعني تسويد الوجه - ﴿ يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤْتوه فاحذروا ﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ أي ومن يرد الله كفره وضلالته فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهِّر قلوبهم ﴾ أي لم يرد الله أن يطهِّر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿ لهم في الدُّنيا خزيٌ ﴾ أي ذلٌ وفضيحة ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ هو الخلود في نار جهنم ، قال أبو حيان : والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم[2] .

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

﴿ سـمَّاعون للكذب ﴾ أي الباطل كرره تأكيداً وتفخيمًا ﴿ أكَّالون للسحت ﴾ أي الحرام من الرشوة والربا وشبه ذلك ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم ﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تُعرض عنهم ، قال ابن كثير : أي إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألَّا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم[3] ﴿ وإن تُعْرِض عنهم فلن يضرُّوك شيئاً ﴾ أي لأن الله

(١) البحر ٤٨٨/٣ . (٢) البحر ٤٨٨/٣ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٥١٩/١ .

عاصمك وحافظك من النَّاس ﴿ **وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسْطِ إنَّ الله يحبُّ المقسطين** ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل لأن الله يحب العادلين ، ثم قال تعالى منكراً عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿ **وكيف يحكِّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾ أي كيف يحكِّمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به ؟ قال الرازي : هذا تعجيبٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إيَّــاه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا عما يعتقدونه حكمًا حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم[1] ﴿ **ثم يتولون من بعد ذلك** ﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم « التوراة » لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما فيه ، قال في التسهيل : وهذا إلزامٌ لهم لأن من خالف كتاب الله وبدَّله فدعواه الإيمان باطلة[2] .

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء فقال ﴿ **إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيانٌ واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿ **يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا** ﴾ أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿ **للذين هادوا** ﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدِّلونها ولا يُحَرِّفونها ﴿ **والرَّبانيُّـون والأَحْبَار** ﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾ أي بسبب أمر الله إيَّاهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿ **وكانوا عليه شهداء** ﴾ أي رقباء لئلا يُبدَّل ويُغير ﴿ **فلا تخشوا النَّاس واخشون** ﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود النَّاس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً** ﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعَرَض الخسيس ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر ، وقال الزمخشري : ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصفٌ لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمرَّدوا بأن حكموا بغيرها[3] قال ابو حيَّان : والآية وإن كان

(١) الفخر الرازي ١١/٢٣٦ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٧٨ . (٣) الكشاف ١/٤٩٦ .

الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلَّا أنها عامة في اليهود وغيرهم[١] . . وكل آية وردت في الكفَّار تجرُّ بذيلها على عصاة المؤمنين .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ﴾ أي فرضنا على اليهود في التَّوراة أن النفس تُقتل بالنفس ﴿ **والعين بالعين** ﴾ أي تُفقأ العين بالعين إذا فقئت بدون حق ﴿ **والأنف بالأنف** ﴾ أي يُجْدَع بالأنف إذا قطع ظلمًا ﴿ **والأذن بالأذن** ﴾ أي تقطع بالأذن ﴿ **والسِّنَّ بالسِّنِّ** ﴾ أي يقلع بالسنِّ ﴿ **والجروح قصاص** ﴾ أي يُقتص من جانيها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي يمكن فيها المماثلة ولا يُخاف على النَّفس منها ﴿ **فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُو كفَّارةٌ لَهُ** ﴾ قال ابن عبَّاس : أي فمن عفا عن الجاني وتصدَّق عليه فهو كفَّارةٌ للمطلوب وأجرٌ للطالب[٢] وقال الطبري : من تصدَّق من أصحاب الحق وعفا فهو كفَّارة له أي للمتصدِّق ويكفِّر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه[٣] ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة** ﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين بعيسى بن مريم وأرسلناه عقيبهم مصدِّقاً لما تقدَّمه من التوراة ﴿ **وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** ﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور يُستضاء به في إزالة الشبهات ﴿ **ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة** ﴾ أي معترفاً بأنها من عند الله ، والتكرير لزيادة التقرير ﴿ **وهُدى وموعظةً للمتقين** ﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين .

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(١) البحر ٣/٤٩٢ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٢٢ . (٣) الطبري ١٠/٣٦٩ .

﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ أي وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿ **مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب** ﴾ أي مصدِّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿ **ومهيمناً عليه** ﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال الزمخشري : أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد بالصحة والثبات[1] قال ابن كثير : اسم المهيمن يتضمن ذلك فهو أمين وشاهد على كل كتابٍ قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره[2] ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ أي فاحكم يا محمد بين النَّاس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ﴿ **ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عما جاءك في هذا القرآن ، قال ابن كثير : أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء[3] ﴿ **لكل جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً** ﴾ أي لكل أمة جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك الأمة ، قال أبو حيَّان : لليهود شرعةٌ ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأمَّا المعتقد فواحدٌ لجميع النَّاس توحيدٌ وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء[4] ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة** ﴾ أي لو أراد الله لجمع النَّاس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيءٌ منها الآخر ﴿ **ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ أي شرَّع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يُعْرضون ، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم من طاعة الله واتِّباع شرعه ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم .

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾ أي أُحكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن

(١) الكشاف ١/٤٩٧ .
(٢) مختصر ابن كثير ١/٥٢٤ .
(٣) ابن كثير المختصر ١/٥٢٤ .
(٤) البحر ٣/٥٠٢ .

ولا تتَّبع أهواءهم الزائفة ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كَذَبَةٌ كَفَرةٌ خونة ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يُصيبهم ببعض ذُنوبهم** ﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿ **وإن كثيراً من النَّاس لفاسقون** ﴾ أي أكثر النَّاس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية ؟ ﴿ **ومن أحسنُ من الله حكمًا لقوم يوقنون** ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه ، وأصدقُ في بيانه ، وأحكم في تشريعه لقوم يصدِّقون بالعلي الحكيم !! ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين[1] ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال ، وملةُ الكفر واحدة ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ أي من جملتهم وحكمهُ حكمهم ، قال الزمخشري : وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ (لا تراءى نارهما)[2] ﴿ **إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان .

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿ **فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يُسَارعون فيهم** ﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أُبي وأصحابه يسارعون في مُوالاتهم ومُعاونتهم ﴿ **يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة** ﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد . قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة ﴿ **فعسى الله أن يأتي بالفتح** ﴾ يعني فتح مكّة[3] وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿ **أو أمر من عنده** ﴾ أي يهُلكهم بأمرٍ من عنده لا يكون فيه تسبّبٌ لمخلوق كإلقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿ **فيُصبحوا على**

---

(١) البحر ٣/٥٠٧ . (٢) الكشاف ١/٤٩٩ .
(٣) هذا قول السدي ، وقال ابن عبَّاس : هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم .

ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين ﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿ **ويقول الذين آمنوا** ﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿ **أهٰؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْد أَيمانهم إنهم لمعكم** ﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الإِيمان إنهم لمعكم بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿ وإن قوتلتم لننصرنَّكم ﴾ ﴿ **حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿ **يأيها الذينَ آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه** ﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد والمعنى : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدِّله بدين آخر ويرجع عن الإِيمان إلى الكفر[1] ﴿ **فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبُّونه** ﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناسٍ مؤمنين يحبّهمْ الله ويحبُّون الله ﴿ **أذلةٍ على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ﴾ أي رحماء متواضعين للمؤمنين أشدَّاء متعزِّزين على الكافرين ، قال ابن كثير : وهذه صفاتُ المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوّه[2] كقوله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون ليِّن الجانب متواضعاً لإِخوانه متسربلاً بالعزَّة حيال الكافرين والمنافقين ﴿ **يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾ أي يجاهدون لإِعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ **ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ **والله واسعٌ عليم** ﴾ أي واسع الإِفضال والإِحسان عليمٌ بمن يستحق ذلك .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

ثم لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال ﴿ **إنما وليُّكم الله ورسولهُ والذين آمنوا** ﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤ كم الله ورسوله والمؤمنون

(١) في الآية إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإِسلام فرقٌ كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم في عهد أبي بكر ، وقد ارتد بنو حنيفة قوم « مسيلمة الكذَّاب » وكتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أمَّا بعد : فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك فأجابه عليه السَّلام : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذَّاب أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

(٢) مختصر ابن كثير ١/٥٢٨ .

﴿ الذين يقيمون الصَّلاة ويؤتون الزَّكاة وهم راكعون ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة وهم خاشعون متواضعون لله عَزَّ وَجَلّ ، قال في التسهيل : ذكر تعالى الوَلِيَّ بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بها ، ثم عطف على إسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التَّبع ، ولو قال « إنما أولياؤكم » لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع[1] ﴿ ومن يتولّ الله ورسولهُ والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ أي من يتولَّ الله ورسوله والمؤمنين فإنه من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً ﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزءون ﴿ من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم والكفَّار أولياء ﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودّونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي اتقوا الله في موالاة الكفَّار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً ثم بين تعالى جانباً من استهزائهم فقال ﴿ وإذا ناديتم إلى الصَّلاة اتخذوها هُزُواً ولعباً ﴾ أي وإذا أذَّنتم إلى الصَّلاة ودعوتم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم ، قال في البحر : حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا : ابتدعتَ شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية[2] نبَّه تعالى على أنَّ من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يُتَّخَذَ ولياً بل يهُجر ويطرد ، وهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية قبلها ﴿ ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون ﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصَّلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس ، ونفي العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

---

(١) التسهيل ١/١٨١ .

(٢) البحر ٣/٥١٥ وقال أبو السعود عند هذه الآية : روي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله يقول : أحرق الله الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهلهُ نيامٌ فتطايرت منه شرارةٌ في البيت فأحرقته وأهله جميعاً أبو السعود ٢/٤٠ .

﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منَّا** ﴾ أي قل يا محمد : يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿ **إلاَّ أن آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل من قبل** ﴾ أي إلاَّ إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله ، قال ابن كثير : أي هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلاَّ هذا ؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً[١] ﴿ **وأنَّ أكثركم فاسقون** ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿ **قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك** ﴾ أي هل أخبركم بما هو شرٌ من هذا الذي تعيبونه علينا ؟ ﴿ **مثوبةً عند الله** ﴾ أي ثواباً وجزاءً ثابتاً عند الله ، قال في التسهيل : ووضع الثوابَ موضع العقاب تهكمًا بهم نحو قوله ﴿ فبشرهم بعذابٍ أليم ﴾[٢] ﴿ **من لعنه الله** ﴾ أي طرده من رحمته ﴿ **وغضب عليه** ﴾ أي سخط عليه بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿ **وجعل منهم القردة والخنازير** ﴾ أي ومسخ بعضَهم قردةً وخنازير ﴿ **وعَبَدَ الطاغوت** ﴾ أي وجعل منهم من عَبَدَ الشيطان بطاعته ﴿ **أولئك شرٌ مكاناً وأضل عن سواء السبيل** ﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شرٌ مكاناً في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم ، قال ابن كثير والمعنى : يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر[٣] ؟ قال القرطبي : ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : ياإخوة القردة والخنازير فنكّسوا رءوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر :

فلعنـة الله عـلى اليهـــود إن اليهـود إخـوةُ القـرود[٤]

﴿ **وإذا جاءوكم قالوا آمنَّا** ﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿ **وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به** ﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر ﴿ **والله أعلم بما كانوا يكتمون** ﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديدٌ لهم .

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٣٠ .
(٢) التسهيل ١/١٨٢ . (٣) ابن كثير ١/٥٣١ . (٤) القرطبي ٦/٢٣٦ .

﴿ **وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان** ﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿ **وأكلهمُ السحت** ﴾ أي أكلهم الحرام ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿ **لولا ينهاهم الرَّبانيون والأحبار** ﴾ أي هلاَّ يزجرهم علماؤ هم وأحبارهم ﴿ **عن قولهم الإثم وأكلهم السحت** ﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله ، قال ابن عبَّاس : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ـ يعني على العلماء ـ وقال أبو حيان : تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعبَّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبــارك :

وهــلْ أفسَــد الــدِّين إلاَّ الملو ... كُ وأحْبَــارُ سَــوْءٍ ورهبــانها[1]

﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾ أي قال اليهود اللعناء إن الله بخيلٌ يُقتِّر الرزق على العباد ، قال ابن عباس : مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنَّه بخيل[2] ﴿ **غُلَّت أيديهم** ﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿ **ولُعنوا بما قالوا** ﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء ، قال أبو السعود : وتضييق الرزق ليس لقصورٍ في فيضه بل لأن إنفاقه تابعٌ لمشيئته المبنيَّة على الحِكَم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيّق عليهم[3] ﴿ **وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً** ﴾ أي وليزيدنَّهم هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلَّما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً ، قال الطبري : أعلم تعالى نبيّه أنهم أهل عتوّ وتمرّد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحقٍ وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إيَّاه[4] ﴿ **وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتىًّ لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله** ﴾ أي كلَّما أرادوا إشعال حربٍ على رسول الله ﷺ أطفأها الله ﴿ **ويسعون في الأرض فساداً** ﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين ، قال ابن كثير : أي من سجيتهم أنهم دائمًا يسعون في الأفساد في الأرض ﴿ **والله لا يحب المفسدين** ﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته[5] .

---

(١) البحر المحيط ٣/٥٢٢ . (٢) الطبري ١٠/٤٥٢ .
(٣) أبو السعود ٢/٤٣ . (٤) الطبري ١٠/٤٥٧ . (٥) مختصر ابن كثير ١/٥٣٢ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا** ﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿ **لكفَّرنا عنهم سيئاتهم** ﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿ **ولأدخلناهم جنَّات النعيم** ﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنان النعيم ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم** ﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أُنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ﴿ **لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ أي لوسَّع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿ **منهم أمـةٌ مقتصدة** ﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصِّرة ، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبدالله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿ **وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون** ﴾ أي وكثير منهم أشرار بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال . ﴿ **يأَيها الرسولُ بلِّغْ ما أنزل إليـك من ربِّك** ﴾ هذا نداءُ تشريفٍ وتعظيمٍ ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربَّانية أي بلِّغْ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائفٍ أنْ ينالك مكروه ﴿ **وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته** ﴾ قال ابن عبَّاس : المعنى : بلِّغْ جميع ما أُنزل إليك من ربِّك فإن كتمتَ شيئاً منه فما بلَّغت رسالته[1] ، وهذا تأديب لحملة العلم من أمَّته ألَّا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ﴿ **والله يعصمك من النَّاس** ﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري : هذا وعدٌ من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم ؟ روي أن رسول الله ﷺ كان يُحْرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة ادَم وقال : انصرفوا أيها النَّاس فقد عصمني الله عزَّ وَجلّ[2] ﴿ **والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قُضي له بالكفر لا يهتدي أبداً .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ

(١) القرطبي ٦/٢٤٢ . (٢) الكشاف ١/٥١٤ .

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تُقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامهما على الوجه الأكمل ، ومن إقامتهما الإيمان بمحمد ﷺ ﴿ **وما أُنزل إليكم من ربكم** ﴾ قال ابن عبَّاس : يعني القرآن العظيم ﴿ **وليزيدن كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربِّك طغياناً وكفراً** ﴾ اللام للقسم أي وأقسم ليزيدنَّ هذا القرآن المنزَّل عليك يا محمد الكثير منهم غلواً في التكذيب وجحوداً لنبوتك[١] وإصراراً على الكفر والضلال ﴿ **فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم ، وهذه تسليةٌ للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن[٢] ثم قال تعالى ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أي صدَّقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿ **والذين هادوا** ﴾ وهم اليهود ﴿ **والصابئون** ﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب ﴿ **والنصارى** ﴾ وهم أتباع عيسى ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً** ﴾ أي من آمن من هؤلاء المذكورين إيماناً صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتيابٌ بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله ﴿ **فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي فلا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله[٣] قال ابن كثير : والمقصود أن كلَّ فرقةٍ آمنت بالله واليوم الآخر وعملت صالحاً ـ ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ـ فمن اتصف بذلك فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم[٤] ﴿ **لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل** ﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورسله قال في البحر : هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم ، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شِنْشِنةٌ من أسلافهم[٥] ﴿ **وأرسلنا إليهم رسلاً** ﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿ **كلَّما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم** ﴾ أي كلَّما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهوائهم وشهواتهم ﴿ **فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون** ﴾ أي كذَّبوا طائفةً من الرسل يقتلون طائفةً أخرى منهم قال البيضاوي : وإنما جيء بـ « ويقتلون » موضع « قتلوا » على حكاية الحال

(١) الطبري ٤٧٤/١٠ . (٢) القرطبي ٢٤٥/٦ . (٣) الطبري ٤٧٦/١٠ .
(٤) مختصر ابن كثير ٥٣٥/١ . (٥) البحر ٥٣١/٣ .

الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظةً على رءوس الآي[١] .

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

﴿ **وحسبوا أن لا تكون فتنة** ﴾ أي وظنَّ بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل اغتراراً بإمهال الله عَزَّ وَجَلّ لهم ﴿ **فَعَمُوا وَصَمُّوا** ﴾ أي تمادوا في الغيِّ والفساد فَعَمُوا عن الهدى وصمُّوا عن سماع الحق وهذا على التشبيه بالأعمى والأصمّ لأنَّه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين لإعراضه عن النظر ﴿ **ثم تاب الله عليهم** ﴾ قال القرطبي : في الكلام إضمارٌ أي أُوقعت بهم الفتنةُ فتابوا فتاب الله عليهم[٢] ﴿ **ثم عَمُوا وَصَمُّوا كثير منهم** ﴾ أي عميَ كثير منهم وصمَّ بعد تبين الحق له ﴿ **والله بصير بما يعملون** ﴾ أي عليم بما عملوا وهذا وعيدٌ لهم وتهديد ، ثم ذكر تعالى عقائد النصارى الضَّالة في المسيح فقال ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ قال أبو السعود : هذا شروعٌ في تفصيل قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء الذين قالوا إن مريم ولدت إلهاً هم « اليعقوبية » زعموا أن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتحد به ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٣] ﴿ **وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ أي أنا عبدٌ مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذلّ له كل شيء ويخضع له كل موجود قال ابن كثير : كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال ﴿ **إني عبد الله** ﴾ ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله بل قال ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾[٤] وقال القرطبي : ردَّ الله عليهم ذلك بحجةٍ قاطعةٍ مما يُقرّون به فقال ﴿ **وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ فإذا كان المسيح يقول : يا ربّ ، ويا ألله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها ؟ هذا محال[٥] ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّـة** ﴾ أي من يعتقد بألوهية غير الله فلن يدخل الجنة أبداً لأنها دار الموحدين ﴿ **ومأواه النَّار** ﴾ أي مصيره نار جهنم ﴿ **وما للظالمين من**

---

(١) البيضاوي ص ١٥٧ .
(٢) القرطبي ٦/٢٤٨ .
(٣) أبو السعود ٢/٤٩ .
(٤) ابن كثير ١/٥٣٦ .
(٥) القرطبي ٦/٢٤٩ .

أنصار ﴾ أي فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة** ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة ، وهذا قول فرقةٍ من النصارى يسمون « النُّسطورية والملكانية » القائلين بالتثليث وهو يقولون : إن الإلهيَّة مشتركة بين الله ، وعيسى ، ومريم وكل واحدٍ من هٰؤلاء إله ، ولهٰذا اشتهر قولهم « الأب والإبن وروح القدس »[١] ﴿ **وما من إلهٍ إلاَّ إلهٌ واحدٌ** ﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود إلاَّ إله واحدٌ موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن المثيل والنظير ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون** ﴾ أي وإن لم يكفُّوا عن القول بالتثليث ﴿ **ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ أي ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة .

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه** ﴾ ؟ الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول ؟ ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا ، قال البيضاوي : وفي هذا الاستفهام ﴿ أفلا يتوبون ﴾ تعجيبٌ من إصرارهم على الكفر ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسل** ﴾ أي ما المسيح إلاَّ رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدَّموه خصَّه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خصَّ بعض الرسل ، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى . وجُعلت حيَّة تسعى وهو أعجب ، وإن خُلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أبٍ ولا أم وهو أغرب وكلُّ ذلك من جنابه عَزَّ وَجَلّ وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله ﴿ **وأمُّـهُ صدِّيقـةٌ** ﴾ أي مبالغة في الصِّدق ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركبٌ من عظم ولحمٍ وعروقٍ وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لابد أن يكون في حاجة إلى إخراجه ، ومن يكن هذا حاله فكيف يُعْبَد ، أو كيف يُتوهم أنه إلـه ؟ ﴿ **أُنظر كيْفَ نُبَيِّن لَهُم الآيات** ﴾ تعجيبٌ من

(١) قال السدي : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلٰهين من الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، وقال في البحر : يقولون جوهرٌ واحدٌ وثلاثة أقانيم « أب وابن وروح قدس » وهذه الثلاثة إلٰـه واحد كما أنَّ الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وزعموا أن الأب إلٰه والإبن إلٰه والروح إلٰه والكل إلٰه واحد ، وهذا معلوم البطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحداً وأن الواحد لا يكون ثلاثة .

حال الذي يدَّعون ألوهيَّته هو وأمه أي أنظر كيف نوضِّح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ **ثمَّ انظر أنَّى يُؤْفَكُون** ﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار ﴿ **قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً** ﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضر ؟(١) ﴿ **والله هو السميع العليم** ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم ، وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متَّصفٌ بالعجز عن دفع ضرّ أو جلب نفع ﴿ **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق** ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتُفرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى إنَّه إلهٌ أو ابن إله ، قال القرطبي : وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رشْدة ـ أي هو ابن زنا ـ وغلوُّ النصارى قولهم إنَّه إله(٢) ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلُّوا من قبل** ﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ ﴿ **وأضلوا كثيراً** ﴾ أي أضلُّوا كثيراً من الخلق بإغوائهم لهم ﴿ **وضلُّوا عن سواء السبيل** ﴾ أي ضلُّوا عن الطريق الواضح المستقيم ، قال القرطبي : وتكرير ضلُّوا للإشارة إلى أنهم ضلُّوا من قبل وضلُّوا من بعد ، والمرادُ الأسلافُ الذين سنُّوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى(٣) .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ **لُعِنَ الذين كَفَرُوا من بني إسرائيل على لِسَانِ داود وعيسى ابن مريم** ﴾ أي لعنهم الله عز وجل في الزبور ، والإنجيل ، قال ابن عبَّاس : لُعنوا بكل لسان ، لعنوا على عهد موسى في التوراة ، وعلى عهد داود في الزَّبور ، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن(٤) قال المفسرون : إنَّ اليهود لمَّا اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة ، وأصحاب المائدة لمَّا كفروا بعيسى دعا عليهم فمُسخوا خنازير ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ، ثمَّ بين تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ أي لا ينهى بعضُهم بعضاً عن قبيحٍ فعلوه ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ أي بئس شيئاً

(١) قال في البحر لما بين تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران أنكر عليهم ووبخهم من وجهٍ آخر وهو عجز عيسى على دفع ضررٍ وجلب نفع وأنَّ من كان لا يدفع عن نفسه حريٌ أن لا يدفع عنكم ؛ البحر ٣/٥٣٨ .
(٢) القرطبي ٦/٢٥٢ . (٣) القرطبي ٦/٢٥٢ . (٤) البحر ٣/٥٣٩ .

فعلوه قال الزمخشري : **تعجيب** من سوء فعلهم مؤكد بالقسم فياحسرتا على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المنكر كأنَّه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب[1] وقال في البحر : وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر ، والتجاهر به ، وعدم النهي عنه ، والمعصيةُ إذا فُعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث (من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر) فإذا فُعلت جهاراً وتواطأ النَّاس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها[2] ﴿ **ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا** ﴾ أي ترى كثيراً من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد « كعب بن الأشرف » وأصحابه ﴿ **لبئس ما قدَّمت لهم أنفسهم** ﴾ أي بئس ما قدَّموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿ **أن سخط الله عليهم** ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بئس ما قدَّموه لآخرتهم سخطُ الله وغضبُهُ عليهم ﴿ **وفي العذاب هم خالدون** ﴾ أي وفي عذاب جهنم مخلَّدون أبد الآبدين .

وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وماأُنزل إليه ما اتخذوهم أولياء** ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدِّقون بالله ونبيهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿ **ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون** ﴾ أي ولكنَّ أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عزَّ وَجَلّ ﴿ **لتجدنَّ أشدَّ النَّاس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا** ﴾ اللام للقسم أي قسمًا لتجدنَّ يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناس عداوة للمؤمنين ﴿ **ولتجدن أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى** ﴾ نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه ، قال الزمخشري : وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة **إجابتهم** إلى الحق ، ولين عريكة النَّصارى وسهولة ميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبَّه على زيادة عداوتهم بتقديمهم على الذين أشركوا[3] ﴿ **ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسين ورهباناً** ﴾ تعليلٌ لقرب مودَّتهم أي كونهم أقرب مودَّة بسبب أن منهم علماء وعُبَّاداً ﴿ وأنهم **لا يستكبرون** ﴾ أي يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود ، قال البيضاوي : وفيه دليلٌ على أن التواضعَ والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشَّهوات ، محمودٌ وإن كان من كافر[4] .

(١) الكشاف ٥١٩/١ . (٢) البحر ٥٤٠/٣ . (٣) الكشاف ٥٢١/١ . (٤) البيضاوي ص ١٥٩ .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرَّسول** ﴾ أي إذا سمعوا القرآن المُنزَّل على محمد رسول الله ﴿ **ترى أعينهم تفيض من الدَّمع** ﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لرقة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿ **مما عرفوا من الحق** ﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنَّه حق ﴿ **يقولون ربَّنا آمنَّا** ﴾ أي يقولون يا ربَّنا صدَّقنا بنبيِّك وكتابك ﴿ **فاكتبنا مع الشَّاهدين** ﴾ أي مع أمَّة محمد عليه السَّلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة ، قال ابن عبَّاس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم « جعفر بن أبي طالب » بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم[١] ﴿ **وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق** ﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتِّباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير ؟ قالوا ذلك في جواب من عيَّرهم بالإسلام من اليهود قال في البحر : هذا إنكارٌ واستبعادٌ لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجبه وهو عرفان الحق[٢] ﴿ **ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصَّالحين** ﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنَّة بصحبة الصَّالحين من عباده الأبرار ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا** ﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿ **جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ **وذلك جزاء المحسنين** ﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيّته ، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿ **والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذَّبون فيها ، قال أبو السعود : وذكَرهم بمقابلة المصدِّقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب[٣] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ

(١) ابن كثير ١/٥٣٩ . (٢) البحر ٤/٦ .
(٣) أبو السعود ٢/٥٥ .

تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ يأَيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أحلَّ الله لكم ﴾ روى الطبري عن عكرمة قال : كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ هّموا بالخِصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية[١] أي لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرَّمنا على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهُّداً ﴿ ولا تعتدوا ﴾ أي ولا تتعدّوا حدود ما أحلَّ الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد ، والإسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ أي كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله ، قال في التسهيل : أي تمتعوا بالمآكل الحلال وبالنساء وغير ذلك ، وإنما خصَّ الأكل بالذكر لأنَّه أعظم حاجات الإنسان[٢] ﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه كأنَّه يقول : لا تضيِّعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عَزَّ وَجَلّ فتكون عليكم الحسرة العظمى فإنَّ الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله ، وبلى والله ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان ﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تُطعمون أهليكم ﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تُطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تُطعمون منه أهليكم ، قال ابن عبَّاس : أي من أعدل ما تُطعمون أهليكم ، وقال ابن عمر : الأوسطُ الخبز والتمر ، والخبز والزبيب ، وخيرُ ما نُطعم أهلينا الخبز واللحم[٣] ﴿ أو كسوتهم ﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله ، قال في البحر : وأجمع العلماء على أن الحانث مُخَيَّر بين الإطعام والكسوة والعتق[٤] ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيَّام ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفَّارته صيام ثلاثة أيام[٥] ﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ أي هذه كفَّارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلَّا لضرورة ، قال ابن عبَّاس : أي لا تحلفوا ، وقال ابن جرير : أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿ كذلك يُبيِّن الله

(١) الطبري ١٠/٥١٤ .
(٢) التسهيل ص ١٨٦ .
(٣) ابن كثير ١/٥٤٣ .
(٤) البحر ٤/١١ .
(٥) شرط الأحناف والحنابلة التتابع في الأيام ، وقال الشافعي ومالك : لا يجب التتابع ، واختار الطبري أنَّه كيفما صامهنَّ مفرقة أو متتابعة أجزأه كذا في الطبري ١٠/٥٦٢ .

لكم آياته لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ أي مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

﴿ **يٰأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر** ﴾ قال ابن عبَّاس : الخمر جميع الأشربة التي تُسكر ، والميسرُ القمار ، كانوا يتقامرون به في الجاهلية ﴿ **والأنصابُ والأزلامُ** ﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخُدَّام الأصنام ، قال ابن عبَّاس ومجاهد : الأنصاب حجارةٌ كانوا يذبحون قرابينهم عندها والأزلام : قداحٌ كانوا يستقسمون بها[1] ﴿ **رجسٌ من عمل الشيطان** ﴾ أي قذرٌ ونجسٌ تعافه العقول ، وخبيثٌ مستقذر من تزيين الشيطان ﴿ **فاجتنبوه لعلَّكم تفلحون** ﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿ **إنما يريد الشيطانُ أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر** ﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلَّا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم القمار ﴿ **وَيَصُدَّكُم عن ذكر الله وَعَن الصَّلاة** ﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصَّلاة التي هي عماد دينكم ، قال أبو حيَّان : ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين : إحداهما دنيوية ، والأخرى دينية ، فأمَّا الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتئول بشاربها إلى التقاطع ، وأمَّا الميسر فإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده ، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تُلْهي عن ذكر الله وعن الصَّلاة ، والميسر ـ سواء كان غالباً أو مغلوباً ـ يُلْهي عن ذكر الله[2] ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر أي انتهوا ولذلك قال عمر : انتهينا ربّنا انتهينا ، قال في البحر : وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به كأنَّه قيل : قد تُلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم[3] ؟ ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرَّسول واحذروا** ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتهما ﴿ **فإن توليتم** ﴾ أي أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله ﴿ **فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم

(١) البحر المحيط ١٤/٤ . (٢و٣) البحر المحيط ١٥/٤ .

الرِّسالة وجزاؤكم علينا ، قال الطبري : وهذا من الله وعيدٌ لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم : فإن توليتم عن أمري ونهيي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي[1] وقال أبو حيَّان : وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمَّن أن عقابكم إنما يتولاه المرسِلُ لا الرسول[2] .

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات جُناحٌ فيما طعِموا** ﴾ قال ابن عبَّاس : لما نزل تحريم الخمر قال قوم : كيف بمن مات منَّا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت فأخبر تعالى أن الإثم والذمَّ إنما يتعلَّق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿ **إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصَّالحات** ﴾ أي ليس عليهم جُناحٌ فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرَّم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ **ثم اتقوا وآمنوا** ﴾ أي اتَّقوا المحرَّم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرَّمه الله معتقدين حرمته ﴿ **ثم اتَّقوا وأحسنوا** ﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي تقربهم من الله ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ أي يحب المتقربين إليه بالأعمال الصَّالحة ، قال في التسهيل : كرَّر التقوى مبالغةً وقيل : الرتبة الأولى : إتقاء الشرك ، والثانيةُ ؛ اتقاء المعاصي ، والثَّالثةُ : اتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأسُ[3] ﴿ **يأَيها الذين آمنوا ليبلونَّكم اللهُ بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديكم ورماحُكم** ﴾ أي ليختبرنَّكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره الرماح ، قال البيضاوي : نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى : بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون[4] ، قال في البحر : وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة[5] ﴿ **ليعلم الله من يخافه بالغيب** ﴾ أي ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه ﴿ **فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم** ﴾ أي فمن تعرَّض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذابٌ مؤلم موجع .

(١) الطبري ١٠/٥٧٥ .
(٢) البحر ٤/١٥ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٨٧ .
(٤) البيضاوي ص ١٦٠ .
(٥) البحر ٤/١٦ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

﴿ يٰأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرمٌ ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحجٍ أو عمرة ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فَجَزاءٌ مِثل ما قَتَلَ من النَّعَمِ ﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النَّعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ يحكم به ذوا عدْلٍ منكم ﴾ أي يحكم بِالمِثْل حكمان عادلان من المسلمين ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي حال كونه هدياً يُنحر ويُتصدَّق به على مساكينه فإن لم يكن للصيد مثلٌ من النَّعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿ أو كفَّارةُ طعامُ مساكين ﴾ أي وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النَّعم فَيَقُوّم الصيد المقتول ثم يُشترى به طعامٌ فيصرفُ لكل مسكينٍ مدٌّ منه ﴿ أو عدْل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره ﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مدٍ يوماً ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ، قال في التسهيل : عدَّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد ، فذكر أولاً الجزاء من النعم ، ثم الطَّعام ، ثم الصِّيام ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير وهو الذي يقتضيه العطف بـ « أو » وعن ابن عبَّاس أنها على الترتيب[1] ﴿ عفا الله عمَّا سلف ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ أي غالب على أمره منتقم ممن عصاه .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

﴿ أُحلَّ لكم صيد البحر ﴾ أي أُحلَّ لكم أيها النَّاس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير محرمين ﴿ وطعامه متاعاً لكم وللسيَّارة ﴾ أي وما يطعم من صيده كالسمك وغيره منفعةً وقوتاً لكم وزاداً للمسافرين يتزودونه في أسفارهم ﴿ وحُرِّم عَلَيْكُم صَيْدُ البرِّ ما دمتم حُرُماً ﴾ أي وحُرّم

---

(١) التسهيل ١/١٨٨ .

عليكم صيد البر ما دمتم محرمين ﴿ **واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُون** ﴾ أي خافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم وهو وعيد وتهديد ﴿ **جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِياماً للنَّاس** ﴾ أي جعل الله الكعبة المشرَّفة وهي البيت المحرَّم صلاحاً ومعاشاً للناس ولقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سببٌ لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضَّعيف ، ويربح فيه التُّجار ، ويتوجه إليه الحُجّاج والعمار ﴿ **والشَّهر ٱلحَرَامَ** ﴾ أي الأشهر الحُرُم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » قياماً لهم لأمنهم القتال فيها ﴿ **والهدي والقلائد** ﴾ أي الهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ، والبُدن ذوات القلائد التي تُقلَّد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿ **ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم** ﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها النَّاس أن الله يعلم تفاصيل أمور السمٰوات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء ، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿ **إعلموا أن الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم** ﴾ أي اعلموا أيها النَّاس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب ، فلا تُسيئنَّكم نقمتُه ولا تُطْمعنَّكم رحمتُه .

مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿ **ما على الرَّسول إلاَّ البلاغ** ﴾ أي ليس على الرَّسول إلاَّ أداء الرسالة وتبليغ الشريعة وقد بلَّغ ما وجب عليه فلا عذر لأحدٍ في التفريط ﴿ **والله يعلم ما تُبدُون وما تكتمون** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها ، قال أبو حيان : الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطَّلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً[1] ﴿ **قل لا يستوي الخبيثُ والطَّيبُ ولو أعجبك** كثرةُ **الخبيثُ** ﴾ أي قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطَّيبُ ولو أعجبك أيها السَّامع كثرة الخبيث وهو مثلٌ ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام ، والمطيع والعاصي ، والرديء والجيد ، قال القرطبي : اللفظ عامٌ في جميع الأمور يتصور في المكاسب ، والأعمال ، والنَّاس ، والمعارف من العلوم وغيرها ، فالخبيث من هذا كلَّه لا يُفلح ولا يُنْجب ولا تَحسن له عاقبةٌ وإن كثر ، والطيِّب ـ وإن قلَّ ـ نافعٌ حميدٌ جميل العاقبة[2] ، وقال أبو حيان :

(١) البحر ٤/٢٧ . (٢) القرطبي ٦/٣٢٧ .

الظاهر أن الخبيث والطيِّب عامَّان فيندرج تحتهما المال وحرامه ، وصالح العمل وفاسده ، وجيِّد النَّاس ورديئه ، وصحيح العقائد وفاسدها ، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ **والبلد الطيِّب يخرج نباتُه بإذن ربِّه والذي خَبُثَ لا يخرج إلاَّ نكداً** ﴾(١) ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلَّكم تُفلحون** ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم** ﴾ أي لا تسألوا الرَّسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم ، قال الزمخشري : أي لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلَّفكم إيَّاها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها(٢) ﴿ **وإن تسألوا عنها حين يُنزَّل القرآن تُبد لكم** ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم فلا تسألوا عنها(٣) ﴿ **عفا الله عنها** ﴾ أي عفى الله عن مسائلكم السَّالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿ **والله غفور حليم** ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة .

٧

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

﴿ **قد سألها قوم من قبلكم** ﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قومٌ قبلكم فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿ **ثم أصبحوا بها كافرين** ﴾ أي ساروا بتركهم العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا ﴿ **ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ** ﴾ كان أهل الجاهلية إذا أنتجت النَّاقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرَّموا ركوبها وهي البحيرة ، وكان الرجل يقول : إذا قدمتُ من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ، وإذا ولدت الشَّاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره وهو الحام ، فلما

(١) البحر ٤/٢٧ . (٢) الكشاف ١/٥٣٣ .

(٣) وقال ابن عباس في تفسير الآية : لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما بتكليف شرعي يلزمكم ، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال أين أبي ؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بيّن لكم وأبدى . نقلاً عن البحر المحيط ٤/٣١ .

جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ﴿ **ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ أي ولكنَّ الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء لأنهم يقلِّدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرَّسول** ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الضَّالين هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما حلَّلتم وحرَّمتم ﴿ **قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ أي يكفينا دين آبائنا ﴿ **أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ الهمزة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتَّبعون آباءهم فيما هم عليه من الضَّلال ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق ؟

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿ **يأَيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها ﴿ **لا يضرّكم من ضلَّ إذا اهتديتم** ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ من النَّاس إذا كنتم مهتدين ، قال الزمخشري : كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طريق الهدى لا يضركم الضلاَّل عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ **فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات** ﴾[1] وقال أبو السعود : ولا يتوهمن أحدٌ أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر وقد روي أن الصدِّيق قال يوماً على المنبر : أيها النَّاس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ قال : إن النَّاس إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه عمَّهم الله بعقابه[2] ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعاً** ﴾ أي مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم قال البيضاوي : هذا وعدٌ ووعيد للفريقين ، وتنبيه على أنَّ أحداً لا يؤ اخذ بذنب غيره ﴿ **يأَيها الذين**

(١) الكشاف ١/٥٣٤ .

(٢) أبو السعود ٢/٦٥ ويؤيده حديث (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك) أخرجه الحاكم .

آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصية ﴾ أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموتِ وظهرت علائمه فينبغي أن يُشهد على وصيته ﴿ إثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم ﴾ أي يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿ تحبسونهما من بعد الصَّلاة ﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع النَّاس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عديًّا وتميمًا بعد العصر عند المنبر ﴿ فيقسمان بالله إن ارتبتم ﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما ، قال أبو السعود : أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانةٍ وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلِّفوهما بالله[1] ﴿ لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ﴾ أي يحلفان بالله قائلين : لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نُقسم له قريباً لنا ﴿ ولا نكتم شهادة الله إنَّا إذاً لمن الآثمين ﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنَّا إن فعلنا ذلك كنَّا من الآثمين .

فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ * يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

﴿ فإن عُثر على أنهما استحقا إثمًا ﴾ أي اطُّلع بعد حلفهما على خيانتهما أو كذبهما في الشَّهادة ﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوْليانِ ﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما ﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا ﴿ وما اعتدينا إنَّا إذاً لمن الظالمين ﴾ أي وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة إنَّا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿ أو يخافون أن تُردَّ أَيمانٌ بعد أيمانهم ﴾ أي يخافون أن يحلف غيرهم بعدهم ليفتضحوا ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ أي خافوا ربَّكم وأطيعوا أمره ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته

(١) أبو السعود ٢ / ٦٦ .

﴿ **يوم يجمع الله الرسل** ﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿ **فيقول ماذا أجبتم** ﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم ؟ وما الذي ردَّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد ؟ ﴿ **قالوا لا علم لنا** ﴾ أي لا علم لنا إلى جنب علمك ، قال ابن عبَّاس : أي لا علم لنا إلاَّ علم أنت أعلم به منَّا[1] ﴿ **إنَّك أنت علاَّم الغيوب** ﴾ أي تعلم ما لا نعلم مِمَّا ظهر وبطن ، قال أبو السعود : وفيه إظهارٌ للشكوى وردٌ للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاءٌ إلى ربهم في الانتقام منهم[2] .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿ **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتك** ﴾ قال ابن كثير : يذكر تعالى ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السَّلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات أي اذكر نعمتي عليك في خلقي إيَّاك من أمٍّ بلا ذكر وجعلي إيَّاك آية قاطعة على كمال قدرتي ، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها مِمَّا اتهمها به الظالمون من الفاحشة[3] وقال القرطبي : هذا من صفة يوم القيامة كأنَّه قال : اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا[4] وذكر بلفظ الماضي ﴿ إذ قال ﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آتٍ قريب ﴿ **إذْ أيَّدتك بروح القُدُس** ﴾ أي حين قوَّيتك بالروح الطاهرة المقدسة « جبريل » عليه السَّلام ﴿ **تكلِّم النَّاس في المهد وكهلاً** ﴾ أي تكلِّم النَّاس في المهد صبياً وفي الكهولة نبياً ﴿ **وإذ علَّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علَّمتك الكتابة والحكمة وهي العلم النَّافع مع التوراة والإنجيل ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني** ﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوِّر الطين كصورة الطير بتيسيري وأمري ﴿ **فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني** ﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيئته ﴿ **وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني** ﴾ أي تشفي الأعمى الذي

(١) القرطبي ٦/٣٦١ قال ابن كثير : وهذا من باب التأدب مع الرَّب جل جلاله أي : لا علم بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فأنت المطّلع على كل شيء فعلمنا كَلاشيء بالنسبة لعلمك المحيط .

(٢) أبو السعود ٢/٧٠ . (٣) ابن كثير ١/٥٦١ . (٤) القرطبي ٦/٣٦٢ .

لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمري ومشيئتي ﴿ **وإذ تُخْرِج الموتى بإذني** ﴾ أي تحيي الموتى بأمري ومشيئتي ، وكرر لفظ ﴿ بإذني ﴾ مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿ **وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيِّنات** ﴾ أي واذكر حين منعتُ اليهود من قتلك لمَّا همُّوا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿ **فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاَّ سحرٌ مبين** ﴾ أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلاَّ سحرٌ ظاهرٌ واضح .

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريِّين أن آمنوا بي وبرسولي** ﴾ وهذا أيضاً من الإمتنان على عيسى أي واذكر حين أمرتُ الحواريين وقذفت في قلوبهم أن صدِّقوا بي وبرسولي عيسى بن مريم ﴿ **قالوا آمنَّا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ أي قال الحواريون صدَّقنا يارب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن ﴿ **إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزِّل علينا مائدة من السَّماء** ﴾ أي واذكر حين قال الحواريون **يا عيسى** هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء **علينا** ؟ قال القرطبي : وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عَزَّ وَجَلَّ ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾[1] وقال أبو حيان : وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزِّل مائدة من السَّماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري[2] وأمَّا غيره من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى، وأنهم لم يشكُّوا في ذلك حتى قال الحسن : لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزِّل أم لا ؟ فإن كان ينزِّل فاسأله لنا[3] فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿ **قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿ **قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا** ﴾ أي قال الحواريون نريد

(١) القرطبي ٦/٣٦٤ .

(٢) قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما فدعواهم كانت باطلة وإنهم شاكّون وهذا كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ! الكشاف ١/٥٤٠ . (٣) البحر ٤/٥٣ .

بسؤ النا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿ **ونعلم أن قد صدقتنا** ﴾ أي ونعلم علمًا يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿ **ونكون عليها من الشاهدين** ﴾ أي نشهد بها عند من يحضرها من النَّاس .

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿ **قال عيسى ابن مريم اللَّهُمَّ ربنا أنزل علينا مائدة من السَّماء** ﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة وروي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي ، قال أبو السعود : نادى عيسى ربّه مرتين : مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع[1] ﴿ **تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا** ﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا ﴿ **وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين** ﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسلك وارزقنا يا ألله فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿ **قال الله إني منزِّلها عليكم** ﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال إني سأُنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿ **فمن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين** ﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذِّبه عذاباً شديداً لا أُعذِّب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث (أُنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا وأُمروا ألاَّ يدَّخروا لغدٍ ولا يخونوا فخانوا وادَّخروا ورفعوا لغدٍ فمسخوا قردة وخنازير)[2] ، قال في التسهيل : جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأُعطيها ، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير[3] .

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

---

(١) أبو السعود ٢/٧٣ . (٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير . (٣) التسهيل ١/١٩٤ .

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنتَ قُلْت للنَّاس اتخذوني وأُمي إلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿ إذ قال الحواريون ﴾ ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ﴾ قال ابن عبَّاس : هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل[1] والمعنى : اذكر للنَّاس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى بن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم قائلًا : يا عيسى أأنت دعوت النَّاس إلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك ؟! قال القرطبي : إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادَّعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع[2] ﴿ قَالَ سبحانَكَ مَا يَكُون لي أن أقُول مَا ليس لي بحق ﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿ إن كنت قلتُه فقد علمته ﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا يخفى عليك شيء وأنت العالم بأني لم أقله ، وهذا اعتذارٌ وبراءة من ذلك القول ومبالغةٌ في الأدب وإظهار الذلَّة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنَّك أنت علاَّم الغيوب ﴾ أي تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت على من صفات الكمال إنَّك أنت العالم بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ ما قلتُ لهم إلاَّ ما أمرتني به ﴾ أي ما أمرتهم إلاَّ بما أمرتني به قال الرازي : وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربّكم ﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ﴾ أي كنت شاهداً على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم ﴿ فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم ﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا ألله الحفيظ لأعمالهم ، والشاهد على أفعالهم ﴿ وأنت على كل شيء شهيد ﴾ أي وأنت المطَّلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء .

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

﴿ إن تعذِّبهم فإنهم عبادك ﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿ وإن تغفر لهم فإنَّك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك

(١) البحر ٤/٥٨ . (٢) القرطبي ٦/٣٧٥ .

أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿ **قال اللهُ هذا يوم ينفع الصَّادقين صدقهم** ﴾ أي يوم القيامة ينفع الصَّادقين في الدنيا صدقُهم لأنَّه يوم الجزاء ﴿ **لهم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ أي لهم جنَّات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفَوْزُ العظيم** ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنَّات النعيم ﴿ **لله ملك السمٰوات والأرض وما فيهنَّ وهو على كل شيء قدير** ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيئته وهو القادر على كل شيء .

(تم بعونـــه تعـالى تفســير سورة المائـــدة)

(٦) سُورَةُ الأَنْعَامِ مَكِّيَّة وآياتها خمس وستون ومائة

بين يدي السـورة

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول « **العقيدة وأصول الإيمان** » وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيءٍ من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة ، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام ، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ــ قضية الألوهية . ٢ ــ قضية الوحي والرسالة . ٣ ــ قضية البعث والجزاء .

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية ، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والدلائل الباهرة ، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين . ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرهما من السور هما :

١ ــ أسلوب التقرير .

٢ ــ أسلوب التلقين .

* **أما الأول** : « أسلوب التقرير » فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته ، وسلطانه وقهره ، في صورة الشأن المسلَّم ، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسّ الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة « **هو** » الدالة على الخالق المدبر الحكيم ، استمع إلى قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم من طين** ﴾ . . ﴿ **وهو الله في السموات والأرض** ﴾ . . ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل** ﴾ . . ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ . . ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق** . . . ﴾ **إلخ** .

* **أما الثاني** : « أسلوب التلقين » فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة :

﴿ **قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة** ﴾ . . ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم** ﴾ . . ﴿ **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إلـه غير الله يأتيكم به** ﴾ . . ﴿ **وقالوا لولا نُزّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن يَنزّل آية ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية[١] ، تقرر حقائقها ، وتثبّت دعائمها ، وتفنّد شبع المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جلَّ وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر ، وتفيض في هذا بألوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك ـ في ربع كامل ـ بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم** . . . ﴾ الآية وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة . وهو أنه خليفةٌ في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي « **الابتلاء والاختيار** » في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذاك النظام ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربكم سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ .

التســـــمية : سميت بـ « **سورة الأنعام** » لورود ذكر الأنعام فيها ﴿ **وجعلوا للّهِ مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً** . . . ﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها ، ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح[٢] .

---

(١) يقول الإمام الرازي : « امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة : أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، وثانيهما أنه شيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذهب المبطلين والملحدين » ، ويقول الإمام القرطبي : إن هذه السورة أصلٌ في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة .

(٢) محاسن التأويل ٦/٢٢٣٢

تفسير سورة الأنعـــام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

﴿ **الحمد لله الذي خلق السموات والأرض** ﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنَّه المستحق لجميع المحامد فلا ندَّ له ولا شريك ، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية ؛ احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع ، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة ، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر ، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة ، ومسالكه متنوعة ، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منوِّر الأكوان ، قال في التسهيل : وفي الآية ردٌّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار ، وقولهم إنَّ الخير من النور والشر من الظلمة ، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث[1] ﴿ **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم ، وأوهاماً ولَّدوها بخيالهم ، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم ، قال ابن عطية : والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر ، وآياته قد سطعت ،

(١) التسهيل ٢/٢ .

وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتُك وأحسنتُ إليك ثم تشتمني ؟ أي بعد وضوح هذا كله[1] ﴿ **هو الذي خلقكم من طينٍ** ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين ﴿ **ثم قضى أجلاً** ﴾ أي حكم وقدَّر أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه ﴿ **وأجلٌ مسمًّى عنده** ﴾ أي وأجلٌ آخر مسمًّى عنده لبعثكم جميعاً ، فالأجل الأول الموتُ والثاني البعثُ والنشور ﴿ **ثم أنتم تمترون** ﴾ أي ثم أنتم أيها الكفار تشكُّون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة ﴿ **وهو الله في السموات وفي الأرض** ﴾ أي هو الله المعظَّم المعبود في السموات والأرض ، قال ابن كثير : أي يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السمٰوات والأرض ويدعونه رغباً ورهباً ويسمونه الله[2] ﴿ **يعلم سركم وجهركم** ﴾ أي يعلم سركم وعَلَنَكُم ﴿ **ويعلم ما تكسبون** ﴾ أي من خير أو شر وسيجازيكم عليه .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

ثم أخبر تعالى عن عنادهم وإعراضهم فقال ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم** ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن ﴿ **إلاَّ كانوا عنها معرضين** ﴾ أي إلاَّ تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها ، قال القرطبي : والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب أن يستدلُّوا بها على توحيد الله عَزَّ وَجَلّ ، والمعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربّه[3] ﴿ **فقد كذَّبوا بالحق لما جاءهم** ﴾ أي كذَّبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله ﴿ **فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أي سوف يحل بهم العقاب إن عاجلاً أو آجلاً ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون ، وهذا وعيدٌ بالعذاب والعقاب على استهزائهم ، ثم حضَّهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم فقال ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ** ﴾ أي ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء ألم يعرفوا ذلك ؟ ﴿ **مكنَّاهم في الأرض ما لم نمكِّن لكم** ﴾ أي منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهل مكة ﴿ **وأرسلنا السماء عليهم مدراراً** ﴾ أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدرُّ عليهم دَرّاً ﴿ **وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم** ﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في

(١) البحر المحيط ٦٨/٦ . (٢) ابن كثير ٥٦٨/١ . (٣) القرطبي ٣٩٠/٦ .

الخِصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم ، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هٰؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم ، قال أبو حيَّان : وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم[1] ﴿ ولو نزَّلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ أي لو نزَّلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً على ورقٍ كما اقترحوا ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ أي فعاينوا ذلك ومسُّوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب ﴿ لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحرٌ مبين ﴾ أي لقال الكافرون عند رؤ ية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً ما هذا إلاّ سحرٌ واضح ، والغرضُ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل .

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ﴾ أي هلاَّ أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته وصدقه و ﴿ لولا ﴾ بمعنى هلاَّ للتحضيض ، قال أبو مسعود : أي هلاَّ أُنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنَّه نبي وهذا من أباطيلهم المحقَّقة وخرافاتهم الملفَّقة التي يتعللون بها كلَّما ضاقت عليهم الحِيَل وعييت بهم العلل[2] ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمر ﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاينوه ثم كفروا لحقَّ إهلاكهم[3] كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً ﴿ ثم لا يُنظرون ﴾ أي ثم لا يُمهلون ولا يُؤخرون ، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم ، فإنهم - في ذلك الإقتراح - كالباحث عن حتفه بظِلْفه ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤ ية الملك في صورته ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلِيهِم مَا يَلْبِسُونَ ﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، فإنهم لو رأوا

(١) البحر المحيط ٤/٧٧ . (٢) أبو السعود ٢/٨٣ .
(٣) وقيل : المعنى لو أنزلنا ملكاً لماتوا من هول رؤ يته إذ لا يطيقون رؤ يته وهو منقول عن ابن عبَّاس كذا في القرطبي ٦/٢٩٣ .

الملك في صورة إنسان قالوا هذا إنسانٌ وليس بملك ، قال ابن عبَّاس : لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إلَّا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النُّور[1] ، ثم قال تعالى تسلية للنبي ﷺ ﴿ **ولقد استهزىء برسلٍ** من **قبلك** ﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم ﴿ **فحاق بالذين سخروا منهم** ما **كانوا به يستهزئون** ﴾ أي أحاط ونزل بهؤلاء المستهزئون بالرسل عاقبة استهزائهم ، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار ﴿ **قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين : سافروا في الأرض فانظروا وتأمَّلوا ماذا حلَّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرةً للمعتبرين ﴿ **قل** لمن ما **في السموات والأرض** ﴾ أي قل يا محمد لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً ؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت ﴿ **قل لله** ﴾ أي قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنَّه خالق الكل إمَّا باعترافهم أو بقيام الحجَّة عليهم ﴿ **كتب على نفسه الرَّحمة** ﴾ أي ألزم نفسه الرَّحمة تفضلاً وإحساناً والغرضُ التلطف في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن ﴿ **ليجمعنَّكم**[2] **إلى يوم القيامة لا** ريب **فيه** ﴾ أي ليحشرنَّكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شكَّ فيه ليجازيكم بأعمالكم ﴿ الذين **خسروا أنفسهم فهم لا** يؤمنون ﴾ أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم .

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

﴿ **وله** ما **سكن في الليل والنهار** ﴾ أي لله عَزَّ وَجَل ما حلَّ واستقر في الليل والنهار الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه ، والمراد عموم ملكه تعالى لكل شيء ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿ **قل أغير الله أتخذ ولياً** ﴾ الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبوداً ؟ ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أي خالقهما

(١) ابن كثير ٥٦٩/١ المختصر .
(٢) قال أبو السعود : هذا جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوقٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنَّكم في القبور . . . إلخ .

ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿ وهو يُطعم ولا يُطعم ﴾ أي هو جَلّ وعلا يرْزق ولا يُرْزَق ، قال ابن كثير : أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم(١) ﴿ قل إني أُمرت أن أكون أوَّل من أسلم ﴾ أي قل لهم يا محمد إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم لله من هٰذه الأمة ﴿ ولا تكوننَّ من المشركين ﴾ أي وقيل لي : لا تكوننَّ من المشركين ، قال الزمخشري ومعناه : أُمرتُ بالإِسلام ونهُيتُ عن الشرك(٢) ﴿ قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم ﴾ أي قل لهم أيضاً إنني أخاف إن عبدتُ غير ربِّي عذاب يوم القيامة ﴿ من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه ﴾ أي من يصرف عنه العذاب فقد رحمه الله ﴿ وذلك هو الفوز المبين ﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿ وإن يمسَسْك الله بضر فلا كاشف له إلاَّ هو ﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدةٌ من فقرٍ أو مرضٍ فلا رافع ولا صارفَ له إلاَّ هو ولا يملك كشفه سواه ﴿ وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ أي وإن يصبك بخير من صحةٍ ونعمة فلا رادّ له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر ، قال في التسهيل : والآيةُ برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين(٣) .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ قال ابن كثير : أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلّت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخبير بمواضع الأشياء(٤) . ﴿ قل أيُّ شيء أكبر شهادة ﴾ أي قل لهم يا محمد أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادقٌ في دعوى النبوة ؟ ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله ، قال ابن عبَّاس : قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلاَّ فقل لهم الله شهيد بيني وبينكم(٥) ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا ٱلْقُرْآنُ لأنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ أي وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة ، قال ابن جزيّ : والمقصودُ بالآية الاستشهاد بالله ـ الذي هو أكبر شهادة ـ على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدَّالة على صدقه (٦) ﴿ أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ استفهام توبيخ أي أئنَّكم أيها

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٧٠ . (٢) الكشاف ٢/٧ . (٣) التسهيل ٢/٤ .
(٤) ابن كثير ١/٥٧١ . (٥) البحر ٤/٩٠ . (٦) التسهيل ٢/٥ .

المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله ؟ فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أُخرى بعد وضوح الأدلَّة وقيام الحجة على وحدانية الله ؟ ﴿ **قل لا أشهد** ﴾ أي قل لهم لا أشهد بذلك ﴿ **قل إنما هو إلهٌ واحد** ﴾ أي قل يا محمد إنما أشهد بأن الله واحد أحدٌ ، فردٌ صمد ﴿ **وإنني بريءٌ مما تشركون** ﴾ أي وأنا بريء من هذه الأصنام .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعاند فقال ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ يعني اليهود والنصارى الذين عرفوا النبي ﷺ بحليته ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإنجيل كما يعرف الواحد منهم ولده لا يشك في ذلك أصلاً ، قال الزمخشري : وهذا استشهادٌ لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته[1] ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ أي أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات ﴿ **ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته** ﴾ الاستفهام إنكاري ومعناه النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب أو كذَّب بالقرآن والمعجزات الباهرة وسـمَّاها سحراً ، قال أبو السعود : وكلمة ﴿ أو ﴾ للإيذان بأن كلاًّ من الافتراء والتكذيب وحده بالغٌ غاية الإفراط في الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبته ! قاتلهم الله أنَّى يؤفكون[2] ﴿ **إنَّه لا يُفلِحُ الظَّالمُون** ﴾ أي لا يفلح المفتري ولا المكذِّب وفيه إشارة إلى أنَّ مدَّعي الرسالة لو كان كاذباً لكان مفترياً على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا** ﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب ونقول لهم على رءوس الأشهاد ﴿ **أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون** ﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ؟ قال البيضاوي : والمراد من الاستفهام التوبيخ و﴿ تزعمون ﴾ أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولان ولعلَّه يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذٍ ليفقدوها في السَّاعة التي علَّقوا بها الرجاء فيها[3] ، قال ابن عبَّاس : كل زعم في القرآن فهو كذب ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم** ﴾ أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ﴿ **إلاَّ أن قالوا واللهِ ربِّنا مَا كُنَّا مشركين** ﴾ أي أقسموا كاذبين بقولهم والله ياربنا ما كنَّا مشركين ،

(١) الكشَّاف ٢/٩ . (٢) أبو السعود ٢/٨٨ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ .

قال القرطبي : تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين ، قال ابن عبَّاس : يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول : إنَّا كنَّا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون(١) ﴿ **أنظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علاَّم الغيوب ، وهذا للتعجيب من كذبهم الصريح ﴿ **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلوا القرآن ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه** ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿ **وفي آذانهم وقراً** ﴾ أي ثقلًا وصممًا يمنع من السمع ، قال ابن جزي : والمعنى أنَّ الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه وعبَّر بالأكنَّة والوقر مبالغة(٢) ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ أي مهما رأوا من الآيات والحجج البيِّنات لا يؤمنوا بها لفرط العناد ﴿ **حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاَّ أساطير الأولين** ﴾ أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين يقولون عن القرآن ما هذا إلَّا خرافات وأباطيل الأولين ﴿ **وهم ينهون عنه وينأون عنه** ﴾ أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون النَّاس عن القرآن وعن اتِّباع محمد عليه السَّلام ويُبعدون هم عنه ﴿ **وإن يهلكون إلاَّ أنفسهم وما يشعرون** ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلَّا أنفسهم وما يشعرون بذلك ، قال ابن كثير : فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع ولا يعود وباله إلَّا عليهم وما يشعرون(٣) ﴿ **ولو ترى إذ وُقفوا على النَّار** ﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النَّار لرأيت أمراً عظيمًا تشيب لهوله الرءوس ، قال البيضاوي : وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف تقديره

---

(١) القرطبي ٦/٤٠١ . (٢) التسهيل ٢/٦ . (٣) ابن كثير ١/٥٧٣ .

لرأيت أمراً شنيعاً[١] وإنما حذف ليكون أبلغ ما يقدره السَّامع ﴿ **فقالوا يا ليتنا نُردُّ ولا نُكذب بآيات ربنا** ﴾ أي تمنُّوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات الله ﴿ **ونكون من المؤمنين** ﴾ أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدِّق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل قال تعالى ردّاً لذلك التمني ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك ﴿ **ولو ردّوا لعادوا لما نهُوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾ أي لو ردّوا ـ على سبيل الفرض لأنَّه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت ـ لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان .

وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿ **وقالوا إن هي إلاَّ حياتنا الدُّنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ أي قال أولئك الكفَّار الفجّار ما هي إلاَّ هذه الحياة الدنيا ولا بعث ولا نشور ﴿ **ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربهم** ﴾ أي لو ترى حالهم إذ حُبسوا للحساب أمام رب الأرباب كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف ﴿ **قال أليس هذا بالحق** ﴾ أي أليس هذا المعاد بحق ؟ والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ أي قالوا بلى والله إنَّه لحق ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله ، ثم أخبر تعالى هؤلاء الكفَّار فقال ﴿ **قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله** ﴾ أي لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿ **حتى إذا جاءتهم السَّاعة بغتة** ﴾ أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأةً من غير أن يعرفوا وقتها قال القرطبي : سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها[٢] ﴿ **قالوا يا حسرتنا على ما فرَّطنا فيها** ﴾ أي قالوا يا ندامتنا على ما قصَّرنا وضيَّعنا في الدنيا من صالح الأعمال ﴿ **وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم** ﴾ أي والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم ، قال البيضاوي : وهذا تمثيلٌ لاستحقاقهم آصار الآثام[٣] وقال ﴿ على ظهورهم ﴾ لأنَّ العادة حمل الأثقال على الظهور ، قال ابن جزي : وهذا كناية عن تحمّل الذنوب ، وقيل إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة فقد رُوي أن

(١) البيضاوي ص ١٦٩ . (٢) القرطبي ٤١٢/٦ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ .

الكافرُ يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة ، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة[1] ﴿ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس ما يحملونه من الأوزار ﴿ وما الحياة الدنيا إلاَّ لعبٌ ولهوٌ ﴾ أي باطلٌ وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها ﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يتَّقُون ﴾ أي الآخرة وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تعقلون أنَّ الآخرة خير من الدُّنيا ؟

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

ثم سلىَّ تعالى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿ قد نعلم إنَّه ليحزنك الذي يقولون ﴾ أي قد أحطنا علمًا بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، قال الحسن : كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ﴿ فإنهم لا يكذِّبونك ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أي فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذِّبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم ، قال ابن عبَّاس : كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنَّه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبو جهل يقول : ما نكذِّبك يا محمد وإنك عندنا لمصدَّق وإنما نكذِّب ما جئتنا به[2] ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على مَا كُذِّبُوا ﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿ وأُوذُوا حتى أتاهُم نصرنا ﴾ أي وأوذوا في الله حتى نصرهم الله ، وفي الآية إرشادٌ إلى الصبر ، ووعدٌ له بالنصر ﴿ ولا مبدِّل لكلمات الله ﴾ قال ابن عبَّاس : أي لمواعيد الله ، وفي هذا تقوية للوعد ﴿ ولقد جاءك من نبإ المرسلين ﴾ أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذِّبوا وأُوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم ﴿ وإن كان كَبُر عليك إعراضهم ﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد عظم وشقَّ عليك يا محمد ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض ﴾ أي إن قدرت أن تطلب سرَباً ومسكناً في جوف الأرض ﴿ أَوْ سُلَّماً في السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ أي مصعداً تصعد به إلى السَّماء فتأتيهم بآيةٍ مما اقترحوه فافعل ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننَّ من الجاهلين ﴾ أي لو أراد الله لهداهم إلى الإيمان

(١) التسهيل ٢ / ٧ .
(٢) البحر المحيط ٤/١١٢ .

فلا تكوننَّ يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء ، وهنا تمَّ الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ قال ابن كثير : يعني بذلك الكفَّار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والإزراء عليهم[1] وقال الطبري : يعني والكفَّار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله[2] ﴿ ثم إليه يرجعون ﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم .

وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه ﴾ أي قال كفار مكة هلاَّ نُزِّل على محمد معجزة تدل على صدقه كالنَّاقة والعصا والمائدة ، قال القرطبي : وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله[3] ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزِّل آية ﴾ أي هو تعالى قادرٌ على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون أنَّ إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وَفْق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿ إلاَّ أُمـمٌ أمثالكم ﴾ إي إلاَّ طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدَّر أحوالها وأرزاقها وآجالها ، قال البيضاوي : والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدَّليل على أنه قادر على أن ينزِّل آية[4] ﴿ ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي وما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج النَّاس إليه في أمورهم إلاَّ بيَّناه وقيل : إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى : ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه[5] ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم ، قال

(١) ابن كثير ١/٥٧٦ . (٢) الطبري ١١/٣٤١ .
(٣) القرطبي ٦/٤١٩ . (٤) البيضاوي ص ١٧٠ .
(٥) هذا اختيار الطبري والزمخشري والجلالين ورجح ابو حيان في البحر المحيط أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ، ثم قال : وهذا الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية .

الزمخشري : يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعرضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنَّه يأخذ للجماء من القرناء[1] ﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات** ﴾ أي والذين كذَّبوا بالقرآن صمٌ لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكمٌ لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر ، قال ابن كثير : وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه[2] ! ﴿ **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم** ﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السَّاعة** ﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون ؟ ﴿ **أغير الله تدعون إن كنتم صادقين** ﴾ أي أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم ؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم .

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ **بل إيَّاه تَدْعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء** ﴾ أي بل تخصونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿ **وتنسون ما تشركون** ﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذَّبوهم ﴿ **فأخذناهم بالبأساء والضرَّاء** ﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿ **لعلَّهم يتضرعون** ﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا** ﴾ لولا للتحضيض أي فهلاَّ تضرعوا حين جاءهم العذاب ، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبارٌ عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوهم إلى التضرع ﴿ **ولكنْ قَسَتْ قُلُوبُهُم** ﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿ **وزَيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾ أي زيَّن لهم المعاصي والإصرار على الضَّلال ﴿ **فلما نسوا ما ذُكِّروا بِهِ** ﴾ أي لما تركوا ما وُعظوا به ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿ **حتى إذا فرحوا بما أُوتوا** ﴾ أي

(١) الكشاف ٢/١٦ .
(٢) ابن كثير ١/٥٧٧ .

فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿ **أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون** ﴾ أي أخذناهم بعذابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** ﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿ **والحمد لله ربِّ العالمين** ﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين ، قال الحسن : مُكِرَ بالقوم وربِّ الكعبة ، أُعطوا حاجتهم ثم أخذوا[١] وفي الحديث (إذا رأيتَ الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج) ثم قرأ ﴿ **فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾[٢] .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿ **وختم على قلوبكم** ﴾ أي طبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم ﴿ **مَنْ إلـهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ** ﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على ردّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ ﴿ **أنظر كيف نصرِّفُ الآياتِ ثم هُمْ يَصْدِفُون** ﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح الآيات الدَّالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿ **قل أَرَأَيْتَكُم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة** ﴾ أي قل لهؤلاء المكذبين أخبروني إن أتاكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أو بالنهار ﴿ **هل يهلك إلاَّ القوم الظالمون** ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلاَّ أنتم لأنكم كفرتم وعاندتم ﴿ **وما نرسل المرسلين إلاَّ مبشرين ومنذرين** ﴾ أي ما نرسل الرسل إلاَّ لتبشير المؤمنين بالثواب ، وإنذار الكافرين بالعقاب ، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿ **فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ، والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأنَّ الآخرة دار الجزاء للمتَّقين ﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ، قال ابن عبَّاس : يفسقون أي يكفرون[٣] .

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٧٨ . (٢) أخرجه الإمام أحمد . (٣) زاد المسير ٣/٤٢ .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات لستُ أدَّعي أن خزائن الله مفوضةٌ إليَّ حتى تقترحوا عَلَيَّ تنزيل الآيات ولا أدَّعي أيضاً أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ﴿ **ولا أقول لكم إني مَلَك** ﴾ أي ولست أدَّعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب ، قال الصاوي : وهذه الآية نزلت حين قالوا له إن كنت رسولاً فاطلب من ربك أن يوسِّع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده[1] . والمعنى : إني لا أدَّعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة رسالتي ﴿ **إن أتَّبع إلاَّ ما يوحى إلي** ﴾ أي ما أتَّبع فيما أدعوكم إليه إلاَّ وحي الله الذي يوحيه إليَّ ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير** ﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضَّال والمهتدي ؟ ﴿ **أفلا تتفكرون** ﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي أتسمعون فلا تتفكرون ؟ ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى رَبِّهم** ﴾ أي خوِّف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر ، قال ابو حيان : وكأنَّه قيل : أنذر بالقرآن من يُرجى إيمانُه وأمَّا الكفرة المعرضوْن فدعهم ورأيهم[2] ﴿ **ليس لهم من دونه وَلِيٌّ ولا شفيع** ﴾ أي ليس لهم غير الله وليٌّ ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ أي أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربهم دوماً في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنوَّ من رضاه ، قال الطبري : نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ : لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك[3] وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿ **ما عليك من حسابهم من شيء** ﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح ﴿ إن حسابُهُم إلاَّ على ربي ﴾ ، قال الصاوي : هذا كالتعليل لما قبله والمعنى : لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله ،

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١٦ . (٢) البحر ٤/١٣٤ . (٣) الطبري ١١/٣٧٤ .

وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلاَّ فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿ يريدون وجهه ﴾[1] ﴿ **وما من حسابك عليهم من شيء** ﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم ؟ وقيل أن المراد بالحساب الرزق ، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإيَّاهم الله رب العالمين[2] ﴿ **فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من **الظالمين** ، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السَّـــلام ، قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿ لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ﴾ وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله[3] .

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

﴿ **وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض** ﴾ أي ابتلينا الغني بالفقير والشريف بالوضيع ﴿ **ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا** ﴾ أي ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء منَّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا !! قالوا **ذلك** إنكاراً واستهزاءً كقولهم ﴿ **أهذا الذي بعث الله** رسولاً ﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿ **أليس الله بأعلم بالشَّـــاكرين** ﴾ ؟ أي الله أعلم بمن يشكر فيهديه ومن يكفر فيخزيه ، والاستفهام للتقرير ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سـلامٌ عليكم** ﴾ قال القرطبي : نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصَّلاة والسلام عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسَّـــلام وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسَّلام)[4] وأُمر ﷺ بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ أي ألزم نفسه الرَّحمة تفضلاً منه وإحساناً ﴿ **أنه من عمل منكم سُوءاً بجهالة** ﴾ أي خطيئة من غير قصد ، قال مجاهد : أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر ﴿ **ثم تاب من بعده وأصلح فأنَّه غفور** رحيم ﴾ أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح ﴿ **وكذلك نفصِّل الآيات** ﴾ أي كما فصَّلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبيِّن ونوضِّح لكم أمور الدين ﴿ **ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ أي ولتتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتستبين سبلُهم .

(١) حاشية الصاوي ٢/١٧ .
(٢) ذهب إلى هذا الطبري وبعض المفسرين .
(٣) القرطبي ٦/٤٣٤ .
(٤) نفس المرجع ٦/٤٣٥ .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿ **قل إني نُهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إني نُهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله ﴿ **قل لا أتَّبع أهواءكم** ﴾ أي في عبادة غير الله ، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم ﴿ **قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين** ﴾ أي قد ضللت إن اتبعتُ أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين ﴿ **قل إني على بيِّنةٍ من ربي** ﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿ **وكذبتم بِهِ** ﴾ أي وكذَّبتم بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿ **ما عندي ما تستعجلون به** ﴾ أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب ، قال الزمخشري : يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾[1] ﴿ **إن الحكم إلاَّ لله** ﴾ أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلاَّ لله وحده ﴿ **يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين** ﴾ أي يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشَّافي وهو خير الحاكمين بين عباده ﴿ **قل لو إنَّ عندي ما تستعجلون بِهِ** ﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه ﴿ **لقضي الأمر بيني وبينكم** ﴾ أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله ، قال ابن عبَّاس : لم أمهلكم ساعةً ولأهلكتكم[2] ﴿ **والله أعلم بالظالمين** ﴾ أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخَّر عقوبتهم ، وفيه وعيد وتهديد .

۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هو** ﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيَّبة الخفيَّة لا يعلمها ولا يحيط بها إلاَّ هو ﴿ **ويعلم ما في البر والبحر** ﴾ أي ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملةً وتفصيلاً وفي كلِ عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿ **وما تسقط من ورقةٍ**

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣ . (٢) زاد المسير ٣/ ٥٢ .

إلاّ يعلمها ﴾ مبالغةٌ في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلاّ يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿ **ولا حبةٍ في ظلمات الأرض** ﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلاّ يعلم مكانها وهل تنبت أو لاَ وكم تنبتُ ومن يأكلها ﴿ **ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتاب مبين** ﴾ أي ولا شيءٍ فيه رطوبة أو جفاف إلاَّ وهو معلومٌ عند الله ومسجّل في اللوح المحفوظ قال أبو حيان :[1] وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات : بدأ أولاً بأمرٍ معقول لا ندركه نحن بالحسّ وهو ﴿ مفاتح الغيب ﴾ ثم ثانياً بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو ﴿ البر والبحر ﴾ ثم ثالثاً بجزئين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علوّ والثاني سفلي وهو اختفاء حبةٍ في بطن الأرض فدل ذلك على أنَّه تعالى عالم بالكليات والجزئيات[2] ﴿ **وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهّار** ﴾ أي ينيمكم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار ، قال القرطبي : وليس ذلك موتاً حقيقةً بل هو قبض الأرواح ، قال ابن عبَّاس : يقبض أرواحكم في منامكم[3] ، وفي هذا اعتبارٌ واستدلالٌ على البعث الأخروي ﴿ **ثم يبعثكم فيه لِيُقْضي أجلٌ مسمَّى** ﴾ أي ثم يوقظكم في النهّار لتبلغوا الأجل المسـمَّى لانقطاع حياتكم ، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ **ثم إليه مرجعكم** ﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ **ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخيْر ، وإن شراً فشـرٌّ ، ثم ذكر تعالى جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ **ويرسل عليكم حفظة** ﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون ، قال أبو السعود : وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لأنَّ المكلَّف إذا علم أن أعماله تُحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح[4] ﴿ **حتى إذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الموتُ توفَّته رسلنا** ﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح والمعنى : أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ

---

(١) كتب شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال حول هذه الآية كلاماً رائعاً نجتزىء منه بعض فقرات ، قال طيَّب الله ثراه : « وهذه الآية صورة لعلم الله الشّـامل المحيط الذي لا يندُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو ، من حي وميت ، ويابس ورطب ، إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وراء حدود هذا الكون المشهود ، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار ، مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلاّ هو ، ويجول في مجاهل البر ، وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله ، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عدٌّ ، وعين الله على كل ورقةٍ تسقط هنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله ، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يندُّ منه شيء عن علم الله المحيط ، إنها جولةٌ تدير الرءوس وتذهل العقول ، جولة في أغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول ، وهي ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة في بضع كلمات . . . ألاَ إنه الإعجاز » في ظلال القرآن ٧/٢٤٧ .

(٢) القرطبي ٧/٥ . (٣) زاد المسير ٣/٥٥ . (٤) أبو السعود ٢/١٠٧ .

ابن آدم ما دام حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿ **وهم لا يفرّطون** ﴾ أي لا يقصِّرون في شيءٍ مما أُمروا به من الحفظ والتوفي .

ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ **ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلاَّ بالعدل ﴿ **ألا لَهُ الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾ أي له جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن ، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنَّه يحاسب النَّاس في مقدار حلب شاة ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البرِّ والبحر** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر ؟ ﴿ **تدعونه تضرعاً وخفية** ﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضَّراعة ، تضرعاً بألسنتكم وخفية في أنفسكم ، قال ابن عبَّاس : المعنى : تدعون ربكم علانيةً وسراً قائلين ﴿ **لئن أنجانا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين** ﴾ أي لئن خلَّصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكوننَّ من المؤمنين الشاكرين والغرض : إذا خفتم الهلاك دعوتموه فإذا نجَّاكُم كفرتموه ، قال القرطبي : وبَّخهم الله في دعائهم إيَّاه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره[1] ﴿ **قل الله ينجِّيكم منها ومن كل كرب** ﴾ أي الله وحده ينجِّيكم من هذه الشدائد ومن كل كربٍ وغمّ ﴿ **ثم أنتم تشركون** ﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصَّواعق من السَّماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمَم وكالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح كمل فُعل بمن قبلكم ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ بالخسف والزَّلازل والرجفة كما فُعل بقارون وأصحاب مدين ﴿ **أو يَلْبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ أي يجعلكم فرقاً متحزبين يقاتل بعضكم بعضاً ، قال البيضاوي : أي يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم[2] ، وقال ابن عبَّاس : أي يبث فيكم الأهواء

(١) القرطبي ٨/٧ . (٢) البيضاوي ص ١٧٣ .

المختلفة فتصيرون فرقاً[1] ، والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿ **آنظر كيف نصرِّف الآيات لعلَّهم يفقهون** ﴾ أي انظر كيف نُبيِّن ونوضِّح لهم الآيات بوجوه العِبَر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو يَلْبِسكم شيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال رسول الله ﷺ : هذه أهون أو أيسر[2] .

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ **وكذَّب به قومك وهو الحق** ﴾ أي وكذَّب بهذا القرآن قومك يا محمد ـ وهم قريش ـ وهو الكتاب المنزَّل بالحق ﴿ **قل لستُ عليكم بوكيل** ﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ ومتسلِّط إنما أنا منذر ﴿ **لكل نبإٍ مستقرٌ** ﴾ أي لكل خبرٍ من أخبار الله عَزَّ وَجَلّ وقتٌ يقع فيه من غير خُلْفٍ ولا تأخير ﴿ **وسوف تعلمون** ﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿ **وإذا رَأَيْتَ الذين يخوضون في آياتنا** ﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفَّار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿ **فأعرضْ عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره** ﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى يأخذوا في كلامٍ آخر ويَدَعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن ، قال السدي : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبُّوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألَّا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره[3] ﴿ **وإمَّا ينسينَّك الشيطان** ﴾ أي إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت ﴿ **فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفسَّاق الذين يهزءون بالقرآن والدين ، قال ابن عبَّاس : أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿ **وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء** ﴾ أي ليس على المؤمنين من حساب الكفَّار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنَّبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿ **ولكن ذكرى لعلَّهم يتقون** ﴾ أي ولكنْ عليهم أن يذكِّروهم ويمنعوهم عمَّا هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير ، ويُظهروا لهم الكراهة لعلَّهم يجتنبون الخوض في القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد

(١) زاد المسير ٣/٥٩ . (٢) أخرجه البخاري (٣) الطبري ١١/٤٣٧ .

تركوا مجالستهم ، قال ابن عطية : ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه[١] .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً** ﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿ **وغرَّتهم الحياة الدنيا** ﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أنَّ لا حياة بعدها أبداً ﴿ **وَذَكِّر بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ أي وذكِّر بالقرآن النَّاس مخافة أن تُسْلم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿ **ليس لها من دون الله وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ** ﴾ أي ليس لها ناصرٌ ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿ **وإن تَعْدل كل عدلٍ لا يُؤخذ منها** ﴾ أي وإن تُعْطِ تلك النفس كل فدية لا يقبل منها ، قال قتادة : لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يُقبل منها[٢] ﴿ **أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا** ﴾ أي أُسلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿ **لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ أي لهؤلاء الضَّالين شرابٌ من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، ونارٌ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشَّراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿ **قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أنعبد ما لا ينفعنا إن دعوناه ولا يضرنا إن تركناه ؟ والمراد به الأصنام ﴿ **ونُردُّ على أعقابنا** ﴾ أي نرجع إلى الضَّلالة بعد الهدى ﴿ **بعد إذ هدانا الله** ﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿ **كالذي استهوته الشياطين في الأرض** ﴾ أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلَّته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوَّة سحيقة ﴿ **حيران** ﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿ **لَهُ أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا** ﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون ائتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ أي قل لهؤلاء الكفَّار إنَّ ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿ **وأمرنا لنسلم لرب العالمين** ﴾ أي أُمرنا بأن نستسلم لله عَزَّ وَجَلّ ونخلص له العبادة في جميع

(١) البحر ٤/١٥٤ . (٢) الطبري ١١/٤٤٧ .

أمورنا وأحوالنا ، وهذا تمثيلٌ لمن ضلَّ عن الهدى وهو يُدْعى إلى الإسلام فلا يُجيب ، قال ابن عبَّاس : هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه منادياً يا فلان بن فلان هلُمَّ إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلُمَّ إلى الطريق ، فإن اتَّبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق يقول : مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإنَّه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهَلَكة والندامة[1] .

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ **وأن أقيموا الصَّلاة واتقوه** ﴾ أي وأمرنا بإقامة الصَّلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿ **وهو الذي إليه تحشرون** ﴾ أي تجمعون إليه يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحق** ﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومن فيهما خلقهما بالحق ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ﴿ **ويوم يقول كن فيكون** ﴾ أي واتَّقوه واتقوا عقابه والشَّدائد يوم يقول كن فيكون ، قال أبو حيان : وهذا تمثيلٌ لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود وسرعته لا أنَّ ثَمَّ شيئاً يؤمر[2] ﴿ **قوله الحق وله الملك** ﴾ أي قوله الصدق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿ **يوم يُنفخ في الصور** ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثَّانية وهي نفخة الإحياء ﴿ **عالم الغيب والشَّهادة** ﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهَّار ﴿ **وهو الحكيم الخبير** ﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشئون عباده ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة** ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم ـ الذي يدَّعون أنهم على ملَّته ـ لأبيه آزر منكراً عليه أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسوَّاك ورزقك ؟ ﴿ **إني أراك وقومك في ضلال مبين** ﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شكَّ فيه ﴿ **وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض** ﴾ أي نُري إبراهيم المُلْك العظيم والسلطان البَّاهر ﴿ **وليكون من الموقنين** ﴾ أي وليكون من

(١) الطبري ١١/٤٥٢ . (٢) البحر ٤/١٦٠ .

الرَّاسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرات ، قال مجاهد : فُرجت له السموات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل(١) .

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً** ﴾ أي فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السَّماء هو الزُّهرة أو المشتري ﴿ **قال هذا ربي** ﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرِّفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله ، قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرِّفهم أن النظر الصحيح مؤ دٍ إلى ألَّا يكون شيئاً منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبَّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿ **هذا ربي** ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة(٢) ﴿ **فلما أفل قال لا أحب الآفلين** ﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك ، لأنَّ الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال لأنَّ ذلك من صفات الأجرام ﴿ **فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي** ﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً منتشر الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿ **فلما أفل قال لئن يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضَّالين** ﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكوننَّ من القوم الضَّالين ، وفيه تعريضٌ لقومه بأنهم على ضلال ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر** ﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿ **فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون** ﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم وأصنامكم ، قال أبو حيان : لمَّا أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه ، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ ، وأكبر جرماً وأعمّ نفعاً ، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبيَّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث(٣) وقال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه السَّـلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا

(١) البحر ٤/١٦٥ . (٢) الكشاف ٢/٣١ . (٣) البحر المحيط ٤/١٦٧ .

عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيَّارة وأشدهنَّ إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلَهِيّة عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ **قال يا قوم إني بريء مما تشركون** ﴾(١) ﴿ **إني وجهتُ وجهي** ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿ **للذي فطر السمٰوات والأرض** ﴾ أي الله الذي ابتدع العالم وخلق السمٰوات والأرض ﴿ **حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿ **وما أنا من المشركين** ﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره .

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

﴿ **وحاجَّه قومه** ﴾(٢) أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد ، قال ابن عبَّاس : جادلوه في آلهتهم وخوَّفوه بها فأجابهم منكراً عليهم ﴿ **قال أتُحاجُّونِّي فِي اللهِ** ﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿ **وقد هدان** ﴾ أي وقد بصَّرني وهداني إلى الحق ﴿ **ولا أخاف ما تشركون بِهِ** ﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع ولا تُبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿ **إلاَّ أن يشاء ربي شيئاً** ﴾ أي إلَّا إذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون ﴿ **وسع ربي كل شيء علمًا** ﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿ **أفلا تتذكرون** ﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون ؟ وفي هذا تنبيهٌ لهم على غفلتهم التَّامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل السَّاطعة على وحدانيته سبحانه ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم** ﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة ! ﴿ **ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزِّل بِهِ عليكم سلطاناً** ﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٩٢ .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ قول إبراهيم عن الكوكب ﴿ هذا ربي ﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا ، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر ، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين ، ومما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وحاجَّه قومه ﴾ وقوله ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ فالمقام مقام مناظرة ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ لا مقام نظر ، وحاشا الخليل أن يشك في الرَّب الجليل وهو أب الأنبياء وإمام الحنفاء ، وقد ساق « الفخر الرَّازي » اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في تفسيره الكبير ج١٣ ص٤٧ ، وهذا اختيار أساطين المفسرين كالقرطبي والزمخشري وأبي السعود وابن كثير ، وصاحب البحر المحيط والله أعلم .

كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿ **فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾ أي أيُّنا أحقُّ بالأمن أنحن وقد عرفنا الله بأدلَّة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الدَّيان ؟ ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿ **أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد ، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي ﷺ فقالوا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم ﴾ [1] ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾ الإشارة إلى ما تقدَّم من الحجج الباهرة التي أيَّد الله بها خليله عليه السَّــلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه ﴿ **نرفع درجاتٍ من نشاء** ﴾ أي بالعلم والفهم والنبوَّة ﴿ **إن ربك حكيم عليم** ﴾ أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب** ﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقر عينه ببقاء العقب ﴿ **كلاً هدينا** ﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السِّن وأيس من الولد ، وبُشِّر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً ، وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله ، فعوَّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقرَّ بهم عينه[2] ﴿ **ونوحاً هدينا من قبل** ﴾ أي من قبل إبراهيم ، وذكر تعالى نوحاً لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم[3]

(١) الحديث أصله في الصحيحين . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٩٦ .

(٣) الضمير في ﴿ ذريته ﴾ فيه قولان : قيل إنه يرجع إلى نوح واختاره الفرَّاء وابن جرير ، وقيل : إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره أبو السعود لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة .

هؤلاء الأنبياء الكرام ، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والإبن ﴿ **وأيوب ويوسف** ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والبلاء ﴿ **وموسى وهارون** ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوة وقدَّم موسى لأنَّه كليم الله ﴿ **وكذلك نجزي المحسنين** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿ **وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس** ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿ **كلٌ من الصَّالحين** ﴾ أي الكاملين في الصَّلاح ﴿ **وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً** ﴾ اسماعيل هو ابن إبراهيم ، ويونس بن متَّى ، ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم ﴿ **وكلاً فضَّلنا على العالمين** ﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضَّلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿ **ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم** ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ كثيرة ﴿ **واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عبَّاس : هٰؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذريَّة إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أمٍ ولا أب[1] ﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده** ﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ أي لو أشرك هٰؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم ؟

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾

﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوَّة** ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربَّانية والنبوة والرسالة ﴿ **فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين** ﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا[2] ﴿ **أولئك**

(١) البحر ٢/٣٧٤ .

(٢) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عبَّاس وقيل هم النَّبيون الثمانية عشر المذكورون في هذه الآية وهو قول قتادة واختيار الزَّجاج وابن جرير .

الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ أي هٰؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديُّون فتأَسَّ واقتد بسيرتهم العطرة ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً** ﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿ **إن هو إلاَّ ذكرى للعالمين** ﴾ أي ما هذا القرآن إلاَّ عظةٌ وتذكير لجميع الخلق ﴿ **وما قدروا الله حقَّ قَدْرِهِ** ﴾ أي ما عرفوا الله حقَّ معرفته ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه ﴿ **إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء** ﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثة الرسل ، والقائلون هم اليهود اللعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنْعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السَّـلام ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التَّوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل ؟ ﴿ **تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** ﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطَّعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون ، قال الطبري : ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته[1] ﴿ **وَعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ أي عُلِّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿ **قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ﴾ أي قل لهم في الجواب : الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون ، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم .

وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ** ﴾ أي وهذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿ **مصدِّق الذي بين يديه** ﴾ أي يصدّق كتب الله المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ﴿ **ولتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ أي لتنذر به يا محمد مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عبَّاس ﴿ **والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به** ﴾ أي والذين يصدِّقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿ **وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾ أي

---

(١) الطبري ١١/٥٢٧ .

يؤدون الصَّلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها ، قال الصَّاوي : خصَّ الصَّلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات(١) ﴿ ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً ﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿ أو قال أُوحي إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿ ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ﴾ أي ومن ادَّعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ قال أبو حيان : نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يُذكر لسخفه(٢) ﴿ ولو ترى إذ الظَّالمون في غمرات الموت ﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيمًا ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفُسكم ﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : خلِّصوا أنفسكم من العذاب ، قال الزمخشري : المعنى يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي تُجْزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تأملون فيها ولا تؤمنون .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ ولقد جئتمونا فرادىٰ كما خلقناكم أوَّل مرة ﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاةً عراة غرلاً كما ورد في الحديث (أيها النَّاس إنَّكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده . .)(٣) ﴿ وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿ لقد تقطَّع بينكم ﴾ أي تقطَّع وصلكم وتشتَّت جمعكم ﴿ وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء . عاد الكلام إلى

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣١ .
(٢) البحر المحيط ٤/١٨٠ .
(٣) الحديث من رواية الشيخين ومعنى « غُرلاً » أي غير مختونين .

الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه : ﴿ إن الله فالقُ الحبِّ والنّوى ﴾ أي يفلق الحبَّ تحت الأرض لخروج النّبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها ، قال القرطبي : أي يشق النَّواة الميتة فيُخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبَّة[١] ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ﴾ أي يخرج النّبات الغضّ الطريّ من الحبّ اليابس ، ويخرج الحبَّ اليابس من النّبات الحي النّامي ، وعن ابن عبَّاس : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿ ذلكم الله فأنىَّ تؤفكون ﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان !

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

﴿ فالق الإصباح ﴾ أي شاقُّ الضياء عن الظلام وكاشفه ، قال الطبري : شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده[٢] ﴿ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أي بحساب دقيق يتعلَّق به مصالح العباد ، ويُعرف بهما حساب الأزمان والليل والنَّهار ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصى عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإنما امتنَّ عليهم بالنجوم لأنَّ سالكي القفار ، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿ قد فصَّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي بيَّنا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة ﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السَّلام ﴿ فمستقرٌ ومستودعٌ ﴾ قال ابن عبَّاس : المستقرُّ في الأرحام والمستودع في الأصلاب ، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم ، وقال إبن مسعود : مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها[٣] ﴿ قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ أي بيَّنا الحجج لقوم يفقهون الأسرار والدَّقائق ، قال الصـاوي : عبَّر هنا بـ ﴿ يفقهون ﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌ تتحير فيه الألباب ، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد ، ولذا عبَّر فيها بـ ﴿ يعلمون ﴾[٤] .

(١) القرطبي ٧/٤٤ . (٢) الطبري ١١/٥٥٤ .
(٣) وفسر المستقرّ أيضاً بالاستقرار والمستودع تحت الأرض واختار الطبري العموم .
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٤ .

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ **وهو الذي أنزل من السَّماء ماءً فأخرجنا به نَبَاتَ كُلِّ شيءٍ** ﴾ أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبتُ من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجرَ ، قال الطبري : أي أخرجنا به ما ينبتُ به كل شيء وينمو عليه ويصلح[1] ﴿ **فأخرجنا منه خَضِراً** ﴾ أي أخرجنا من النَّبات شيئاً غضاً أخضر ﴿ **نُخرج به حباً متراكباً** ﴾ أي نخرج من الخضر **حباً** متراكباً بعضه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير ، قال ابن عبَّاس : يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿ **ومن النخل من طَلْعها قِنْوانٌ دانية** ﴾ أي وأخرجنا من طلع النخل ـ والطلعُ أول ما يخرج من التمر في أكمامه ـ عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عبَّاس : يريد العراجين التي قد تدلَّت من الطلع دانيةً ممن يجتنيها ﴿ **وجناتٍ من أعناب** ﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿ **والزيتون والرُّمانَ مشتبهاً وغير متشابه** ﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطَّعم ، قال قتادة : مشتبهاً ورقهُ مختلفاً ثمرهُ ، وفي ذلك دليل قاطع على الصَّانع المختار العليم القدير ﴿ **آنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعِهِ** ﴾ أي انظروا أيها النَّاس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر ، وتأمَّلوا ابتداء الثمر يكون بعضه مراً وبعضه مالحاً لا يُنتفع منه ، ثم إذا انتهى ونضج فإنَّه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق ! فسبحان القدير الخلاَّق !! ﴿ **إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدِّقون بوجود الله ، قال ابن عبَّاس : يصدِّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى[2] ﴿ **وجعلوا للهِ شركاء الجنَّ** ﴾ أي وجعلوا الجنَّ شركاء لله حيث أطاعوه في عبادة الأوثان ﴿ **وَخَلَقَهم** ﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له ؟ وهذه غاية الجهالة ﴿ **وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم** ﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا : عزيرٌ ابن الله والملائكة بناتُ الله سفهاً وجهالة ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُون** ﴾ أي تَنَزَّهَ الله وتَقَدَّس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً .

(١) الطبري ١١/٥٧٣ . (٢) تفسير الجوزي ٣/٩٦ .

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿ **بديع السمٰوات والأرض** ﴾ أي مبدعهما من غير مثالٍ سبق ﴿ **أنَّى يكُون لَهُ ولد ولم تكن له صاحبة** ﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة ؟ والولد لا يكون إلاَّ من زوجة ﴿ **وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم** ﴾ أي وما من شيء إلاَّ هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء ، قال في التسهيل : والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين : أحدهما أن الولد لا يكون إلاَّ من جنس والده والله تعالى متعالٍ على الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد ، والثاني : أن الله خلق السمٰوات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء[1] ثم أكَّد تعالى على وحدانيته وتفرُّد بالخلق والإيجاد فقال ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلاَّ هو** ﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبِّر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿ **خالق كل شيء فاعبدوه** ﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿ **وهو على كل شيء وكيل** ﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوّضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿ **وهو اللطيف الخبير** ﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم ، قال ابن كثير : ونفيُ الإدراك الخاص لا ينفي الرؤ ية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء ، فأمَّا جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤ ية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية[2] ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم** ﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تُبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل ، قال الزَّجاج : المعنى : قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر[3] ﴿ **فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها** ﴾ قال الزمخشري : المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإيَّاها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه **عمي** وإيَّاها ضرَّ بالعمى[4] ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب، وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم .

---

(١) التسهيل ٢/١٨ .
(٢) مختصر ابن كثير ١/٦٠٥ .
(٣) تفسير ابن الجوزي ٣/٩٩ .
(٤) الكشاف ٢/٤٣ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

﴿ **وكذلك نصرِّف الآيات** ﴾ أي وكما بينا ما ذُكر نبين الآيات ليعتبروا ﴿ **وليقولوا درست** ﴾ **أي وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئتَ بهذا القرآن ، واللامُ لامُ العاقبة** ﴿ **ولنبيِّنه لقوم يعلمون** ﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿ **إتَّبع ما أوحي إليك من ربك** ﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك ، قال القرطبي : أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله[1] ﴿ **لاَ إلَهَ إلاَّ هو** ﴾ أي لا معبود بحق إلاَّ هو ﴿ **وأعرضْ عن المشركين** ﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿ لا يُسألُ عما يفعل وهم يسألون ﴾ ﴿ **وما جعلناك عليهم حفيظاً** ﴾ أي وماجعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهم بوكيل** ﴾ أي ولستَ بموكل على أرزاقهم وأمورهم ، قال الصاوي : وهذا تأكيد لما قبله أي لستَ حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان ، وهذا كان قبل الأمر بالقتال[2] ﴿ **ولا تسبوا الذين يدْعُون من دون الله** ﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿ **فيسبوا الله عَدْواً بغير علم** ﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم معرفتهم بعظمة الله ، قال ابن عبَّاس : قال المشركون : لتنتهيَّن عن سبِّك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك فنهاهم الله أن يسبُّوا أوثانهم[3] ﴿ **كذلك زيَّنا لكل أمةٍ عملهم** ﴾ أي كما زيَّنا لهؤلاء أعمالهم كذلك زيَّنا لكل أمةٍ عملهم ، قال ابن عبَّاس : زيَّنا لأهل الطَّاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفرَ ﴿ **ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(١) القرطبي ٧/ ٦٠ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٧ . (٣) ابن كثير ١/ ٦٠٧ .

﴿ **وأقسموا بالله جَهْدَ أَيمانهم** ﴾ أي حلف كفَّار مكة بأغلظ الأيمان وأشدها ﴿ لئن جاءتهم آيةٌ **ليؤمنُنَّ بها** ﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارقٌ مما اقترحوه ليؤمننَّ بها ﴿ **قل إنما الآيات عند الله** ﴾ أي قل لهم يا محمد أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإِتيان بها دوني ﴿ **وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون لعلَّها إذا جاءتهم لا يصدِّقون بها !! ﴿ **ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرَّة** ﴾ أي ونحوِّل قلوبهم عن الإِيمان كما لم يؤمنوا بما أُنزل من القرآن أول مرة ، قال الصاوي : وهو استئناف مسوقٌ لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوَّل قلبه له ، ومن أراد الله شقاوته حوَّل قلبه لها[1] ﴿ **ونذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ أي ونتركهم في ضلالهم يتخبَّطون ويتردَّدون متحيرين . ﴿ **ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلَّمهم الموتى** ﴾ هذا بيانٌ لكذب المشركين في أيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿ لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمننَّ بها ﴾ والمعنى : ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه من آية واحدة من الآيات بل نزَّلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلَّموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا ﴿ **وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبُلا** ﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿ **ما كانوا ليؤمنوا إلاَّ أن يشاء الله** ﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلاَّ أن يشاء الله ، والغرضُ التيئيسُ من إيمانهم ﴿ **ولكنَّ أكثرهم يجهلون** ﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك ، قال الطبري : أي يجهلون أنَّ الأمر بمشيئة الله ، يحسبون أن الإِيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا ، وليس الأمر كذلك ، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلاَّ من هديتُه فوفقته ، ولا يكفر إلاَّ من خذلتُه فأضللتُه[2] .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنس والجنّ** ﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإِنس والجن ، فاصبر على الأذى كما صبروا ، قال ابن الجوزي : أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٩ . (٢) الطبري ١٢/٤٧ .

الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى[1] ﴿ **يوحي بعضهم إلى بعض** ﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ﴿ **زخرف القول غروراً** ﴾ أي يوسوسون بالكلام المزيَّن والأباطيل المموهة ليغروا النّاس ويخدعوهم ، قال مقاتل : وَكَلَ إبليسُ بالإنس شياطين **يُضلونهم** فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه : إني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا فأضلل أنت صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحيُ بعضهم إلى بعض[2] ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه** ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكنَّ حكمة الله اقتضتْ هذا الابتلاء ، قال ابن كثير : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي **عدوٌ** من هؤلاء[3] ﴿ **فذرهم وما يفترون** ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرُكَ عليهم ﴿ **ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ أي ولتميل إلى هذا القول المزخرف قلوبُ الكفرة الذين لا يصدِّقون بالآخرة ﴿ **وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون** ﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿ **أفغير الله أبتغي حكمًا** ﴾ أي قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟ قال أبو حيان : قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ اجعلْ بيننا وبينك حكمًا إن شئتَ من أحبار اليهود أو النَّصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت[4] ﴿ **وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً** ﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان ، مفصَّلاً فيه بالحق والباطل موضّحاً الهدى من الضلال ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنَّه منزَّلٌ من ربك بالحق** ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حقٌّ لتصديقه ما عندهم ﴿ **فلا تكوننَّ من الممترين** ﴾ أي فلا تكوننَّ من الشاكين ، قال أبو السعود : وهذا من باب التهييج والإلهاب ، وقيل : الخطاب للرسول والمراد به الأمة[5] .

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربك صدقاً وعدلاً** ﴾ أي تم كلام الله المنزَّل صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدَّر ﴿ **ولا مبدِّل لكلماته** ﴾ أي لا مغير لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله** ﴾

---

(١) زاد المسير ٣/١٠٨ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٣/١٠٩ .
(٣) أبو السعود ٢/١٣١ . (٤) البحر المحيط ٤/٢٠٦ . (٥) أبو السعود ٤/٢٧٤

أي إن تطع هؤلاء الكفار وهو أكثر أهل الأرض يضلُّوك عن سبيل الهدى ، قال الطبري : وإنما قال ﴿ أكثر من في الأرض ﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضُلاّلاً والمعنى : لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنَّك إن أطعتهم ضللتَ ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه[١] ﴿ إن يتَّبعون إلاَّ الظنَّ وإن هم إلاَّ يخرصون ﴾ أي ما يتَّبعون في أمر الدين إلاَّ الظنون والأوهام يقلِّدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلاَّ قومٌ يكذبون ﴿ إنَّ ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلَّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد ، قال في البحر : وهذه الجملة خبريةٌ تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضَّال والمهتدي كناية عن مجازاتهما[٢] ﴿ فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين ، قال ابن عبَّاس : قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله ـ يريدون الميتة ـ أحق أن تأكلوه مما قتلتم فنزلت الآية[٣] .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ وما لكم ألاَّ تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه ﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه ؟ ﴿ وقد فصَّل لكم ما حَرَّم عليكم إلاَّ مااضطررتم إليه﴾ أي وقد بيَّن لكم ربكم الحلال والحرام ووضَّح لكم ما يحرم عليكم من الميتة والدم إلخ في آية المحرمات إلاَّ في حالة الاضطرار فقد أُحلَّ لكم ما حرَّم أيضاً فما لكم تستمعون إلى الشبهات التي يثيرها أعداؤ كم الكفار ؟ ﴿ وإن كثيراً ليُضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ أي وإن كثيراً من الكفار المجادلين ليُضلون النَّاس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرعٍ من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الاعتداء فيحلّلون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنَّة ، وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ أي اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها وسرَّها وعلانيتها ، قال مجاهد : هي المعصية في السر والعلانية ، وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا وباطنه الزنى مع

(١) الطبري ٦٤/١٢ . (٢) البحر المحيط ٢١٠/٤ . (٣) زاد المسير ١١٢/٣ .

الصدائق والأخدان[١] ﴿ إن الذين يكسبون الإثم سَيُجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أي يكسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرّم الله سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكسبون ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ أي لا تأكلوا أيها المؤمنون مِمَّا ذُبحَ لِغَير الله أو ذكر اسم غير الله عليه كالذي يذبح للأوثان ﴿ وإنه لفسقٌ ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروجٌ عن طاعة الله ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ أي وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضَّلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم : أتأكلون مِمَّا قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ؟ يعني الميتة ﴿ وإن أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ أي وإن أطعتم هٰؤلاء المشركين في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم إذاً مثلهم ، قال الزمخشري : لأن من اتَّبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به ، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألاَّ يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم[٢] .

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فأحييناه ﴾ قال أبو حيان : لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثّل تعالى بأن شبَّه المؤمن بالحي الذي له نور يتصرف به كيفما سلك ، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين[٣] والمعنى : أَوَمَنْ كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً ، فأحيا الله قلبه بالإيمان ، وأنقذه من الضلالة بالقرآن ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في النَّاس ﴾ أي وجعلنا مع تلك الهداية النور العظيم الوضَّاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها ﴾ أي كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المَنْفذ ولا المَخْلص ؟ قال البيضاوي : وهو مَثَلٌ لمن بقي في الضلالة لا يفارقها بحال[٤] ﴿ كَذٰلِكَ زُيِّن للكَافِرِين ما كانوا يعملون ﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها كذلك حسَّنَّا للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدةٍ مجرميها مّن الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها ، قال ابن الجوزي : وإنما جعل الأكابر فُسَّاق كل قرية لأنهم أقربُ إلى الكفر بما أُعطوا من الرياسة والسعة[٥] ﴿ وما يمكرون إلاَّ بأنفسهم

(١) مختصر ابن كثير ٦١٢/١ . (٢) الكشاف ٤٩/٢ . (٣) البحر المحيط ٢١٤/٤ .
(٤) البيضاوي ص ١٨١ . (٥) زاد المسير ١١٧/٣ .

وما يشعرون ﴾ أي وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم ﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نُؤْمن حتى نُؤتى مثلَ ما أُوتي رسلُ الله** ﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجةٌ قاطعة وبرهانٌ ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدِّق برسالته حتى نُعطى من المعجزات مثل ما أُعطي رسُل الله ، قال في البحر : وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتَّبعوا رسل الله تعالى ، وروي أن أبا جهل قال : زاحمنا بني عبد منافٍ في الشرف حتى إذا صرنا كَفَرَسَيْ رهان قالوا : مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إليه ! والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلَّا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه فنزلت الآية[١] ﴿ **الله أعلم حيثُ يجعل رسالته** ﴾ أي الله أعلم من هو أهلٌ للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديدٌ بما كانوا يمكرون** ﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان ، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر ، قال في البحر : وقدَّم الصغار على العذاب لأنهم تمرَّدوا على اتِّباع الرسول وتكبّروا طلباً للعز والكرامة فقوبلوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعقاب الشديد ثانياً[٢] .

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام ، قال ابن عبَّاس : معناه يوسِّع قلبه للتوحيد والإيمان ، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله[٣] ﴿ **ومن يرد أن يضلَّه** ﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿ **يجعلْ صدره ضيِّقاً حرجاً** ﴾ أي يجعل صدره ضيِّقاً شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ، قال عطاء : ليس للخير فيه منفذ[٤] ﴿ **كأنما يصَّعد في السماء** ﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء ويزاول أمراً غير ممكن ، قال ابن جرير : وهذا مثلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، مثلُ امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه لأنه ليس

(١) البحر ٤/٢١٦ . (٢) البحر ٤/٢١٧ . (٣) الطبري ١٢/١٠٠ .
(٤) ابن كثير ١/٦١٧ .

في وسعه[١] ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته ، قال مجاهد : **الرجسُ** كل ما لا خير فيه ، وقال الزَّجاج : **الرجس** اللعنةُ في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ **وهذا صراط ربك مستقيمًا** ﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه فاسْتمسك به ﴿ **قد فصَّلنا الآيات لقوم يذَّكرون** ﴾ أي بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿ **لهم دار السَّلام عند ربهم** ﴾ أي لهؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون وينتفعون بالآيات دار السلام أي السَّلامة من المكاره وهي الجنَّة في نُزل الله وضيافته ﴿ **وهو وليُّهم بما كانوا يعملون** ﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاءً لأعمالهم الصالحة ، قال ابن كثير : وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السَّلام[٢] .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً** ﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثَّقلَين : الإنس والجن جميعاً للحساب قائلاً ﴿ **يا معشر الجنِّ قد استكثرتم من الإنس** ﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم قال ابن عبَّاس : أضللتم منهم كثيراً ، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿ **وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض** ﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإنس ربنا انتفع بعضنا ببعض قال البيضاوي : انتفع الإنس بالجن بأن دلُّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصَّلوا مرادهم[٣] ﴿ **وبلغنا أجلنا الذي أجَّلت لنا** ﴾ أي وصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب ، وهذا منهم اعتذارٌ واعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطين واتِّباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿ **قال النَّار مثواكم** ﴾ أي قال تعالى ردّاً عليهم النارُ موضع مقامكم وهي منزلكم ﴿ **خالدين فيها إلاَّ ما شاء الله** ﴾ أي ماكثين في النَّار في حال خلودٍ دائم إلاَّ الزمان الذي شاء الله أن

(١) الطبري ١٢/١٠٩ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٦١٨ . (٣) البيضاوي ص ١٨١ .

لا يخلدوا فيها ، قال الطبري : هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النَّار[١] وقال الزمخشري : يُخلدون في عذاب النَّار الأبد كلَّه إلَّا ما شاء الله أي إلَّا الأوقات التي يُنقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد رُوي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعَاوَوْن ويطلبون الرد إلى الجحيم[٢] ﴿ **إنَّ ربك حكيم عليم** ﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿ **وكذلك نولِّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** ﴾ أي كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب ، قال القرطبي : وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلَّط الله عليه ظالماً آخر ، قال ابن عبَّاس : إذا رضي الله عن قوم ولىّ أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولىَّ أمرهم شرارهم[٣] وعن مالك بن دينار قال : قرأتُ في بعض كتب الحكمة إن الله تعالى يقول : « إني أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشْغلوا أنفسكم بسبّ الملوك ولكن توبوا إليَّ أُعطّفْهم عليكم »[٤] ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي** ﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يتْلون عليكم آيات ربكم ؟ ﴿ **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد ؟ ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ أي لم يجدوا إلَّا الإعتراف فقالوا : بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا ، قال ابن عطية : وهذا إقرارٌ منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا ﴾ ﴿ **وغرَّتهم الحياة الدنيا** ﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وَبَهْرَجِهَا الكاذب ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ أي اعترفوا بكفرهم ، قال البيضاوي : وهذا ذمٌ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغترُّوا بالحياة الدنيا ولذتها الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلَّد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم[٥] .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١) الطبري ١٢/١١٨ . (٢) الكشاف ٢/٥١ .
(٣) القرطبي ٧/٨٥ . (٤) الفخر الرازي ١٣/١٩٤ . (٥) البيضاوي ص ١٨٢ .

﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلمٍ وأهلها غافلون** ﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة لأنَّ ربكَ عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً ، قال الطبري : أي إنما أرسلنا الرسل يا محمد يقصُّون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعِبر[1] ﴿ **ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا** ﴾ أي ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته ، منازل ومراتب من عمله يلقاها في آخرته إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، قال ابن الجوزي : وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج[2] ﴿ **وما ربك بغافل عما يفعلون** ﴾ أي ليس الله بلاهٍ أو ساهٍ عن أعمال عباده ، وفي ذلك تهديد ووعيد ﴿ **وربُّك الغنيُّ** ﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ **ذو الرحمة** ﴾ أي ذو التفضل التام ، قال ابن عبَّاس : ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، وقال غيره : بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين ، قال أبو السعود : وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد[3] ﴿ **إن يشأ يذهبكم** ﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿ **ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء** ﴾ أي وأتى بخلقٍ آخر أمثلَ منكم وأطوع ﴿ **كما أنشأكم من ذرية قومٍ آخرين** ﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ، قال أبو حيان : وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك[4] ﴿ **إنَّ ما توعدون لآت** ﴾ أي ما توعدونه من مجيء السَّاعة والحشر لواقعٌ لا محالة ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتم في الهرب متن كل صعب وذَلول ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون ، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ ﴿ **إني عاملٌ** ﴾ أي عاملٌ ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿ **فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار** ﴾ **أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة في الدَّار الآخرة أنحن أم أنتم ؟** ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً ، قال الزمخشري : في الآية طريقٌ من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدبٌ حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والوثوق بأنَّ المُنْذِر محِقٌ ، والمُنْذَر مبطل[5] .

---

(١) الطبري ١٢/١٢٤ . (٢) ابن الجوزي ٣/١٢٦ .
(٣) أبو السعود ٢/١٣٨ . (٤) البحر ٤/٢٢٥ .
(٥) الكشاف ٢/٥٣ .

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿ وجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأ مِن الحرث والأنعَام نَصِيباً ﴾ أي جعل مشركو قريش لله مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها ، قال ابن كثير : هذا ذمٌّ وتوبيخٌ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً ، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسمًا[1] ﴿ **فقالوا هذا لله بزعمهم** ﴾ أي قالوا : هذا نصيب الله بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع ، قال في التسهيل : وأكثُر ما يقال الزعم في الكذب[2] ﴿ **وهذا لشركائنا** ﴾ أي وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا ، قال ابن عبَّاس : إنَّ أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرةٍ أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله ردُّوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غنيٌّ والأصنام أحوج[3] ولهذا قال : ﴿ **فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله** ﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿ **وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم** ﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم ، قال مجاهد : كانوا يسمُّون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردُّوه ، وكانوا إذا أصابتهم سنةٌ « قحط » أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أي بئس هذا الحكم الجائر حكمهم ﴿ **وكذلك زيِّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم** ﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زيَّن شياطينهم لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم لآلهتهم ، قال الزمخشري : كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنَّ أحدهم كما حلف عبد المطَّلب[4] ﴿ **لِيُرْدُوهُم** ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿ **وليلبسوا عليهم دينهم** ﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السَّلام ﴿ **ولو شاء اللهُ ما فعلوه** ﴾ أي لو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح ﴿ **فذرهم وما يفترون** ﴾ أي دعهم وما يختلقونه من الإفك على الله ، وهو تهديد ووعيد .

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٦٢٢ .
(٢) التسهيل ٢/٢٢ .
(٣) مختصر ابن كثير ١/٦٢٢ .
(٤) الكشاف ٢/٥٤ .

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ
ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ
أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحرثُ حِجْرٌ ﴾ هذه حكاية عن بعض قبائحهم وجرائمهم أيضاً أي قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآلهتنا حرام ممنوعة على غيرهم ﴿ **لَا يَطْعمها إلاَّ من نشاء** ﴾ أي من خدمة الأوثان وغيرهم ﴿ **بزعمهم** ﴾ أي بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهان ﴿ **وأنعامٌ حُرِّمت ظهورها** ﴾ أي لا تركب كالبحائر والسوائب والحوامي ﴿ **وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿ **افتراءً عليه** ﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿ **سيجزيهم بما كانوا يفترون** ﴾ أي سيجزيهم على ذلك الافتراء ، وهو تهديد شديد ووعيد ﴿ **وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا** ﴾ هذا إشارة إلى نوع آخر من أنواع قبائحهم أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسوائب حلال لذكورنا خاصة ﴿ **ومحرَّم على أزواجنا** ﴾ أي لا تأكل منه الإناث ﴿ **وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء** ﴾ أي وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث ﴿ **سيجزيهم وصفهم** ﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿ **إنه حكيم عليم** ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ﴾ أي والله لقد خسر هٰؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم ، قال الزمخشري : نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر[١] ﴿ **سفهاً بغير علم** ﴾ أي جهالة وسفاهة لخفة عقلهم وجهلهم بأنَّ الله هو الرَّازق لهم ولأولادهم ﴿ **وحرَّموا ما رزقهم الله** ﴾ أي حرَّموا على أنفسهم البحيرة والسَّائبة وشبهها ﴿ **افتراءً على الله** ﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿ **قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين** ﴾ أي لقد ضلُّوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح وما كانوا من الأصل مهتدين لسوء سيرتهم ، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال : إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين** ﴾[٢] .

---

(١) الكشاف ٢/٥٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٦٢٤ .

* وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿ **وهو الذي أنشأ جنَّات معروشات** ﴾ أي هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبدوه وحده ، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان ، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش ﴿ **والنخل والزرع مختلفاً أُكُلُه** ﴾ أي وأنشأ لكم شجر النَّخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت ، وأنواع الزرع المحصّل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبُّه في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿ **والزيتون والرُّمان متشابهاً وغير متشابه** ﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿ **كلوا من ثمره إذا أثمر** ﴾ أي كلوا أيها النَّاس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ أي اعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم ، وقال ابن عبَّاس : يعني الزَّكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيْلُه[1] ﴿ **ولا تسرفوا إنَّه لا يحب المسرفين** ﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، قال الطبري : المختار قول عطاء أنه نَهْيٌ عن الإسراف في كل شيء[2] ﴿ **ومن الأنعام حمولةً وفرشاً** ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقالَ وما يُفْرش للذبح « أي يضجع » قال ابن أسلم : الحَمُولةُ ما تركبون ، والفَرْشُ ما تأْكُلون وتحلبون ﴿ **كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم الله** ﴾ أي كلوا من الثمار والزروع والأنعام فقد جعلها الله رزقاً لكم ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ أي طريقه وأوامره في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿ **إنَّه لكم عدوٌ مبين** ﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده ﴿ **ثمانية أزواج من الضأْن اثنين ومن المعز اثنين** ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع أحلَّ لكم أكلها ، من الضأن ذكراً وأنثى ، ومن المعز ذكراً وأنثى ، قال القرطبي : يعني ثمانية أفرادٍ ، وكلُ فردٍ عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمَّى زوجاً فيقال للذكر : زوجٌ وللأنثى زوجٌ[3] ويراد بالزوجين من الضَّأن : الكبشُ والنعجة ، ومن المعز : التيسُ والعنز ﴿ **قل آلذكرين حَرَّم أم الأنثيين** ﴾ ؟ هذا إنكارٌ لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحلَّ الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر : آلذكرين من الضأن والمعز حرَّم الله عليكم أيها المشركون أم الأنثيين منهما ؟

(١) مختصر ابن كثير ١/٦٢٤ . (٢) الطبري ١٢/١٧٦ . (٣) القرطبي ٧/١١٣ .

﴿ أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ أي أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ؟ ﴿ نبئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين ﴾ تعجيزٌ وتوبيخٌ أي أخبروني عن الله بأمر معلوم لا بافتراء ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله .

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقرة ﴿ قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقريع والتوبيخ ، قال أبو السعود : والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرَّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارةً ، وإناثها تارةً ، وأولادها تارةً أخرى[1] ﴿ أم كنتم شهداء إذْ وصَّـاكم الله بهذا ﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصَّاكم الله بهذا التحريم ؟ وهذا من باب التهكم ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليُضلَّ النَّاس بغير علم ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرِّم بغير دليلٍ ولا برهان ﴿ إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ عمومٌ في كل ظالم ، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إلي من القرآن شيئاً محرماً على أيِّ إنسان إلاَّ أن يكون ذلك الطعام ميتةً أو دماً سائلاً مصبوباً أو يكون لحم خنزير فإنه قذرٌ ونجس لتعوده أكل النجاسات ﴿ أو فسقاً أهِلَّ لغير الله به ﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النُّصب ، سُمِّي فسقاً مبالغة كأنَّه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿ فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغٍ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عادٍ أي مجاوزٍ قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور رحيم بالعباد .

(١) أبو السعود ٢/١٤٢ .

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

ثم بيَّن تعالى أن ما حرَّمه على اليهود إنما كان بسبب بغيهم وعصيانهم فقال ﴿ **وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذي ظفر** ﴾ أي وعلى اليهود خاصةً حرمنا عليهم كل ذي ظُفر ، قال ابن عبَّاس : هي ذوات الظِّلْفِ كالإِبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز[1] ﴿ **ومن البقر والغنم حرَّمنا عليهم شحومها** ﴾ أي وحرَّمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿ **إلاَّ ما حملت ظهورهما** ﴾ أي إلاَّ الشحم الذي علق بالظهر منهما ﴿ **أو الحوايا** ﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿ **أو ما اختلط بعظم** ﴾ كشحم الألية والمعنى : أن الشحم الذي تعلَّق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ **ذلك جزيناهم ببغيهم وإنَّا لصادقون** ﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال النَّاس بالباطل وإنَّا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد ، وفي ذلك تعريضٌ بكذب من حرَّم ما لم يحرّم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿ **فإن كذَّبوك فقل ربكم ذو رحمةٍ واسعةٍ** ﴾ أي فإن كذَّبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمةٍ واسعةٍ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم ، قال في البحر : وهذا كما تقول عند رؤية معصيةٍ عظيمة : ما أحلم الله تعالى ! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي[2] ، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿ **ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين** ﴾ أي لا تغترُّوا بسعة رحمته فإنه لا يُرَدُّ عذابه وسطوتُه عمن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغترّ العاصي بحلم الله .

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

(١) البحر المحيط ٤/٢٤٣ . (٢) البحر المحيط ٤/٢٤٦ .

﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا من شيء** ﴾ أي سيقول مشركوا العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آباؤ نا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرَّموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألَّا يفعلوا ذلك ما فعلوه ، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها : هذا قَدَرُ الله لا مهربَ ولا مفرَّ منه ،ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون مأمورون بفعل الخيروترك القبيح ولكنها نزعةٌ جبرية يحتج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة ، قال تعالى في الرَّد عليهم ﴿ **كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا** ﴾ أي كذلك كذَّب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿ **قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا** ﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان على صدق قولكم فتظهروه لنا ﴿ **إن تتبعون إلاَّ الظنّ وإن أنتم إلاَّ تخرصون** ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلاَّ الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلاَّ تكذبون على الله عَزَّ وَجَلّ ﴿ **قل فللّه الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فللّه الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع ، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿ وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ﴿ **قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم هذا** ﴾ أي قل لهم يا محمد احضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرَّم هذه الأشياء التي تدَّعونها من البحيرة والسَّائبة وغيرهما ﴿ **فإن شهدوا فلا تشهد معهم** ﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوَّروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿ **ولا تتَّبع أهواء الذين كذَّبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدِّقون بالآخرة ﴿ **وهم بربهم يعدلون** ﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان .

* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ
نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿ **قل تعالوا أتلُ ما حَرَّم ربكم عليكم** ﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرَّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿ **ألَّا تشركوا به شيئاً** ﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿ **وبالوالدين**

إحساناً ﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين **إحساناً** ، وذُكر ضمن المحرمات لأنَّ الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده فكأنَّه قال : ولا تسيئوا إلى الوالدين ، قال أبو السعود : والسرُّ في ذلك المبالغةُ والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما[١] ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر ، قال ابن الجوزي : المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر[٢] ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ أي رزقكم ورزقهم علينا فإن الله هو الرَّازق للعباد ﴿ **ولا تقربوا الفواحش** ما **ظهر منها وما بطن** ﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسرَّها ، قال ابن عبَّاس : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ ويستقبحونه في العلانية فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية[٣] ﴿ **ولا تقتلوا النَّفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق** ﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرَّم الله قتلها إلاَّ بموجب وقد فسَّره رسول الله ﷺ : (لا يحل دم امرىء مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث : الثيبُ الزَّاني ، والنفس بالنفس ، والتَّارك لدينه المفارق للجماعة) ﴿ **ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تعقلون** ﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلَّكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدِّين والدنيا ، قال أبو حيان : وفي لفظ وصَّاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان[٤] ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدَّه** ﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلاَّ بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً ، والنهي عن القرب يعمُّ وجوه التصرف لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهيُ عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعةُ اليتيم وتثمير ماله ، قال ابن عبَّاس : هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿ **لا نكلِّف نفساً إلاَّ وسعها** ﴾ أي لا نكلِّف أحداً إلاَّ بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه ، قال البيضاوي : أي إلاَّ ما يسعها ولا يعسرُ عليها ، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسرٌ فعليكم بما فيه وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم[٥] ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم ، قال القرطبي : وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين النَّاس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به[٦] ﴿ **ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تذكرون** ﴾ أي لعلَّكم تتعظون .

---

(١) أبو السعود ٢/١٤٦ . (٢) زاد المسير ٣/١٤٨ . (٣) الطبري ١٢/٢١٩ .
(٤) البحر ٤/٢٥٢ . (٥) البيضاوي ص١٨٤ . (٦) القرطبي ٧/١٣٧ .

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

﴿ **وأنَّ هذا صراطي مستقيًما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ أي وبأنَّ هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى ، عن ابن مسعود قال : خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال هذا سبيل الله ، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال : هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليها ثم قرأ ﴿ **وأنَّ هذا صراطي مستقيًما فاتبعوه . . . إلخ** ﴾[1] ﴿ **ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم** تتقون ﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلَّكم تتقون النَّار بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، قال ابن عطية : لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿ لعلَّكم تعقلون ﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿ لعلكم تذكّرون ﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعل الفضائل ولابد من تقوى الله جاءت العبارة ﴿ لعلَّكم تتقون ﴾[2] ﴿ **ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن** ﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً ، قال الطبري : أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمةٌ من الله عليه ومنَّةٌ عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطَّاعة[4] ﴿ **وتفصيلاً لكل شيء** ﴾ أي وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿ **وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون** ﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدِّقوا بلقاء الله ، قال ابن عبَّاس : كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعذاب[5] ﴿ **وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ** ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتابٌ عظيم الشأن كثير المنافع مشتملٌ على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿ **فاتَّبعوه واتقوا لعلَّكم ترحمون** ﴾ أي تمسكوا به واجعلوه إماماً واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة ﴿ **أن تقولوا إنما أُنزل الكتاب على طائفتين** ﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا كتاب فنتَّبعه وإنما نزلت الكتب المقدَّسة على اليهود والنصارى ، قال ابن جرير : فقطع الله بإنزاله القرآن على

---

(١) مختصر ابن كثير ١/٦٣٣ . (٢) البحر ٤/٢٥٤ .
(٣) الطبري ١٢/٢٣٦ . (٤) أبو السعود ٢/١٤٨ .

محمد ﷺ حجتهم تلك ﴿ وإنْ كنَّا عن دراستهم لغافلين ﴾ أي وإنه الحال والشأن كنَّا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا .

أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿ **أو تقولوا لو أنَّا أُنزل علينا الكتابُ لكنَّا أهدى منهم** ﴾ أو تقولوا لو أننا أُنزل علينا الكتاب كما أُنزل على هاتين الطائفتين لكنَّا أهدى منهم إلى الحق وأسرع إجابة لأمر الرَّسول لمزيد ذكائنا وجدّنا في العمل ﴿ **فقد جاءكم بيِّنةٌ من ربكم وهدى ورحمة** ﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم ، فيه بيانٌ للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده ، قال القرطبي : أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ[(١)] قال ابن عبَّاس : بيِّنة أي حجة وهو النبي ﷺ والقرآن[(٢)] ﴿ **فمن أظلم مِمَّن كَذَّبَ بآيات الله** ﴾ أي من أكفر ممن كذَّب بالقرآن ولم يؤمن به ﴿ **وصدف عنها** ﴾ أي أعرض عن آيات الله ، قال أبو السعود : أي صرف النَّاس عنها فجمع بين الضلال والإضلال[(٣)] ﴿ **سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون** ﴾ وعيدٌ لهم أي سنثيب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه السَّاطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله ﴿ **هل ينظرون إلاَّ أن تأتيهم الملائكة** ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء المشركون إلاَّ أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقتٌ لا تنفع فيه توبتُهم ﴿ **أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك** ﴾ قال ابن عباس : أي يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره ، وقال الطبري : المراد أن يأتيهم أمر ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها[(٤)] ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً** ﴾ أي يوم يأتي بعض أشراط الساعة وحينئذٍ لا ينفع الإيمان نفساً كافرة آمنت في ذلك الحين ولا نفساً عاصيةً لم تعمل خيراً ، قال الطبري : أي لا ينفع من كان قبل ذلك مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله ، فحكم

(١) القرطبي ٧/١٤٤ .
(٢) زاد المسير ٣/١٥٥ .
(٣) أبو السعود ٢/١٤٩ .
(٤) الطبري ١٢/٢٤٥ .

إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام السَّاعة[١] وفي الحديث (لا تقوم السَّاعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها النَّاس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[٢] ﴿ قل انتظروا إنَّا منتظرون ﴾ أي انتظروا ما يحلُّ بكم وهو أمر تهديد ووعيد .

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

﴿ **إن الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً** ﴾ أي فرَّقوا الدين فأصبحوا شيعاً وأحزاباً ، قال ابن عبَّاس : هم اليهود والنصارى فرَّقوا دين إبراهيم الحنيف ﴿ **لستَ منهم في شي** ﴾ **أي أنت يا محمد بريء منهم** ﴿ **إنما أمرهم إلى الله** ﴾ أي جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ **ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم ، قال الطبري : أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلاً منهم بما كان يفعل[٣] ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ واحدة جوزي عنها بعشر حسناتٍ أمثالها فضلاً من الله وكرماً وهو أقلُّ المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيئة فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مثلها** ﴾ أي ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أي لا ينقصون من جزائهم شيئاً ، وفي الحديث القدسي : « يقول الله عَزَّ وَجَلّ : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسَّيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغْفِرُ »[٤] فالزيادة في الحسنات من باب الفضل ، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذِّبين إنَّ ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم ﴿ **ديناً قيماً مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً** ﴾ أي ديناً مستقيّماً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً ، وفيه تعريضٌ بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿ **قُلْ إنَّ صلاتي** ﴾ أي قل يا محمد إنَّ صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿ **ونُسُكي** ﴾ أي ذبحي[٥] ﴿ **ومحياي ومماتي** ﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدِّمه

(١) الطبري ١٢/٢٦٦ . (٢) أخرجه البخاري .
(٣) الطبري ١٢/٢٧٤ . (٤) رواه مسلم .
(٥) هذا قول ابن عبَّاس ومجاهد واختاره الطبري وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأول أرجح .

في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿ لله رب العالمين ﴾ أي ذلك كله لله خالصاً دون ما أشركتم به ﴿ **لا شريك له** ﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿ **وبذلك أُمرتُ** ﴾ **أي بإخلاص العبادة لله وحده أُمرتُ** ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ أي أولُّ من أقرَّ وأذعن وخضع لله جَلَّ وَعَلا .

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

﴿ **قل أغير الله أبغي رباً** ﴾ تقريرٌ وتوبيخ للكفار ، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى : قل يا محمد أأطلب رباً غير الله تعالى ؟ ﴿ **وهو ربُّ كل شيء** ﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله ؟ ﴿ **ولا تكسب كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها** ﴾ أي لا تكون جناية نفسٍ من النفوس إلاَّ عليها ﴿ **ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى** ﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، ولا يؤاخذ إنسانٌ بجريرة غيره ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ وهذا وعيدٌ وتهديدٌ أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً ، قال الطبري : أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها[1] ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر ، والعلم الجهل ، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿ **ليبلوكم في ما آتاكم** ﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم ، قال ابن الجوزي : أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب[2] ﴿ **إنَّ ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ، قال في التسهيل : جمع بين الخوف والرجاء ، وسرعة العقاب إما في الدُّنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آتٍ قريب[3] .

(تم تفسـير سـورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنَّة)

(١) الطبري ٢٨٧/١٢ . (٢) زاد المسير ١٦٣/٣ . (٣) التسهيل ٢٨/٢ .

(٧) سُورة الأعراف مكيّة
وآياتها ستّ ومائتان

بين يدي السـورة

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة .

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد الخالدة ، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء ، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين .

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أبٍ واحد ، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له ، ثم حذَّرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم .

* وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته ، ولهذا وجه الله إلى أبناء آدم - بعد أن بيَّن لهم عداوة إبليس لأبيهم - أربعة نداءات متتالية بوصف البُنوَّة لآدم ﴿ **يا بني آدم** ﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذِّرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلّة والمخالفة لأمر الله ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما** . . . ﴾ .

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهدٍ من المشاهد الواقعة يوم القيامة ، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقةٍ ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة « **سورة الأعراف** » مشهدٌ سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل ، تبيّن ما يكون فيها من شماتة أهل الحق « **أصحاب الجنة** » بالمبطلين أصحاب النار ، وينطلق صوت علوي يسجّل عليهم اللعنة والطرد

والحرمان ، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسيماهم ، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها ، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها .

* وتناولت الصورة قصص الأنبياء بإسهاب « نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى » وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحودٍ وعناد ، وتكذيب وإعراض ، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية ، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمنٍ ورخاء وكيف لمَّا بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير .

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء ، وصوَّرتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره ، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركه يلهث** ﴾ وتلك لعمر الحق أقبح صورة مزرية لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزياً ووبالاً عليه ، لأنه لم ينتفع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة ، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصوَّرهم ويعلم متقلبهم ومثواهم ، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البدء والختام .

التســمية : سميت هذه السورة بسورة الأعـراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها ، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما ، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

تفسير سورة الأعــــراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾

﴿ **المص** ﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطَّعة وأن الحكمة في ذكرها بيان « إعجاز القرآن » بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤ هم وفصحاؤ هم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عبَّاس معناه : أنا الله أعلم وأَفْصِل ، وقال أبو العالية : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿ **كتابٌ أُنزل إليك** ﴾ أي هذا الكتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿ **فلا يكن في صدرك حرجٌ منه** ﴾ أي لا يضقْ صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿ **لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن ، ولتذكّر وتعظ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿ **اتَّبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم** ﴾ أي اتبعوا أيها النَّاس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزَّل إليكم من ربكم ﴿ **ولا تتَّبعوا من دونه أولياء** ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكُهَّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرِّعون لكم ﴿ **قليلاً ما تذكَّرون** ﴾ أي تتذكَّرون تذكراً قليلاً قال الخازن : أي ما تتعظون إلَّا قليلاً[1] ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلُها ﴿ **فجاءها بأسنا بياتاً** ﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿ **أو هم قائلون** ﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار ، قال أبو حيان : وخصَّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق

(١) تفسير الخازن ٢/١٧٣ .

وأفظع لأنه يكون على غفلةٍ من المهلكين[١] ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا** ﴾ أي ما كان دعاؤ هم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿ **إلاَّ أن قالوا إنَّا كنا ظالمين** ﴾ أي إلاَّ اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة ، وهيهات أن ينفع الندم .

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۢ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾

﴿ **فلنسألنَّ الذين أُرسل إليهم** ﴾ أي لنسألنَّ الأمم قاطبة هل بلَّغكم الرسل وماذا أجبتم ؟ والمقصودُ من هذا السؤ ال التقريع والتوبيخ للكفَّار ﴿ **ولنسألنَّ المرسلين** ﴾ أي ولنسألنَّ الرسل أيضاً هل بلَّغوا الرسالة وأدوا الأمانة ؟ قال في البحر : وسؤ ال الأمم تقريرٌ وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالاً وعذاباً ، وسؤ ال الرسل تأنيسٌ يعقب الأنبياء كرامة وثواباً[٢] ﴿ **فلنقصَّن عليهم بعلم** ﴾ أي فلنخبرنَّهم بما فعلوا عن علمٍ منا ، قال ابن عبَّاس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلَّم بما كانوا يعملون ﴿ **وما كنَّا غائبين** ﴾ أي ما كنَّا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم ، قال ابن كثير : يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنَّه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور[٣] ﴿ **والوزن يومئذٍ الحق** ﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أي النَّاجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل الثواب ﴿ **ومن خفَّت موازينه** ﴾ أي ومن خفَّت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيِّئات ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ أي خسروا أنفسهم وسعادتهم ﴿ **بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله ، قال ابن كثير : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلاَّ أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، يروى هذا عن ابن عبَّاس ، وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤ تى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارةً توزن الأعمال ، وتارةً محالها ، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم[٤] أقـول : لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات ، فإذا

(١) البحر ٤/٢٦٩ . (٢) البحر المحيط ٤/٢٧٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٢/٧ .

كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد ، واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر ؟ ﴿ **ولقد مكنّاكم في الأرض** ﴾ أي جعلنا لكم أيها النَّاس في الأرض مكاناً وقراراً ، قال البيضاوي : أي مكَّناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها[1] ﴿ **وجعلنا لكم فيها معايش** ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ أي ومع هذا الفضل والإِنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿ وقليلٌ من عبادي الشكور ﴾ ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيمًا لأنه أبو البشر ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته ﴿ **فسجدوا إلاَّ إبليس لم يكن من الساجدين** ﴾ أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلاَّ إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري : لم يكن إبليسُ من الملائكة طرفة عين .

قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

﴿ **قال ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك** ﴾ أي قال تعالى لإبليس أيُّ شيء **منعك** أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿ **قال أنا خير منه** ﴾ أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر العلَّة في الامتناع فقال ﴿ **خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره ، لأنني مخلوق من نار والنَّار أشرف من الطين ، ولم ينظر لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى ، قال ابن كثير : نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده ، فنفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبَّحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم ، والنار من شأنها الإِحراق والطيش ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإِصلاح والنَّار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار[2] ،

(١) البيضاوي ص ١٦٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٨ .

قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس[١] ﴿ **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾ أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي ﴿ **فاخرج إنَّك من الصَّاغرين** ﴾ أي الذليلين الحقيرين ، قال الزمخشري : وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبَّر على الله وضعه[٢] ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابه تعالى بقوله ﴿ **قال إنَّك من المنظرين** ﴾ قال ابن عبَّاس : أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم النَّاس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه[٣] ويؤيده الآية الأخرى ﴿ **قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ ﴿ **قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم** ﴾ أي فبسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدنَّ لآدم وذريَّته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القُطَّاع للسابلة ﴿ **ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع لأصدهم عن دينك ، قال الطبري : معناه لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل ، فأصدَّهم عن الحق وأحسِّن لهم الباطل ، قال ابن عبَّاس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلاَّ يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى[٤] ﴿ **ثم لا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴿ **قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً** ﴾ أي اخرج من الجنة مذموماً معيباً مطروداً من رحمتي ﴿ **لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُم لأَمْلأَنَّ جهنم منكم أجمعين** ﴾ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأنَّ جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين ، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن .

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿ **ويا ادم اسكن أنت وزوجك الجنَّة** ﴾ أي قلنا يا آدم اسكنْ أنت مع زوجك حوَّاء الجنة بعد أن أُهبط منه إبليس وأخرج وطرد ﴿ **فكلا من حيث شئتما** ﴾ أي كلا من ثمارها من أي مكان

(١) البحر ٤/٢٧٣ . (٢) الكشاف ٢/٩٠ .
(٣) القرطبي ٧/١٤٧ . (٤) الطبري ١٢/٣٤١

شئتما ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظَّالمين** ﴾ أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلاَّ شجرة واحدة عيَّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ أي ألقى لهما بصوت خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة ﴿ **ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوآتهما** ﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿ **وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا مَلَكَين أو تكونا من الخالدين** ﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلاَّ كراهية أن تكونا مَلَكَين أو تصبحا من المخلدين في الجنة ﴿ **وقاسمهما إني لكما من الناصحين** ﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يُخْدَع المؤمن بالله ، قال الألوسي : وإنما عبَّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجدُّ فيه[١] ﴿ **فدلاَّهما بغرور** ﴾ أي خدعهما بما غرَّهما به من القسم بالله ، قال ابن عبَّاس : غرَّهما باليمين وكان آدم يظن أنَّه لا يحلف أحدٌ بالله كاذباً فغرَّهما بوسوسته وقسمه لهما[٢] ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما** ﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما ، قال الكلبي : تهافت عنهما لباسهما فأبصر كلٌّ منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة** ﴾ أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتهما من حلل الجنة ، قال القرطبي : أي جعلا يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به ومنه خصف النعل[٣] وعن وهب بن منبه قال : كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا فلماَّ أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما[٤] ﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين** ﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً : ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين ؟ روي أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزَّتك ولكن ما ظننتُ أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً قال : فوعزَّتي لأهبطنَّك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلاَّ كدًّا[٥] .

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

---

(١) روح المعاني ٨/١٠٠ . (٢) القرطبي ٧/١٨٠ . (٣) القرطبي ٧/١٨١ .
(٤) الطبري ١٢/٣٥٥ . (٥) البحر ٤/٢٨١

﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين** ﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة قال الطبري : وهذه الآية هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربه[1] ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو** ﴾ الخطاب لآدم وحوَّاء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض حال كون بعضكم عدواً لبعض ، فالشيطان عدوٌ للإنسان ، والإنسان عدوٌ للشيطان كقوله ﴿ إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً ﴾ ﴿ **ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين** ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم ﴿ **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون** ﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تقبرون ومنها تُخرجون للجزاء كقوله ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى ﴾ ثم ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذريَّة آدم من اللباس والريش والمتاع فقال ﴿ **يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً** ﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يستر عوراتكم ، ولباساً يزينكم وتتجملون به ، قال الزمخشري : الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته[2] ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشَّـــاعر :

وخـيرُ لبـاس المـرء طـاعــةُ ربـه ... ولا خـير فيمن كان لله عـاصيـاً

﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده ﴿ **لعلَّهم يذَّكرون** ﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها .

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ **يا بني آدم لا يفتننَّكم الشيطان** ﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿ **كما أخرج أبويكم من الجنَّة** ﴾ أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ﴿ **ينزع عنهما**

(١) هذه الرواية نقلها الطبري عن الضحَّاك وفيه الإشارة إلى قوله تعالى ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ .
(٢) الكشاف ٢/٩٧ .

لباسهما ﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات ، ونسب النزع إليه لأنه المتسبب ، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسِّية والمعنوية ﴿ **إنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها ، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدَّ وأخوف ﴿ **إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ أي جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين ﴿ **وإذا فعلوا فاحشةً** ﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة ﴿ **قالوا وجدنا عليها آباءنا** ﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿ **والله أمرنا بها** ﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثيابٍ عصينا فيها الله ! وهذا افتراء على ذي الجلال ، قال البيضاوي : احتجوا بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله سبحانه ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ، وردَّ الثاني بقوله ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾[1] أي قل لهم يامحمد : الله منزَّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوىء الخصال ﴿ **أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علمٍ ونظرٍ صحيح ؟ ﴿**قل أمر ربي بالقسط** ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ أي توجهوا بكليتكم إليه عند كل سجود ﴿ **وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أي واعبدوه مخلصين له في العبادة والطاعة ، قال ابن كثير : أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك[2] ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿ **فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة** ﴾ أي هدى فريقاً منكم وأضلَّ فريقاً منكم وهو الفعَّال لما يريد لا يُسأل عما يفعل ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله** ﴾ هذا تعليل للفريق الذين حقَّت عليهم الضَّلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿ **ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية .

* يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(١) البيضاوي ص ١٨٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/١٣ .

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ أي المتعدِّين حدود الله فيما أحلَّ وحرَّم ﴿ قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراةً ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات ، من حرَّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم من النبات والمستلذات من المآكل والمشارب ! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفَّار ، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد لأن الله حرَّم الجنَّة على الكافرين ﴿ كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي نبيِّن ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ﴿ قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ أي قل لهم يا محمد ما حرَّم الله إلاَّ القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها ، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿ والإثم والبغي بغير الحق ﴾ أي وحرَّم المعاصي كلها والعدوان على النَّاس ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ ولكل أمة أجل ﴾ أي لكل أمة كذَّبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها ، قال في البحر : هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدَّم كقوله ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾[1] والسَّاعة مثلٌ في غاية القلة

(١) هذا الراجح في تفسير الآية أن المراد به أجل الأمم المكذبين للرسل وهو اختيار الطبري وابن كثير وأبي السعود وقيل : المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولا ينقص ، والأول أرجح لأن اللفظ ورد ﴿ ولكل أمة ﴾ والله أعلم .

من الزمان ﴿ **يا بني آدم إمَّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي** ﴾ المراد ببني آدم جميع الأمم والمعنى إن يجئْكُمْ رسلي الذين أرسلتهم إليكم يبينون لكم الأحكام والشرائع ﴿ **فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون** ﴾ أي وأمَّا من كذَّب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته** ﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن تعمَّد الكذب على الله أو كذَّب بآياته المنزلة ؟ ﴿ **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقُدر من الأرزاق والآجال ، قال مجاهد : ما وعدوا به من خير أو شر ﴿ **حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم** ﴾ أي جاءت ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿ **قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله** ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله أدعوهم ليخلِّصوكم من العذاب ، والسؤال للتبكيت والتوبيخ ﴿ **قالوا ضلُّوا عنَّا** ﴾ أي قال الأشقياء المكذِّبون لقد غابوا عنَّا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿ **وشهدُوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران .

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

﴿ **قال ادخلوا في أمم قدْ خَلَتْ من قبلكم من الجن والإنس في النَّار** ﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته : ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿ **كلَّما دخلتْ أمةٌ لعنت أختها** ﴾ أي كلَّما دخلت طائفة النَّار لعنت التي قبلها لضلالها بها ، قال الألوسي : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى[1] ، والمراد أن أهل النَّار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى ﴿ ثم يوم

(١) روح المعاني ١١٦/٨

القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ ﴿ حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً ﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النَّار كلهم ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلُّونا ﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلُّوهم يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿ فآتهم عذاباً ضعفاً من النَّار ﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسببوا في كفرنا ونظير هذه الآية ﴿ ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ ﴿ قال لكل ضعف ﴾ أي لكلٍ من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾ أي قال القادة للأتباع : لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم ، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب[1] ﴿ إن الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ أي كذَّبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعلم بمقتضاها ﴿ لا تفتَّح لهم أبواب السَّماء ﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطَّيب ﴾ قال ابن عبَّاس : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : لا تُفَتَّح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم ويؤيده حديث (أن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا يجيئه ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة فلا يمر على ملأٍ من الملائكة إلاَّ قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له . .)[2] الحديث ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّــة حتى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمّ الخِيَاط ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام .

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ من كلام الله للفريقين على سبيل التوبيخ وهو اختيار الطبري والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في البحر والله أعلم .

(٢) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في ابن كثير ١٨/٢ .

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

﴿ **لهم من جهنم مهاد** ﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿ **وكذلك نجزي الظالمين** ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدَّى حدود الله ، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعدَّه لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعدَّ لهم فقال ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أي والذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿ **لا نكلِّف نفساً إلاَّ وسعها** ﴾ أي لا نكلِّف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر ، قال في البحر : وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة[1] ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنَّات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلاَّ المحبَّة والتعاطف كما ورد في الحديث (يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غلٌ)[2] وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار** ﴾ أي تجري أنهار الجنَّة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عَزَّ وَجَلّ ﴿ **ونُودُوا أن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه الجنة التي أعطيتموها بسبب أعمالكم الصَّالحة في الدنيا ، قال القرطبي : ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إيَّاها برحمة الله وفضله ، وفي الحديث (لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنَّة . .)[3] الحديث .

---

(١) البحر المحيط ٢٩٨/٤ . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم . (٣) أخرجه مسلم وانظر القرطبي ٢٠٩/٧ .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿ **وناد‍ى أصحابُ الجنَّةِ أصحابَ النَّار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم** ﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النَّار ، وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهلُ الجنة أهلَ النَّار يقولون : إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً ؟ قال أهل النار مجيبين : نعم وجدناه حقاً ، قال الزمخشري : وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتةً بأهل النَّار ، وزيادة في غمهم[1] لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿ **فأذَّن مؤذنٌ بينهم أنْ لعنةُ الله على الظالمين** ﴾ أي أعلن معلنٌ ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفه بقوله ﴿ **الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً** ﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتِّباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجَّة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿ **وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم** ﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿ فضُربَ بينهم بسورٍ له بابٌ ﴾ يمنع من وصول أهل النَّار للجنَّة ، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النَّار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميَّزهم الله بها ، قال قتادة : يعرفون أهل النَّار بسواد وجوههم وأهل الجنَّة ببياض وجوههم[2] ﴿ **ونادوا أصحاب الجنَّة أن سلامٌ عليكم** ﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامٌ عليكم أي قالوا لهم : سلام عليكم قال تعالى ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنَّة وهم يطمعون في دخولها ﴿ **وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النَّار قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظَّالمين** ﴾ قال المفسرون : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنَّة ولا من أهل النَّار ، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنَّة سلَّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النَّار قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظَّالمين ، سألوا الله ألَّا يجعلهم

(١) الكشاف ٢/١٠٦ . (٢) الطبري ١٢/٤٦٣ .

معهم ، قال أبو حيَّان : وفي التعبير بقوله ﴿ صُرفت ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنَّة وأن نظرهم إلى أصحاب النَّار ليس من قِبَلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حُملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النَّار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم[١] .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

﴿ **ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم** ﴾ أي من أهل النَّار وهم رؤساء الكفرة ﴿ **قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** ﴾ أي أيُّ شيء نفعكم جمعكم للمال واستكباركم عن الإيمان ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ أي أهؤلاء المؤمنين الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنَّة ، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخهم بذلك ﴿ **ادخلوا الجنَّة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ أي يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنَّة رغم أنوف الكافرين ، قال الألوسي : هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم : دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة[٢] ﴿ **ونادى أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** ﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النَّار وأهل الجنَّة بعد أن استقر بكلٍ من الفريقين القرار واطمأنت به الدَّار ، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والمعنى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النَّار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿ **قالوا إن الله حرَّمها على الكافرين** ﴾ أي منع الكافرين شراب الجنَّة وطعامها ، قال ابن عبَّاس : ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول : قد احترقت فأفض عليَّ من الماء ! فيقال لهم أجيبوهم فيقولون : إن الله حرمها على الكافرين[٣] .

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

(١) البحر المحيط ٤/٣٠٣ . (٢) روح المعاني ٨/١٢٦ . (٣) الطبري ١٢/٤٧٣ .

ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً** ﴾ أي هزءوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿ **وغرَّتهم الحياة الدنيا** ﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة وهذا شأنها مع أهلها تغرُّ وتضر ، وتخدع ثم تصرع ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به ، قال الألوسي : الكلام خارجٌ مخرج التمثيل أي نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيمَ الذي ينبغي ألاّ ينسى[1] ، وقال ابن كثير : أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيءٌ ولا ينساه[2] ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أي وكما كانوا منكرين لآيات الله في الدنيا ، يكذبون بها ويستهزءون ، ننساهم في العذاب . ﴿ **ولقد جئناهم بكتاب** ﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿ **فصَّلناه على علم** ﴾ أي بيَّنا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منَّا حتى جاء قيِّما غير ذي عوج ﴿ **هدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿ **هل ينظرون إلاّ تأويله** ﴾ أي ما ينتظر أهل مكّة إلاّ عاقبة ما وُعدوا به من العذاب والنكال ، قال قتادة : تأويله عاقبتُه ﴿ **يوم يأتي تأويله** ﴾ هو يوم القيامة ﴿ **يقول الذين نسوه من قبل** ﴾ أي يقول الذين ضيَّعوا وتركوا العمل به في الدنيا ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصَّادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم ، قال الطبري : أقسم المساكين حين حلَّ بهم العقاب أن رسل الله قد بلَّغتهم الرسالة ونصحتْ لهم وصَدَقَتْهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرةُ القيل والقال[3] ﴿ **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا** ﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب ؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿ **أو نردُّ فنعمل غير الذي كنَّا نعمل** ﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدُّنيا لنعمل صالحاً غير ما كنَّا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ **قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة ، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في**

---

(١) روح المعاني ١٢٧/٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٢٤/٢ . (٣) الطبري ٤٨٠/١٢ .

ستة أيام ﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السمٰوات والأرض في مقدار ستة أيّام من الدنيا ، قال القرطبي : لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلّم العبادَ التثبت في الأمور[١] **﴿ ثم استوى على العرش ﴾** أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف ، وكما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكَيْفُ مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبار الصفات تَمُرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال : كيف ؟ وَلِمَ ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء ، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف أو يحدها حادٌّ ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونَكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عَزَّ وَجَلّ[٢] ، وقال القرطبي : لم ينكر أحدٌ من السلف الصَّالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته[٣] **﴿ يُغشي اللَّيْل النهار يطلبه حثيثاً ﴾** أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه **﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره ﴾** أي الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره **﴿ ألاَ لَهُ الخلقُ والأمر ﴾** أي له الملك والتصرف التام في الكائنات **﴿ تبارك الله ربُّ العالمين ﴾** أي تعظَّم وتمجَّد الخالق المبدع رب العالمين **﴿ أُدعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾** أي ادعوا الله تذللاً وسراً بخشوع وخضوع **﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾** أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت وفي الحديث (إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً) .

وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين **﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾** أي خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته **﴿ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ﴾** أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره **﴿ وهو الذي يُرسل الرِّياح بُشراً بين يديْ رحمته ﴾** أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر ، قال في البحر : ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النعم وأحسنها أثراً على

(١) القرطبي ٧/٢١٩ . (٢) محاسن التأويل ٧/٢٧٠٨ .
(٣) القرطبي ٧/٢١٩ .

الإنسان[1] ﴿ حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً ﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلا بالماء ﴿ سقناه لبلد ميت ﴾ أي سقنا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون ﴾ أي مثل هذا الإخراج نُخرج الموتى من قبورهم لعلّكم تعتبرون وتؤمنون ، قال ابن كثير : وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلّكم تذكّرون[2] ﴿ والبلدُ الطيّبُ يخرجُ نباتُه بإذن ربه ﴾ أي الأرضُ الكريمةُ التربة يخرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره ، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها ﴿ والذي خبُث لا يخرج إلاّ نَكِداً ﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التُربة كالحرّة أو السبخة[3] لا يخرج النبات فيها إلاّ بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه ، وهذا مثلٌ للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة ، قال ابن عبّاس : هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالمؤمن طيّب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب ، والكافر خبيثٌ وعملهُ خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها[4] ﴿ كذلك نصرّف الآياتِ لقومٍ يشكرون ﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبيِّن وجوه الحجج ونكررها آية بعد آية ، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه ، وإنما خصَّ الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن ، قال الألوسي : أي مِثلَ هذا التصريف البديع نردِّد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها لقومٍ يشكرون نعم الله تعالى ، وشكرها بالتفكر والاعتبار بها[5] .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ اللام جواب قسمٍ محذوف أي والله لقد أرسلنا نوحاً ، ونوحٌ شيخ الأنبياء لأنَّه أطولهم عمراً وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس ، ولم يلق نبيٌّ من الأذى مثل نوح[6] ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ أي وحدّوا الله ولا تشركوا به فما لكم إلهٌ مستحقٌ للعبادة غيره ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فأنا

(١) البحر المحيط ٣١٧/٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٢٧/٢

(٣) الحرَّة : الأرض ذات الحجارة السود ، والسبخة : الأرض ذات الملح .

(٤) الطبري ٤٩٧/١٢ . (٥) روح المعاني ١٤٨/٨ .

(٦) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا « النبوة والأنبياء » .

أخاف عليكم عذاب يوم ٍ عظيم هو يوم القيامة ﴿ **قال الملأ من قومه إنَّا لنراك في ضلالٍ مبين** ﴾ أي قال الأشراف والسَّادة من قومه إنَّا لنراك يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب واضح جلي ، قال أبو حيَّان : ولم يجبه من قومه إلاَّ أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة[١] ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿ **قال يا قوم ليس بي ضلالة**[٢] **ولكني رسولٌ من ربّ العالمين** ﴾ أي ما أنا بضال ولكنْ أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿ **أبلِّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها ، قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات[٣] .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ **أَوَعَجِبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل ٍ منكم** ﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ﴿ **لِيُنْذركم ولتتقوا ولعلَّكم تُرحمون** ﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم وتنالكم الرحمة بتقواه ﴿ **فكذَّبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك** ﴾ أي كذَّبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة ﴿ **وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا** ﴾ أي أهلكنا المكذبين منهم بالغرق ﴿ **إنهم كانوا قوماً عَمِين** ﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له ، قال ابن عبَّاس : عميتْ قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد[٤] ﴿ **وإلى عادٍ أخاهم هوداً** ﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿ **فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ أي قال لهم رسولهم وحّدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ أي أفلا تخافون عذابه ؟ ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ أي قال السادة والقادة منهم ﴿ **إنَّا**

(١) البحر ٤/٣٢٠ .

(٢) لم يأت التركيب لستُ في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما ، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلّق به ولا ضلالة واحدة ، أفاده صاحب البحر .

(٣) مختصر ابن كثير ٢/٢٨ .

(٤) البحر ٤/٣٢٣ .

لنراك في سفاهةٍ وإنَّا لنظنُّك من الكاذبين ﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة .

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ **قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من رب العالمين** ﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿ **أبلِّغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه ، أمينٌ على ما أقول لا أكذب فيه ، قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام مِمَّنْ نسبَهم إلى السفاهة والضلالة ـ بما أجابوهم به من الكلام الصَّادر عن الحلم وترك المقابلة ـ أدبٌ حسنٌ وخُلُق عظيم ، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم[1] ﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم** ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ أي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿ **وزادكم في الخلق بسطة** ﴾ أي زاد في أجسامكم قوَّة وضخامة ﴿ **فاذكروا آلاء الله لعلَّكم تفلحون** ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة .

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا** ﴾ أي أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونتبرأ منها ؟ ﴿ **فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصَّادقين** ﴾ أي فائتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿ **قال**

(١) الكشاف ٢/١١٦ .

قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ أي قد حلَّ بكم عذاب وغضب من الله ﴿ **أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزَّل الله بها من سلطان** ﴾ أي أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد ﴿ **فأنجيناه والذين معه برحمة منّا** ﴾ أي أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين رحمة منا لهم ﴿ **وقطعنا دابر الذين كذَّبوا بآياتنا** ﴾ أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿ **وما كانوا مؤمنين** ﴾ أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب ، قال أبو السعود : أي أصرّوا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم[1] .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به ﴿ **قد جاءتكم آيةٌ من ربكم** ﴾ أي معجزة ظاهرة جلية تدل على صحة نبوتي ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ هذا بيان للمعجزة أي هذه النّاقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم لأنها خلقت بغير واسطة ، قال القرطبي : أخرج لهم النّاقة حين سألوه من حجر صلد[2] ﴿ **فذروها تأكل في أرض الله** ﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربها ﴿ **ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ أي لا تتعرضوا لها بشيء من السوء أصلاً إكراماً لها لأنها آية الله ، والعذاب الأليم هو ما حلّ بهم حين عقروها ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ أي خلفاء في الأرض ، قال الشهاب : لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿ **وبوَّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً** ﴾ أي أسكنكم في أرض الحِجْر تبنون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتاً** ﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم ، قال القرطبي : اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم[3] ﴿ **فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضّل به ولا تعيثوا في الأرض فساداً .

(١) أبو السعود ٢/١٧٤ .
(٢) القرطبي ٧/٢٣٨ .
(٣) القرطبي ٧/٢٣٩ .

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم** ﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام ﴿ **أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه** ﴾ أي أن الله أرسله إلينا وإليكم ، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿ **قالوا إنَّا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته ، قال أبو حيان : وعدولهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿ **إنَّا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ في غاية الحسن إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم لا يدخله ريب لما أتي به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته(١) ﴿ **قال الذين استكبروا إنَّا بالذي آمنتم به كافرون** ﴾ أي قال المستكبرون نحن كافرون بما صدَّقتم به من نبوَّة صالح وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم ﴿ **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ أي نحروا الناقة واستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿ **وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقاً رسولاً ، قالوا ذلك استهزاءً به وتعجيزاً ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حِراك بهم ، قال في البحر : أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوتُ كل شيء له صوتٌ في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا(٢) ﴿ **فتولىَّ عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم ولكنْ لا تحبون الناصحين** ﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم : لقد بلَّغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم ، قال الزمخشري ﴿ **ولكنْ لا تحبون الناصحين** ﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت ـ وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة ـ : يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني(٣) ؟ .

(١) البحر ٤/٢٣٩ . (٢) البحر ٤/٣٣١ . (٣) الكشاف ٢/١٢٤ .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين** ﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمنٍ من الأزمان ! والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار ، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم وبَّخهم بأنهم أول من فعلها ، قال أبو حيان : ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ، ومركوزاً في العقول فحشه أتي به معرفاً بالألف واللام ﴿ **الفاحشة** ﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿ **إنه كان فاحشة** ﴾ فأتى به منكراً ، والجملة المنفية ﴿ **ما سبقكم** ﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها ، والمبالغة في ﴿ **من أحد** ﴾ حيث زيدت مِنْ لتأكيد نفي الجنس ، وفي الإتيان بعموم ﴿ **العالمين** ﴾ جمعاً قال عمرو بن دينار : ما رؤ ي ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[1] ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء** ﴾ هذا بيانٌ للفاحشة وهو توبيخٌ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بإنَّ وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، قال أبو السعود : وفي التقييد بقوله ﴿ **شهــوة** ﴾ وصفٌ لهم بالبهيمية الصِّرفة وتنبيهٌ على أن العاقل ينبغي أن يكون الدَّاعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة[2] ﴿ **وما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون** ﴾ أي ما كان جوابهم للوطٍ إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلاَّ أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار ، قال ابن عبَّاس ومجاهد : ﴿ **إنهم أناسٌ يتطهرون** ﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿ **فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حلَّ بقومه وأهله المؤمنين إلاَّ امرأته فلم تنج وكانت من الباقين في ديارهم الهالكين قال الطبري : أي أنجينا لوطاً

(١) البحر ٣٣٣/٤ . (٢) أبو السعود ١٧٨/٢ .

وأهله المؤمنين به إلاّ امرأته فإنها كانت للوطٍ خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب[1] ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً** ﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً هو حجارة من سجيل كما في الآية الأخرى ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث أرسل إرسال المطر ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هٰؤلاء المجرمين كيف كانت ؟ وإلى أي شيءٍ صارت ؟ هل كانت إلاّ البوار والهلاك ؟!

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيره** ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته ، قال ابن كثير : ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره[2] ﴿ **قد جاءتكم بيِّنة من ربكم** ﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان** ﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿ **ولا تبخسوا النَّاس أشياءهم** ﴾ أي لا تظلموا النَّاس حقوقهم ولا تُنْقصوهم إياها ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء النَّاس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به** ﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تخوّفون من آمن بالقتل ، قال ابن عبَّاس : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون : إنه كذَّاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ[3] ﴿ **وتبغونها عوجاً** ﴾ أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون في هذا الزمان : « هذا الدين لا ينطبق مع العقل » لأنه لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم** ﴾ أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزَّة فاشكروا الله على نعمته ﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة**

---

(١) الطبري ١٢/٥٥١ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٥٣ . (٣) البحر ٤/٣٣٨ .

المفسدين ﴾ هذا تهديد لهم أي انظروا ما حلَّ بالأمم السَّابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم .

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ
خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن
قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

﴿ **وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ أي إذا كان فريق صدَّقوني فيما جئتهم به وفريق لم يصدِّقوني فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين ، قال أبو حيان : هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسارة ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه** ﴾ أي قال أشراف قومه المستكبرين عن الإيمان بالله ورسله ﴿ **لنخرجنَّك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا** ﴾ أقسموا على أحد الأمرين : إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعنَّ أنت وهم إلى ديننا ، ﴿ **قال** ﴾ شعيب مجيباً لهم ﴿ **أَوَلَوْ كنَّا كارهين** ﴾ أي أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملَّتكم ولو كنَّا كارهين لذلك ؟ والاستفهام للإنكار .

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصَّرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب ، وهذا تيئيسٌ للكفَّار من العودة إلى دينكم ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها إلاَّ أن يشاء الله ربنا** ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملَّتكم ودينكم إلاَّ إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿ **وسع ربنا كل شيء علمًا** ﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿ **وقال الملأ**

الذين كفروا من قومه لئن اتَّبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة : إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذاً لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى .

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

قال تعالى ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميّتين جاثمين على الركب ﴿ **الذين كذَّبوا شعيباً كأن لم يَغنوا فيها** ﴾ أي أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعَّمين ﴿ **الذين كذَّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾ إخبارٌ عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿ **فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم** ﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتّبعوا نصحه ﴿ **فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه ، قال الطبري : أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذَّبوا رسله وأتوجع لهلاكهم(١) ؟ ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نبي** ﴾ في الكلام حذفُ أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذّبه أهلها ﴿ **إلاَّ أخذنا أهلها بالبأساء والضراء** ﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر ، والمرض وسوء الحال ﴿ **لعلَّهم يضَّرعون** ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم .

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿ **ثم بدَّلنا مكان السَّيئة الحسنة** ﴾ أي ثم أبدلناهم بالفقر والمرض ، الغنى والصحة ﴿ **حتى عَفَوْا** ﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿ **وقالوا قد مس آباءنا الضرَّاء والسرَّاء** ﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشركوا فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر وقد مسَّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا ، والغرضُ أن الله ابتلاهم بالسَّيئة لينيبوا إليه فما فعلوا ، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا ، فلم يبق إلاَّ أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى

(١) الطبري ١٢/٥٧١ .

﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة من حيث لا يدرون . ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كَذَّبوا وأُهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ﴾ أي لوسَّعنا عليهم الخير من كل جانب وقيل : بركاتُ السماء المطرُ ، وبركات الأرض الثمارُ ، قال السدي : فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق[1] ﴿ ولكنْ كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي ولكن كذَّبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم .

أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه ؟ ﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون ﴾ ؟ أم هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهاراً جهاراً وهم يلهون ويشتغلون بما لا يجدي كأنهم يلعبون ؟ ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ أي أفأمنوا استدراجه إيَّاهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم ؟ فإنه لا يأمن ذلك إلاَّ القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخسَّ من البهائم ، قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ خائفٌ وجلٌ ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن[2] ﴿ أَوَلَمْ يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ أي أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم ، والمراد بها كفَّار مكة ومن حولهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم ، قال في البحر : أي قد علمتم ما حلَّ بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حلَّ بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا[3] ﴿ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظةً ولا تذكيراً سماع منتفع بهما ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ أي تلك القرى المذكورة نقصُّ عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أهولُ وأفظع ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي جاءتهم بالمعجزات

(١) البحر ٣٤٨/٤ . (٢) ابن كثير ٣٨/٢ المختصر . (٣) البحر ٣٥٠/٤ .

والحجج القاطعات ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا من قبل** ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال ، قال الزمخشري : أي استمروا على التكذيب من لدنْ مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرِّين لا يرعوون مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات(١) ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النُّذر والآيات ، وفيه تحذير للسامعين .

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ أي ما وجدنا لأكثر النَّاس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال ، قال ابن كثير : والعهد الذي أخذه هو ما فطرهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع(٢) ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا** ﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿ **إلى فرعون وملائه** ﴾ أي أرسلناه إلى فرعون ـ ملك مصر في زمن موسى ـ وقومه ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أي كفروا وجحدوا بها ظلماً وعناداً ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغُ في النكال لأعداء الله ، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿ **وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من ربِّ العالمين** ﴾ أي إني رسولٌ إليك من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿ **حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلاَّ الحق** ﴾ أي جديرٌ بي وحقٌ عليَّ أن لا أخبر عن الله إلاَّ بما هو حقٌ وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿ **قد جئتكم بآيةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل** ﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخلِّ واترك سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطنُ آبائهم(٣) ، قال أبو حيان : ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى

(١) الكشاف ٢/١٣٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٣٩ .

(٣) قال المفسرون : كان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدَّسة أن الأسباط ـ أولاد يعقوب ـ جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشّاقة فأحبَّ موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم .

بقوله ﴿ إني رسولٌ من رب العالمين ﴾ لينبه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطلٌ لا محقٌ ، ولما كان قوله ﴿ **حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلاَّ الحق** ﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿ قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ ولما قرَّر رسالته فرَّع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿ فَأَرْسِلْ معي بني إسرائيل ﴾ [١] ﴿ **قَالَ إن كُنْتَ جِئْتَ بآيةٍ فأْت بها إن كُنتَ من الصادقين** ﴾ أي قال فرعون لموسى : إن كنت جئت بآية من ربك كما تدَّعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾

﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ** مبين ﴾ أي فإذا بها حيَّة ضخمة طويلة ، قال ابن عبَّاس : تحولت إلى حيَّة عظيمة فاغرة فاها مسرعةً نحو فرعون و﴿ مبين ﴾ أي ظاهر لا متخيَّل ﴿ **ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجيباً يغلب نورها نور الشمس ، قال ابن عبَّاس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السموات والأرض ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إنَّ هذا لساحر عليم** ﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته إنَّ هذا عالِمٌ بالسحر ماهرٌ فيه ، وقولهم ﴿ عليم ﴾ أي بالغُ الغاية في علم السحر وخدعه وفنونه ﴿ **يريد أن يُخْرِجكُم من أرضكم** ﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره ؟ وبأي شيء تشيرون فيه ؟ قال القرطبي : قال فرعون : فماذا تأمرون وقيل : هو من قول الملأ ، أي قالوا لفرعون وحده ﴿ فماذا تأمرون ﴾ كما يُخاطب الجبَّارون والرؤساء : ما ترون في كذا[٢] ، ﴿ **قالوا أرجهْ وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين** ﴾ أي أخِّر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسل في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿ **يأتوك بكل ساحرٍ عليم** ﴾ أي يأتوك بكل ساحرٍ مثله ماهر في السحر ، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين** ﴾ في الكلام محذوفٌ يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن يُجْمَعُوا له فلما جاءوا فرعون قالوا : إنَّ **لنا لأجراً** عظيمًا إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره ؟ .

---

(١) البحر ٤/٣٥٥ . (٢) القرطبي ٧/٢٥٧ .

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ
عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ أي قال فرعون : نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أعزّ خاصتي وأهل مشورتي ، قال القرطبي : زادهم على ما طلبوا ﴿ **قالوا يا موسى إمَّا أن تُلقي وإمَّا أن نكون نحن الملقين** ﴾ أي قال السحرة لموسى : اختر إمَّا أن تُلقي عصاك أو نلقي نحن عصيّنا قال الزمخشري : تخييرهم إيَّاه أدبٌ حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال[1] هذا ما قاله الزمخشري ، والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه : أبدأ أو تبدأ ﴿ **قال ألقُوا فلما ألقوا سحروا أعين النَّاس** ﴾ أي قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا العصيّ والحبال سحروا أعين النَّاس أي خيَّلوا إليهم ما لا حقيقة له كما قال تعالى ﴿ يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ﴿ **واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً حيث خيلوها حيَّات تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه ، قال ابن إسحٰق : صُفَّ خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحرٍ حبالُه وعصيُّه وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ، ثم أبصار النَّاس بعد ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصي والحبال فإذا هي حيَّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً[2] ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون** ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك فألقاها فإذا هي تبتلع بسرعة ما يزوِّرونه من الكذب ، قال ابن عبَّاس : ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾ لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلَّا التقمته ﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره ، وبطل إفك السحر وكذبه ومخايله ﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾ أي غُلب فرعونُ وقومهُ في ذلك المجمع العظيم وصاروا ذليلين ﴿ **وأُلقي السحرة ساجدين قالوا آمنَّا برب العالمين ربَّ موسى وهٰرون** ﴾ أي خرُّوا ساجدين معلنين إيمانهم بربِّ العالمين لأن الحق بهرهم ، قال قتادة : كانوا أولَ النهار كفَّاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة[3] .

(١) الكشاف ٢/١٤٠ . (٢) الطبري ١٣/٢٨ . (٣) البحر المحيط ٤/٣٦٤ .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

﴿ **قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم** ﴾ أي قال فرعون الجبَّار للسحرة آمنتم بموسى قبل أن تستأذنوني ؟ والمقصود بالجملة التوبيخ ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها** ﴾ أي صنيعكم هذا حيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد لتخرجوا منها القبط وتسكنوا بني إسرائيل ، قال هذا تمويهاً على النَّاس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ أي فسوف تعلمون ما يحلُّ بكم ، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقَّبه بالتفصيل فقال ﴿ **لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ أي لأقطعنَّ من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف ، قال الطبري : ومعنى ﴿ من خلاف ﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى ، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع[١] ﴿ **ثم لأصلبنَّكم أجمعين** ﴾ أي ثم أصلبكم جميعاً تنكيلاً لكم ولأمثالكم ، والصلب التعليق على الخشب حتى الموت ﴿ **قالوا إنَّا إلى ربنا منقلبون** ﴾ إنَّا راجعون إلى الله بالموت لا محالة فلا نخاف مما تتوعدنا به ولا نبالي بالموت وحبذا الموت في سبيل الله ﴿ **وما تنقم منَّا إلاَّ أن آمنَّا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أي ما تكره منَّا ولا تعيب علينا إلاَّ إيماننا بالله وآياته !! كقوله ﴿ وما نقموا منهم إلاَّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ قال الزمخشري : أرادوا وما تعيب منا إلاّ ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان[٢] ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيَّانا وتوفنا على ملَّة الإسلام غير مفتونين .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وَيَذَرَكَ وآلهتك** ﴾ أي

(١) الطبري ١٣/٣٤ .
(٢) الكشاف ٢/١٤٢ .

قال الأشراف لفرعون : أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آلهتك !! وفي هذا إغراءٌ لفرعون بموسى وقومه وتحريضٌ له على قتلهم وتعذيبهم ﴿ **قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنَّا فوقهم قاهرون** ﴾ أي قال فرعون مجيباً لهم : سنقتل أبناءهم الذكور ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنَّا نفعل بهم ذلك وإنَّا عالون فوقهم بالقهر والسلطان ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا** ﴾ أي قال موسى لقومه تسليةً لهم حين تضجروا مما سمعوا : استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله ﴿ **إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده** ﴾ أي الأرض كلُّها لله يعطيها من أراد من عباده ، أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ أي النتيجة المحمودة لمن اتقى الله ﴿ **قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ أي أُوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوَّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ أي لعلَّ ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ، والغرضُ تحريضهم على طاعة الله ، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملَّك بني إسرائيل أرض مصر ، قال في البحر : سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء[1] .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين** ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجدب والقحط ﴿ **ونقصٍ من الثمرات** ﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات ، قال المفسرون : كانت النخلة لا تحمل إلَّا ثمرة واحدة[2] ﴿ **لعلَّهم يذَّكرون** ﴾ أي لعلَّهم يتعظون وترقُّ قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب ، ثم بيَّن تعالى أنهم مع تلك

(١) البحر المحيط ٤/٣٦٩ . (٢) الطبري ١٣/٤٦ .

المحن والشدائد لم يزدادوا إلَّا تمرداً وكفراً فقال ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه** ﴾ أي إذا جاءهم الخِصْب والرَّخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿ **وإن تصبهم سيئةٌ يطيَّروا بموسى ومن معه** ﴾ أي وإذا جاءهم الجدب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين أي قالوا : هذا بشؤمهم قال تعالى رداً عليهم ﴿ **ألاَ إنما طائرهم عند الله** ﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى ، قال ابن عبَّاس : الأمر من قِبَل الله ليس شؤمهم إلَّا من قبله وحكمه[1] ﴿ **ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿ **وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى : أي شيء تأتنا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، قال الزمخشري : فإن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿ لتسحرنا بها ﴾ ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي[2] قال تعالى ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان** ﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون ، قال ابن عبَّاس : الطوفان كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار[3] ﴿ **والجراد** ﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿ **وَالْقُمَّـل** ﴾ وهو السوس حتى نخر حبوبهم وتتبع ما تركه الجراد وقيل : هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿ **والضفادع** ﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلَّم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه ﴿ **والدم** ﴾ أي صارت مياههم دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلَّا وجدوه دماً ﴿ **آيات مفصَّلاتٍ** ﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبرٌ وعظاتٌ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿ **فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجرام ﴿ **ولما وقع عليهم الرجز** ﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿ **قالوا يا موسى ادع لنا ربَّك بما عهد عندك** ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنَّا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة ، قال الزمخشري : أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة[4] ﴿ **لئن كشفت عنَّا الرجزَ لنؤمننَّ لَكَ ولنرسلنَّ مَعَكَ بني إسرائيل** ﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنَّا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقنَّ بما جئت به ولنطلقنَّ سراح بني إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال .

---

(١) روح المعاني ٩/٣٢ .
(٢) الكشاف ٢/١٤٦ .
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٤٥ .
(٤) الكشاف ٢/١٤٨ .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿ فلما كشفنا عنهم الرِّجْزَ إلى أجلٍ هم بالغوه ﴾ أي فلما كشفنا عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ ، قال ابن عبَّاس : هو وقت الغَرَق ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ أي إذا هم ينقضون عهودهم ويصرّون على الكفر ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ ﴾ أي فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر ﴿ بأنهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضعفونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلّون بالخدمة أرض الشَّام وملَّكناهم جميع جهاتها ونواحيها : مشارقها ومغاربها ﴿ التي باركنا فيها ﴾ بالخيرات وكثرة الثمار ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك الحُسْنَىٰ عَلَى بَنِي إسْرَائِيل ﴾ أي تَمَّ وعد الله الصَّادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إيَّاهم على عدوهم ، قال الطبري : وكلمته الحسنى هي قوله جل ثناؤه ﴿ وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ آسْتضعفُوا في الأرض ونجعلهم أئمــة . . . ﴾[1] الآية ﴿ بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿ ودمَّرنا ما كان يصنعُ فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ أي خرَّبنا ودمَّرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنَّات والمزارع ، وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه .

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

ويبتدىء الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق عليهم من النعم الجسام ، وأراهم من الآيات العظام ، تسليةً لرسوله عليه الصَّلاة والسلام مما رآه منهم ، قال تعالى ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل

(١) الطبري ١٣/٧٧ .

البحر ﴾ أي عبرنا ببني إسرائيل البحر وهو بحر القُلْزم عند خليج السويس الآن ﴿ **فأتَوْا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم** ﴾ أي مرُّوا على قومٍ يلازمون على عبادة أصنامٍ لهم ﴿ **قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة** ﴾ أي اجعل لنا صنمًا نعبده كما لهم أصنام يعبدونها ، قال ابن عطية : الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى ، وفي جملة مايُتقربُ به إلى الله وإلاَّ فبعيدٌ أن يقولوا لموسى اجعل لنا إلهاً نُفرده بالعبادة[١] ﴿ **قال إنكم قومٌ تجهلون** ﴾ أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزَّه عنه من الشريك والنظير ، قال الزمخشري : تعجَّبَ من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكَّده ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع[٢] ﴿ **إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه** ﴾ أي هالك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام ﴿ **وباطلٌ ما كانوا يعملون** ﴾ أي باطل عملهم مضمحلٌ بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ﴿ **قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضَّلكم على العالمين** ﴾ أي أأطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة والحال أنَّ الله فضَّلكم على غيركم بالنعم الجليلة !! قال الطبري : فضَّلكم على عالمي دهركم وزمانكم[٣] ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أي واذكروا يابني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أفظع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسره بقوله ﴿ **يقتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهم في الخدمة ﴿ **وفي ذلكمُ بلاءٌ من ربكم عظيم** ﴾ أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجَّاكم منه أفلا تشكرونه ؟ .

* وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ أي واعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة ، قال الزمخشري : روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتابٍ من عند الله فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعونُ سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خلوف فمه « تغير رائحته » فتسوَّك فأوحى الله تعالى

(١) البحر ٤/٣٧٨ . (٢) الكشاف ٢ . (٣) الطبري ١٣/٨٤ .

إليه : أما علمت أن خلوف فم الصَّائم أطيب عندي من ريح المسك ! فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة[1] ﴿ وَقَالَ موسى لأخيه هٰرون أخلفني في قومي ﴾ أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع ﴿ وأصْلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ أي وأصْلح أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم لله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه ﴾ أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه وناجاه ربه وكلَّمه من غير واسطة ﴿ قال ربِّ أرني أنظر إليك ﴾ أي أرني ذاتك المقدَّسة أنظر إليها ، قَال القرطبي : اشتاق إلى رؤ ية ربه لَمَّا أسمعه كلامهُ فسأل النظر إليه[2] ﴿ قال لن تراني ولٰكنْ آنْظُرْ إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ﴾ أي أجابه ربّه لن تستطيع رؤ يتي في الدنيا فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولٰكنْ سأتجلىَّ لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤ يتي وإلاَّ فلا طاقة لك ﴿ فلما تجلىَّ ربُّه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً ﴾ أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر اندك الجبل وتفتَّت وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى ، قال ابن عبَّاس : ما تجلىَّ منه سبحانه للجبل إلَّا قدر الخنصر فصار تراباً وخرَّ موسى مغشياً عليه[3] وفي الحديث : فساخ الجبل ﴿ فلما أفاق قال سبحانك تُبْتُ إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ أي فلما صحا من غشيته قال تنزيهاً لك يارب وتبرئة أن يراك أحدٌ في الدنيا تبتُ إليك من سؤ الي رؤ يتك في الدنيا وأنا أول المؤ منين بعظمتك وجلالك .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على النَّاس برسالاتي وبكلامي ﴾ أي اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلٰهية وبتكليمي إيَّاك بدون واسطة ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم ، قال أبو السعود : والآية مسوقة لتسليته عليه السَّلام من عدم الإجابة إلى سؤ ال الرؤ ية كأنه قيل : إن منعتك الرؤ ية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابر على

(١) الكشاف ٢/١٥١ .
(٢) القرطبي ٧/٢٧٨ .
(٣) الطبري ١٣/٩٧ .

شكرها[١] ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾ أي كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبينة للحلال والحرام كلُّ ذلك في ألواح التوراة ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ أي ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي خذ التوراة بجدٍّ واجتهادٍ شأن أولي العزم ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص ، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى ﴿ ولمن صبر وغفر إنَّ ذلك لمن عزم الأمور ﴾ قال ابن عبَّاس : أمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه[٢] ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي سترون منازل الفاسقين ـ فرعون وقومه ـ كيف أقفرت منهم ودُمِّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم ، فإنَّ رؤ يتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿ سَأَصْرِفُ عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها ، وأطمس على قلوبهم عقوبةً لهم على تكبرهم ، قال الزمخشري : وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم[٣] ﴿ وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنون بها ﴾ أي وأن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزَّلة عليهم أو يَرَوْا كل معجزة ربَّانية لا يصدقوا بها ﴿ وإن يروا سبيل الرُّشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿ وَإن يَرواسَبِيل الغَيِّ يتَّخِذُوه سَبيلاً ﴾ أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَىٰ عَلَى الهُدَىٰ ﴾ ﴿ ذلك بأنهم كذَّبوا بآياتنا ﴾ أي ذلك الانحراف عن هَدْي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَـآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا ﴾ أي جحدوا بما أنزل الله ﴿ ولقاء الآخرة ﴾ أي وكذَّبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسانٍ وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان ﴿ هل يُجْزَون إلاَّ ما كانوا يعملون ﴾ أي هل يثابون أو يعاقبون إلاَّ بما عملوا في الدنيا ؟ ﴿ واتخذ قوم موسى من

(١) أبو السعود ٢/١٩٥ .
(٢) الطبري ١٣/١١٠ .
(٣) الكشاف ٢/١٥٩ .

بعده من حليِّهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ قال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامريُّ من الحلّي ، فشكَّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خُوار أي صوتُ كصوت البقر[1] ومعنى ﴿ من بعده ﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً** ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهاً مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق ، فإنه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يُتَّخذ إلهاً ؟ ﴿ **اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهاً فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها ، وتكرير لفظ ﴿ اتخذوا ﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿ **ولما سقط في أيديهم** ﴾ أي ندموا على جنايتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلُّوا** ﴾ أي تبيَّنوا ضلالهم تبيناً جلياً كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿ **قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا** ﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿ **لنكوننَّ من الخاسرين** ﴾ أي لنكوننَّ من الهالكين ، قال ابن كثير : وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عزَّ وَجَلّ[2] .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿ **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً** ﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿ غضبان ﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿ أسفاً ﴾ أي شديد الحزن ﴿ **قال بئسما خلفتموني من بعدي** ﴾ أي بئس ما فعلتموه من بعد غيبتي حيث عبدتم العجل ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور ؟ والاستفهام للإنكار ﴿ **وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه** ﴾ أي طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب ، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل ، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظاناً منه أنَّه قصَّر في كفهم عن ذلك ، وكان عليه السَّلام شديد الغضب لله سبحانه ، قال ابن عبَّاس : لمَّا عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضباً لله وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه[3] ﴿ **قال ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني** ﴾ أي قال هارون يا ابن أمي ـ وهو نداء استعطاف وترفق[4] ـ إن القوم استذلوني وقهروني

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥١ . (٢) المختصر ٢/٥١ .
(٣) الطبري ١٣/١٢٣ .
(٤) قال ابن كثير : وإنما قال : « ابنَ أُمَّ » ليكون أرقّ وأنجع عنده وإلاَّ فهو شقيقه لأبيه وأمه .

وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصِّر في نصحهم ﴿ **فلا تشمتْ بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظَّالمين** ﴾ أي لا تسيءْ إليَّ حتى يُسَرَّ الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إلي ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير ، قال مجاهد : ﴿ **الظالمين** ﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿ **قال ربِّ اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السَّلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿ اغفر لي ولأخي ﴾ الآية قال الزمخشري : استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة ، وطلب ألَّا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة[١] .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا** ﴾ أي إن الذين عبدوا العجل ـ ذكر البقر ـ واتخذوه إلهاً سيصيبهم غضبٌ شديد من الرحمن ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان ، قال ابن كثير : أمَّا الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتلَ بعضُهم بعضاً ، وأمَّا الذلة فأعقبهم ذلك ذلّاً وصغاراً في الحياة الدنيا[٢] ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله ، قال سفيان بن عُيَيْنَة : كلُّ صاحب بدعة ذليل[٣] ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا** ﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿ **إنَّ ربك من بعدها لغفورٌ رحيم** ﴾ أي إنَّ ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم ، قال الألوسي : وفي الآية إعلامٌ بأن الذنوب وإن جلَّتْ وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجَلُّ ، وما ألطف قول أبي نوَّاس غفر الله تعالى له :

يَـاربِّ إنْ عَظُمتْ ذنـوبي كَثْـرَةً ... فَلَقَـدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْـوَكَ أَعْـظَمُ
إن كَـانَ لَا يَرْجُـوكَ إلَّا مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ المُجْرِمُ ؟[٤]

﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب** ﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿ **أخذ الألواح** ﴾ أي

(١) الكشاف ١٦٢/٢ .
(٢) المختصر ٥٢/٢ .
(٣) الطبري ١٣٦/١٣ .
(٤) روح المعاني ٧٠/٩ .

ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿ **وفي نسختها هدى ورحمة** ﴾ وفيما نُسخ فيها وكُتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدَّارين ﴿ **للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه .

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا** ﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه فيه الإتيان للاعتذار عن عبادة العجل ﴿ **فلما أخذتهم الرجفة** ﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿ **قال ربِّ لو شئتَ أهْلَكْتَهم من قبلُ وإياي** ﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والاستسلام لأمر الله : لو شئت يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإنَّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منَّا** ﴾ ؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هٰؤلاء السفهاء السبعون في قولهم : ﴿ **أرنا الله جهرة** ﴾ ؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنَّه يقول : لا تعذِّبنا يا ألله بذنوب غيرنا ، قال الطبري في رواية السدي : إن الله أمر موسى عليه السَّلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعينَ رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة ، فإنك قد كلَّمه فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهُم وقد أهلكتَ خيارهم لو شئت أهلكتَهم من قبل وإياي[1] » أقـول : إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم ؟ نعوذ بالله من خبث اليهود ﴿ **إن هي إلاَّ فتنتُك** ﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلاَّ محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿ **تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾ أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته ﴿ **أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا** ﴾ أي أنت يارب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ أي أنت خير من صفح وستر ، تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ﴿ **واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة** ﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السَّلام أي حقِّقْ

(١) الطبري ١٣/١٤٠ .

وأثبتْ لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿ **إنَّا هدنا إليك** ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿ **قال عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعتْ كل شيء** ﴾ أي قال تعالى أمَّا عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأمَّا رحمتي فقد عمَّتْ خلقي كلهم ، قال أبو السعود : وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأن الرحمة مقتضى الذات ، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد[1] ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدّقون بجميع الكتب والأنبياء .

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ **الَّذِين يتَّبعون الرسول النَّبي الأميَّ** ﴾ أي هٰؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبي العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، قال البيضاوي : وإنما سمَّاه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ، ونبياً بالإضافة إلى العباد[2] ﴿ **الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل ، قال ابن كثير : هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤ هم وأحبارهم[3] ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ أي لا يأمر إلاَّ بكل شيء مستحسن ولا ينهي إلاَّ عن كل شيء قبيح ﴿ **وَيُحِلّ لَهُم الطَّيبَاتِ وَيُحَرِّم عَلَيْهِم الخَبَائِث** ﴾ أي يحل لهم ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويحرّم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ﴿ **ويضع عنهم إصرهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم** ﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشَّاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمدًا كان القتل أو خطأً وشبه ذلك ﴿ **فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه** ﴾ أي فالذين صدَّقوا بمحمد وعظَّموه ووقَّروه ونصروا دينه ﴿ **واتَّبعوا النور الذي أنزل معه** ﴾ أي واتَّبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية .

---

(١) أبو السعود ٢/٢٠١ . (٢) البيضاوي ص ٢ (٣) المختصر ٢/٥٥ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿ قل يا أيها النَّاس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق أي قل يا محمد للناس إني رسولٌ من عند الله إلى جميع أهل الأرض ﴿ **الذي لهُ ملك السمٰوات والأرض** ﴾ أي المالك لجميع الكائنات ﴿ **لاَ إلَهَ إلاَّ هُو يحيي ويميت** ﴾ أي لا رب ولا معبود سواه فهو الإِله القادر على الإِحياء والإِفناء ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله** ﴾ أي صدِّقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه ﴿ **النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته** ﴾ أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء ﴿ **واتَّبعوه لعلَّكم تهتدون** ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق** ﴾ أي ومن بني إسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون النَّاس بكلمة الحق لا يجورون ، قال الزمخشري : لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين : عبادة العجل ، وطلب رؤية الله ، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون النَّاس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة[1] .

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

﴿ **وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً** ﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتىً اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب ، قال أبو حيَّان : أي فرَّقناهم وميَّزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي « قبيلة » إلى رئيسه ليخفَّ أمرهم على موسى ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج ، ولهذا فجّر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء ، وجعل لكل سبطٍ نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه[2] ﴿ **وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه** ﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه

(١) الكشاف ١٦٧/٢ (٢) البحر المحيط ٤٠٦/٤ .

﴿ **أن اضرب بعصاك الحجر** ﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿ **فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾ أي انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿ **قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم** ﴾ أي قد عرف كل سبطٍ وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم ، قال الطبري : لا يدخل سبطٌ على غيره في شربه[1] ﴿ **وظللنا عليهم الغمام** ﴾ أي جعلنا الغمام يكنّهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها ، قال الألوسي : وكان الظلُّ يسير بسيرهم ويسكن بأقامتهم ﴿ **وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى** ﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهي هو ﴿ **المنُّ** ﴾ وهي شيء حلو ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و ﴿ **السلوى** ﴾ وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السُّمَّاني ، كلُّ ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهدٍ منهم ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ أي وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إيَّاه ﴿ **وما ظلمونا ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ في الكلام محذوف تقديره : فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث عرَّضوها بالكفر لعذاب الله ﴿ **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم** ﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿ **وقولوا حطّة** ﴾ أي وقولوا حين دخولكم : يا ألله حُطَّ عنَّا ذنوبنا ﴿ **نغفر لكم خطيئتكم** ﴾ أي نمح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿ **سنزيد المحسنين** ﴾ أي وسنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوقَ الغفران دخولَ الجنان .

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿ **فبدَّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم** ﴾ أي غيَّر الظالمون أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿ **حطّة** ﴾ حنطة في شعيرة وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاههم « أدبارهم » سخرية واستهزاءً بأوامر الله ﴿ **فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً ، قال أبو السعود : والمراد بالعذاب « الطاعون » روي أنَّه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ

(١) الطبري ١٣/١٧٧ .

وعشرون ألفاً[١] ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ أي وأسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت ؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير ؟ قال ابن كثير : وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطىء بحر القلزم[٢] ﴿ **إذ يَعْدون في السبت** ﴾ أي يتجاوزون حدَّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً** ﴾ أي حين كانت الحيتان « الأسماك » تأتيهم يوم السبت ـ وقد حُرِّم عليهم الصيد فيه ـ كثيرة ظاهرة على وجه الماء ﴿ **ويوم لا يسبتون لا تأتيهم** ﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿ **كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك على وجه الماء في اليوم المحرَّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله ، قال القرطبي : روي أنها كانت في زمن داود عليه السَّلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نُهيتُم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها[٣] ﴿ **وإذ قالت أمةٌ منهم لم تعظونَ قوماً الله مهلكُهم أو معذبهُم عذاباً شديداً** ﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ أي لم تنهون هٰؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إيَّاهم[٤] ؟ ﴿ **قالوا معذرة إلى ربكم** ﴾ أي قال النَّاهون : إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير ﴿ **ولعلَّهم يتَّقون** ﴾ أي ينزعون عمَّا هم فيه من الإجرام ، قال الطبري : أي لعلَّهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعدِّيهم الاعتداء في السبت[٥] .

فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ
مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ
مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

---

(١) أبو السعود ٢/٢٠٥ .
(٢) المختصر ٢/٥٨ .
(٣) القرطبي ٧/٣٠٦ .
(٤) المختصر ٢/٥٩ .
(٥) الطبري ١٣/١٨٥ .

﴿ **فلما نسوا ما ذُكِّروا به** ﴾ أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيس** ﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذابٍ شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿ **فلما عَتَوْا عَمَّا نُهوا عَنْه** ﴾ أي فلما استعصوا وتكبَّروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿ **قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ أي مسخناهم إلى قردة وخنازير ؛ والمعنى أنهم عُذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير ، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق : فرقةٌ عصتْ فحلَّ بها العذاب ، وفرقة نهت ووعظت فنجاها الله من العذاب ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن ، قال ابن عبَّاس : ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا ؟ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك ، فكساني حلَّة[1] ﴿ **وإذ تأذَّن ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم** سوء **العذاب** ﴾ أي واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطنَّ على اليهود إلى قيام السَّاعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم ، وقد سلَّط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم ، وسلَّط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية ، وسلَّط عليهم محمداً ﷺ فطهَّر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلَّط عليهم أخيراً « هتلر » فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿ **إنَّ ربك لسريع العقاب وإنَّه لغفورٌ رحيم** ﴾ أي سريع العقاب لمن عصاه وغفورٌ رحيم لمن أطاعه ﴿ **وقطَّعناهم في الأرض أمماً** ﴾ أي فرَّقناهم في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة ، وما اجتمعوا في الأرض المقدَّسة في هذه الأيام إلَّا ليذبحوا بأيدي المؤمنين إن شاء الله كما وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . .) الحديث أخرجه مسلم ثم بيَّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال ﴿ **منهم الصَّالحون ومنهم دون ذلك** ﴾ أي منهم من آمن وهم قلة قليلة ومنهم من انحطَّ عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلَّهم يرجعون** ﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلَّهم يرجعون عن الكفر والمعاصي .

---

(١) المختصر ٢/٥٩ .

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿ **فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب** ﴾ قال ابن كثير : أي خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطَّالح خلْفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم[٢] ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا** ﴾ أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرامٍ ويقولون متبجحين : سيغفر الله لنا ما فعلناه ، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿ **وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه** ﴾ أي يرجون المغفرة وهم مصرُّون على الذَّنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا أخذوه لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام ﴿ **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاَّ الحق** ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله ؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام ؟ ﴿ **ودرسوا ما فيه** ﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التَّامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿ **والدَّار الآخرة خير للذين يتقون** ﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ ؟ الاستفهام للإِنكار أي أفلا ينزجرون ويعقلون ؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية ﴿ **والذين يُمَسِّكون بالكِتَاب وأقَامُوا الصَّــلاةَ** ﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويحافظون على أداء الصَّلاة في أوقاتها ﴿ **إنَّا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء . ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رءوس بني إسرائيل ﴿ **كأنَّه ظُلَّة** ﴾ أي كأنَّه سقيفة أو ظلة غمام ﴿ **وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمتثلوا الأمر ، قال المفسرون : روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رءوسهم وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلاَّ ليقعنَّ عليكم فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ أي وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿ **واذكروا ما فيه لعلَّكم تتقون** ﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ قال الطبري : أي واذكر يا محمد إذْ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقرَّرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض بذلك[١] قال ابن عبَّاس : مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كلَّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ أي وقرَّرهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموه ﴿ **أنْ تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين** ﴾ أي لئلا تقولوا يوم الحساب إنَّا كنا عن هذا الميثاق والإِقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه ﴿ **أو تقولوا إنما أشرك آباءنا من قبل وكنَّا ذريةً من بعدهم** ﴾ أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا وإنما قلَّدنا آباءنا واتبعنا مناهجهم فنحن معذورون ﴿ **أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ أي أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلِّين بعد اتباعنا مناهجهم على جهلٍ منا بالحق ؟ ﴿ **وكذلك نفصِّل الآيات ولعلَّهم يرجعون** ﴾ أي وكما بيَّنا الميثاق نبيِّن الآيات ليتدبرها النَّاس وليرجعوا عما هم عليه من الإِصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ أي واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحيَّة من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿ **فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين** ﴾ أي فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضَّالين الرَّاسخين في الغَواية بعد أن كان من المهتدين ، قال ابن عبَّاس : هو « بلعم بن باعوراء » كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك « مَدْيَنَ » داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه المُلْكَ على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضلَّ النَّاس بذلك[٢] .

---

(١) للمفسرين في هذه الآية قولان : أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنَّه ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة ، وقال به جماعة من الصحابة ، والثاني : أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلَّة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت به عقولهم وبصائرهم التي ركَّبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم ألست بربكم فقالوا بلى . وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيَّان وأبو السعود والأول أصح .

(٢) التسهيل ٢/٥٤ .

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنَّه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه** ﴾ أي لو شئنا لرفعناه إلى منزلة العلماء الأبرار ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة واتَّبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يَلْهث أو تتركه يَلْهث** ﴾ أي فمثله في الخسَّة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لَهَث ، وإن تركته على حاله لَهَث ، وهو تمثيل بادي الرَّوعة ظاهر البلاغة ﴿ **ذلك مثل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا** ﴾ أي هذا المثل السيء هو مثلٌ لكل من كذَّب بآيات الله ، وفيه تعريضٌ باليهود فقد أُوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عليه الصَّلاة والسلام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿ **فاقصص القَصَص لعلَّهم يتفكَّرون** ﴾ أي اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلَّهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿ **ساء مثلاً القوم الذين كذَّبوا بآياتنا** ﴾ أي بئس مثلاً مثلُ القوم المكذبين بآيات الله ﴿ **وأنفسَهم كانوا يظلمون** ﴾ أي وما ظلموا بالتكذيب إلاَّ أنفسهم فإن وباله لا يتعدَّاها ﴿ **من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق ، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة ، والغرضُ من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

﴿ **ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجن والإنس** ﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس ، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿ **ولهم أعينٌ لا يبصرون بها** ﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿ **ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ

سماع تدبر واتعاظ ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ أي هم كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقْدمون على النَّار ﴿ **أولئك هم الغافلون** ﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿ **ولله الآسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها فسمّوه بتلك الأسماء ﴿ **وذروا الذين يُلحدون في أسمائه** ﴾ أي اتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله ، والعُزَّى من العزيز ، ومناة من المنَّان ﴿ **سيُجزون ما كانوا يعملون** ﴾ أي سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون النَّاس إلى الحق وبه يعملون ويقضون ، قال ابن كثير : والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث (لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خَذَلَهم ولا من خَالَفَهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)[1] وهذه الطَّائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان ، فالإسلام دائمًا يعلو ولا يُعلى عليه وإن كثر الفُسَّاق وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صَولة لهم ، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علوّ شرف وأهله كذلك إلى قرب السَّاعة .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾
أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ
فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ أي والذين كذَّبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون ، قال البيضاوي : وذلك بأن تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيِّ حتى تحق عليهم كلمة العذاب[2] ﴿ **وأملي لهم** ﴾ أي وأمهلهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر كما في الحديث الشريف (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته) ﴿ **إن كيدي متين** ﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سمَّاه كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان ﴿ **أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم**

(١) المختصر ٢/٧٠ والحديث في الصحيحين . (٢) البيضاوي ص ٢٠٥ .

من جنَّة ﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلمون أنه ليس بمحمد ﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم ، وهذا نفيٌ لما نسبه له المشركون من الجنون في قولهم ﴿ يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنَّك لمجنون ﴾ ﴿ **إن هو إلاَّ نذيرٌ مبين** ﴾ أي ليس محمد إلاَّ رسول منذر أمره بيِّن واضح لمن كان له لب أو قلبٌ يعقل به ويعي ﴿ **أولم ينظروا في ملكوت السمٰوات والأرض** ﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة ، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿ **وما خلق الله من شيء** ﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكها ووحدة خالقها ومبدعها ؟ ﴿ **وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم** ﴾ أي وأن يتفكروا لعلَّهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿ **فبأي حديث بعده يؤمنون** ﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿ **من يضلل الله فلا هادي له** ﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿ **ويذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحيرون .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿ **يسألونك عن السَّـاعة** ﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أي متى وقوعها وحدوثها ؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿ وما أمر الساعة إلاَّ كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ ﴿ **قل إنما علمها عند ربي** ﴾ أي قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام السَّاعة فيه إلاَّ الله سبحانه ثم أكَّد ذلك بقوله ﴿ **لا يُجَلِّيها لوقتها إلاَّ هو** ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلاَّ الرب سبحانه بالذات فهو العالم بوقتها ﴿ **ثقُلت في السمٰوات والأرض** ﴾ أي عظُمت على أهل السمٰوات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها[1] ﴿ **يسألونك كأنك حفيٌّ عنها** ﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفتها ﴿ **قل إنما علمها عند الله** ﴾ أي لا يعلم وقتها إلاَّ الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علاَّم الغيوب ﴿ **ولكن أكثر النَّاس لا يعلمون** ﴾ أي لا يعلمون

(١) هذا قول قتادة وقيل المعنى : خفي علمها على أهل السمٰوات والأرض .

السبب الذي لأجله أُخفيت ، قال الإمام الفخر : والحكمة في إخفاء السَّاعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذرٍ منها فيكون ذلك أدعى إلى الطَّاعة وأزجر عن المعصية[١] ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاَّ ما شاء الله** ﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلّا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم السَّاعة ؟ ﴿ **ولو كُنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصَّلت كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفاتها ومضراتها ﴿ **وما مسني السوء** ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحترست من السوء ولكنْ لا أعلمه فلهذا يصيبني ما قُدِّر لي من الخير والشر ﴿ **إن أنا إلاَّ نذير وبشير** ﴾ أي ما أنا إلاَّ عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿ **لقومٍ يؤمنون** ﴾ أي لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير معين من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السَّلام ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ أي وخلق منها حواء ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿ **فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً** ﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفةً في بادىء الأمر قال أبو السعود : فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب ، والتعرضُ لذكر خفَّته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرِّجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة[٢] ﴿ **فمرت به** ﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿ **فلما أثقلت** ﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿ **دعَوا الله ربهما** ﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿ **لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين** ﴾ أي لئن رزقتنا ولداً صالحاً سويَّ الخِلْقَة لنشكرنَّك على نعمائك ﴿ **فلما آتاهما صالحاً** ﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السويّ ﴿ **جعلا له شركاء فيما اتاهما** ﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية[٣] شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿ **فتعالى الله**

(١) الفخر الرازي ٤/٤٨٤ . (٢) أبو السعود ٢ .

(٣) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلائه ووضوحه وهو ما رجحه المحققون من أهل العلم ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في « ادم وحواء » وأن الضمير في قوله تعالى ﴿ **جعلا له شركاء** ﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وآثار منها ما روي عن سمرة =

عما يشركون ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿ **أيشركون ما لا يخلق شيئا** ﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿ **وهم يُخلقون** ﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله ؟ قال القرطبي : وجمع الضمير بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى النَّاس[1] ﴿ **ولا يستطيعون لهم نصراً** ﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ أي ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء ، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة ؟ .

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم** ﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿ **سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم ، قال ابن كثير : يعني أن هذه الأصنام لا تسمع من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال إبراهيم ﴿ يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾[2] ﴿ **إنَّ الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم** ﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك فلهذا قال ﴿ **فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ أمرٌ على جهة التعجيز

مرفوعاً ، قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال سمِّيه : عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان » رواه أحمد والترمذي ، قال الحافظ ابن كثير : وهذا الحديث معلولٌ من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعَّف ما ورد من آثار ثم روي بسنده عن الحسن أنه قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ، ثم قال ابن كثير : وأمَّا نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق « آدم وحواء » وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ أقـول : وهو الحق الذي لا محيد عنه .

(١) القرطبي ٧/٣٤١ . (٢) المختصر ٢/٧٥ .

والتبكيت أي ادعوهم في جلب نفع أو دفع ضرٍّ إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة[١] ﴿ **ألهم أرجلٌ يمشون بها** ﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هل لهذه الأصنام ﴿ **أم لهم أيدٍ يبطشون بها** ﴾ أي أم هل لهم أيدٍ تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء ؟ ﴿ **أم لهم أعينٌ يبصرون بها** ﴾ أي أم هل لهم أعيُن تبصر الأشياء ؟ ﴿ **أم لهم آذان يسمعون بها** ﴾ أي أم لهم آذان تسمع بها الأصوات ؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه ، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخسّ الأدون الذي لا يحسُّ منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرّة ؟! ﴿ **قل ادعوا شركاءكم** ﴾ أي قل لهم يا محمد أدعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها عليَّ ﴿ **ثُمَّ كيدون فلا تُنْظرون** ﴾ أي ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرَّة بي ولا تمهلون طرفة عين ، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال الحسن : خوّفوا الرسول ﷺ بآلهتهم فأمره تعالى أن يجابههم بذلك ﴿ **إنَّ وَلِيِّي الله الذي نزَّل الكتاب** ﴾ أي إنَّ الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزَّل عليَّ القرآن ﴿ **وهو يتولىّ الصالحين** ﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد ، وهو وليهم في الدنيا والآخرة .

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

﴿ **والذين تدعونه من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ كرَّره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا** ﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام

---

(١) =قال الحافظ ابن كثير : أسلم معاذ بن جبل . ومعاذ بن عمرو بن الجموح وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً ، وكان لعَمْرو بن الجموح ـ وهو سيد قومه ـ صنمٌ يعبده ويطيِّبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ـ النجس ـ فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيِّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذاه مرَّة فقرناه مع كلب ميت ودلَّياه في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل فأنشد يقول :

« تالله لو كنتَ إلهاً مستَدن   لم تكُ والكلبَ جميعاً في قَرَن »

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً .

إلى الهداية والرشاد لا يسمعوا دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم **لا يبصرون** ﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿ **خذ العفو** ﴾ أمرٌ له عليه الصَّلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة النَّاس ومعاشرتهم ، قال ابن كثير : وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ « إن الله يأمركَ أن تعفو عمَّن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » ﴿ **وأمرْ بالعرف** ﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿ **وأعرضْ عن الجاهلين** ﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم ، قال القرطبي : وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصَّلاة والسَّلام فهو تأديبٌ لجميع خلقه[1] ﴿ **وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ** ﴾ أي وإما يصيبنَّك يا محمد طائف من الشيطان بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ أي فاستجر بالله والجأ إليه في دفعه عنك ﴿ **إنَّه سميعٌ عليم** ﴾ أي سميعٌ لما تقول عليمٌ بما تفعل ﴿ **إن الذين اتقوا** ﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿ **إذا مسَّهم طائف من الشيطان** ﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿ **تذكَّروا** ﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿ **فإذا هم مبصرون** ﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿ **وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ** ﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ أي لا يُمسكون ولا يكفّون عن إغوائهم .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

﴿ **وإذا لم تأتهم بآية** ﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزةٍ كما اقترحوا ﴿ **قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ أي هلاَّ اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك ؟! وهو تهكم منهم لعنهم الله ﴿ **قل إنما أتَّبع ما يوحى إلي من ربي** ﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيءٍ من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امتثل ما يوحيه الله إليَّ ﴿ **هذا بصائر من ربكم** ﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة ، وبراهين نيرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصر الحق ويُدرك ﴿ **وهدى ورحمة لقوم**

(١) القرطبي ٧/٣٤٧ .

يؤمنون ﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمنتفعون من أحكامه ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿ **لعلّكم ترحمون** ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿ **واذكر ربَّك في نفسك** ﴾ أي واذكر ربك سراً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿ **تضرعاً وخيفة** ﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿ **ودون الجهر من القول** ﴾ أي وسطاً بين الجهر والسرّ ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ أي في الصباح والعشي ﴿ **ولا تكن من الغافلين** ﴾ أي ولا تغفل عن ذكر الله ﴿ **إنَّ الذين عند ربك** ﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ **ويسبحونه** ﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿ **وله يسجدون** ﴾ أي لا يسجدون إلاّ لله .

(تم بعونـه تعالى تفســير سورة الأعراف)

(٨) سورة الأنفال مدنية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السـورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسر والغنائم .

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « **غزوة بدر** » التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة « **سورة بدر** » لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال ، وبيَّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة ، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود .

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تمَّ فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم ، وضعف في عُدَدهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلابدَّ له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين .

* وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أُمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال .

* أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار** ﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب .

* وأما النداء الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون** ﴾ كما صوّرت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق .

* وأما النداء الثالث : فقد بيَّن فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم . . .** ﴾ الآية .

* وأما النداء الرابع : فقد نبههم فيه إلى أنَّ إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لِلَّهِ ولرسوله وخيانة للأمة أيضاً ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ .

* وأما النداء الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغيّ ، والهدى والضلال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

* وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وضَّح لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والاعتصام بالمددَ الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ .

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ، وأنه مهما تناءت ديارهم ، واختلفت أجناسهم ، فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاَّ تفعلوه تكن فِتنةٌ في الأرض وفساد كبير** ﴾ .

* هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف ، وما أرشدت إليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر .

تفسير سورة الأنفـــال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي وكيف تقسم ؟ ﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أي قل لهم : الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم ، قال عبادة بن الصامت : نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا ، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء فكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين[1] ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ **الذين إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرَّد ذكره ، استعظاماً لشأنه ، وتهيباً منه جلَّ وعلا ﴿ **وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً** ﴾ أي إذا تليت علهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[2] أي لا يرجون

(١) التسهيل .

(٢) قال ابن الخطيب : ليقرأ هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن ، وليعرضها على نفسه ، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل ، وما وهبه من خير ، وإن وجدها في وادٍ وهو في وادٍ ، فليلجأ إلى الرحيم الودود ، وليجأر إلى اللطيف =

غير الله ولا يرهبون سواه ، قال في البحر : أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي : مقام الخوف ، ومقام الزيادة في الإيمان ، ومقام التوكل على الرحمن[١] ﴿ **الذين يقيمون الصَّلاة** ﴾ أي يؤدون الصَّلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله ، وهو عام في الزَّكاة ونوافل الصدقات ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ أي المتَّصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنَّة ﴿ **ومغفرة** ﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿ **ورزق كريم** ﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم .

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾

﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ الكاف تقتضي مشبَّهاً قال ابن عطية : شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع[٢] فيها ، والمعنى : حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب ، وقال الطبري : المعنى : كما أخرجك ربك بالحق على كرهٍ من فريقٍ من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تَبيَّن ، والحقُّ الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبيَّنوه هو القتال[٣] ﴿ **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿ **يجادلونك في الحق بعد ما تَبيَّن** ﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان ، وكان جدالهم هو قولهم : ما كان خروجنا إلاّ للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ قال البيضاوي : أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم ، وفيه إيماء إلى

= الحميد ، أن يصفي قلبه ويزيده إيماناً وتوكلاً ، ويوفقه لإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة ، فنعم القريب ونعم المجيب ، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية .

(١) البحر ٤/٤٥٧ . (٢) الطبري ٤/٤٦١ . (٣) الطبري ١٣/٢٩٣ .

أنَّ مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم[1] ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة إمَّا العير أو النفير ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محمَّلة بتجارة قريش ، قال المفسرون : روي أن عير قريش أقبلت من الشَّام وفيها تجارة عظيمة برئاسة أبي سفيان ، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد : إن الله وعدكم إحدى الطَّائفتين : إمَّا العير وإمَّا قريشاً ، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل : يا أهل مكة النجاءَ النجاءَ ، عيركُم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً ، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا يا رسول الله : عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال : امض بنا لما شئت فإنَّا متبعوك ، وقام سعد بن معاذ فقال : والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسرْ بنا على بركة الله ، فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطَّائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[2] ﴿ ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم ، قال في البحر : والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة ، وسلامة الأحوال ، وسفساف الأمور ، والله تعالى يريد معالي الأمور ، وإعلاء الحق ، والفوز في الدَّارين ، وشتَّان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خذلانهم ، فنصركم وهزمهم ، وأذلَّهم وأعزَّكم[3] ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليحق الحقَّ ويبطل الباطل فعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

(١) البيضاوي ص ٢٠٩ . (٢) البيضاوي ص ٢٠٩ بتصرف . (٣) البحر ٤٦٤/٤ .

﴿ **إذْ تستغيثون ربكم** ﴾ أي اذكروا حين تطلبون مْن ربكم الغوث بالنصر على المشركين ، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو : اللَّهم انجز لي ما وعدتني ، اللَّهُمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهلْ الإسلام فلن تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاكَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿ **فاستَجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة** ﴾ أي استجاب الله الدعاء بأنَي معينكم بألف من الملائكة ﴿ **مُرْدفين** ﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً ، قال المفسرون : ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش ، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش ، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلاَّ في بدر ، وأمَّا في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل[١] ﴿ **وما جعله الله إلاَّ بشرى** ﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلاَّ بشارة لكم بالنصر ﴿ **ولتطمئن به قلوبكم** ﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿ **وما النصر إلاَّ من عند الله** ﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلاَّ من عند الله العلي الكبير فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدَّتكم ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أي غَالب لا يُغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿ **إذْ يُغْشيكم النعاسَ أمنة منه** ﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميعَ النومُ في وقت الخوف ، قال علي رضي الله عنه : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلاَّ نائم إلاَّ رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح »[٢] ، قال ابن كثير : وكأنَّ ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله[٣] ﴿ **وينزِّل عليكم من السماء ماء** ﴾ تعديد لنعمة أخرى ، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية ، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهَّر بماء المطر ﴿ **ليطهِّركم به** ﴾ أي من الأحداث والجنابات ﴿ **ويُذهب عنكم رجْزَ الشيطان** ﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إيَّاكم من العطش ، قال البيضاوي : روي أنهم نزلوا في كثيبٍ أعفر ، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال : كيف تُنصرون وقد غلبتم على الماء ، وأنتم تصلُّون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[٤] ﴿ **وليربط على قلوبكم** ﴾ أي يقوِّيها بالثقة بنصر الله ﴿ **ويثبِّت به الأقدام** ﴾ أي يُثَبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل ، قال

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/١١٨ . (٢) رواه أبو يعلى
(٣) المختصر ٢/٩٠ . (٤) البيضاوي ص ٢١٠ .

الطبري : ثبَّت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوّهم على رملةٍ ميثاء فلبَّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها(١) .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

﴿ **إذْ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم** ﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي يوحي إلى الملائكة بأني معكم بالعون والنصر ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم ﴿ **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿ فضربَ الرِّقاب ﴾ وقيل : المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق ﴿ **واضربوا منهم كل بَنَان** ﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع ، قال في التسهيل : وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطَّل عن القتال فأمكن أسره وقتله(٢) ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿ **ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ **ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النَّار** ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفَّار في الدنيا ، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النَّار ﴿ **يأَيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً** ﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿ **فلا تولوهم الأدبار** ﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿ **ومن يولهم يومئذٍ دبره** ﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿ **إلاَّ متحرفاً لقتال** ﴾ أي إلاَّ في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى ، أو بالفر للكرّ بأن يخيّل إلى عدوه أنه منهزم ليغرّه مكيدة وهو من باب « الحرب خدعة » ﴿ **أو متحيزاً إلى فئة** ﴾ أي منضمًا إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ أي فقد رجع بسخطٍ عظيم ﴿ **ومأواه جهنم** ﴾ أي مقرَّه ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿ **وبئس المصير** ﴾ أي بئس المرجع والمآل .

(١) الطبري ١٣/٤٢١ . (٢) التسهيل ٢/٦٢ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

﴿ **فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم** ﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿ **وما رميتَ إذْ رميتَ** ﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير ، قال ابن عبَّاس : أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجه المشركين وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم إلاَّ أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين[١] ﴿ **ولكنَّ الله رمى** ﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿ **وليُبْلي المؤمنين منه بلاءً حسناً** ﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم ﴿ **ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين** ﴾ أي ذلك[٢] الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق ، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ هذا خطاب لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر ، وهذا على سبيل التهكم بهم ، قال الطبري في رواية الزهري : قال أبو جهل يوم بدر : اللَّهُمَّ أيّنا كان أفجر ، وأقطع للرحم ، فأحْنِه اليوم ـ أي أهلكه ـ فأنزل الله ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ فكان أبو جهل هو المستفتح ﴿ **وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم** ﴾ أي وإن تكفّوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته ، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿ **وإن تعودوا نعدْ** ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره عليكم ﴿ **ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت** ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

---

(١) الطبري ٤٤٣/١٣ .

(٢) ذلكم مبتدأ حذف خبره وتقديره : ذلكم الذي حدث حق .

يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾

﴿ **يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله** ﴾ أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكم العز الذي حصل ببدر ﴿ **ولا تولَّوا عنه** ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذفت منه إحدى التاءين ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ أي تسمعون القرآن والمواعظ ﴿ **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون** ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم ، فسماعهم كَلاَسماع لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ ﴿ **إن شر الدَّواب عند الله** ﴾ أي شرَّ الخلق وشرَّ البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض ﴿ **الصم البكم** ﴾ أي الصمُّ الذين لا يسمعون الحق ، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿ **الذين لا يعقلون** ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر ، نزلت في جماعة من بني عبد الدَّار كانوا يقولون : نحن صمٌّ بكمٌ عما جاء بح محمد ، وتوجهوا لقتال رسول الله ﷺ مع أبي جهل ، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير ، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخسَّ من كل خسيس ﴿ **ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم** ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر ﴿ **ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون** ﴾ أي ولو فُرض أن الله أسمعهم ـ وقد علم أن لا خير فيهم ـ لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين . ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، وبه تحيون الحياة الأبدية ، قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة[1] ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، يصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدِر عليه صاحبها ، فيفسخ عزائمه ، ويغيِّر مقاصده ، ويلهمه رشده ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي ، وفي الحديث : (يامقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك) قال ابن عبَّاس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان[2] قال أبو حيان : وفي ذلك حضٌ على المراقبة ، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلَّ وعلا[3] ﴿ **وأنه إليه تحشرون** ﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿ **واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ أي احذروا

---

(١) الطبري ١٣/٤٦٨ .
(٢) روح المعاني ٩/١٩١
(٣) البحر ٤/٤٨١ .

بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع ، وتصل إلى الصَّالح والطَّالح ، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، وغير الظَّالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث (إن النَّاس إذارأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذابٍ من عنده)[(١)] قال ابن عبَّاس : أمر الله المؤمنين ألاَّ يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب ، فيصيب الظالم وغير الظَّالم[(٢)] ﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه .

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض** ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿ **تخافون أن يتخطفكم النَّاس** ﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب ، والخطف : الأخذ بسرعة ﴿ **فآويكم** ﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿ **وأيدكم بنصره** ﴾ أي أعانكم وقوَّاكم يوم بدر بنصره المؤزر حتى هزمتموهم ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿ **لعلَّكم تشكرون** ﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة ، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة ، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزّة والرفعة ، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول** ﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿ **وتخونوا أماناتكم** ﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكاليف الشرعية كقوله ﴿ إنَّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . . ﴾ الآية قال ابن عبَّاس : خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول ﷺ بترك سننه وارتكاب معصيته ، والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[(٣)] ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أي محنة من الله ليختبركم

---

(١) رواه البخاري . (٢) حاشية الصاوي ٢/١٢٢ . (٣) روح المعاني ٩/١٩٥ .

كيف تحافظون معها على حدوده ، قال الإمام الفخر : وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن خدمة المولى[١] ﴿ **وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ وفي الآية دليل على أن التقوى تنوّر القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿ **ويكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أي يسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة عليهم والمعنى : اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿**ليثبتوك**﴾ أي يحبسوك ﴿ **أو يقتلوك** ﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿ **أويخرجوك** ﴾ أي من مكة ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً ، قال الطبري في روايته عن ابن عبَّاس : إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من العرب ؟ سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا : أجل فادخل ، فقال انظرو في شأن هذا الرجل ـ يعني محمداً ﷺ ـ فقال قائل : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ، فصرخ عدو الله وقال : والله ما هذا لكم برأي ، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم تستريحو منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع ، فقال الشيخ المذكور : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه القلوب بحديثه ؟ والله لئن

(١) التفسير الكبير ١٥/١٥٢ .

فعلتم لتجمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم ، قالوا صدق فانظروا رأياً غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره ! قالوا : وما هو ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً ، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، ويتفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنَّا أذاه ، فصرخ عدو الله إبليس : هذا والله الرأي لا أرى غيره ، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن له بالهجرة ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ، أو يخرجوك . . ﴾[١] الآية ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿ **قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً : قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿ **إن هذا إلاَّ أساطير الأولين** ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلَّا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطَّروها وليس من كلام الله تعالى ، قال أبو السعود : وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد ، كيف لا ، ولو استطاعوا لما تأخروا ! فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين ؟ وقرِّعوا على العجز ، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، مع أنفتهم ، وفرط استنكاغهم أن يغلبوا لا سيما في باب البيان[٢] ؟! ﴿ **وإذ قالوا اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك** ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿ **فأمطر علينا حجارة من السماء** ﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿ **أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به ، وهذا تهكم منهم واستهزاء ، قال ابن كثير : وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتِّباعه ، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[٣] ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد ، فقد جرت سنة الله وحكمته ألَّا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، قال ابن عبَّاس : لم تعذَّب أمَّة قط ونبيها فيها[٤] ، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ أي وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله ، وهو إشارة إلى استغفار من بقي من أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عبَّاس : كان فيهم أمانان : نبي الله ﷺ ، والاستغفار ، أمَّا النبي فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة[٥] .

---

(١) الطبري ١٣/٤٩٥ . (٢) أبو السعود ٢/٢٣٧ . (٣) المختصر ٢/١٠١ .
(٤) البحر ٤/٤٨٩ . (٥) الرازي ١٥/١٥٨ .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ **وما لهم ألاَّ يعذبهم الله** ﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم ؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال ؟ ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة ، ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿ **إن أولياؤه إلاَّ المتقون** ﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ﴿ **ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ، نصد من نشاء ، وندخل من نشاء . . والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة ، ولكن الله رفعه عنهم إكراماً لرسوله عليه السَّلام ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلاَّ مكاءً وتصدية** ﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلاَّ تصفيراً وتصفيقاً ، وكانوا يفعلونها إذا صلَّى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم ، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصَّلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق ، قال ابن عبَّاس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةٌ يصفرون ويصفقون[1] ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أي ذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة ، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ أي يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع النَّاس عن الدخول في دين الإِسلام ، ولحرب محمد عليه السَّلام ، قال الطبري : لما أصيب كفَّار قريش يوم بدر ، ورجع فلُّهم إلى مكة قالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلَّنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منَّا فنزلت الآية[2] ﴿ **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة** ﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم ، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون

(١) الطبري ١٣/٥٢٤ . (٢) نفس المرجع ١٣/٥٣٢ .

بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ **ثم يُغلبون** ﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ﴿ **والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم ، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار ، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض** ﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿ **فيركمه جميعاً** ﴾ أي يجعلهم كالركام متراكماً بعضه فوق بعض لشدة الازدحام ﴿ **فيجعله في جهنم** ﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ * وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة ، وحذَّرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين ، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿ **وإن يعودوا فقد مضت سنَّتُ الأولين** ﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي ، فكذلك نفعل بهم ، وهذا وعيد لهم بالدَّمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلَّا الله وحده ، قال ابن عبَّاس : الفتنة : الشرك ، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض ، وقال ابن جريج : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه[١] ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلَّا دين الإسلام ، قال الألوسي : واضمحلالها إمَّا بهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل[٢] ، لقوله عليه السَّلام (أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله) ﴿ **فإن انتهوا فإن**

(١) الطبري ١٣/٥٣٨ .
(٢) روح المعاني ٩/٢٠٧ .

الله بما يعملون بصير ﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطَّلع على قلوبهم ، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم** ﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿ **نعم المولى ونعم النصير** ﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه ، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغْلب من نصره الله . ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء**﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتموه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ قال الحسن : هذا مفتاح كلام ، الدنيا والآخرة لله[1] أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ قال المفسرون : تقسم الغنيمة خمسة أقسام ، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية ، والباقي يوزع على الغانمين ﴿ **وللرسول** ﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿ **ولذي القربى** ﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿ **واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم ، والفقراء من ذوي الحاجة ، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله** ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا** ﴾ أي وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ أي يوم بدر لأن الله فرَّق به بين الحق والباطل ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين ، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، ومنه نصركم مع قلَّتكم وكثرتكم .

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا** ﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب إلى المدينة ﴿ **وهم بالعدوة القصوى** ﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ أي والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من

---

(١) القرطبي ٨/١٠ .

مكانكم فيما يلي ساحل البحر ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد** ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسَّر وتمم ذلك ، قال كعب بن مالك : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[1] ، قال الرازي : المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلَّتكم وكثرتهم[2] ، ﴿ **ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا** ﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما اراد بقدرته ، من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، فكان أمراً متحققا واقعاً لا محالة ، قال أبو السعود : والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ، ليس إلاَّ صنعاً من الله عَزَّ وجَل خارقاً للعادات ، فيزدادوا إيمانا وشكراً ، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس[3] ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة** ﴾ أي فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان ﴿ **ويحيا من حيَّ عن بينة** ﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان[4] ، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿ **وإنَّ الله لسميع عليم** ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنيَّاتهم ﴿ **إذ يريكهم الله في منامك قليلاً** ﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعدائك قلة ، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد : أراه الله إياهم في منامه قليلاً ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿ **ولو أراكهم كثيراً لفشلتم** ﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم ، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال إشارة إلى أصحابه ﴿ **ولتنازعتم في الأمر** ﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿ **ولكن الله سلَّم** ﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغيرَّ أحوالها من الشجاعة والجبن ، والصبر والجزع .

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ

---

(١) الطبري ٥٦٦/١٣ . (٢) تفسير الرازي ١٦٧/١٥ (٣) أبو السعود ٢٤٠/٢ .

(٤) ذكر الطبري إلى أن المعنى : ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره ، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها وماذهبنا إليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤيده ﴿ لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ .

خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم** ﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم ، وقلَّلكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم ، قال ابن مسعود ، لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل ، أتراهم يكونون مائة[1] ؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفَّار فبُهتوا وهابوا ، وقُلَّت شوكتهم ، ورأوا ما لم يكن في الحسبان ، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة ﴿ **ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** ﴾ أي فعل ذلك فجرَّأ المؤمنين على الكافرين ، والكافرين على المؤمنين ، لتقع الحرب ويلتحم القتال ، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرِّفها كيف يريد ، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ، ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا** ﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿ **واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تفلحون** ﴾ أي اكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شي ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا** ﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿ **وتذهب ريحكم** ﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخور ﴿ **واصبروا إن الله مع الصَّابرين** ﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها ، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء النَّاس** ﴾ أي ولا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً ، وطلباً للفخر والثناء ، والآية إشارة إلى قول أبي جهل ، والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً ، فنشرب فيها الخمور وننحر الجزور ، وتعزف علينا القيان ـ المغنيات ـ وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً[2] قال الطبري : فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا[3] ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿ **ويصدون عن سبيل الله** ﴾ أي ويمنعون النَّاس عن الدخول في الإسلام ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه .

---

(١) الطبري ١٣/٥٧٣ .

(٢) ذكر الطبري في روايته عن ابن عبّاس أن أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل إلى قريش يقول : ارجعوا فقد سلمت عيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال .

(٣) الطبري ١٣/٥٧٨ .

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ أي واذكر وقت أن حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام وخروجهم لحرب الرسول عليه السَّلام ﴿ **وقال لا غالب لكم اليوم من النَّاس** ﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿ **وإني جارٌ لكم** ﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿ **فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه** ﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿ **وقال إني بريء منكم** ﴾ أي بريء من عهد جواركم ، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿ **إني أرى ما لا ترون** ﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث (مارؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ، ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، إلا ما رأى يوم بدر ، فإنَّه رأى جبريل يزْرعُ الملائكة)[1] أي يصفها للحرب ﴿ **إني أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه ، قال ابن عبَّاس : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة « سراقة بن مالك » فقال للمشركين : لا غالب لكم اليوم من النَّاس وإني جار لكم ، فلما اصطف النَّاس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه ـ كانت يده في يد رجلٍ من المشركين ـ انتزع يده ثم ولى مدبرا وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوَّة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة[2] ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿ **غرَّ هٰؤلاء دينهم** ﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به ، قال تعالى في جوابهم ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به ، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ** ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السَّامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين ، وجواب ﴿ **لو** ﴾

---

(١) رواه مالك في الموطأ . (٢) مختصر ابن كثير ٢ / ١١١ .

محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً ، قال أبو حيان ، وحذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم(١) أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم ، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ أي ويقولون لهم : ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النّار المحرق ، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل : كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً(٢) .

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿ **وأنَّ الله ليس بظلّام للعبيد** ﴾ أي وانه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب ، وصيغة ﴿ **ظلّام** ﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** ﴾ أي كدأب هؤلاء الكفرة في الاجرام يعنى عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدّمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب والكفر والإجرام ﴿ **كفروا بآيات الله** ﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿ **إن الله قوي شديد العقاب** ﴾ أي قوي البطش شديد العذاب ، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم** ﴾ أي ذلك الذي حلَّ بهم من العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلّا بسبب ذنب ارتكبه ، وانه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿ **حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان ، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية ، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين ، قال السدي : نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذّبوه ، فنقله الله إلى المدينة

---

(١) البحر ٤/٥٠٦ . (٢) البيضاوي ص ٢١٥ .

وحل بالمشركين العقاب[١] ﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذَّبوا بآيات ربهم ﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هٰؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السَّابقين حيث غيَّروا حالهم فغيَّر الله نعمته عليهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿ وكلٌ كانوا ظالمين ﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرَّضوها للعذاب .

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ إن شر الدَّواب عند الله ﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿ الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عبَّاس : نزلت في بني قريظة من اليهود ، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول الله ﷺ ألاَّ يحاربوه فنقضوا العهد[٢] ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألاَّ يعينوا المشركين ﴿ ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿ وهم لا يتقون ﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد ، قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألاَّ يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين ، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفَّار مكة بالسلاح يوم بدر ، ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق[٣] ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب ﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشرد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿ لعلَّهم يذَّكرون ﴾ أي لعلَّهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى : اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك

(١) القرطبي ٨/٢٩ . (٢) زاد المسير ٣/٣٧١ . (٣) الفخر الرازي ١٥/١٦٢ .

﴿ وإمَّا تخافن من قوم خيانة ﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر ، قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى : وإما تخافنَّ من قوم ـ بينك وبينهم عهد ـ خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً[١] ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾ أي لا يظنن هٰؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿ إنهم لا يعجزون ﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يُعجزون ربهم ، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة : المادية ، والمعنوية ، قال الشهاب ، وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام ، فنُبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان[٢] ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿ تُرهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ أي تُخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم ، قال ابن زيد ، هم المنافقون ، وقال مجاهد : هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿ لاتعلمونهم الله يعلمهم ﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله ﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿ يُوفَّ إليكم ﴾ أي تُعْطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿ وأنتم لا تُظلمون ﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً .

* وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ
أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

---

(١) تفسير القرطبي ٨/٣٢ . (٢) محاسن التأويل ٨/ص٣٠٢٤ .

﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** ﴾ إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السَّلامة ﴿ **إنَّه هو السميع العليم** ﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنيَّاتهم ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿ **فإن حسبك الله** ﴾ أي فإنّ الله يكفيك وهو حسبك ، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿ **هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ أي قوَّاك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين ، قال ابن عبَّاس : يعنى الأنصار ﴿ **وألَّف بين قلوبهم** ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فأبدلهم بالعداوة حباً ، وبالتباعد قرباً ، قال القرطبي : وكان تأليف القلوب مع العصبيَّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته ، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألَّف الله بينهم بالإيمان ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[1] ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم** ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبَّة بعضها بعضاً ﴿ **ولكنَّ الله ألَّف بينهم** ﴾ ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق ، فإنه المالك للقلوب يقلِّبها كيف يشاء ﴿ **إنه عزيز حكيم** ﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلَّا عن حكمة ﴿ **يٰأيها النبي حسبك الله ومن اتَّبعك من المؤمنين** ﴾ أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وقال الحسن البصري ، المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون[2] ﴿ **يٰأيها النبي حرّض المؤمنين على القتال** ﴾ أي حُضَّ المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ قال أبو السعود : هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم[3] والمعنى : إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم ، بعون الله وتأيده ﴿ **وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا** ﴾ أي وإن يوجد منكم مائة ـ بشرط الصبر عند اللقاء ـ تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله بأنهم قوم لا يفقهون الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله ، ولا يعرفون طريق النصر وَسببه ، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب فلذلك يغلبون ، قال ابن عبَّاس : كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً ، ثم لما شق ذلك عليه نسخ واصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً .

(١) القرطبي ٥٣/٨ .
(٢) القول الأول معناه : حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة « زاد المعاد » بأدلَّة مقنعة ، والقول الثاني روي عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين ، والأول أرجح .
(٣) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٢ .

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

﴿ **الآن خفف الله عنكم** ﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿ **وعَلِمَ أن فيكُم ضعفاً** ﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿ **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين** ﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿ **وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين** ﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء ، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿ **بإذن الله** ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة ، ومن كان الله معه فهو الغالب ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض** ﴾ عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء[1] والمعنى : لا ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلاَّ بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل ؟ ﴿ **والله يريد الآخرة** ﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم ، وهو ثواب الآخرة ، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ أي عزيز في ملكه لا يقهر ولا يغلب ، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿ **لولا كتاب من الله سبق** ﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألاَّ يعذب المخطىء في اجتهاده[2] ﴿ **لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم ، وروي أنها لما نزلت قال عليه السَّلام (لولا نزل العذاب لما نجا منه غير عمر)[3] ﴿ **فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً** ﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿ **طيبا** ﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم ، وفي الصحيح (وجعل رزقي تحت ظل رمحي) ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب ، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم .

---

(١) أنظر سبب النزول .

(٢) هذا القول اختاره الرازي وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عبَّاس . انظر الفخر الرازي ١٥/٢٠٢ .

(٣) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازى .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾

﴿ **يأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى** ﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء ، والمراد أسرى بدر ﴿ **إن يعلم الله في قلوبكم خيراً** ﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصا ، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿ **يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة لمن تاب وأناب ، قال البيضاوي : نزلت في العبَّاس رضي الله عنه حين كلَّفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه « عقيل » و« نوفل » فقال يا محمد : تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت ، فقال : أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها : إني لا ادري ما يصيبني في جهتي هذه ، فإن حَدَثَ بي حدثٌ فهو لك ولعيالك ، !! فقال العبَّاس : ما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي تعالى ، قال ، فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلاَّ الله وأنك رسوله ، والله لم يطلع عليه أحد ، ولقد دفعته إليها في سواد اللَّيل ! ! قال العبَّاس : فأبدلني الله خيرا من ذلك ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة ، وأنا انتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿ **ويغفر لكم** ﴾[1] ﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ وإن كان هٰؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿ **فقد خانوا الله من قبل** ﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ أي فقوّاك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم ، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضا ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عالم بجميع ما يجرى ، يفعل ما تقتضى به حكمتك البالغة ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿ **وهاجروا** ﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿ **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله ، وهم المهاجرون ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ أي آووا المهاجرين ف ديارهم ونصروا رسول الله وهم الانصار ﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء

(١) تفسير البيضاوي ١/٢١٧ .

بعض في النصرة والإرث ، ولهذا آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿ **ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا** ﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ﴾ أي وان طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين ، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿ **إلاَّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ أي إلاَّ إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿ **والله بما تعلمون بصير** ﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام : المهاجرين ، الأنصار ، الذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله ، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال ، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة ، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبيَّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله ، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفَّار فقال ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي هم في الكفر والضلال ملَّة واحدة فلا يتولاَّهم إلاَّ من كان منهم ﴿ **إلاَّ تفعلوه** ﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿ **تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظية ومفسدة كبيرة ، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين ، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله** ﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ أي هٰؤلاء هم الكاملون في الإيمان ، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿ **لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنَّات النعيم ، قال المفسرون : ليس في هذه الآيات تكرار ، فالآية السَّابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين ، وهذه تضمنت الثناء والتشريف ، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة

والرزق الكريم في دار النعيم ﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السَّابقين في الثواب والأجر ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ أي أصحاب القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الاجانب في حكم الله وشرعه ، قال العلماء : هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ أي أحاط بكل شيء علمًا ، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو ختم للسورة في غاية البراعة .

(تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال)

(٩) سُورَةُ التَّوبَةِ مَدَنِيَّة
وآياتها تسع وعشرون ومائة

بين يدي السـورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع ، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة[1] ، وروى الحافظ ابن كثير : أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك ، وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام[2] نزلت في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم ، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ « **غزوة تبوك** » وكانت في حرٍّ شديد ، وسفر بعيد ، حين طابت الثمار ، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة ، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين ، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله ، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين ، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان ـ إلى جانب الأحكام الأخرى ـ هما :

أولاً : بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين ، وأهل الكتاب .

ثانياً : إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم .

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً ، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام ، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين ، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية ، وإباحة التعامل معهم ، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق ، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضاً ، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين ، وخانت طوائف اليهود « **بنو النضير** » و « **بنو قريظة** » و « **بنو قينقاع** » ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات ، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم ، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوحٍ وبصيرة ، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة ، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين والمشركين من صلات ، فلا عهد ،

---

(١) البخاري ٨/٢٢٧ .

(٢) مختصر ابن كثير ٢/١٢٣ .

ولا تعاهد ، ولا سلم ، ولا أمان ، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين ، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم ، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم . وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿ **براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** . . . ﴾ الآيات .

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** . . . ﴾ الآية ، وقد تناولت الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية ، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبثٍ ومكر ، وحقدٍ على الإسلام والمسلمين .

* وعرضت السورة للهدف الثاني ، وهو شرح نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزو الروم ، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين ، والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين ، وفضحت أساليب نفاقهم ، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين ، حتى لم تدع لهم ستراً إلا هتكته ، ولا دخيلة إلا كشفتها ، وتركتهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين ، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءاً من قوله تعالى : ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك** . . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم** ﴾[1] ولهذا سماها بعض الصحابة « **الفاضحة** » لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم ، قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال : تلك **الفاضحة** ، ما زال ينزل : ومنهم ، ومنهم ، ، حتى خفنا ألا تدع منهم أحداً[2] ، وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه[3] ، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها . قال ابن عباس : سألت علي بن أبي طالب لِمَ لَمْ يُكتب في براءة ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ؟ قال : لأن ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، ليس فيها أمان ، وقال سفيان بن عيينة : إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف ، ، ولا أمان للمنافقين[4] .

---

(١) الآيات من (٤٢ - إلى ١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين .
(٢) القرطبي ٨/٦١ .
(٣) الكشاف ٢/٢٤١ .
(٤) القرطبي ٨/٦٣ .

* وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت « **الطابور الخامس** » المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم « **المنافقون** » الذين هم أشد خطراً من المشركين ، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم ، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم دياراً ، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام ، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتخريب والتدمير ، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين ، في مسجدهم الذي عرف باسم « **مسجد الضرار** » وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . . .** ﴾ الآيات ، ولم يكد النبي ﷺ يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه : (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرّقوه) فهدموه وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم ، وكيدهم ، وخبثهم ، وفضحهم إلى يوم الدين .

التســـمية : تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسمًا ، قال العلامة الزمخشري : لهذه السورة عدة أسماء : (براءة ، والتوبة ، والمقشقشة ، والمبعثرة ، والمشردة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمنكلة ، والمدمدمة ، وسورة العذاب) قال : لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشقش من النفاق أي تبرىء منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين ، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها ، وتفضحهم ، وتنكل بهم ، وتشردهم ، وتخزيهم ، وتدمدم عليهم[1] .

---

(١) الكشاف ٢/٢٤١ .

تفسير سورة التوبـــة

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله ، قال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك ، ثم أتبعه علياً ليعلم النَّاس بالبراءة ، فقام علي فنادي في النَّاس بأربع : ألاَّ يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك ، وألاَّ يطوف بالبيت عريان ، وأنه لا يدخل الجنَّة إلاَّ مسلم ، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسولهُ ﴿ **فسيحوا في الأرض أربعة أشهر** ﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه ، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزي الله** ﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن إمهلكم هذه المدة ﴿ **وأن الله مخزي الكافرين** ﴾ أي مذلهم في الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى النَّاس** ﴾ أي إعلام إلى كافة النَّاس بتبرىء الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿ **يوم الحج الأكبر** ﴾ أي يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك ، وقال الزمخشري : وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر[1] ﴿ **أنَّ الله بريء من المشركين ورسولهُ** ﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم ، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿ **فإن تبتم فهو خير لكم** ﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال ﴿ **وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله** ﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلاَّ

(١) الكشاف ٢/٢٤٥ .

الاستمرار في الغيِّ والضلال ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً ، ولا تُعجزونه هربا ﴿ وبشر الذين كفروا بعذابٍ أليم ﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجع يحل بهم ، قال أبو حيان : جعل الانذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم ، وفي هذا وعيد عظيم لهم[1] .

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

﴿ **إلاَّ الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ أي إلاَّ الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم ، قال في الكشاف : وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتموا عليهم عهدهم ، ولا تجُروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفي كالغادر[2] ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئاً** ﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً ﴿ **ولم يُظاهروا عليكم أحدا** ﴾ أي لم يعينوا عليكم أحدا من أعدائكم ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ أي وفوا العهد كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم ، قال البيضاوي : هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى[3] قال ابن عبَّاس : كان قد بقي لحيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتم ﷺإليهم عهدهم ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرَّم فيها قتالهم ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ أي اقتلوهم في أي مكانٍ أو زمان من حلٍّ أو حرم ، قال ابن عبَّاس : في الحلِّ والحرم وفي الأشهر الحرم[4] ﴿**وخذوهم** ﴾ أي بالأسر ﴿ **واحصروهم** ﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد ، قال ابن عباًس : إن تحصنوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿ **واقعدوا لهم كل مرصد** ﴾ أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه ، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم ،

---

(١) البحر ٥/٨ .
(٢) الكشاف ٢/٢٤٦ .
(٣) البيضاوي ٢١٨ .
(٤) زاد المسير ٣/٣٩٨ .

قال في البحر : وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال[1] ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزكاة** ﴾ أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليه من الصَّلاة والزكاة ﴿ **فخلوا سبيلهم** ﴾ أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك** ﴾ أي إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿ **فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ أي أمنه حتى يسمع القرآن ويتدبره ، قال الزمخشري : المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر ، لا عهد بينك وبينه ، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطَّلع على حقيقة الأمر[2] أقول : هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق ، لأن المراد ليس النيل من الكافرين ، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه ، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ **ثم أبلغه مأمنه** ﴾ أي ثم إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين ، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام ، فلابد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا ، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله** ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد ، أي كيف يكون لهم عهد معتدٌ به عند الله ورسوله ، ثم استدرك فقال ﴿ **إلاَّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ أي لكن ما عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد ، قال ابن عبَّاس : هم أهل مكة ، وقال ابن اسحاق : هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم[3] ﴿ **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على

---

(١) البحر المحيط ١٠/٥ . (٢) الكشاف ٢٤٨/٢ . (٣) البحر ١٢/٥ .

العهد ، قال الطبري ، أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء[١] ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾ أي يحب من اتقى ربه ، ووفى عهده ، وترك الغدر والخيانة ﴿ **كيف وإن يظهروا عليكم** ﴾ تكرار لاستبعادهم ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿ **لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة** ﴾ أي لا يراعوا فيكم عهدا ولا ذمة ، لأنه لا عهد لهم ولا أمان ، قال أبو حيان ، وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد[٢] ﴿ **يُرضونكم بأفواههم** ﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿ **وتأبى قلوبهم** ﴾ أي وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه ، قال القرطبي : المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم[٣] ﴿ **وأكثرهم فاسقون** ﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله .

ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿ **اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿ **فصدوا عن سبيله** ﴾ أي منعوا النَّاس عن إتِّباع دين الإسلام ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿ **لا يرقبون في مؤمن إلاً وَلاَ ذمة** ﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿ **وأولئك هم المعتدون** ﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزكاة** ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصَّلاة وأعطوا الزكاة ﴿ **فإخوانكم في الدين** ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿ **ونفصِّل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم ، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم** ﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثوقة بالأيْمان ﴿ **وطعنوا في دينكم** ﴾ أي عابوا الإسلام

(١) الطبري ١/٨١ . (٢) البحر ٥/١٣ . (٣) الطبري ١٠/٨٥ .

بالقدح والذم ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ أي رؤساء وصناديد الكفر ﴿ **إنهم لا أيمان لهم** ﴾ أي لا أيمان لهم ولا عهود يوفون بها ﴿ **لعلَّهم ينتهون** ﴾ أي كي يكفوا عن الإجرام ، وينتهوا عن الطعن في الإسلام ، قال البيضاوي : وهو متعلق بـ « قاتلوا » أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه ، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين[1] ﴿ **ألا تقاتلوا قوماً نكثوا أيمانهم** ﴾ تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلوا يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهود وطعنوا في دينكم ؟ ﴿ **وهمُّوا بإخراج الرسول** ﴾ أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم ﴿ **وهم بدءوكم أول مرَّة** ﴾ أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، والبادىء أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم ؟ ﴿ **أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه** ﴾ ؟ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه ، قال الزمخشري : يعني أن قضية الإيمان الصحيح ألاَّ يخشى المؤمن إلاَّ ربه ولا يبالي بمن سواه[2] . .

قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** ﴾ أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين فقتالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم ﴿ **ويُخزهم** ﴾ أي يذلهم بالأسر والقهر ﴿ **وينصركم عليهم** ﴾ أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم ﴿ **ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾ أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم ، قال ابن عبَّاس : هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : أبشروا فإن الفرج قريب[3] ﴿ **ويُذهب غيظ قلوبهم** ﴾ أي يذهب ما بها من غيظ ، وغم وكرب ، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين بما يمنّ الله عليهم من تعذيب أعدائهم ، قال الرازي : أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد ، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد ، فكيف بها إذا اجتمعت[4] ؟ ﴿ **ويتوب الله على من يشاء** ﴾ كلام مستأنف أي يمن

(١) البيضاوي ص ٢١٩ . (٢) الكشاف ٢/٢٥٢ . (٣) أبو السعود ٢/٢٥٨ . (٤) الفخر الرازي ١٦/٢

الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية ، حكيم لا يفعل إلاَّ ما فيه حكمة ومصلحة ، قال أبو السعود : ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون ، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة[١] ﴿ **أم حسبتم أن تُتركوا** ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أحسبتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه ! ﴿ **ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ أي والحال إنَّه لم يتبيَّن المجاهد منكم من غيره ، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه تعالى يعلم غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿ **ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة** ﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين ، والغرض من الآية : ان الله تعالى لا يترك النَّاس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله** ﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئاً من المساجد ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر ، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلاَّ شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » يعنون الأصنام ، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت ، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام[٢] والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله ، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿ **وفي النَّار هم فيها خالدون** ﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبداً .

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله ، الموقن بالآخرة ﴿ **وأقام الصَّلاة وآتى الزكاة** ﴾ أي أقام الصَّلاة

(١) أبو السعود ٢/٢٥٨ . (٢) الصاوي على الجلالين ٢/١٤١ .

المكتوبة بحدودها ، وأدّى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿ **ولم يخش إلاّ الله** ﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة ، قال ابن عبَّاس : كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ يقول : إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة(١) قال أبو حيَّان : وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن ، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين ، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من تُرجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها ؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجا ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة(٢) ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله** ﴾ الخطاب للمشركين(٣) ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت ، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله ؟ وهو رد على العبَّاس حين قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة ، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي الحاج فنزلت ، قال الطبري : هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام ، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهاد في سبيله(٤) ﴿ **لا يستوون عند الله** ﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ، قال في البحر : ومعنى الآية إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة ، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾(٥) ثم قال تعالى ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله** ﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى : إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن ، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً ، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج ، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿ **وأولئك هم الفائزون** ﴾ أي وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنَّات النعيم .

---

(١) الطبري ١٠/٩٤ . (٢) البحر المحيط ٥/٢٠ .
(٣) أنظر سبب النزول . (٤) الطبري ١٠/٩٤ . (٥) البحر المحيط ٥/٢٠ .

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوانٍ** ﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة ، ورضوان من ربٍّ عظيم ﴿ **وجنات لهم فيها نعيم مقيم** ﴾ أي وجنات عالية ، قطوفها دانية ، لهم في تلك الجنَّات نعيم دائم لا زوال له ﴿ **خالدين فيها أبداً** ﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿ **إن الله عنده أجر عظيم** ﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم ، تعجز العقول عن وصفه ، قال أبو حيان : لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة : الرحمة ، والرضوان ، والجنان ، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان ، وثنَّى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، وثلَّث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان(١) وقال الألوسي : ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ جاء في غاية اللطافة ، لأن الهجرة فيها السفر ، الذي هو قطعة من العذاب(٢) . ﴿ **يأَيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء** ﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله ، **قال** ابن مسعود : « إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ فأَرْعِها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه » والمعنى : لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿ **إن استحبوا الكفر على الإيمان** ﴾ أي إن فضَّلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿ **ومن يتوهم منكم فأولئك هم الظَّالمون** ﴾ **قال** ابنَ عبَّاس : هو مشرك مثلهم ، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك(٣) ﴿ **قل إن كان آباؤكم وَأَبْنَاؤُكُم وإخوانكم وأزواجكم** ﴾ أي إن كان هٰؤلاء الأقارب من الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والزوجات ومن سواهم ﴿ **وعشيرتكم** ﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿ **وأموال اقترفتموها** ﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿ **وتجارة تخشون كسادها** ﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿ **ومساكن ترضونها** ﴾ أي منازل تعجبكم الإقامة فيها ﴿ **أحبَّ إليكم من الله ورسوله** ﴾ هذا هو جواب كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب

(١) البحر المحيط ٢٢/٥ . (٢) روح المعاني ٧٠/١٠ . (٣) القرطبي ٩٤/٨ .

إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿ **وجهادٍ في سبيله** ﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿ **فتربصوا** ﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿ **حتى يأمر الله بأمره** ﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة ، وهذا وعيد لمن آثر أهله ، أو ماله ، أو وطنه ، عن الهجرة والجهاد .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿ **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة** ﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة ، وحروبٍ عديدة ﴿ **ويوم حنين** ﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿ **إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً** ﴾ أي حين أعجبتكم كثرة عددكم فقلتم : لن نغلب اليوم من قلة ، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿ **وضاقت عليكم الأرض بما رحبت** ﴾ أي وضاقت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين ، قال الطبري : يخبركم تبارك وتعالى أن النَّصر بيده ومن عنده ، وأنه ليس بكثرة العدد ، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء ، ويخلي القليل فيهزم الكثير ، قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال البراء : أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء ـ وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها ـ فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ففروا ، فما بقي أحد إلّا ويمسح القذى عن عينيه[1] ، وقال البراء : كنّا والله إذا حميَ البأس نتقي برسول الله ﷺ وأن الشجاع منّا الذي يحاذيه ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ أي أنزل بعد الهزيمة

(١) الطبري ١٠/١٠٣ .

الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم ، قال أبو السعود : أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها[١] ﴿ **وأنزل جنوداً لم تروها** ﴾ قال ابن عبَّاس : يعني الملائكة ﴿ **وعذَّب الذين كفروا** ﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿ **وذلك جزاء الكافرين** ﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله . ﴿ **ثم يتوبُ الله من بعد ذلك على من يشاء** ﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام ، وهو إشارة إلى إسلام هوازن ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس** ﴾ أي قذر لخبث باطنهم ، قال ابن عبَّاس : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ، وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ[٢] ، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم : عليٌّ أسدٌ أي كالأسد ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ أي فلا يدخلوا الحرم ، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله ، قال أبو السعود : وقيل : المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث (وألاَّ يحج بعد هذا العام مشرك)[٣] وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم ﴿ **وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ أي وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه ، قال المفسرون : لما منع المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم ، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات إليهم في المواسم ، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم : من أين تأكلون ؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب ؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة ، ورزقهم الغنائم والجزية[٤] ﴿ **إن شـاء** ﴾ أي يغنيكم بإرادته ومشيئته ﴿ **إن**

---

(١) أبو السعود ٢/٢٦٣ .

(٢) القرطبي ٨/١٠٣ وهو الذي نقل عن ابن عبَّاس والحسن البصري ورجحه الفخر الرازي والألوسي وهو ظاهر الآية ، والجمهور على أنه على التشبيه .

(٣) أبو السعود ٢/٢٦٤ .

(٤) أنظر الطبري ١٠/١٠٧ .

﴿ الله عليم حكيم ﴾ قال ابن عبَّاس : عليم بما يصلحكم ، حكيم فيما حكم في المشركين . . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان ، فإن اليهود يقولون عزير ابن الله ، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث ﴿ وَلاَ يُحَرِّمون مَا حَرَّم الله ورسوله ﴾ أي لا يحرمون ما حرَّم الله في كتابه ، ولا رسوله في سنته ، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿ ولا يدينون دين الحق ﴾ أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق ﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل ﴿ حتى يُعطوا الجزية عن يد ﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي أذلاء حقيرون مقهورون بسلطان الإسلام .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ أي نسب اللعناء إلى الله الولد ، وهو واحد أحد فرد صمد ، قال البيضاوي : وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة ، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلاَّ لأنه ابن الله[1] ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ أي وزعم النصارى ـ أعداء الله ـ أن المسيح ابن الله قالوا : لأن عيسى ولد بدون أب ، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب ، فلابد أن يكون ابن الله ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان ، قال في التسهيل : يتضمن معنيين : أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك ، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه ، هذا قولك بلسانك[2] ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم : الملائكة بنات الله : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى

(١) البيضاوي ص ٢٢٢ . (٢) التسهيل ٢/٧٤ .

الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً ! قال الرازي : الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم ، والله تعالى عجَّب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل[1] ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى : أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي بن حاتم : أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : **يا عدي** إطرح عنك هذا الوثن ، قال وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ فقلت يا رسول الله : لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام : أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرَّم الله فيستحلون ؟! فقلت : بلى ، قال : فذلك عبادتهم[2] ﴿ **والمسيح ابن مريم** ﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً ﴿ **وما أُمروا إلاَّ ليعبدوا إلهاً واحداً** ﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلَّا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿ **لا إله إلاَّ هو** ﴾ **لا** معبود بحق سـواه ﴿ **سبحانه عمَّا يشركون** ﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم الحقيرة ، بمجرد جدالهم وافترائهم وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إلى ذلك ﴿ **ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره** ﴾ أي ويأبى الله إلاَّ أن يعليه ويرفع شأنه ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق** ﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التَّامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿ **ليُظهره على الدين كله** ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره . ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان** ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله

(١) الرازي ١٦/٣٦ .
(٢) الألوسي ١٠/٨٤ .

إن كثيراً من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » ﴿ **ليأكلون أموال النَّاس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله** ﴾ أي ليأخذون أموال النَّاس بالحرام ، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام ، قال ابن كثير : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال ، قال ابن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النَّصارى[1] ﴿ **والذين يكنزون الذَّهب والفضة** ﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿ **ثم لا ينفقونها في سبيل الله** ﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير ، قال ابن عمر : الكنز ما لم تُؤد زكاته ، وما أدِّيت زكاته فليس بكنز ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ أسلوب تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ، قال الزمخشري : وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[2] .

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿ **يوم يحمى عليها في نار جهنم** ﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿ **فتُكوى بها جباهُهم وجُنوبهُم وظهورهم** ﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها ، قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً ، ولا درهم درهماً ، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم علىٰ حدته[3] ، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته ، فإذا جاءه أعرض بجانبه ، فإذا طالبه بإحسان ولاّه ظهره ، قال القرطبي : الكي في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظَّهر والجنب آلم وأوجع ، فلذلك خصَّها بالذكر من بين سائر الأعضاء[4] ﴿ **هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً : هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه ، وفي صحيح مسلم (ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلاَّ جُعِل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جنبه

---

(١) المختصر ١٣٨/٢ . (٢) الكشاف ٢٦٦/٢ .
(٣) الطبري ١٢٤/١٠ . (٤) القرطبي ١٢٩/٨ .

وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، ثم يرى سبيله إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النَّار) ﴿ **إنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً** ﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر ، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿ **في كتاب الله** ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿ **يوم خلق السمٰوات والأرض** ﴾ قال ابن عبَّاس : كتبه يوم خلق السمٰوات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿ **منها أربعة حرم** ﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي : « ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب » وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطَّاعات ويحرم القتال فيها ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أي ذلك الشرع المستقيم ﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرَّمة أنفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرَّم الله من المعاصي والآثام ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿ **واعلموا أنَّ الله مع المتقين** ﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد ، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى .

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

﴿ **إنما النسيء زيادة في الكفر** ﴾ أي إنما تأخير حرمةِ شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحلَّه الله وتحليل ما حرَّمه فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم ، قال المفسرون : كان العرب أهل حروب وغارات ، وكان القتال محرَّماً عليهم في الأشهر الحرم ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقَّ عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرِّمون مكانه شهراً آخر ، كأنهم يستقرضون حرمة شهرٍ لشهر غيره ، فربما أحلّوا المحرَّم وحرَّموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرَّمة ﴿ **يضلُّ بها الذين كفروا** ﴾ أي يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم ﴿ **يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً** ﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿ **ليواطئوا عدة ما حرَّم الله** ﴾ أي ليوافقوا عدَّة الأشهر الحرم الأربعة ﴿ **فيحلوا**

ما حرَّم الله ﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرَّمه الله ، قال مجاهد : كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول أيها النَّـــاس : إني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مردّ لما أقول ، إنَّا قد حرَّمنا المحرم ، وأخَّرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل ويقول : إنَّا قد حرَّمنا صفر وأخرنا المحرم فذلك قوله تعالى ﴿ **ليواطئوا عدة ما حرَّم الله** ﴾[1] . ﴿ **زُين لهم سوء أعمالهم** ﴾ أي زين لهم الشيطان أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿ **والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السَّعادة ﴿ **يأَيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرض** ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلَّف عن غزوة تبوك والمعنى : ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم ، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ؟! ﴿ **أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة** ﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاَّ قليل** ﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلاَّ شيء مستحقر قليل لا قيمة له .

إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

ثم توعَّدهم على ترك الجهاد فقال ﴿ **إلاَّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليمًا** ﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله يعذبكم عذاباً أليمًا موجعاً ، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا ، وبالنَّار المحرقة في الآخرة ، وقال ابن عبَّاس : هو حبس المطر عنهم[2] ﴿ **ويستبدل قوماً غيركم** ﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم ، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿ **ولا تضرّوه شيئاً** ﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم ، قال الرازي : وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز ، فإذا توعَّد بالعقاب فعل[3] ﴿ **إلاَّ تنصروه**

---

(١) الطبري ١٠/١٣٤ . (٢) الطبري ١٠/١٣١ . (٣) الرازي ١٦/٦١ .

فقد نصره الله ﴾ أي إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره : فسينصره الله دل عليه قوله ﴿ **فقد نصره الله** ﴾ والمعنى : إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين ، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿ **إذ أخرجه الذين كفروا** ﴾ أي حين خروجه من مكَّة مهاجراً إلى المدينة ، وأسند إخراجه إلى الكفَّار لأنهم ألجأوه إلى الخروج وتآمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة ﴿ **ثاني اثنين** ﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصدِّيق ﴿ **إذ هما في الغار** ﴾ أي حين كان هو والصدِّيق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصدِّيق تطميناً وتطييباً : لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر ، روى الطبري عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال « بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار ، وأقدام المشركين فوق رءوسنا فقلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال : يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[1] وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿ **وأيَّده بجنود لم تروها** ﴾ أي قوَّاه بجنود من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة ، أذل بها الشرك والمشركين ﴿ **وكلمةُ الله هي العليا** ﴾ أي وكلمة التوحيد « **لا إله إلاَّ الله** » هي الغالبة الظَّاهرة ، أعزَّ الله بها المسلمين ، وأذلَّ الشرك والمشركين ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب ، لا يفعل إلاَّ ما فيه الحكمة والمصلحة .

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيباً وشباناً ، مُشاةً وركباناً ، في جميع الظروف والأحوال ، في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم**

(١) الطبري ١٠/١٣٦ .

تعلمون ﴾ أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك ، قال في البحر : والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض ، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله[١] ، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك ، وموقف المثبطين المنافقين منهم فقال ﴿ **لو كان عرضاً قريباً** ﴾ أي لو كان ما دعوا إليه غنمًا قريباً سهل المنال ﴿ **وسفراً قاصداً** ﴾ أي وسفراً وسطاً ليس ببعيد ﴿ **لاتَّبعوك** ﴾ أي لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة ﴿ **ولكن بعُدت عليهم الشقة** ﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿ **وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ أي وسيحلفون لكم معتذرين[٢] بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا ، ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم ، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿ **يُهلكون أنفسهم** ﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيمانهم الكاذبة ﴿ **والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ أي لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لَهُمْ** ﴾ تلطف في عتاب الرسول ﷺ حيث قدَّم العفو على العتاب إكراماً له عليه السَّلام[٣] والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار !! ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصَّادق منهم في عذره من الكاذب المنافق ، قال مجاهد : نزلت في المنافقين قال أناس منهم استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[٤] ، فقد كانوا مصرِّين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم .

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾
۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

---

(١) البحر ٥/٤٤ .

(٢) هذا إخبار بغيب ، أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة ، وقد حصل كما أخبر القرآن فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية .

(٣) قال المفسرون : من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه ، وعلو قدره ، وسمو منزلته ، بشره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ، ولو قال له معاتباً : لم أذنت لهم ؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزناً وكمداً قال عون : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة ، أقـــول : وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ .

(٤) الطبري ١١/١٤٢ .

ولهذا أخبر تعالى أنَّه لا يستأذنه أهل الإيمان فقال ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ أي لا يستأذنك يا محمد عن الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿ **أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ أي كراهية الجهاد بالمال والنفس لأنهم يعلمون ما أعدَّه الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلَّفون عنه ؟ ﴿ **والله عليم بالمتَّقين** ﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت إيمان في قلوبهم ﴿ **وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون** ﴾ أي شكَّت قلوبهم في الله وثوابه فهم يتردَّدون حيارى لا يدرون ما يصنعون . ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدَّة** ﴾ أي لو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد ، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿ **فثبطهم** ﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿ **وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار ، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد ، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه .

لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الأذى والمضرَّة ، ولهذا قال ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبالا** ﴾ أي لو خرجو معكم ما زادوكم إلاَّ شراً وفساداً ﴿ **ولأوضعوا خلالكم** ﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ أي يطلبوا لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿ **وفيكم سمَّاعون لهم** ﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم[1] ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ أي عالم بالمنافقين علمًا محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل** ﴾ أي طلبوا لك

(١) وقال مجاهد : المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر ، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير .

الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد ﴿ **وقلَّبوا لك الأمور** ﴾ أي دبَّروا لك المكايد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿ **حتى جاء الحق وظهر أمر الله** ﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿ **وهم كارهون** ﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني** ﴾ أي ومن هٰؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج ، قال ابن عبَّاس : نزلت في « الجد ابن قيس » حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر ، فقال يا رسول الله : ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء ﴿ **ألاَ في الفتنة سقطوا** ﴾ أي ألاَ إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه ، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم ، قال أبو السعود : وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين[1] ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، وفيه وعيد شديد ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم** ﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة ، سواء كانت ظفراً أو غنيمة ، يسؤهم ذلك ﴿ **وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل** ﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا : قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿ **ويتولون وهم فرحون** ﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون[2] ﴿ **قل لن يصيبنا إلاَّ ما كتب الله لنا** ﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر ، ولا خوف ولا رجاء ، ولا شدة ولا رخاء ، إلاَّ وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿ **هو مولانا** ﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله ، ولا يعتمدوا على أحد سواه .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

(١) أبو السعود ٢/٢٧٥ .

(٢) قال القرطبي : المعنى يعرضوا عن إيمان وهم معجبون بذلك .

﴿ قل هل تربصون بنا إلاَّ إحدى الحسنيين ﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلاَّ إحدى العاقبتين الحميدتين : إمَّا النصر ، وإمَّا الشهادة ، وكل واحدة منهما شيء حسن !! ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا ﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين : أن يهلككم الله بعذابٍ من عنده يستأصل به شأفتكم ، أو يقتلكم بأيدينا ﴿ فتربصوا إنَّا معكم متربصون ﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم ، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿ قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين ، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم ، قال الطبري : وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ والمعنى لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً[1] ﴿ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين خارجين عن طاعة الله ، ثم أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿ وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلاَّ أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلاَّ كفرهم بالله ورسوله ﴿ ولا يأتون الصَّلاة إلاَّ وهم كُسَالى ﴾ أي ولا يأتون إلى الصَّلاة إلاَّ وهم متثاقلون ﴿ ولا ينفقون إلاَّ وهم كارهون ﴾ أي ولا ينفقون أموالهم إلاَّ بالإِكراه لأنهم يعدونها مغرماً ، قال في البحر : ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصَّلاة وهم كسالى ، وإيتاء النفقة وهم كارهون ، لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما : الصَّلاة والنَّفقـة ، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية[2] .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

(١) الطبري ١٥٢/١٠ . (٢) البحر المحيط ٥٣/٥ .

﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا** ﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ، فظاهرهما نعمة وباطنها نقمة ، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا ، قال البيضاوي : وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب[1] ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ أي ويموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم** ﴾ أي ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم ، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿ **ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين ، فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿ **لو يجدون ملجأً** ﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿ **أو مغارات** ﴾ أي سراديب يختفون فيها ﴿ **أو مُدَّخَلاً** ﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿ **لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون** ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً كالفرس الجموح ، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أنَّ المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنه وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿ **ومنهم من يلمزك في الصدقات** ﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿ **فإن أُعطوا منها رضوا** ﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿ **وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة » فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل . فقال ﷺ : (ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟)[2] ، الحديث ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾ أي أن هٰؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلَّت ، قال أبو السعود : وذكرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه[3] ﴿ **وقالوا حسبنا الله** ﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿ **سيؤتينا الله من فضله ورسولُه** ﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿ **إنَّا إلى الله راغبون** ﴾ أي إنَّا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال الرازي : وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيمًا[4] .

---

(١) البيضاوي ص ٢٢٦ .
(٢) روح المعاني ١٠/١١٩ .
(٣) أبو السعود ٢/٢٧٧ .
(٤) الرازي ١٦/٩٩ .

* ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ قال الطبري : أي لا تنال الصدقات إلاَّ الفقراء والمساكين ومن سماهم الله جلّ ثناؤه[1] والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزَّكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم ، والفقير الذي له بُلْغة من العيش ، والمسكين الذي لا شيء له ، قال يونس : سألت إعرابياً أفقير أنت ؟ فقال : لا والله بل مسكين ، وقيل : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، والمسألة خلافية ﴿ **والعاملين عليها** ﴾ أي الجباة الذين يجمعون الصدقات ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ هم قوم من أشراف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام ، وروى الطبري عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض النَّاس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب النَّاس إلي[2] ﴿ **وفي الرقاب** ﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿ **والغارمين** ﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿ **وفي سبيل الله** ﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿ **وابن السبيل** ﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿ **فريضةً من الله** ﴾ أي فرضها الله جل وعلا وحدَّدها ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عليم بمصالح العباد ، حكيم لا يفعل إلاَّ ما تقتضيه الحكمة ، قال في التسهيل : وإنما حصر مصرف الزَّكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللمز في الصدقات[3] ، ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبي** ﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿ **ويقولون هـو أُذُنٌ** ﴾ أي يصدِّق بكل خبرٍ يسمعه ﴿ **قل أُذُنُ خير لكم** ﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر ، يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿ **يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ أي يصدِّق الله فيما يقول ، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿ **ورحمة للذين آمنوا منكم** ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿ **والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم** ﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجع في الآخرة .

---

(١) الطبري ١٠/١٥٧ . (٢) الطبري ١٠/١٦٢ . (٣) التسهيل ٢/٧٩ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم** ﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿ **والله ورسوله أحق أن يُرضوه** ﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء ، ولا يكون ذلك إلاَّ بالطاعة ، والمتابعة ، وتعظيم أمره عليه السَّلام ﴿ **إن كانوا مؤمنين** ﴾ أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا الله ورسوله ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ أي ألم يعلم هٰؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول ، والاستفهام للتوبيخ ﴿ **فأنَّ له نار جهنم خالداً فيها** ﴾ أي فقد حقَّ دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ **ذلك الخزي العظيم** ﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير ، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد ﴿ **يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم** ﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿ **قل استهزئوا** ﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿ إعملوا ما شئتم ﴾ ﴿ **إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾ أي مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق ، قال الزمخشري : كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي ، حتى قال بعضهم : والله لا أرانا إلاَّ شر خلق الله ، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[1] ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب** ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هٰؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب ، في حقك وفي حق الإسلام ، ليقولون لك ما كنَّا جادين ، وإنما نمزح ونلعب للترويح عن النفس ، قال الطبري : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشَّام وحصونها هيهات هيهات !! فأطلع الله نبيه فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله : إنما كنَّا نخوض ونلعب فنزلت[2] ﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تهزئون** ﴾ أي قل لهٰؤلاء المنافقين : أتهزئون بدين الله وشرعه ، وكتابه ورسوله ؟ والاستفهام للتوبيخ .

---

(١) الكشاف ٢/٢٨٦ .   (٢) هذه رواية قتادة كذا في الطبري .

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿ **لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم ، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان ﴿ **إن نعف عن طائفة منكم** ﴾ أي إن نعف عن فريق منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿ **نعذب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين** ﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض** ﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد ، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أجزاء الشيء الواحد ، قال في الكشاف : وأريد بقوله ﴿ **بعضهم من بعض** ﴾ **نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم** ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾[1] ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿ **يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف** ﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطَّاعة ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ أي يمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمنسيين ﴿ **إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ أي الكاملون في التمرد والعصيان ، والخروج عن طاعة الرحمن ، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم** ﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلائهم في نار جهنم ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ **هي حسبهم** ﴾ أي هي كفايتهم في العذاب ، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿ **ولعنهم الله** ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿ **ولهم عذاب مقيم** ﴾ أي دائم لا ينقطع .

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

---

(١) الكشاف ٢/٢٨٧ .

وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُـمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ **كانوا أشد منكم قوة** ﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿ **وأكثر أموالاً وأولاداً** ﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً ، وأكثر أولاداً ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حلَّ بهم ﴿ **فاستمتعوا بخلاقكم** ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿ **فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها ﴿ **وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه ، قال الطبري : المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم ، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم ، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حلَّ بهم[1] ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلاَّ النَّار ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ أي أولئك هم الكاملون في الخسران ﴿ **ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم** ﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلَّ بهم من العقوبة ؟ ﴿ **قوم نوحٍ وعادٍ وثمود** ﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود « عاد » الذين أهلكوا بالريح ، وقوم صالح « ثمود » الذين أهلكوا بالصيحة ﴿ **وقوم إبراهيم** ﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿ **وأصحاب مدين** ﴾ قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿ **والمؤتفكات** ﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿ **أتتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذَّبوهم ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ أي فما أهلكهم الله ظلمًا إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي ، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام ؟

(١) الطبري ١٠/١٧٥ .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي هم إخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿ **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ أي يأمرون النَّاس بكل خير جميلٍ يرضي الله ، وينهون عن كل قبيح يسخط الله ، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿ **ويقيمون الصَّلاة** ﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿ **ويؤتون الزَّكاة** ﴾ أي يعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله ﴿ **ويطيعون الله ورسوله** ﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿ **أولئك سيرحمهم الله** ﴾ أي سيدخلهم في رحمته ، ويفيض عليهم جلائل نعمته ﴿ **إن الله عزيز** ﴾ أي غالب لا يُغلب من أطاعه ويذل من عصاه ﴿ **حكيم** ﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة ، في النعمة والنقمة ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنَّات وارفة الظلال ، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي لابثين فيها أبداً ، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿ **ومساكن طيبةً في جنَّات عدن** ﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنَّات الخلد والإقامة ، قال الحسن : هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[1] ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، وفي الحديث يقول الله تعالى لأهل الجنة : « يا أهل الجنَّة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك ! فيقول : أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[2] ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده .

---

(١) الكشاف ٢/٢٨٩ .
(٢) الطبري ١٠/١٨٢ والحديث في الصحاح .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

﴿ **يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ قال ابن عبَّاس : جاهد الكفَّار بالسيف ، والمنافقين باللسان ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والارعاب ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿ وبئس **المصير** ﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب ، قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال ابن سلول للأنصار ؛ ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلَّا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية[1] ﴿ **ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾ هي قول ابن سلول « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ قال ابن كثير : هم نفر من المنافقين همُّوا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً ﴿ **وما نقموا إلاَّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلَّا أن الله أغناهم ببركته ، ويُمن سعادته ، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب . . ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿ **فإن يتوبوا يك خيراً لهم** ﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿ **وإن يتولوا** ﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿ **يعذبهم الله عذاباً أليمًا** ﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿ **في الدنيا والآخرة** ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالنَّار وسخط الجبار ﴿ **وما لهم في الأرض من وليٍّ ولا نصير** ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب ، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب .

* وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ

(١) محاسن التأويل ٣٢٠٤/٨ .

﴿ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿ **لئن آتانا من فضله** ﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿ **لنصَّدقن ولنكوننَّ من الصَّالحين** ﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين ، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿ **فلما آتاهم من فضله** ﴾ أي فلما رزقهم الله من فضله ﴿ **بخلوا به وتولوا وهم معرضون** ﴾ أي بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ **فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه** ﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصدق والصَّلاح ﴿ **وبما كانوا يكذبون** ﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم** ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يعلم هٰؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ، ما يخفونه في صدورهم ، وما يتحدَّثون به بينهم ؟ ﴿ **وأن الله علاَّم الغيوب** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ؟ ﴿ **الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات** ﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿ **والذين لا يجدون إلاَّ جُهدهم فيسخرون منهم** ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلاَّ طاقتهم فيهزءون منهم ، روى الطبري عن ابن عبَّاس قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ ، وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من تمر ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلاَّ رياءً ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فنزلت[1] ﴿ **سخر الله منهم** ﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة[2] ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي عذاب موجع ، هو عذاب الآخرة المقيم .

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟

(١) الطبري ١٠/١٩٤ . (٢) المشاكلة : اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى .

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم** ﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿ **إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ قال الزمخشري : والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير[١] والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ **ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته ، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿ **فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف** رسول الله ﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلَّفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالفة له حين سار وأقاموا ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾ أي قال بعضهم لبعض : لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر ، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد ، قال أبو السعود : وإنما قال ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ على قوله « وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو » إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجلِّ الرغائب ، وأشرف المطالب ، التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر ، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكراهية الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك[٢] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً** ﴾ أي قل لهم يا محمد : نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود ، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى ، وحر جهنم دائم لا يفتر ، فما لكم لا تحذرون نار جهنم ؟ قال الزمخشري : وهذا استجهال لهم ، لأن من تصوَّن من مشقة ساعة ، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل[٣] ﴿ **لو كانوا يفقهون** ﴾ أي لو كانوا يفهمون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر ، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم « كالمستجير من الرمضاء بالنَّار » ﴿ **فليضحكوا**

---

(١) الكشاف ٢/٢٩٥ . (٢) أبو السعود ٢/٢٨٦ . (٣) الكشاف ٢/٢٩٦ .

قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ أمر يراد به الخبر معناه : فسيضحكون قليلاً ، وسيبكون كثيراً ، قال ابن عبَّاس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عَزَّ وَجَلّ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً[1] ﴿ **جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ أي جزاءً لهم على ما اجترحوا من فنون المعاصي .

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم** ﴾ أي فإن ردَّك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلَّفوا بغير عذر ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿ **فقل لن تخرجوا معي أبداً** ﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿ **ولن تقاتلوا معي عدواً** ﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله ، وهو خبر معناه النهي للمبالغة ، جارٍ مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرَّة** ﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرَّة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿ **ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً** ﴾ أي لا تصلِّ يا محمد على أحدٍ من هٰؤلاء المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك رحمة ، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أي لا تقف على قبره للدفن ، أو للزيارة والدعاء ﴿ **إنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ **وماتوا وهم فاسقون** ﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ، نزلت في ابن سلول[2] ﴿ **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم** ﴾ أي ولا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿ **إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا** ﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب .

(١) مختصر ابن كثير ٢ / ١٦٠ .
(٢) أنظر سبب النزول

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿ **أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله** ﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين ، وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿ **استأذنك أولوا الطول منهم** ﴾ أي استأذنك في التخلف أُولو الغنى والمال الكثير ﴿ **وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين** ﴾ أي دعنا نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر ، قال تعالى تقبيحاً لهم وذماً ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلَّفوا في البيوت ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ أي ختم عليها ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة ، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿ **لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ قال الرازي : لما شرح حال المنافقين ، بيَّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه ، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه[1] والمعنى : إن تخلف هٰؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خير منهم وأخلص نية واعتقاداً ﴿ **وأولئك لهم الخيرات** ﴾ أي لهم منافع الدَّارين : النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أي الفائزون بالمطلوب .

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

﴿ **أعدَّ الله لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي أعدَّ الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي لابثين في الجنَّة أبداً ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾

---

(١) الرازي ١٦/١٥٧ .

أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿ **وجاء المعذِّرون من الأعراب** ﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتخلَّفوا عن الجهاد ﴿ **ليؤذن لهم** ﴾ أي في ترك الجهاد ، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة ، قال البيضاوي : هم « أسد » و « غطفان » استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال[1] ﴿ **وقعدوا الذين كذَبوا الله ورسوله** ﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذَّبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هٰؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا ، والنَّار في الآخرة ﴿ **ليس على الضعفاء ولا على المرضى** ﴾ أي ليس على الشيوخ المسنين ، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿ **ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون** ﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿ **حـرج** ﴾ أي إثم في القعود ﴿ **إذا نصحوا لله ورسوله** ﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصَّالح ، فلم يرجفوا بالنَّاس ولم يثبطوهم ولم يثيروا الفتن ، فليس على هٰؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ، قال في التسهيل : وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[2] ، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه : **لا** سبيل لعاتب عليهم ، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه ، قال البيضاوي : هم البكاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال عليه السَّلام : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون[3] ﴿ **قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿ **تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً** ﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿ **ألاَّ يجدوا ما ينفقون** ﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم ، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه .

* إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ

(١) البيضاوي ٢٣٠ . (٢) التسهيل ٢/٨٣ . (٣) البيضاوي ٢٣٠ .

بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

﴿ **إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء** ﴾ أي إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿ **وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون** ﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون . ﴿ **يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم** ﴾ أي يعتذر إليكم هٰؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿ **قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم** ﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما في ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله** ﴾ أي وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ﴿ **ثم تُردُّون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية ، ولا تخفى عليه خافية ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها ، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿ **سيحلفون بالله لكم** ﴾ أي سيحلف لكم بالله هٰؤلاء المنافقون ﴿ **إذا انقلبتم إليهم** ﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿ **لتُعرضوا عنهم** ﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿ **فأعرضوا عنهم** ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ واجتناب ، وخلُّوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق ، قال ابن عبَّاس : يريد ترك الكلام والسَّلام[١] ثم ذكر تعالى العلَّة فقال : ﴿ **إنهم رجس** ﴾ أي لأنهم كالقذر لخبث باطنهم ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿ **جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ أي جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا ، وما اكتسبوه من الآثام ﴿ **يحلفون لكم لترضوا عنهم** ﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة ، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿ **فإن ترضوا عنهم فإن الله لا** يرضى عن **القوم الفاسقين** ﴾ أي فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم ، قال أبو السعود : ووضع الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطَّاعة[٢] .

(١) الرازي ١٦/١٦٤ . (٢) أبو السعود .

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ
سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾ الأعراب ـ أهل البدو ـ أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصَّلاح ﴿ **وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ أي وهم أولى بألاَّ يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع ، قال في البحر : وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ، فقد نشأوا كما شاءوا ، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة[1] ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عليم بخلقه حكيم في صنعه ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً** ﴾ أي ومن هٰؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً ، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجوا له ثواباً ﴿ **ويتربص بكم الدَّوائر** ﴾ أي ينتظر بكم المصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أي ومن الأعراب من يصدِّق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿ **ويتخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله** ﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته ﴿ **وصلوات الرسول** ﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿ **ألاَ إنها قربةٌ هم** ﴾ ﴿ **ألاَ** ﴾ أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿ **سيدخلهم الله في رحمته** ﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطَّاعة .

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ

(١) البحر المحيط .

مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿ **والسَّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار** ﴾ أي والسَّابقون الأولون في الهجرة والنصرة ، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة[1] ﴿ **والذين اتَّبعوهم بإحسان** ﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة ، وهم التَّابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون ، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم ، قال الطبري : رضي الله عنهم لطاعتهم إيَّاه وإجابتهم نبيه ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطَّاعة والإيمان ﴿ **وأعدَّ لهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي وأعدَّ لهم في الآخرة جنَّات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿ **خالدين فيها أبداً** ﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، قال في البحر : لمَّا بيَّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين ، بيَّن حال هؤلاء السَّابقين ، ولكن شتان ما بين الثنائين فهناك قال ﴿ **أَلَا إنَّها قُرْبَـةٌ لهم** ﴾ وهنا قال ﴿ وأعدَّ لهم جنَّات تجري تحتها الأنهار ﴾ وهناك ختم ﴿ إنَّ الله غفور رحيم ﴾ وهنا ختم ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾[2] ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون** ﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب ، منازلهم قريبة من منازلكم ﴿ **ومن أهل المدينة** ﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ أي لجوا في النفاق واستمروا عليه ، قال ابن عبَّاس : مرنوا عليه وثبتوا منهم ابن سلول ، والجلاس ، وأبو عامر الراهب[3] ﴿ **لا تعلمهم نحن نعلمهم** ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين ، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿ **سنعذِّبهم مرَّتين** ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ **ثم يُردون إلى عذاب عظيم** ﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النَّار ، الذي أعدَّه الله للكفَّار والفجار .

---

(١) روي عن الشعبي أنهم الذين بايعوا بيعة الرضوان وقيل : هم الذين صلُّوا إلى القبلتين وما ذكرناه أنهم جميع الصحابة وهم السَّابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه الطبري واختاره الفخر الرازي .

(٢) البحر ٩٢/٥ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٤٩١/٣ .

وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم** ﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة ، قال الرازي[1] : هم قوم من المسلمين تخلَّفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم ، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾ أي خلطوا جهادهم السَّابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيء وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرَّة ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ أي لعلَّ الله يتوب عليهم ، قال الطبري : وعسى من الله واجب ومعناه : سيتوب الله عليهم ، ولكنه في كلام العرب بمعنى التَّرجي على ما وصفت[2] ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي ذو عفو لمن تاب ، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ أي خذ يا محمد من هٰؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار ، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿ **وصلِّ عليهم إن صلاتك** سكن **لهم** ﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم ، قال ابن عبَّاس : ﴿ سكنٌ لهم ﴾ رحمة لهم ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أي سميع لقولهم عليم بنيَّاتهم ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التَّوبة عن عباده** ﴾ الاستفهام للتقرير أي ألم يعلم أولئك التَّائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ، ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ أي يتقبلها ممن أخلص النية ﴿ **وأَن الله هو التَّواب الرحيم** ﴾ أي وان الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة ، لقوله ﴿ غافر الذنب قابل التَّوب ﴾ ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله ، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿ **وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي وستردُّون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

---

(١) الرازي ١٧٤/١٦ . (٢) الطبري ١٢/١١ .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ **وآخرون مُرجون لأمر الله** ﴾ أي وآخرون من المتخلفين مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ، قال ابن عبَّاس : هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار ، وكانوا من أصحاب بدر ، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى[١] إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم ، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿ **إما يعذبهم وإمَّا يتوب عليهم** ﴾ أي إمَّا أن يعذبهم إن لم يتوبوا ، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم ، وهؤلاء الثلاثة المذكورين في قوله تعالى ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم النَّاس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً** ﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر وسموه مسجداً ، مضارة للمؤمنين[٢] ، وقد اشتهر باسم « مسجد الضرار » ﴿ **وكفراً** ﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿ **وتفريقاً بين المؤمنين** ﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿ **وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل** ﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلَّا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له ، قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلَّى فيه ، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلَّب عليه[٣] ﴿ **وليحلفنَّ إن أردنا إلَّا الحسنى** ﴾ أي وليقسمن ما أردنا ببنائه إلَّا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلِّين ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف ، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد ، ثم نهى تعالى رسوله عن الصَّلاة في مسجد الضرار فقال ﴿ **لا تقم فيه أبداً** ﴾ أي لا تصلِّ فيه يا محمد أبداً لأنَّه لم يُبْنَ إلَّا ليكون معقلاً لأهل النفاق ﴿ **لمسجد أسِّس على التقوى** ﴾

---

(١) أبو السعود ٢/٢٩٥ . (٢) أنظر سبب النزول . (٣) الطبري ١١/٢٥ .

اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿ **من أول يوم** ﴾ أي من أول يوم ابتدىء في بنائه ﴿ **أحق أن تقوم فيه** ﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلِّي فيه من مسجد الضرار ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء ـ وهم الأنصار ـ يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي ﴿ **والله يحب المتطهرين** ﴾ أي المبالغين في الطَّهارة الظَّاهرة والباطنة .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال : ﴿ **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان** ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى : هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلب لمرضاته بالطَّاعة ﴿ **خير أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ** ﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف وادٍ متصدع مشرف على السقوط ؟ ﴿ **فإنها ر به في نار جهنم** ﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿ **والله لا يهدي القوم الظَّالمين** ﴾ أي لا يوفق الظَّالمين إلى السداد ، ولا يهديهم سبيل الرشاد ، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص ، والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال ، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط ؟ ﴿ **لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم** ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شكٌ ونفاقٌ ، وغيظ وارتياب بسبب هدمه ، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين ، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرَّقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله ، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ﴿ **إلاَّ أن تقطع قلوبهم** ﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلاَّ أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين ، حكيم في تدبيره إيَّاهم ومجازاتهم بسوء نياتهم . ﴿ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم**

الجنَّـــة ﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين ، مَثَّل تعالى جزاءهم بالجنَّـة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة **عقد فيه بيع** وشراء ، قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن[١] وانظروا إلى كرم الله ، أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، ثم وهبها لهم ، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة ، وقال بعضهم : ناهيك عن بيعٍ البائعُ فيه المؤمن ، والمشتري فيه رب العزَّة والثمن فيه الجنَّة ، والصك فيه الكتب السماوية ، والواسطة فيه محمد عليه الصَّلاة والسلام ﴿ **يقاتلون في سبيل الله** ﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿ **فيقتلون ويُقتلون** ﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم ، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿ **وعداً عليه حقاً** ﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿ **في التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن » ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جلَّ وعلا ، قال الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ[٢] ﴿ **فاستبشروا ببَيْعكم الذي بايعتم به** ﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرَّابح وافرحوا به غاية الفرح ﴿ **وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه .

ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ **التَّائبون العابدون الحامدون** ﴾ كلام مستأنف ، قال الزجاج : مبتدأ خبره محذوف أي التَّائبون العابدون من أهل الجنَّة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ والمعنى التَّائبون عن المعاصي ، العابدون أي المخلصون في العبادة ، الحامدون لله في السرَّاء والضرَّاء ﴿ **السَّائحون** ﴾ أي السَّائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم ، من السياحة وهي السير والذهاب

(١) الطبري ١١/٣٥ والرازي ١٦/١٩٩ .
(٢) الكشاف ٢/٣١٤ .

في المدن والقفار للعظة والاعتبار[1] ﴿ **الرَّاكعون السَّاجدون** ﴾ أي المصلون ﴿ **الآمرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكر** ﴾ أي الدَّاعون إلى الله ، يدعون النَّاس إلى الرشد والهدى ، وينهون عن الفساد والردى ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ أي المحافظون على فرائض الله ، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام ، قال الطبري : أي المؤدون فرائض الله ، المنتهون إلى أمره ونهيه[2] ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ أي بشرهم بجنَّات النعيم ، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر ، بل لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿ **ولو كانوا أولي قربى** ﴾ أي ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿ **من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر ، والآية نزلت في أبي طالب[3] ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه** ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿ **إلاَّ عن موعدةٍ وعدها إيَّاه** ﴾ أي إلاَّ من أجل وعدٍ تقدَّم له بقوله ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه** ﴾ أي فلما تبين لإبراهيم أنَّ أباه مصرٌ على الكفر ومستمر على الكفر ، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له ، ثم بيَّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿ **إن إبراهيم لأوَّاه** ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرَّحمة ورقة القلب ﴿ **حليم** ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿ لئن لم تنته لأرجمنَّك ﴾ فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك ، قال أبو حيان : ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يُقتدى به بيَّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو الوعد الذي كان وعده به ، فكان يرجوا إيمانه فلما تبيَّن له من جهة الوحي أنه عدو لله ، وأنه يموت كافراً ، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره[4] .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى

---

(١) فسر بعضهم « السائحون » بأنهم الصائمون وقال عطاء : هم الغزاة ، وقال ابن زيد : هم المهاجرون وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر الرازي وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ والله أعلم .

(٢) الطبري ١١/٣٩ . (٣) أنظر سبب النزول . (٤) البحر المحيط ٥/١٠٥ .

ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿ **وما كان الله ليضل قوماً** ﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم[١] أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿ **بعد إذ هداهم** ﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿ **حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الإضلال ﴿ **إن الله له ملك السمٰوات والأرض** ﴾ أي له سلطان السمٰوات والأرض وملكهما ، وكل من فيهما عبيده ومماليكه ﴿ **يحيي ويميت** ﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿ **وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير** ﴾ أي ما لكم أيها النَّاس من أحد غير الله تلجأون إليه أو تعتمدون عليه ، قال الألوسي : لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى ، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم ، بيَّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود ، ومتولي أمره ، والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلَّا منه تعالى ، ليتوجهوا إليه بكليتهم ، متبرئين عمن سواه ، غير قاصدين إلَّا إيَّاه[٢] ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار** ﴾ أي تاب على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف ، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك ، حيث تباطأ بعضهم ، وتثاقل عن الجهاد آخرون ، والغرض التوبة على من تخلَّفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، وصدَّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويهاً لشأنهم ، وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلَّا وهو محتاج إلى التَّوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار[٣] ﴿ **الذين اتَّبعوه في ساعة العسرة** ﴾ أي اتَّبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر ، وقلة الزَّاد ، والضيق الشديد روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرَّجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه ، فقال أبو بكر يا رسول الله ! إن الله قد عوَّدك في الدّعاء خيراً فادع لنا ، قال : تحب ذلك ؟ قال : نعم . فرفع يديه فلم

(١) التسهيل ٢/٨٦ . (٢) روح المعاني ١١/٣٩ . (٣) أنظر الكشاف ٢/٣١٦ .

يرجعهما حتى سكبت السماء فملأوا ما معهم ، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[١] ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم ﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب ، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿ إنَّه بهم رءوف رحيم ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين .

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

﴿ وعلى الثَّلاثة الذين خُلِّفُوا ﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلَّفوا عن الغزو ، وهم « كعب ، وهلال ، ومرارة »[٢] ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهم ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك بسبب أن الرسول عليه السَّلام دعا لمقاطعتهم ، فكان أحدهم يفشي السَّلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤ هم وأهلوهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه ﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه ، إلاَّ بالرجوع والإنابة إليه سبحانه ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة ، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿ إن الله هو التَّواب الرحيم ﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعظمت ، المتفضل على العباد بالرحمة الشَّاملة ﴿ يأَيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ﴾ عتاب لمن تخلَّف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلَّفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ

(١) الطبري ١١/٥٥ . (٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي ، وفي الطبري ١١/٥٨ ٧

﴿ **ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه** ﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السَّلام ، بل عليهم أن يفدوه بالمُهَج والأرواح ، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب ، قال الزمخشري : أُمروا بأن يصحبوه على البأساء والضرَّاء ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علمًا بأنها أعزّ نفس على الله وأكرمها عليه ، لا أن يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام[1] ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ** ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب انهم لا يصيبهم عطش ﴿ **ولا نصب** ﴾ أي ولا تعب ﴿ **ولا مخمصة** ﴾ أي ولا مجاعة ﴿ **في سبيل الله** ﴾ أي في طريق الجهاد ﴿ **ولا يطأون موطئاً** ﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفّار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿ **يغيظ الكفار** ﴾ أي يغضب الكفار وطؤها ﴿ **ولا ينالون من عدو نيلاً** ﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسر أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿ **إلاَّ كُتِبَ لهم به عمل صالح** ﴾ أي إلاَّ كان ذلك قربة لهم عند الله ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ **ولا ينفقون نفقةً صغيرة ولا كبيرة** ﴾ قال ابن عبَّاس : تمرة فما فوقها ﴿ **ولا يقطعون وادياً** ﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿ **إلاَّ كتب لهم** ﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم ، قال الألوسي : على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاء أحسن ، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء[2] ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو[3] بحيث تخلوا منهم البلاد ، روي عن ابن عبَّاس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيشٍ أو سرية أبداً ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت الآية[4] ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم**

(١) الكشاف ٢/٣٢١ .
(٢) روح المعاني ١١/٤٧ .
(٣) وقيل : المراد أن ينفروا لطلب العلم .
(٤) الرازي ١٦/٢٢٥ .

طائفة ﴾ أي فإذا لم يمكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلَّهم يحذرون ﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلَّهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، قال الألوسي : وكان الظَّاهر أن يقال ﴿ ليعلِّموا ﴾ بدل ﴿ لينذروا ﴾ و ﴿ يفقهون ﴾ بدل ﴿ يحذرون ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار[1] ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم ، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد هٰؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

﴿ وإذا ما أُنزلت سورة ﴾ أي من سور القرآن ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ أي فمن هٰؤلاء المنافقين من يقول استهزاء : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن كأنهم يقولون : أي عجب في هذا وأي دليل في هذا ؟ يقول تعالى ﴿ فأمَّا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ أي فأمَّا المؤمنون فزادتهم تصديقاً وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿ وهم يستبشرون ﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلَّما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿ وأمَّا الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي وأمَّا المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم ، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿ أَوَ لا يَرَوْنَ أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرَّتين ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أَوَ لا يرى هٰؤلاء

---

(١) روح المعاني ١١/٤٨ .

المنافقون الذين تُفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرَّتين حين ينزل فيهم الوحي ؟ ﴿ **ثم لا يتوبون ولا هم يَذَّكَّرون** ﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا** ﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عين المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ **نظر بعضهم لبعض هل يراكم** أحد من المسلمين لننصرف ، فإنّا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ جملة دعائية أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حمقى غافلون ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر ، من جنسكم عربي قرشي ، يُبلغكم رسالة الله ﴿ **عزيز عليه ما عنتم** ﴾ أي يشق عليه عنتكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿ **حريص عليكم** ﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين ، شديد الشفقة والرحمة عليهم ، قال ابن عبَّاس : سماه باسمين من أسمائه[1] ﴿ **فإن تولوا فقل حسبي الله** ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل يكفيني ربي ﴿ **لا إله إلاَّ هو** ﴾ أي لا معبود سواه ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أي عليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء ، لكونه أعظم الأشياء ؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلاَّ الله تعالى .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبـــة)

(١) زاد المسير ٣/٥٢١ .

(١٠) سورة يونس مكية وآياتها تسع ومائة

بين يدي الســــــورة

سورة يونس من السور المكية التي تُعْنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالكتب ، والرسل ، والبعث والجزاء » وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية ، وبوجه أخص إلى « القرآن العظيم » خاتمة الكتب المنزلة ، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول ، وبيَّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين ، فما من أمةٍ إلا بعث الله إليها رسولاً ، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿ **أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . . .** ﴾ ؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة « **الألوهية** » و « **العبودية** » وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرَّفت الناسَ بربهم الحقِّ الذي ينبغي أن يعبدوه ، وأن يُسلموا وجوههم إليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبِّر الحكيم ، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿ **إنَّ ربكم اللهُ الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام . . .** ﴾ الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة ، الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة ، وأمراء البيان ﴿ **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ .

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإلّـه الحق ، بذكر آثار قدرته ورحمته ، الدالة على التدبير الحكيم ، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿ **قل من يرزقكم من السمواتِ والأرض ؟ أمَّنْ يملك السمع والأبصار . . .** ﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحدانية الله جل وعلا ، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية .

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله « يونس » ـ الذي سميت السورة باسمه ـ وكلٌ هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله ، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿ **واتَّبعْ ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ .

التســــمية : سميت السورة « **سورة يونس** » لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم .

تفسـير سـورة يونـس

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

﴿ **آلـر** ﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز ، مكوَّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم ، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألَّف آيات الكتاب الحكيم ، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه[1] ﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ أي هذه آيات القرآن المُحْكَم المبين الذي لا يدخله شك ، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿ **أَكَان للنَّاس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم** ﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤ نا إلى رجل منهم هو محمد عليه السَّلام ؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السَّالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿ **أن أنذر النَّاس** ﴾ أي أوحينا إليه بأن خوِّف الكفار عذاب النَّار ﴿ **وَبَشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صدقٍ عند ربهم** ﴾ أي وأنْ بَشِّر المؤمنين بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدَّموا من صالح الأعمال ﴿ **قَالَ الكَافِرونَ إنَّ هَذَا لساحرٌ مبينٌ** ﴾ أي ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن ، قال المشركون : إنَّ محمداً لساحرٌ ظاهر السحر ، مبطلٌ فيما يدَّعيه ، قال البيضاوي : وفيه اعترافٌ بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة ، معجزة إيَّاهم عن المعارضة ، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر[2] ﴿ **إنَّ ربكُم اللهُ الذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرض في ستة أيَّام** ﴾ أي إن ربَّكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تفردوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من الدنيا ، ولو شاء لخلقهنَّ في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ ،

(١) أنظر ما كتبناه في أول سورة البقرة . (٢) البيضاوي ٢٣٥ .

ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، قال ابن كثير : نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصَّالح ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل ، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌ عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ، فقد سلك سبيل الهدى[1] وقال أبو السعود : استوى على العرش على الوجه الذي عناه ، وهو صفة له سبحانه بلا كيف ، منزهاً عن التمكن والاستقرار ، وهذا بيانٌ لجلالة ملكه وسلطانه ، بعد بيان عظمة شأنه[2] ﴿ **يدبِّر الأمـر** ﴾ أي يدبِّر الأمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، قال ابن عبَّاس : لا يشغله في تدبير خلقه أحد ﴿ **ما من شفيع إلاَّ من بعد إذنه** ﴾ أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلاَّ بعد أن يأذن له في الشَّفاعة ، وفي هذا رد على المشركين في زعمهم أن الأصنام تشفع لهم ﴿ **ذلكم الله ربكم فاعبدوه** ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن هو ربكم وخالقكم لا ربَّ سواه ، فوحّدوه بالعبادة ﴿ **أفلا تذكَّرون** ﴾ أي أفَلا تتعظون وتعتبرون ؟ تعلمون أنه المتفرد بالخلق ثم تعبدون معه غيره .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

﴿ **إليه مرجعكم جميعاً** ﴾ أي إلى ربكم مرجعكم أيها النَّاس يوم القيامة جميعاً ﴿ **وَعْدَ ٱللَّهِ حَقاً** ﴾ أي وعداً من الله لا يتبدَّل ، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا ﴿ ما هي إلاَّ حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاَّ الدهر ﴾ ﴿ **إنَّه يَبْدَؤُاْ الخلق ثم يعيده** ﴾ أي كما ابتدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ **ليجزي الذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحات بالقِسْطِ** ﴾ أي ليجزي المؤمنين بالعدل ، ويوفِّيهم أجورهم بالجزاء الأوفى ﴿ **والذين كفروا** ﴾ أي والذين جحدوا بالله وكذَّبوا رسله ﴿ **لهم شرابٌ من حميم** ﴾ أي لهم في جهنَّم شرابٌ من حميم ، بالغ النهاية في الحرارة ﴿ **وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ أي ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وإشراكهم ، قال البيضاوي : والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه

(١) المختصر ٢/٢٥ وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف . (٢) أبو السعود ٢/٣٠٧ .

لا محالة[١] ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء** ﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهَّاج ﴿ **والقمر نوراً** ﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد ، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خُصَّت بالضياء ، لأنه هو الذي له سطوعٌ وَلَمَعَان ، قال الطبري : المعنى أضاء الشمس وأنار القمر[٢] ﴿ **وقدَّره منازل** ﴾ أي قدَّر سيره في منازل وهي البروج ﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ أي لتعلموا أيها النَّاس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ **ما خلق الله ذلك إلاَّ بالحق** ﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة ، وفائدة جليلة ﴿ **يفصِّل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أي يبيِّن الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ، ويتدبرون حكمته ، قال أبو السعود : أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جلَّ وَعَلا[٣] ﴿ **إن في اختلاف الليل والنهار** ﴾ أي في تعاقبهما يأتي الليل فيذهب النهار ، ويأتي النهار فيذهب الليل ﴿ **وما خلق الله في السموات والأرض** ﴾ أي وما أوجد فيهما من أصناف المصنوعات ﴿ **لآياتٍ لقوم يتقون** ﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جليلة ، على وجود الصَّانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ، لقومٍ يتقون الله ويخافون عذابه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾

﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم ، فقد أعمتهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا** ﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة ، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿ **واطمأنوا بها** ﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿ **والذين هم عن آياتنا غافلون** ﴾ أي وهم عن الأدلة المنبثة في صحائف الأكوان غافلون ، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ﴿ **أولئك مأواهم النَّـارُ** ﴾ أي مثواهم ومقامهم النَّار ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أي

(١) البيضاوي ٢٣٦ . (٢) الطبري ١١/٨٦ . (٣) أبو السعود ٢/٣١٠ .

بسبب كفرهم وإجرامهم ، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنَّة بسبب إيمانهم ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار في جنَّات النعيم** ﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرَّتهم وهم مقيمون في جنَّات النعيم ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللَّهُمَّ** ﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللَّهُمَّ وفي الحديث (يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النَّفس) أي كلامهم في الجنَّة تسبيح الله ﴿ **وتحيَّتُهم فيها سلام** ﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلامٌ عليكم كما تحيِّيهم بذلك الملائكة ﴿ والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم ﴾ ﴿ **وآخر دعوَاهم أن الحمد للهِ ربِّ العالمين** ﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله ربِّ العالمين ﴿ **ولو يُعَجِّل اللهُ للنَّاس الشرَّ استعجالهم بالخير** ﴾ قال مجاهد : هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب ، اللهم أهلكْه ، اللهم لا تبارك فيه ، قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء النَّاس في الشَّر وفيما عليهم فيه مضرَّة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿ **لقُضي إليهم أجلهم** ﴾ أي لهلكوا وعُجِّل لهم الموت[1] ﴿ **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ أي فنترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿ **في طغيانهم يعمهون** ﴾ أي في تمردهم وعتوهم يتردَّدون تحيراً والمعنى : نترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ** ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضرُّ من مرضٍ أو فقر أو نحو ذلك ﴿ **دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائمًا** ﴾ أي دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً أو قاعداً أو قائمًا لكشف ذلك الضُّر عنه ﴿ **فلمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَـرَّ كَأَنْ لم يدعنا إلى ضرٍّ مَسَّـهُ** ﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضرّ استمرَّ على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجَهْد والبلاء أو تناساه ، وهو عتابٌ لمن يدعو الله عند

(١) الطبري ١١/٩١ ، وقال بعض المفسرين : نزلت في كفَّار مكة حيث قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء ﴾ قال الزمخشري : يعني : لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لأميتوا وأهلكوا ا.هـ الكشاف ٢/٣٣٢ .

الضر ، ويغفل عنه عند العافية ﴿ **كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ أي كما زُيِّن لذلك الإنسان الدعاء عند الضرِّ والإعراضُ عند الرَّخاءِ ، كذلك زُيِّن للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام ، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ، ومتابعة الشهوات ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمَّا ظلموا** ﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وتمادَوا في الغيِّ والضلال ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيئان : ظلمهم ، وعدم إيمانهم ﴿ **كذلك نجزي القوم المجرمين** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم ، وهو وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ ﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم** ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿ **لننظر كيف تعملون** ﴾ أي لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم ، قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل[1] ، وقال في التسهيل : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة[2] والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبيَّن في الوجود ما علمه تعالى أزلاً .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات** ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، حال كونها واضحات لا لَبْس فيها ولا إشكال ﴿ **قال الذين لا يرجون لقاءنا** ﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب ، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿ **ائت بقرآن غير هذا** ﴾ أي ائت يا محمد بكتاب آخر غير هذا القرآن ، ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا ، ﴿ **أو بدِّله** ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان سب آلهتنا مدحهم ، ومكان الحرام حلالاً ، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية ، قال ابن عبَّاس : نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا

(١) القرطبي ٨/٣١٨ . (٢) التسهيل ٢/٩٠ .

يا محمد : ائتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[١] ﴿ **قل ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي** ﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيِّر أو أبدِّل شيئاً من قبل نفسي ﴿ **إن أتَّبع إلاَّ ما يوحى إليَّ** ﴾ أي لا أتَّبع إلاَّ ما يوحيه إليَّ ربِّي ، فأنا عبد مأمور ، ورسولٌ مبلِّغ ، أبلِّغكم رسالة الله ﴿ **إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم** ﴾ أي إني أخشى إن خالفت أمره ، وبدَّلتُ وحيه ، عذاب يوم شديد الهَوْل هو يوم القيامة ، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوْته عليكم** ﴾ أي قل لهم يا محمد لو شاء الله ما تلوتُ هذا القرآن عليكم ، وما تلوته إلاَّ بمشيئته تعالى ، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿ **ولا أدراكُم به** ﴾ أي ولا أعلمكم به على لساني ﴿ **فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله** ﴾ أي فقد مكثتُ بين أظهركم زمناً طويلاً ، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنَّ مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلاَّ من عند الله ؟ قال الإمام الفخر : إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله ، وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ، ولا تعلَّم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ، والفصحاء ، والبلغاء ، وكلُّ من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلاَّ على سبيل الوحي والتنزيل[٢] .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿ **أو كذَّب بآياته** ﴾ أي كذَّب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذَّب الرسل الكرام ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضُرُّهم ولا يَنْفَعُهُم** ﴾ بيانٌ لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي

(١) البحر ١٣١/٥ . (٢) الرازي ٥٧/١٧ .

جمادات لا تقدر على جلب نفعٍ أو دفع ضر ﴿ **ويقولون هٰؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿ **قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض** ﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أتخبرون الله تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ كائن في السمٰوات أو الأرض لا يعلمه جلَّ وعلا ، وهو علَّام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿ **سبحانه وتعالى عمَّا يشركون** ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يقول الظَّالمون ، وينسبه إليه المشركون ﴿ **وما كان النَّاس إلاَّ أمَّـــة واحدَةً فاختلفوا** ﴾ أي وما كان النَّاس إلاَّ على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلفوا في دينهم وتفرَّقوا شيعاً وأحزاباً ، قال ابن عبَّاس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين النَّاس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين(١) ﴿ **وَلَوْلَا كَلمةٌ سبقت من ربك** ﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿ **لقُضي بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾ أي لعُجِّل عقابهم في الدنيا بإختلافهم في الدِّين .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ **ويقولون لولا أُنزل عليه آية من ربه** ﴾ أي ويقول هٰؤلاء الكفرة المعاندون هلَّا أنزل على محمد معجزة من ربِّه كما كان للأنبياء من النَّاقة والعصا واليـد ﴿ **فقل إنما الغيب لله** ﴾ أي قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلاَّ هو وإنما أنا مبلِّغ ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فإنا ممن ينتظر ذلك . ﴿ **وإذا أذقنا النَّاس رحمة من بعد ضرَّاء مستهم** ﴾ المراد بالنَّاس كفار مكة رُوي أن الله سلَّط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعوا لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد والمعنى : وإذا أذقنا هٰؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة ، وخصباً بعد جدب أصابهم ﴿ **إذا لهم مكرٌ في**

(١) المختصر ٢/١٨٨ .

آياتنا ﴾ قال مجاهد : استهزاءً وتكذيب ﴿ **قل الله أسرع مكراً** ﴾ أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم[١] ﴿ **إنَّ رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ أي إن الملائكة الحفظة يكتبون مكركم ويسجِّلون إجرامكم ، وفيه تنبيهٌ على أن ما دبَّروه غير خافٍ على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿ **هو الذي يسيِّركُم في البرِّ والبحر** ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب ، وفي **البحر** على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿ **حتى إذا كنتم في الفُلْك** ﴾ أي **حتى إذا** كنتم في البحر على ظهور هذه السفن ﴿ **وجريْن بهم بريح طيبة** ﴾ فيه التفاتٌ أي وجرين بهم بالريح اللَّينة الطرية التي تسيرُ السفن ﴿ **وفرحوا بها** ﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿ **جاءتها ريح عاصفٌ** ﴾ أي وفجأةً جاءتها الريح الشديدة العاصفة المدمِّرة ﴿ **وجاءهم الموج من كل مكان** ﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿ **وظنوا أنهم أحيط بهم** ﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿ **دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أي أخلصوا الدُّعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون ، قال القرطبي : وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ، لانقطاع الأسباب ، ورجوعه إلى ربّ الأرباب[٢] ﴿ **لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين** ﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكوننَّ من الشَّاكرين لك على نعمائك ، والعاملين بطاعتك ومرضاتك ، قال في البحر : ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها ، وقال الحسن : **مخلصين** لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلاَّ الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري[٣] .

فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ **فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ أي فلما خلَّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي ، قال ابن عبَّاس : يبغون بالدعاء فيدعون الله ويعملون

(١) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سمَّاه مكراً مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب .

(٢) القرطبي ٨/٣٢٥ . (٣) البحر ٥/١٣٩ .

بالمعاصي[١] قال تعالى رداً عليهم ﴿ **يأَيها النَّاسُ إنما بَغْيُكم على أنفسكم** ﴾ أي وبالُ البغي عليكم ، ولا يجني ثمرته إلاَّ أنتم ﴿ **مَتَاعَ الحياة الدنيا** ﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية ، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ **ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها ، وفي هذا وعيدٌ وتهديد . والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجحود ، لا يذكر الله إلاَّ في ساعة العسرة ، ولا يرجع إليه إلاَّ وقت الكرب والشِّدة ، فإذا نجَّاه الله من الضيق ، وكشف عنه الكرب ، رجع إلى الكفر والعصيان ، وتمادى في الشرِّ والطغيان . ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض** ﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار النَّاس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عبَّاس : اختلط فنبت بالماء كلُّ لون[٢] ﴿ **مما يأكلُ النَّاسُ والأنْعَامُ** ﴾ أي مما يأكله النَّاس من الحبوب والثمار والبقول ، والأنعامُ من الكلأ والتبن والشعير ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفَها** ﴾ أي أخذت حسنها وبهجتها ﴿ **وازَّينت** ﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار ، وهو تمثيلٌ بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿ **وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها** ﴾ أي وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصّلون لثمرتها وغلَّتها ﴿ **أتاها أمرنا ليلاً أو نهارًا** ﴾ أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النَّبات إمَّا ليلاً وإمَّا نهاراً ﴿ **فجعلناها حصيداً** ﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿ **كأن لَمْ تغن بالأمس** ﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿ **كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أي مثل ما بيَّنا هذا المثل الرَّائع للحياة الدنيا نبيِّن الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال ، قال الألوسي : وتخصيصُهم بالذكر لأنهم المنتفعون[٣] .

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ

﴿ **والله يدعو إلى دار السَّلام** ﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ﴿ **ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿ **للذين أحسَنُوا الحُسْنَىٰ** ﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصَّالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿ **وزيادة** ﴾

(١) نفس المرجع السَّابق ٥/١٤٠ . (٢) الطبري ١١/١٠٢ . (٣) روح المعاني ١١/١٠٢ .

وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

وهي النظر إلى وجه الله الكريم[١] ﴿ **ولا يَرْهَقُ وجوههم قَتَرٌ** ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النَّار ﴿ **ولا ذلة** ﴾ أي هوانٌ وصغارٌ ﴿ **أولئك أصحاب الجنَّة هم فيها خالدون** ﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئةٍ بمثلها** ﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون عل السَّيئةِ بمثلها لا يزادون على ذلك ، فالحسناتُ مضاعفة بفضل الله ، والسيئات جزاؤ ها بالمثل عدلاً منه تعالى[٢] ﴿ **وترهقهم ذلة** ﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿ **ما لهم من الله من عاصم** ﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿ **كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمًا** ﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿ **أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون** ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا** ﴾ أي نجمع الفريقين للحساب : المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا بالله ﴿ **مكانكم أنتم وشركاؤكم** ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ﴿ **وقال شركاؤهم ما كنتم إيَّانا تعبدون** ﴾ أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله ، قال مجاهد : يُنطق الله الأوثان فتقول : ما كنَّا نشعر بأنكم إيَّانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا[٣] كقوله ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب ﴾ .

---

(١) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم .

(٢) قال في الجوهرة : فالسيئات عنده بالمثل : والحسنات ضوعفت بالفضل .

(٣) القرطبي ٨/٣٣٣ .

﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿ **فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم** ﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ﴿ **إن كنَّا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ أي ما كنَّا عن عبادتكم لنا إلاَّ غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ، لأنَّا كنَّا جماداً لا روح فينا ﴿ **هنالك تبلوا كل نفسٍ ما أسلفت** ﴾ أي في ذلك الوقت تُخْتَبَر كلُّ نفسٍ بما قدمت من خير أو شر ، وتنال جزاء ما عملت ﴿ **وردّوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ أي ردّوا إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿ **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم ، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئاً ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ في هذه الآيات الأدلةُ على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من ينزل لكم الغيث والقطر ، ويخرج لكم الزروع والثمار ؟ ﴿ **أمَّن يملك السَّمع والأبصار** ﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم ، التي تسمعون وتبصرون بها ؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها ؟ كقوله ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ الآية ﴿ **ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميّت من الحي** ﴾ ؟ أي من يخرج الأنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والسنبلة من الحبة ، والنبات من الأرض ، والمؤمن من الكافر ؟ ﴿ **ومن يدبِّر الأمر** ﴾ أي ومن يدبِّر أمر الخلائق ، ويصرِّف شئون الكائنات ؟ ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أي فسيقرون بأن فاعل ذلك كلِّه هو الله ربُّ العالمين ، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿ **فقل أفلا تتقون** ﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته بإشراككم وعبادتكم غير الله ؟ ﴿ **فذلكم الله ربكم الحقُّ** ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق ، الثَّابت ربوبيتُه ووحدانيتُه بالبراهين القاطعة ﴿ **فماذا بعد الحق إلاَّ الضلال** ﴾ استفهام إنكاري أي ليس بعد الحق إلاَّ الضلال ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿ **فأنَّى تصرفون** ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله ، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق ، ولا يحيي ولا يميت ؟ ﴿ **كذلك**

حقت كلمة ربك ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السَّابق ﴿ **على الذين فسقوا** ﴾ أي على الذين خرجوا عن الطَّاعة وكفروا وكذَّبوا ﴿ **أنهم لا يؤمنون** ﴾ أي لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله ورسالة نبيه ، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع : **هل** من الأوثان والأصنام من ينشيء الخلق من العدم ثم يفنيه ، ثم **يعيده** ويحييه ؟ قال الطبري : ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك ، وفيه الحجة القاطعة ، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون ، أُمر ﷺ بالجواب[1] ﴿ **قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أي قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذي يحيي ويميت ، ويبدأ ويُعيد ، وليس أحدٌ من هٰؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟ ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق** ﴾ توبيخٌ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً ؟ أو يهدي حائراً ؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة ؟ ﴿ **قل الله يهدي للحق** ﴾ أي فقل لهم : إن عجزتْ آلهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضَّالْ ، وإنارة السبيل ، وبيان الحق ﴿ **أفمن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يتَّبع أمَّنْ لا يَهِدِّي إلاَّ أن يهُدَى** ﴾ أي أفمن يرشد إلى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحقُّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً ؟ ولا تستطيع هداية نفساً فضلاً عن هداية غيرها[2] ؟ ﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوُّون بين الأصناف وبين ربِّ الأرباب ، وتحكمون بهذا الباطل الصُراح ؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار ، ثم بيَّن تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم

---

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري ، وقال بعض المفسرين : المراد الرؤساء والمضلّون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلاَّ أن يُرشدوا .

(٢) الطبري ١١/١١٥ .

بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿ **وما يتَّبع أكثرهم إلاَّ ظناً** ﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام ، إلاَّ اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان ، بل مجرد أوهام باطلة ، وخرافات فاسدة ﴿ **إن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات ، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئاً ، فليس الظنُّ كاليقين ﴿ **إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ أي عالم بما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظنّ ، وإعراضهم عن البرهان .

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

ثم بيَّن تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يُفْترى من دون الله** ﴾ أي لا يصح ولا يعقل ، ولا يستقيم لذي عقل سليم ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله ، لأنَّه فوق طاقة البشر ﴿ **ولكن تَصْديقَ الذي بَيْنَ يَدَيْه** ﴾ أي ولكنَّه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ أي وفيه تفصيلُ وتبيينُ الشرائع والعقائد والأحكام ﴿ **لا ريب فيه من ربِّ العالمين** ﴾ أي لا شك في أنه تنزيل ربِّ العالمين ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه ؟ وهو استفهام معناه التقريع ﴿ **قل فأتوا بسورة مثله** ﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ مثل هذا القرآن ، وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿ **وادعوا من استطعتم من دون الله** ﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه ، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه ، قال الطبري : والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كَذَبَة ، لأن محمداً لن يَعْدُوا أن يكون بشراً مثلكم ، فإذا عجز الجميعُ من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثله ، فالواحد منهم يأتي بجميعه أعجز[1] ، قال تعالى ﴿ **بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أي بل كذَّب هٰؤلاء المشركون

---

(١) الطبري ١١/١١٨ .

بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه ، والنَّاس دائمًا أعداء لما جهلوا ﴿ **ولمَّا يأتهم تأويله** ﴾ أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿ **كذلك كذَّب الذين من قبلهم** ﴾ أي مثل تكذيب هٰؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم ، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين . ﴿ **ومنهم من يؤمن به** ﴾ أي ومن هٰؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به . ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ **وإن كذَّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم** ﴾ أي وإن كذَّبك هٰؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿ **أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون** ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرأه وتتلوه ﴿ **أفأنت تسمع الصم** ﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع ﴿ **ولو كانوا لا يعقلون** ﴾ أي ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون ؟ قال ابن كثير : المعنى ومن هٰؤلاء من يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن النَّافع ، ولكنْ ليس أمر هدايتهم إليك ، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هٰؤلاء إلَّا أن يشاء الله[1] ﴿ **ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العُمْي ولو كانوا لا يُبصرون** ﴾ أي ومن هٰؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ، ولكنَّهم عميٌ لا ينتفعون بما رأوا ، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانُوا عُمي القلوب ؟ شبَّههم بالعُمْي لتعاميهم عن الحق ، قال القرطبي : والمراد تسلية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به فكذلك لا تقدر أن توفق هٰؤلاء

---

(١) المختصر ٢/١٩٥ .

للإيمان[١] ﴿ إنَّ الله لا يظلم النَّاس شيئاً ﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب ، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿ ولكن النَّاس أنفسهم يظلمون ﴾ أي ولكنَّهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله ، قال الطبري : وهذا إعلامٌ من الله تعالى بأنه لم يسلب هٰؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم ، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها ، فحقَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم[٢] ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلاَّ ساعة من النهار ﴾ أي اذكر يوم نجمع هٰؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلاَّ ساعة من النهار ، لهول ما يرون من الأهوال ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا ، وهو تعارف توبيخ وافتضاح ، يقول الواحد للآخر : أنتَ أغويتني وأضللتني ، وليس تعارف محبة ومودَّة ﴿ قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ أي لقد خسر حقاً هٰؤلاء الظالمون الذين كذَّبوا بالبعث والنشور ، وما كانوا موفَّقين للخير في هذه الحياة .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ وإمَّا نرينَّك بعض الذي نعدهم أو نتوفينَّك فإلينا مرجعهم ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة ، ولا بد من الجزاء إن عاجلاً أو آجـلاً ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومعاقبتهم عل ما اقترفوا ﴿ ولكل أمةٍ رسولٌ ﴾ أي ولكل أمةٍ من الأمم رسولٌ أرسل لهدايتهم ﴿ فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط ﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة قُضي بينهم بالعدل ، قال ابن كثير : فكلُّ أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها ، وحفظتُهم من الملائكة شهود أيضاً[٣] ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يعذَّبون بغير ذنب ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أي ويقول كفَّار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً ؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿ قل لا أملك لنفسي

(١) القرطبي ٣٤٦/٨ . (٢) الطبري ١٢٠/١١ . (٣) المختصر ١٩٦/٢ .

ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ، ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿ إلاَّ ما شاء الله ﴾ أي إلاَّ ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب ! ﴿ لكل أمـةٍ أجلٌ ﴾ أي لكل أمة وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخرون عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ أي قل لأولئك المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نفعكم فيه ؟ ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به ؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً : ماذا تجني على نفسك ﴿ أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره : أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعاينتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه ، إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك ؟ قال الطبري : المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدَّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيه التصديق[1] ﴿ ءَالآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون : الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزئون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب ؟ ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿ هل تُجزون إلاَّ بما كنتم تكسبون ﴾ أي هل تُجزون إلاَّ جزاء كفركم وتكذيبكم ؟ ﴿ ويستنبئونك أحقٌ هو ﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون : أحقٌ ما وعدتنا به من العذاب والبعث ؟ ﴿ قل إي وربي إنه لحقٌ ﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي لستم بمعجزين الله بهربٍ وامتناعٍ من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه[2] ﴿ ولو أنَّ لكل نفسٍ ظلمت ما في الأرض ﴾ أي لو أن لكل نفسٍ كافرةٍ ما في

(١) الطبري ١١/١٢٢ . (٢) وقيل المعنى : لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة ، من تفسير الطبري .

الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ، ومنافعها قاطبة ﴿ **لافتدت به** ﴾ أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكنْ هيهات أن يُقبل كما قال تعالى ﴿ فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم ﴿ **وأسرُّوا الندامة لمَّا رأوا العَذَاب** ﴾ أي أخفى هٰؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب ، قال الإمام الجلال : أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلُّوهم مخافة التعيير(١) ﴿ **وقضي بينهم بالقسط** ﴾ أي قُضي بين الخلائق بالعدل ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً ، ولا يُعاقبون إلاَّ بجريرتهم .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ **ألاَ إنَّ لله ما في السمٰوات والأرض** ﴾ « ألاَ » كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السموات والأرض ملكُ لله ، لا شيء فيها لأحدٍ سواه ، هو الخالق وهو المالك ﴿ **ألاَ إن وعد الله حقٌ** ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حقٌ كائن لا محالة ﴿ **ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ولكنَّ أكثر النَّاس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿ **هو يُحْيي ويُميت وإليه تُرْجَعُون** ﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميتُ ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿ **يأيها النَّاسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم** ﴾ خطابٌ لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظةٌ لكم من خالقكم ﴿ **وشفاءٌ لما في الصدور** ﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿ **وهدى ورحمةٌ للمؤمنين** ﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان ، قال صاحب الكشاف : المعنى قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم(٢) ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ قال ابن عبَّاس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام(٣) والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام ،

(١) تفسير الجلالين ١٩٢/٢ ، وقال في البحر : وإخفاء الندامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم ، ومعاينتهم ما أوهى قواهم ، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخاً ، كما يعرض لمن يُقدّم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة ، ويبقى مبهوتاً جامداً .
(٢) الكشاف ٣٥٣/٢ .
(٣) البحر ١٧١/٥ .

فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ **هو خيرٌ مما يجمعون** ﴾ أي هو خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والنعيم الزائل فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق** ﴾ خطابٌ لكفار العرب والمعنى : أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿ **فجعلتم منه حراماً وحلالاً** ﴾ أي فحرَّمتم بعضه وحلَّلتم بعضه كالبحيرة ، والسَّائبة ، والميتة ، قال ابن عبَّاس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام [1] ﴿ **قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُم أم على الله تفترون** ﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني : أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممتثلون لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزَّة والجلال ؟

وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ **وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة** ﴾ أي وما ظنُّ هٰؤلاء الذين يتخرَّصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة ؟ كلَّا بل سيصليهم سعيراً ، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿ **إن الله لذو فضل على النَّاس** ﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب ، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿ **ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون** ﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون ﴿ **وما تَكُونُ في شَأنٍ** ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمرٍ من الأمور ، ولا عملٍ من الأعمال ﴿ **وما تتلواْ منه من قرآن** ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿ **ولا تعملون من عمل** ﴾ أي ولا تعملون أيها النَّاس من خير أو شر ﴿ **إلاَّ كُنَّا عليكم شهوداً إذْ تُفيضون فيه** ﴾ أي إلَّا كنَّا شاهدين رقباء ، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿ **وما يَعْزُب عن ربك** ﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿ **من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء** ﴾ أي من وزن

---

(١) المختصر ١٩٨/٢ .

هباءة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿ **ولاَ أصغر من ذلك وَلاَ أكْبر إلاَّ في كِتَابٍ مبين** ﴾ أي ولا أصغر من الذَّرة ولا أكبر منها إلاَّ وهو معلوم لدينا ومسجَّل في اللوح المحفوظ ، قال الطبري : والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن ، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن ، فليكن عملكم أيها النَّاس فيما يرضي ربكم ، فإنَّا محصوها عليكم ومجازوكم بها[1] ﴿ **ألاَ إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ أي انتبهوا أيها النَّاس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

ثم بيَّن تعالى هٰؤلاء الأولياء فقال ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أي الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ وفي الحديث (إنَّ لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداءَ ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلَّنا نحبُّهم ، قال : هم قومٌ تحابّوا في الله ، على غير أرحامٍ بَيْنهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إنَّ وجوههم لنورٌ ، وإنهم لعلى منابرَ من نور ، لا يخافون النَّاس ، ولا يحزنون إذا حزن النَّاس ثم قرأ ﴿ ألاَ إنَّ أولياء الله . . . ﴾ الآية[2]) ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ أي لهم ما يسرهم في الدَّارين ، حيث تبشرهم الملائكة[3] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته ، وفي الآخرة بجنان النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكةُ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز

---

(١) الطبري ١١/١٣٠ . (٢) الطبري ١١/١٣٢ .

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي « الرؤ ية الصَّالحة » التي يراها المؤمن أو تُرى له ، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم ، واختار الطبري أن البشارة تكون بالرؤ ية الصَّالحة وببشارة الملائكة عند الموت .

وراءه ، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهى ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ أي لا يحزنك ولا يؤلمك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم : لستَ نبياً مرسلاً ، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿ **إن العزَّة لله جميعاً** ﴾ أي القوة الكاملة ، والغلبة الشَّاملة ، لله وحده ، فهو ناصرك ومانعك ومعينك ، وهو المنفرد بالعزَّة يمنحها أولياءه ، ويمنعها أعداءه ﴿ **هو السَّميع العليم** ﴾ أي السميع لأقوالهم ، العليم بأعمالهم ﴿ **ألاَ إنَّ لله من في السمٰوات ومن في الأرض** ﴾ أي الجميع له سبحانه عبيداً وملكاً وخلقاً ﴿ **وما يتَّبع الذين يدعون من دون الله شركاء** ﴾ أي وما يتبع هٰؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع ، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴿ **إن يتَّبعون إلاَّ الظن** ﴾ أي ما يتبعون إلاَّ ظناً باطلاً ﴿ **وإن هم إلاَّ يَخْرصون** ﴾ أي يَحْدسون ويكذبون ، يظنون الأوهام حقائق .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه** ﴾ تنبيهٌ على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته ، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحةً لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿ **والنهار مبصراً** ﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانيَّة الله ، لقوم يسمعون سمع اعتبار ، ثم نبَّه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً** ﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً[1] فقالوا : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، كما قال كفار مكة : الملائكة بناتُ الله ﴿ **سبحانه هو الغني** ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق ، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتفٍ عنه ﴿ **له ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿ **أتقولون على**

(١) ياله من جهل وحمق ينسبون إلى العلي الأعلى ما ينزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون !!

الله ما **لا تعلمون** ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون بنسبه الشريك والولد ؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم . ﴿ **قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون** ﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح .

مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ * وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ **متــاعٌ في الدنيا** ﴾ أي متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ **ثم إلينا مرجعهم** ﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ **ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾ أي ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله . ﴿ **واتلُ عليهم نَبأَ نوح** ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوحٍ مع قومه المكذبين ﴿ **إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم** ﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عظُم وشقَّ عليكم ﴿ **مقامي وتذكيري بآيات الله** ﴾ أي طولُ مقامي ولبثي فيكم ، وتخويفي إيَّاكم بآيات ربكم ، وعزمكم على قتلي وطردي ﴿ **فعلى الله توكَّلتُ** ﴾ أي على الله وحده اعتمدت ، وبه وثقت فلا أبالي بكم ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** ﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم ، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ **ثم لا يكنْ أمركم عليكم غُمَّةً** ﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً ، ﴿ **ثم اقضوا إليَّ ولا تُنْظِرون** ﴾ أي أَنْفِذُوا ما تريدون في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة ، قال أبو السعود : وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة ، وثقةً بالله وبوعده من عصمته وكلاءته[1] ﴿ **فإن توليتم فما سألتكم من أجر** ﴾ أي فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا ، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿ **إن أجريَ إلاَّ على الله** ﴾ أي ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلاَّ من عند الله ، وما نصحتكم إلاَّ لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿ **وأُمرتُ أن أكون من المسلمين** ﴾ أي من الموحدين لله تعالى .

---

(١) أبو السعود ٢/٣٤١ .

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ
كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ **فكذَّبوه فنجَّيناه ومن معه في الفُلْك** ﴾ أي فأصروا واستمروا على تكذيب نوح فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة ﴿ **وجعلناهم خلائف** ﴾ أي **جعلنا** من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاً ممن غرق ﴿ **وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا** ﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿ **فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنْذَرِين** ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم ؟ والغرض : تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم** ﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً ﴿ **فجاءوهم بالبينات** ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من قبل** ﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل ، ولم يزجرهم عقاب السابقين ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحدَّ في الكفر والتكذيب والعناد ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه** ﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة ، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿ **فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾ أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين ، تعوَّدوا الإجرام وارتكاب الذنوب العظام .

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ
هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين** ﴾ أي فلما وضح لهم الحق الذي جاء به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم : هذا سحرٌ ظاهرٌ بيِّن أراد به موسى أن

يسحرنا ﴿ **قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحرٌ ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر ﴿ **أسحرٌ هذا** ﴾ أي أسحرٌ هذا الذي جئتم به ؟ ﴿ **ولا يفلح الساحرون** ﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا** ﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن دين الآباء والأجداد ؟ ﴿ **وتكون لكما الكبرياء في الأرض** ﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والملك والسلطان في أرض مصر ﴿ **وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ أي ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به ﴿ **وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم** ﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر ، عليمٍ بفنون السحر ﴿ **فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم .

فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾

﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحرُ** ﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحرُ لا ما اتهمتموني به ﴿ **إن الله سيبطله** ﴾ أي سيمحقه ويذهب به ويظهر بطلانه للناس ﴿ **إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿ **ويُحق الله الحق بكلماته** ﴾ أي يثبت الله الحق ويقوِّيه بحججه وبراهينه ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه** ﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه ، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلَّا نفرٌ قليلٌ من أولاد بني إسرائيل ، قال مجاهد : هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤ هم[1] ﴿ **على خوفٍ من فرعون وَمَلَإِيْهِمْ أن يفتنهم** ﴾ أي على تخوف وحذر من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿ **إنَّ فرعون لعالٍ في الأرض** ﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿ **وإنه لمن المسرفين** ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية ﴿ **وقال موسى يا قوم**

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آل فرعون وما ذكرناه هو اختيار الطبري والجمهور وهو الأرجح .

إن كنتم آمنتم بالله ﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿ فعليه توكلوا ﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ أي إن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه ﴿ فقالوا على الله توكلنا ﴾ أي أجابوا قائلين : على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين ﴾ أي لا تسلِّطهم علينا حتى يعذبونا ويفتتنوا بنا فيقولوا : لو كان هٰؤلاء على الحق لما أصيبوا .

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي خلِّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ أي اتخذا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿ واجعلوا بيوتكم قِبلة ﴾ أي اجعلوها مصلىً[1] تصلون فيه عند الخوف قال ابن عبَّاس : فأُمروا أن يصلّوا في بيوتهم[2] ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها ، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿ وبشِّرِ المؤمنين ﴾ أي بشّر يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم ، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها ، وأنواعاً كثيرة من المال ﴿ ربَّنا ليُضلوا عن سبيلك ﴾ اللام لامُ العاقبة[3] أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك ، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿ ربَّنا اطمسْ على أموالهم ﴾ دعاء عليهم أي أهلكْ أموالهم يا ألله وبدِّدها ﴿ واشدُدْ على قلوبهم ﴾ أي قس قلوبهم واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ، قال ابن عبَّاس : أي امنعهم الإيمان ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ النفي أي اللَّهُمَّ فلا يؤمنوا حتى

(١) وقيل : المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة . (٢) الطبري ١١/١٥٤ .
(٣) هذه اللام كقوله تعالى ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ وفي الخبر (لدوا للموتِ وابنوا للخراب) أي لتكون العاقبة الموت والخراب .

يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك ، إنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم ، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عبَّاس : كان موسى يدعوا وهارون يؤمِّن فنسبت الدعوة إليهما[1] .

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

﴿ **قال قد أُجيبت دعوتكما** ﴾ أي قال تعالى قد استجيبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿ **فاستقيما** ﴾ أي اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿ **ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ أي لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى ، قال الطبري : رُوي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة[2] ثم أغرق الله فرعون . ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر** ﴾ أي قطعنا وعدَّينا ببني إسرائيل البحر « بحر السويس » حتى جاوزوه ﴿ **فأتبعهم فرعون وجنودُه بغياً وعدواً** ﴾ أي لحقهم فرعونُ مع جنوده ظلمًا وعدواناً وطلباً للاستعلاء بغير حق ﴿ **حتى إذا أدركه الغرقُ** ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿ **قال آمنتُ أنه لا إله إلاَّ الذي آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ أي قال عندئذٍ أقررتُ وصدقتُ بأنه لا إله إلاَّ الله ربُّ العالمين ، الذي آمنت وأقرت به بنوإسرائيل ﴿ **وأنا من المسلمين** ﴾ تأكيدٌ لدعوى الإيمان أي وأنا ممَّن أسلم نفسه لله ، وأخلص في إيمانه ، قال ابن عبَّاس : جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة[3] ﴿ **ءآلآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين** ﴾ أي الآن تؤمن حين يئست من الحياة ، وقد عصيت الله قبل نزول نقمته بك ، وكنتَ من الغالين في الضلال والإضلال والصدِّ عن دين الله ؟ .

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ

(١) البحر ١٨٧/٥ . (٢) الطبري ١٦١/١١ .
(٣) الطبري ١٦٣/١١ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخذول ، قاله أبو السعود .

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

﴿ **فاليوم ننجِّيك ببدنك** ﴾ أي فاليوم نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه ﴿ **لتكون لمن خلفك آية** ﴾ أي لتكون عبرةً لمن بعدك من الناس ، ومن الجبابرة والفراعنة ، حتى لا يطغوا مثل طغيانك ، قال ابن عبَّاس : إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه[1] ﴿ **وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ **ولقد بوأنا بني إسرائيل مُبوأ صدق** ﴾ أي أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله ، وهذا ذمٌ لأن اختلافهم كان بسبب الدين ، والدينُ يجمع ولا يفرِّق ، ويوحِّد ولا يشتت ، وقال الطبري : كانوا قبل أن يُبْعَث محمد ﷺ مجمعين على نبوته ، والإقرار بمبعثه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم ، وآمن البعض ، فذلك اختلافهم[2] ﴿ **فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك** ﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير : أي إن فرض شككت فاسأل ، قال ابن عبَّاس : لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري : هذا على الفرض والتمثيل كأنه قيل : فإن وقع شكٌ مثلاً ، وخيَّل لك الشيطان خيالاً تقديراً فسل علماء أهل الكتاب ، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿ فإن كنت في شك ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل[3] وقال بعضهم : الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿ **فاسأل الّذين يقرءونَ الكتابَ من قبلك** ﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل ، فإن ذلك محقّق عندهم كما قصصنا عليك ، والغرضُ دفع الشك عن قصص القرآن ﴿ **لقد جَاءَكَ الحقُّ مِن ربكَ** ﴾ أي جاءك يا محمد البيانُ الحقُّ ، والخبر الصادق ، الذي لا يعتريه شك ﴿ **فلا تكونَنَّ من الممترين** ﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين .

---

(١) المختصر ٢/٢٠٦ . (٢) الطبري ١١/١٦٧ .
(٣) الكشاف ٢/٣٧٠ .

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ
إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ
لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ **ولا تكوننَّ من الذين كذَّبوا بآيات الله** ﴾ أي لا تكذِّب بشيءٍ من آيات الله ﴿ **فتكونَ من الخاسرين** ﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته ، قال البيضاوي : وهذا من باب التهييج والتثبيت وقطع أطماع المشركين عنه[١] وقال القرطبي : الخطابُ في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره[٢] ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك** ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿ **لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية** ﴾ أي لا يصدقون ولا يؤمنون أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿ **حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ أي فحينئذٍ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿ **فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ أي فهلَّا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها ، تابتْ عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿ **إلاَّ قوم يونس** ﴾ أي غير قوم يونس ﴿ **لمَّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا** ﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا ﴿ **ومتعناهم إلى حين** ﴾ أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم ، قال قتادة : روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم ، فلما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المُسُوح ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندم على ما مضى منهم ، كشف الله عنهم العذاب[٣] ﴿ **ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً** ﴾ أي لو أراد الله لآمن النَّاس جميعاً ، ولكنْ لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة ، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار ، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿ **أَفَأَنت تكره النَّاس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ ؟ أي أفأنت يا محمد تُكره النَّاس على الإيمان ، وتضطرهم إلى الدخول في دينك ؟ ليس ذلك إليك ، والآية تسليةٌ له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم ، قال ابن عبَّاس : كان النبي ﷺ

(١) البيضاوي ٢٤٥ . (٢) القرطبي ٣٨٣/٨ . (٣) الطبري ١٧٦/١١ .

حريصاً على إيمان جميع النَّاس ، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذِّكر الأول ، ولا يضلُّ إلاَّ من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول[1] ﴿ **وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلاَّ بإذن الله** ﴾ أي ما كان لأحدٍ أن يؤمن إلاَّ بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿ **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** ﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع .

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار : انظروا نظر تفكر واعتبار ، ما الذي في السمٰوات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه ؟ ﴿ **وما تغني الآيات والنُّذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿ **فهل ينتظرون إلاَّ مثلَ أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ أي فهل ينتظر مشركوا مكة إلاَّ مثل أيام أسلافهم ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال ؟ ﴿ **قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ أي قل لهم يا محمد : انتظروا عاقبة البغي والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ **ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك** ﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجِّي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿ **حقاً علينا نُنجِ المؤمنين** ﴾ أي **حقاً** ثابت **علينا** من غير شك ، قال الربيع بن أنس : خوَّفهم عذابه ونقمته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمرٌ أنجى الله رسله والذين آمنوا معه[2] ﴿ **قل يأيها النَّاسُ إن كنتم في شكٍ من ديني** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿ **فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله** ﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿ **ولكنْ اعبدُ الله الذي يتوفَّاكم** ﴾

---

(١) القرطبي ٨/٣٨٥ . (٢) الطبري ١١/١٧٦ .

أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم ، وبيده محياكم ومماتكم ، قال الطبري : وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلام لطيف ، وكأنَّه يقول : لا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني ، وإنما ينبغي أن تشكّوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فأمَّا إلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر[1] ﴿ **وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين** ﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحّداً لله لا أشرك معه غيره ﴿ **وأن أقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ أي وأمرتُ بالاستقامة في الدين ، على الحنيفية السمحة ملةِ إبراهيم ﴿ **ولا تكوننَّ من المشركين** ﴾ أي ولا تكوننَّ ممن يشرك في عبادة ربه

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿ **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك** ﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبدْ غير الله مما لا ينفع ولا يضر كالآلة والأصنام ﴿ **فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين** ﴾ أي فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله ، والخطابُ هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿ **وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو** ﴾ أي وإن اراد الله إصابتك بضرٌ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿ **وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله** ﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿ **يصيبُ به من يشاء من عباده** ﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بأهل الرشاد ﴿ **قل يأيها الناسُ قد جاءكم الحقُّ من ربكم** ﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه** ﴾ أي من اهتدى بالايمان فمنفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ **ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها** ﴾ أي ومن ضلَّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ أي ولستُ بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذير ﴿ **واتّبع ما يُوحى اليك** ﴾ أي اتّبعْ يا محمد في جميع شئونك ما يوحيه إليك ربك ﴿ **واصبر حتى يحكم الله** ﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة ، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشركين .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة يونـس)

(١) الطبري ١١/١٧٦ .

(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّة وآياتها ثلاثٌ وعشرونَ ومائة

بين يدي الســــــــورة

* سورة هود مكية وهي تُعْنىٰ بأصول العقيدة الإسلامية « التوحيد ، الرسالة ، البعث والجزاء » وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه « أبي طالب » وزوجه « خديجة » فكانت الآيات تتنزَّل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء ، ليتأسى بهم في الصبر والثبات .

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم ، الذي أحكمت آياته ، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض ، لأنه تنزيل الحكيم العليم ، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد . . ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية ، عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين الفريقين : فريق الهدى ، وفريق الضلال ، وضربت مثلاً للفريقين وضَّحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين ، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿ **مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكَّرون** ﴾ ؟ .

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة « نوح » عليه السلام أب البشر الثاني ، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوحٌ والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة ، وغرق كل من على وجه الأرض ، وهو أطول الأنبياء عُمُراً ، وأكثرهم بلاءً وصبراً .

* ثم ذكرت قصة « هود » عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه ، تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله ، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم « عاد » العتاة المتجبرين ، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا : من أشدُّ منا قوَّة ؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿ **وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد** . . . إلى قوله **أَلَا إن عاداً كفروا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعداً لعادٍ قوم هود** ﴾ .

* ثم تلتها قصة نبي الله « صالح » ثم قصة « لوط » ثم قصة « شعيب » ثم قصة « موسى وهارون » صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العِبر في العظات وإهلاك الله تعالى للظالمين ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد** . . . إلى قوله تعالى : **وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذه أليم شديد** ﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين ، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة ، ولتثبيت قلب النبي عليه السلام أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿ **وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين** . . . إلى قوله **فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعلمون** ﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام !!

تفســير ســورة هـــود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿ **آلــر** ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن ، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ، وعن ابن عباس أن معناه : أنا الله أرى ﴿ **كِتَابٌ أُحكِمَت آياته** ﴾ أي هو كتابٌ جليل القدر ، نظمت آياته نظمًا محكمًا ، لا يلحقه تناقضٌ ولا خلل ﴿ **ثم فُصّلت** ﴾ أي بُيّنت فيه أمور الحلال والحرام ، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿ **من لدن حكيمٍ خبير** ﴾ أي من عند الله فصّلها وبيَّنها الخبير العالم بكيفيات الأمور ، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿ **ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله** ﴾ أي لئلا تعبدوا إلا الله ﴿ **إنني لكم منه نذيرٌ وبشير** ﴾ أي إنني مرسلٌ إليكم من جهته تعالى ، أنذركم بعذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ﴾ أي استغفروه من الذنوب وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة ﴿ **يُمَتِّعْكُمْ متاعاً حسناً** ﴾ أي يمتعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق ، ورغَد العيش ﴿ **إلى أجلٍ مُسَمَّىٰ** ﴾ أي إلى وقت محدَّد هو انتهاء أعماركم ﴿ **ويؤت كلَّ ذي فضلٍ فضله** ﴾ أي ويعطي كل محسنٍ في عمله جزاء إحسانه ﴿ **وإن تولَّوْا** ﴾ أي وإن تتولوا عن الإيمان وتُعرضوا عن طاعة الرحمن ﴿ **فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة .

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ

﴿ **إلى الله مرجعكم** ﴾ أي إليه جلَّ وعلا رجوعكم بعد الموت ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذَّب لا يعجزه شيء ، وفي الآية تهديد عظيم ﴿ **ألاَ إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه** ﴾ قال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن

ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر[1] وقال القرطبي : أخبر عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم[2] والمعنى إنهم يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين ، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم ﴿ **ألاَ حين يستغشون ثيابهم** ﴾ أي حين يتغطون بثيابهم ﴿ **يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أي يعلم يتعالى ما يُبْطنون وما يُظهرون وكأن الآية تقول : لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿ **إنه عليمٌ بذات الصدور** ﴾ أي عالم بما في القلوب ﴿ **وما من دابةٍ في الأرض إلاَّ على اللهِ** رزقُها ﴾ أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفَّل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً ، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق ﴿ **ويعلم مستقرها ومستودعها** ﴾ قال ابن عبَّاس : مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض ، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن[3] ﴿ **كلٌّ في كتابٍ مبين** ﴾ أي كلٌّ من الأرزاق ، والأقدار ، والأعمار ، مسطَّرٌ في اللوح المحفوظ .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ

﴿ **وهو الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام** ﴾ أي خلقها في مقدار ستة أيام من الدنيا ، وفيه الحث للعباد على التأني في الأمور فإن الإِله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ أي وكان العرش قبل خلقهما على الماء قال الزمخشري : أي ما كان تحته خلق ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السمٰوات والأرض[4] ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ أي خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسنُ من المسيء ، ويجازيكم حسب أعمالكم ﴿ **ولئن قلتَ إنكم مبعوثون من بعد الموت** ﴾ أي ولئن قلت يا محمد لأولئك المنكرين من كفار مكة إنكم ستبعثون بعد موتكم

---

(١) البحر ٢٠٢/٥ . (٢) القرطبي ٥/٩.

(٣) البحر ٢٠٤/٥ . (٤) الكشاف ٣٨٠/٢ .

إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾

للحساب ﴿ ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ أي ليقولنَّ الكفار المنكرون للبعث والنشور ما هذا القرآن إلا سحر واضح مكشوف ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ أي إلى مدة من الزمن قليلة ﴿ ليقولُنَّ ما يَحْبسه ﴾ أي ليقولُنَّ استهزاءً ما يمنعه من النزول ؟ ﴿ ألاَ يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ﴾ أي ألا فلينتبهوا فإنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة ، والأمن ، والرزق وغيرها من النعم ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أي ثم سلبنا تلك النعم منه ﴿ إنه ليئوسٌ كفور ﴾ أي قنوط من رحمة الله ، شديد الكفر به .

وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ أي ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر ، وما أصابه من البلاء ، كالفقر والمرض والشدة ﴿ ليقولنَّ ذهب السيئات عني ﴾ أي انقطع الفقر والضيق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿ إنه لفرحٌ فخور ﴾ أي بطرٌ بالنعمة مغترٌ بها ، متعاظم على الناس بما أُوتي ، والآية ذمٌ لمن يقنط عند الشدائد ، ويبطر عند النعم ﴿ إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ أي هذه عادة الانسان إلا المؤمنين الذين يصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير في النعماء ، فهم في حالتي المحنة والنعمة محسنون ﴿ أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبيرٌ في الآخرة هو الجنة قال في البحر : ووصف الثواب بأنه كبير وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ، والأمن من العذاب ، ورضا الله عنهم ، والنظر إلى وجهه الكريم[١] ﴿ فلعلَّك

(١) البحر ٥/٢٠٦ .

تاركٌ بعض ما يُوحىٰ إليك ﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك ، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له : فلعلك يا محمد **تاركٌ بعض ما أُنزل** إليك من ربك فلا تبلغهم إيّاه لاستهزائهم ﴿ **وضائقٌ به صدرك** ﴾ أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما نزل عليك من ربك خشيةَ التكذيب ، والغرضُ تحريضُه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿ **أن يقولوا لولا أُنزل عليه كنزٌ** ﴾ أي لأجل أن يقولوا هلَّا أُنزل عليه مالٌ كثير ﴿ **أو جاء معه مَلَك** ﴾ أي جاء معه ملك يصدِّقه كما اقترحنا ، قال تعالى محدِّداً مهمته عليه السلام ﴿ **إنما أنت نذير** ﴾ أي لست يا محمد إلا متذراً تخوِّف المجرمين من عذاب الله ﴿ **والله على كل شيء وكيل** ﴾ أي قائم على شئون العباد يحفظ عليهم أعمالهم ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه ؟ ﴿ **قل فأتوا بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات** ﴾ أي إن كان الأمر كذلك فأتوا بعشر سور مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات فأنتم عرب فصحاء ﴿ **وادعوا من استطعتم من دون الله** ﴾ أي استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في أنَّ هذا القرآن مفترى .

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿ **فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله** ﴾ أي فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحيٍ من الله ﴿ **وأن لا إله إلا هو** ﴾ أي لا ربَّ ولا معبود إلا الله الذي أنزل هذا القرآن المعجز ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمرٌ أي فأسلموا بعد ظهور هذه الحجة القاطعة إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك ، قال في التسهيل : الاستفهام معناه استدعاءٌ إلى الإسلام ، وإلزام للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن[1] ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ أيمن كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط لأنه لا يعتقد بالآخرة ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ أي نوفّ إليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من الصحة والأمن والرزق ﴿ **وهم فيها لا يبخسون** ﴾ أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم قال قتادة : من كانت الدنيا همَّه ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة

(١) التسهيل ٢/١٠٢ .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يُعطى بها ، وأما المؤمن فيُجَازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[1] ﴿ **أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار** ﴾ أي هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلَّد ﴿ **وحبط ما صنعوا فيها** ﴾ أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها ﴿ **وباطلٌ ما كانوا يعملون** ﴾ تأكيدٌ لما سبق أي باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات ﴿ **أفمن كان على بيِّنةٍ من ربه** ﴾ أي أفمن كان على نور واضح ، وبرهان ساطع من الله تعالى ، وهو النبي ﷺ والمؤمنون ، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا ؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً ، وتبايناً بعيداً ، فلا يستوي من أراد الله ، ومن أراد الدنيا وزينتها ﴿ **ويتلوه شاهدٌ منه** ﴾ أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه ، قال ابن عبَّاس : هو جبريل عليه السلام ﴿ **ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمة** ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوةً في الخير ورحمة لمن نزل عليهم ﴿ **أُولئك يؤمنون به** ﴾ أي أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدِّقون بالقرآن حق التصديق ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعده** ﴾ أي ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يردها لا محالة ﴿ **فلا تكُ في مرية منه** ﴾ أي فلا تكن في شكٍ من هذا القرآن ﴿ **إنه الحق من ربك** ﴾ أي إنه الحق الثابت المنزّل من عند الله ﴿ **ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ أي لا يصدّقون أنه تنزيل رب العالمين .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ أي لا أحد أطغى ولا أظلم ممن اختلق الكذب على الله بنسبة الشريك والولد إليه ﴿ **أولئك يُعرضون على ربهم** ﴾ أي يعرضون يوم القيامة في

(١) المختصر ٢/٢١٤ .

جملة الخلق على خالقهم ومالكهم ﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ أي ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله ، والغرض فضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الأشهاد والتشهيرُ بهم خزياً ونكالاً ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ لظلمهم وافترائهم على الله ، واللعنةُ : الطرد من رحمة الله ﴿ **الذين يصدون عن سبيل الله** ﴾ أي يمنعون الناس عن اتِّباع الحق ، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجّة أي يبغون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ أي جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور ﴿ **أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض** ﴾ أي ليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم ﴿ **وما كان لهم من دون الله من أولياء** ﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم من عذاب الله ﴿ **يضاعف لهم العذاب** ﴾ جملة مستأنفة أي يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون** ﴾ أي سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً ، ولكنهم كانوا صُمّاً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿ **أولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿ **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة ﴿ **لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون** ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس ، ولا ترى أحداً أبينَ خسراناً منهم ، لأنهم آثروا الفانية على الباقية ، واستعاضوا عن الجِنان بلظى النيران ، ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء ، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم** ﴾ أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخبات : وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ أي منعّمون في الجنة لا يخرجون منها أبداً ﴿ **مثل الفريقين** ﴾ أي فريق

المؤمنين وفريق الكافرين ﴿ **كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع** ﴾ قال الزمخشري : شبَّه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللفّ والطباق[1] والمعنى حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين السمع والبصر ﴿ **هل يستويان مثلاً** ﴾ الاستفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضيائه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ﴿ **أفلا تذكَّرون** ﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون ؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان ، وأهل الجحود والعصيان ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ أي أرسلناه رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم ﴿ **إني لكم نذير مبين** ﴾ أي بأني منذرٌ لكم ومخوِّف من عذاب الله إن لم تؤمنوا .

أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح ﴿ **ما نراك إلا بشراً مثلنا** ﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلنا ، ولا فضل لك علينا قال الزمخشري : وفيه تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم[2] ﴿ **وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ أي وما اتبعك إلا سفلةُ الناس قال في التسهيل : وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الأمر كذلك ، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم[3] ﴿ **باديَ الرأي** ﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكر أو رويّة ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ أي وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوة ، واستحقاق المتابعة ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه ، أرادوا أن يحجوا نوحاً من وجهين : أحدهما : أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة ، والثاني :

(١) الكشاف ٢/٣٨٧ . (٢) الكشاف ٢/٣٨٨ . (٣) التسهيل ٢/١٠٣ .

أنهم مع ذلك لم يتروَّوا في اتِّباعه ، ولا أعمنوا الفكر في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا رويَّة ، وغرضُهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدَّقه ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربي** ﴾ تلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان أي قال لهم نوح : أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمرٍ جليٍّ من ربي بصحة دعوايَ ﴿ **وآتاني رحمةً من عنده** ﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوة ﴿ **فَعُمِّيَتْ عليكم** ﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان ﴿ **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ أي أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الاهتداء بها والحال أنكم كارهون منكرون لها ؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين .

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً** ﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ، ولا أطلب على النصيحة مالاً حتى تتهموني ﴿ **إن أجريَ إلا على الله** ﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ أي ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي ، ولا بطاردهم عني كما طلبتم ﴿ **إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم ، وفائزون بقربه فكيف أطردهم ؟ ﴿ **ولكني أراكم قوماً تجهلون** ﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم ، وتظنون أنكم خير منهم ﴿ **ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم** ﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردتهم ؟ ﴿ **أفلا تذكَّرون** ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه ؟ ﴿ **ولا أقول لكم عندي خزائن الله** ﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿ **ولا أقول إني مَلَك** ﴾ أي ولا أقول لكم إني من الملائكة أُرسلت إليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿ **ولا أقول للذين تزدري أعينُكم لن يؤتِيَهم اللَّهُ خيراً** ﴾ أي ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿ **اللَّهُ أعلم بما في أنفسهم** ﴾ أي أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿ **إني إذاً لمن الظالمين** ﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب .

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ أي قال قوم نوح لنوحٍ عليه السلام : قد خاصمتنا فأكثرتَ خصومتنا ﴿ **فأْتِنَا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء** ﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليَّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أي ولستم بفائتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿ **ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أن أنصح لكم** ﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿ **إن كان الله يريدُ أن يغويكم** ﴾ أي إن أراد الله إضلالكم ، وهو جواب لما تقدم والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم ؟ ﴿ **هو ربكم وإليه تُرجعون** ﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شئونكم ، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿ **أم يقولونَ افتراه** ﴾ أي أيقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه[1] ﴿ **قل إن افتريتُه فعليَّ إجرامي** ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليَّ وزري وذنبي ، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي ﴿ **وأنا بريء مما تُجْرمون** ﴾ أي وأنا بريءٌ من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم ، والآية اعتراض بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿ **وأوحي إلى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن** ﴾ أي أوحى الله إلى نوحٍ أنه لن يتبعك ويصدِّق برسالتك إلّا من قد آمن من قبل ﴿ **فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلون** ﴾ أي فلاَ تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم .

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

(١) هذا رأي أكثر المفسرين ، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى : أيقولون افترى نوح هذه الأخبار . . . إلخ .

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ *

﴿ **واصنع الفُلْكَ بأعيننا** ﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا ﴿ **ووحينا** ﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد : أي كما نأمرك ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا** ﴾ أي لا تشفع فيهم فإني مهلكهم لا محالة ﴿ **إنهم مُغْرقون** ﴾ أي هالكون بالطوفان ﴿ **ويصنعُ الفُلْك** ﴾ حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضارها في الذهن أي صنع نوحُ السفينة كما علَّمه ربه﴿ **وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾ أي كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا وقالوا : يا نوحُ كنتَ بالأمس نبياً ، وأصبحتَ اليوم نجاراً !! ﴿ **قال إن تسخروا منَّا** ﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿ **فإنَّا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾ أي فإنَّا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن ، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿ **من يأتيه عذابٌ يخزيه** ﴾ أي عذابٌ يُذلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿ **ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم** ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا** ﴾ أي جاء أمرنا الموعود بالطوفان ﴿ **وفار التنور** ﴾ أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار قال العلماء : جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه ، وقال ابن عبَّاس : التنور وجهُ الأرض قال الطبري : والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض ، قيل له : إذا رأيتَ الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك[1] في السفينة وقال ابن كثير : التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماءً ، وهذا قول جمهور السلف والخلف[2] ﴿ **قلنا احملْ فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ أي احمل في السفينة من كل صنفٍ من المخلوقات اثنين : ذكراً ، وأنثى ﴿ **وَأَهْلَكَ إلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ** ﴾ أي واحمل قرابتك أيضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه ، والمراد به ابنهُ الكافر « كنعان » وامرأته « واعلة » ﴿ **وَمَنْ آمَنَ** ﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ أي وما آمن بنوحٍ إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة ، قال ابن عبَّاس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة[3] .

---

(١) بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور قال : وأولى هذه الأقوال عندنا قولُ من قال : هو التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر . انظر الطبري ١٢/٤٠ .

(٢) المختصر ٢/٢٢٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/٢٢٠ .

وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾

﴿ **وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِٱسْمِ ٱللَّهِ مَجريها وَمُرْسَاهَا** ﴾ أي وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة ، باسم الله يكون جريُها على وجه الماء ، وباسم الله يكون رسوُّها واستقرارها قال الطبري : المعنى باسم الله حين تجري وحين تُرسي ، أي حين تسير وحين تقف[1] ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ أي ساتر لذنوب التائبين ، رحيمٌ بالمؤمنين حيث نجاهم من الغرق ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ** ﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج ، التي هي كالجبل في العظم والارتفاع ، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي : رُوي أن الله أرسل المطر أربعين يوماً وليلة ، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلأَرْضَ عُيُوناً فَٱلْتَقَىٰ ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِر ﴾ وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء[2] ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحُ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ** ﴾ أي ونادى نوحٌ ولده « كنعان » قبيل سير السفينة وكان في ناحيةٍ منها لم يركب مع المؤمنين ﴿ **يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا** ﴾ أي اركب معنا ولا تهلك نفسك بالغرق ﴿ **وَلاَ تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ** ﴾ أي فتغرق كما يغرقون ﴿ **قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ** ﴾ أي سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق ، ظناً منه أن الماء لا يصل إلى رءوس الجبال ﴿ **قَالَ لاَ عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلاَّ مَن رَحِمَ** ﴾ أي قال له أبوه نوح : لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجي من عقابه إلا من رحمه الله ﴿ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ** ﴾ أي حال بين نوحٍ وولده موجُ البحر فغرق .

وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا

﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ** ﴾ أي انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء ﴿ **وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** ﴾ أي امسكي عن المطر ﴿ **وَغِيضَ ٱلْمَاءُ** ﴾ أي ذهب في أغوار الأرض قال مجاهد : نقص الماء ﴿ **وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ** ﴾ أي تمَّ أمر الله بإغراق من غرق ، ونجاة من نجا ﴿ **وَٱسْتَوَتْ عَلَىٰ ٱلْجُودِي** ﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿ **وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ**

(١) الطبري ١٢/٤٤ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٢١٦ .

لِلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أي هلاكاً وخساراً لمن كفر بالله ، وهي جملة دعائية ، قال الألوسي : ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة ، بل على عموم هلام أهل الأرض ما عدا أهل السفينة ، ويدل عليه ما رُوي أن الغرقَ أصاب امرأة معها صبيٌّ لها فوضعته على صدرها ، فلما بلغها الماء وضعته على منكبها ، فلما بلغها الماء رفعته بيديها ، فلو رحم الله أحداً من أهل الأرض لرحمها[1] ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّـهُ فَقَالَ ربِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي** ﴾ أي نادى نوح ربَّه متضرعاً إليه فقال : ربِّ إن ابني « كنعان » من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿ **وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ** ﴾ أي وعدك حق لا خلف فيه ﴿ **وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ أي وأنت يا الله أعدل الحاكمين بالحق ﴿ **قال يا نوح إنه ليس من أهلك** ﴾ أي قال له ربه : يا نوحُ إن ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿ **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾ أي إنَّ عمله سيءٌ غير صالح ﴿ **فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصوابٌ هو أم غير صواب ؟ ﴿ **إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ** ﴾ أي إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين قال في التسهيل : وليس في ذلك وصفٌ له بالجهل ، بل فيه ملاطفة وإكرام[2] .

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

﴿ **قَالَ ربِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** ﴾ أي قال نوح معتذراً إلى ربه عما صدر عنه : ربِّ إني أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ﴿ **وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ** ﴾ أي وإلا تغفر لي زلتي ، وتتداركني برحمتك ، أكن ممن خسر آخرته وسعادته ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا** ﴾ أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن ﴿ **وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ** ﴾ أي وخيراتٍ عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة ، قال القرطبي : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة[3] ﴿ **وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ** ﴾ أي وأمم أخرى من ذرية من معك نمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون ﴿ **ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾

(١) روح المعاني ١٢/٦٢ . (٢) التسهيل ٢/١٠٦ . (٣) القرطبي ٩/٤٨ .

تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها ﴿ نوحيها إليك ﴾ أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها من قبل هذا القرآن ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح ، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي ليس لكم معبودٌ غيره يستحق العبادة ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا ، لأنه لا إله سواه .

يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا

﴿ يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي لا أطلب منكم على النصح والبلاغ جزاءً ولا ثواباً ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاءٍ منكم هو لكم ناصح أمين ؟ والاستفهام للإنكار والتقريع ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً ﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً ، رُوي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم هودُ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر ، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار ، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿ وَيُزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ أي ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد : شدة إلى شدتكم[١] ، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿ من أَشَدُّ مِنَّا قُوَّة ﴾ ؟ ﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرين

(١) الطبري ١٢/٥٨ .

بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ
قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

على الإجرام ، وارتكاب الآثام ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك قال الألوسي : وإنما قالوه لفرط عنادهم ، أو لشدة عَمَاهم عن الحق[١] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أي لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك ، والجملة تقنيطٌ من دخولهم في دينه ، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُــوءٍ ﴾ أي ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد ، لا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهلٍ مفرط ، وَبَلَهٍ متناهٍ ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم[٢] ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ أي قال هودٌ إني أُشهد الله على نفسي ﴿ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بريءٌ مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام .

مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ
بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ

﴿ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ أي فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال أبو السعود : وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد ، والغلاظ الشداد ، وقد حقَّرهم وهيَّجهم بانتقاص آلهتهم ، وحثهم على التصدي له فلم يقدروا على مباشرة شيء ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً[٣] وقال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يُواجه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوسٍ واحدة ، وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم ، ومثله قول نوح ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾[٤] ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾

---

(١) الألوسي ١٢/٨١ . (٢) الكشاف ٢/٤٠٣ . (٣) أبو السعود ٣/١٥ . (٤) الكشاف ٢/٤٠٣ .

رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

أي ما من نسمةٍ تدبُّ على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره ، والأخذُ بالناصية تمثيلٌ للملك والقهر ، والجملةُ تعليلٌ لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أي إن ربي عادل ، يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ** ﴾ أي فإن تُعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي ، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ **وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ** ﴾ أي فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم ، وهذا وعيدٌ شديد ﴿ **وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً** ﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بإشراككم ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ أي إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء ، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** ﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب ، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم ﴿ **نَجَّيْنَا هُوداً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا** ﴾ أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضلٍ عظيم ونعمة منا عليهم ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُم مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد ، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن ، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم ، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخلٍ خاوية .

وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ

﴿ **وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** ﴾ الإشارة لآثارهم أي تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حلَّ بهم ، حين كفروا بالله ، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته ؟ ﴿ **وَعَصَوْا رُسُلَهُ** ﴾ أي عصوا رسوله هوداً ، وجمعه تفظيعاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿ **وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ أي أطاعوا أمر كل مستكبر على الله ، حائد عن الحق ، لا يُذعن له ولا يقبله ، يريد به الرؤساء والكبراء ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً** ﴾ أي وأُلحقوا باللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا ﴿ **وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ** ﴾ أي ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعنة قال الرازي : جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعنة الإبعاد من

ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

رحمة الله تعالى ومن كل خير[1] ﴿ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ هذا تشنيع لكفرهم وتهويلٌ بحرف التنبيه وبتكرار اسم عاد أي ألا فانتبهوا إنَّ عاداً كفروا بربهم إذْ عبدوا غيره ، وجحدوا نعمته إذ كذبوا رسوله ، فاستحقوا اللعنة في الدنيا ، واللعنة في الآخرة ﴿ أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أي أبعدهم الله من الخير ، وأهلكهم عن بكرة أبيهم ، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعنة ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم وهو صالح عليه السلام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰـهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌّ معبود سواه ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض ، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عمَّارها وسكانها تسكنون بها ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿ إنَّ ربي قريبٌ مجيب ﴾ أي إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء .

قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَد كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجاؤ نا فيك ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤ نا ؟ ﴿ وإننا لفي شكٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب ﴾ أي وإننا لشاكون في دعواك ، وأمرُكَ مريب يوجب التهمة ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن ربِّي ﴾ أي أخبروني إن كنت على برهان وحجة واضحة من ربي ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي وأعطاني النبوة والرسالة ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره ؟ ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أي فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير قال الزمخشري : ﴿ غير تخسير ﴾ يعني تخسرون أعمالي وتبطلونها[2] ﴿ وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله

(١) الفخر الرازي ١٨/١٦ .   (٢) الكشاف ٢/٤٠٨ .

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

حسب طلبهم أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي ﴿ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ** ﴾ أي دعوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها ﴿ **وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** ﴾ أي لا تنالوها بشيء من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم .

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾

﴿ **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ إِيَّامٍ** ﴾ أي ذبحوا الناقة فقال لهم صالح : استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون قال القرطبي : إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل لأنه كان برضى الباقين ، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد[1] ﴿ **ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ أي وعدٌ حق غير مكذوب فيه ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ أي فلما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا صالحاً ومن آمن به ﴿ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** ﴾ أي بنعمة وفضل عظيم من الله ﴿ **وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** ﴾ أي القوي في بطشه ، العزيز في ملكه ، لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ﴿ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ أي أخذتهم صيحة من السماء تقطعت لها قلوبهم ، فأصبحوا هامدين موتى لا حِرَاك بهم كالطير إذا جثمت ﴿ **كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يَعْمُروها ﴿ **أَلاَ إِنَّ ثَمُودا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ** ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم فسحقاً لهم وبُعداً ، وهلاكاً ولعنة ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ** ﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة لوط وهلاك قومه المكذبين أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيمَ بالبشارة بإسحاق[2] ، قال القرطبي : لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم فظنهم أضيافاً ، وهم جبريل

(١) القرطبي ٩/٦٠ . (٢) البشرى هي البشارة بالولد ، وقيل : بهلاك قوم لوط قال الزمخشري : والظاهر الولد .

وميكائيل وإسرافيل قال له ابن عباس ، وقال السدي : كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه[1] ﴿ **قَالُوا سَلاَماً** ﴾ أي سلموا عليه سلاماً ﴿ **قَالَ سَلاَمٌ** ﴾ أي قال لهم إبراهيم : سلام عليكم ، قال المفسرون : ردَّ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة إسمية وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿ **فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** ﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجلٍ مشوي فقدمه لهم . قال الزمخشري : والعجل : ولد البقرة ويسمى « الحسيل » وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر ، والحنيذ : المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل : الذي يقطر دسمه ويدل عليه « بعجل سمين »[2] .

فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

﴿ **فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ** ﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿ **وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** ﴾ أي أحسَّ منهم الخوف والفزع ، قال قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشر[3] ﴿ **قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ** ﴾ أي قالت الملائكة : لا تخف فإنا ملائكة ربك لا نأكل ، وقد أُرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿ **وَٱمْرَأَتُهُ قَائمةٌ فَضَحِكَتْ** ﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها « سارة » قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ أي بشرتها الملائكة بإسحاق ولداً لها ويأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ﴿ **قَالَتْ يَاوَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً** ﴾ أي قالت سارة متعجبة : يا لهفي ويا عجبي أألد وأنا امرأة مسنة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد ؟ ﴿ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجربه العادة ، قال مجاهد : كانت يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة[4] ﴿ **قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ** ﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين ؟ ليس هذا

(٢) القرطبي ٩/٦٢ . (٣) الكشاف ٢/٤٠٩ . (٤) الطبري ١٢/٧١ . (٥) البيضاوي ٢٥٣ .

بمكان عجب على قدرة الله ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي إنه تعالى محمود ممجد في صفاته وذاته ، مستحق للحمد والتمجيد من عباده ، وهو تعليل بديع لماسبق من البشارة .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوفُ الذي أوجسه في نفسه ، واطمأن قلبُه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿ وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ أي جاءته البشارة بالولد ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط ، وغرضُه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون ، قال المفسرون : لما قالت الملائكة : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ قال لهم : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا لا . . فما زال يتنزل معهم حتى قال لهم : أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم ؟ قالوا لا . . فقال لهم : ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾[1] ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ أي غير عجول في الانتقام من المسيء إليه ﴿ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقة قلبه ، منيب رجَّاعٌ إلى طاعة الله ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أي قالت الملائكة : يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي نازلٌ بهم عذابٌ غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوع ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر ، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي شديد في الشر ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي جاء

(١) انظر الطبري ١٢/٨٠ .

قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعاً ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ أي ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال القرطبي : وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف بجمالهم ، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتيةً ما رأيت مثلهم جمالاً فحينئذٍ جاءوا يُهرعون إليه[1] ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ أي قال لهم لوط : هؤلاء نساء البلدة أُزوِّجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل ، وإنما قال بناتي لأن كل نبيٍّ أبٌ لأمته في الشفقة والتربية ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أي استفهام توبيخ أي أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟! ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي قال له قومه : لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب ، وليس لنا رغبة فيهن ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور ، صرَّحوا له بغرضهم الخبيث قبَّحهم الله .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ أي ألجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرني عليكم ، وجواب « لو » محذوف تقديره لبطشتُ بكم وفي الحديث (رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد)[2] يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده ، فهو ركنه الشديد وسنده القوي ، قال قتادة : وذُكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته[3] ، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أي قالت الملائكة للوط : إنا رسلُ ربك أُرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ ﴾ أي اخرج بهم بطائفة من الليل ، قال الطبري : أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل[4] ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ أي لا ينظر أحدٌ منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا ، نُهوا عن الالتفات لئلا تتفطر أكبادهم على قريتهم قال

(١) القرطبي ٩/٧٥ . (٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً . (٣) روح المعاني ١٢/١٠٨ .
(٤) الطبري ١٢/٨٩ .

بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ *

القرطبي : إن امرأة لوط لمَّا سمعت هدَّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها[1] ﴿ **إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** ﴾ أي إنه يصيب امرأتك من العذاب ما أصاب قومك ﴿ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ** ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبحُ ﴿ **أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له : أليس وقت الصبح قريباً ؟ قال المفسرون : إن قوم لوط لما سمعوا الضيوف هرعوا نحوه ، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما بلوط من الكرب قالوا يا لوط : افتح الباب ودعنا وإيَّاهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاءَ ، النجاءَ كما قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴾ ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر ، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مَدائن قوم لوط ـ وهي خمسٌ ـ من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة ، ونباح الكلاب ، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عالِيهَا سَافِلَهَا** ﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ** ﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين ، شبَّهها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿ **مَنْضُودٍ** ﴾ أي متتابعة ، بعضُها في إثر بعض ﴿ **مسوَّمة عند رَبِّك** ﴾ أي معلمة بعلامة ، قال الربيع : قد كتب على كل حجر اسم من يُرمى به ، قال القرطبي : وقوله ﴿ **عند ربك** ﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض[2] ﴿ **وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ أي ما هذه القرى المهلكة[3] ببعيدة عن قومك « كفار قريش » فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ قال المفسرون : وقد صار موضع تلك المدن بحراً أُجاجاً يعرف بـ « البحر الميت » لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم « بحيرة لوط » والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم

---

(١) القرطبي ٩/٨٠ . (٢) القرطبي ٩/٨٣ .

(٣) وقيل الضمير يعود على الحجارة أي وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم .

بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

﴿ وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً ، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال « أخاهـم » ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِن إلٰـهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم ربٌّ سواه ﴿ وَلاَ تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان ، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي إني أراكم في سعةٍ تغنيكم عن نقص الكيل والميزان ، قال القرطبي : أي في سعة من الرزق ، وكثرة من النعم[1] ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ أي إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك ، لا يفلت منه أحد ، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ لأي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي لا تُنْقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض ، والعثيُّ أشد الفساد ﴿ بَقِيَّــتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال خيرٌ مما تجمعونه من الحرام ، إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده ، وقال مجاهد : أي طاعة الله خير لكم[2] ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي ولست برقيب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها إنما أنا ناصح مبلغ ، وقد أعذر من أنذر ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، وبإيفاء الكيل والميزان ، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤ نا ؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل ﴿ أَوْ أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ أي وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان . قال الإمام الفخر : إن شعيباً أمرهم بشيئين : بالتوحيد ، وترك البخس ، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله ﴿ ما يعبد آباؤنا ﴾

(١) القرطبي ٨٥/٩ . (٢) الطبري ١٠٠/١٢ .

إشارة إلى التوحيد ، وقوله ﴿ نفعل في أموالنا ﴾ إشارة إلى ترك البخس ، قود يراد بالصلاة الدينُ والمعنى : دينُك يأمرك بذلك ؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين ، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ السخرية والهزء ، كما إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فتقول : هذا من مطالعة تلك الكتب[١] ؟ ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد ؟ قال الطبري : يستهزئون به فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاءً ، وإنما سفَّهوه وجهَّلوه بهذا الكلام[٢] .

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي ﴾ أي قال لهم شعيب : أخبروني إن كنت على برهانٍ من ربي وهو الهداية والنبوة ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ أي أعطاني المال الحلال ، فقد كان عليه السلام كثير المال ، قال الزمخشري : والجواب محذوف دلَّ عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، ويقينٍ من ربي ، وكنتُ نبياً على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان ، والكف عن المعاصي ؟ والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك[٣] ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه ، وإنما آمركم بما آمر به نفسي ﴿ إِن أُرِيدُ إِلاَّ ٱلإِصلاَحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أي لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِٱللَّهِ ﴾ أي ليس التوفيق إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري ، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿ وَيَاقَوْمِ لاَيَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي لايكسبنكم عداوتي ﴿ أَن يُصِيبَكُم مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ أي يصيبكم العذابُ كما أصاب قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح بالرجفة ، وقال الحسن المعنى : لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار[٤] ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُم بِبَعِيدٍ ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوطٍ بمكان بعيد ، أفلا تتعظون وتعتبرون !؟ .

(١) تفسير الرازي ١٨/٤٢ . (٢) الطبري ١٢/١٠٣ . (٣) الكشاف ٢/٤٢٠ . (٤) القرطبي ٩/٩٠ .

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

﴿ **وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه** ﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب ، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً ﴿ **إِنَّ رَبّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة ، كثير الود والمحبة لمنْ تاب وأناب ﴿ **قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ** ﴾ أي قالو لنبيّهم شعيب على وجه الاستهانة : ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال الألوسي : جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكِمَ والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يُفهم معناه ، ولا يدرك فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)[1] ﴿ **وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً** ﴾ أي لا قوة لك ولا عزَّ فيما بيننا ﴿ **وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ** ﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾ أي لستَ عندنا بمكرَّم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿ **قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ ٱللَّهِ** ﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى ؟ فهل عشيرتي أعزّ عندكم من الله وأكرم ؟ قال ابن عباس : إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعزَّ عليهم من الله وصغُر شأنُ الله عندهم ، عزَّ ربنا وجلَّ ثناؤه[2] ﴿ **وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً** ﴾ أي جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به ، وهذا مثلٌ ، قال الطبري : يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل : نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها[3] ﴿ **إِنَّ رَبّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿ **وَيَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنّي عَامِلٌ** ﴾ تهديدٌ شديد أي اعملوا على طريقتكم إني عاملٌ على طريقتي كأنه يقول : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ** ﴾ أي سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿ **وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ** ﴾ أي وتعلمون من هو الكاذب ﴿ **وَٱرْتَقِبُوا إِنّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ** ﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم .

---

(١) روح المعاني ١٢/١٢٣ . (٢) الطبري ١٢/١٠٦ . (٣) الطبري ١٢/١٠٦ .

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا** ﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿ **وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ** ﴾ أي وأخذ أولئك الظالمين صيحةُ العذاب قال القرطبي : صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم[١] ﴿ **فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ أي موتى هامدين لا حراك بهم قال ابن كثير : وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الاعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلّها ، وإنما ذكر في كل سياقٍ ما يناسبه[٢] ﴿ **كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾ أي كأن لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم قبل ذلك ﴿ **أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** ﴾ قال الطبري : أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم[٣] ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بَآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة والمعنى : لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلْهية ، وأيدناه بمعجزات قاهرة ، وبينات باهرة ، كالعصا واليد ﴿ **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ** ﴾ أي إلى فرعون وأشراف قومه ﴿ **فَٱتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ** ﴾ أي فأطاعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿ **وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ** ﴾ أي وما أمر فرعون بسديد لأنه ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ** ﴾ أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿ **فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ** ﴾ أي أدخلهم نار جهنم ﴿ **وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ** ﴾ أي بئس المدخل المدخول هي ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً** ﴾ أي أُلحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنةً في الدنيا ﴿ **وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ** ﴾ أي وأُردفوا بلعنةٍ أخرى يوم القيامة ﴿ **بِئْسَ ٱلرِفْدُ ٱلْمَرْفُودُ** ﴾ أي بئس العونُ المُعان والعطاء المُعْطى لهم ، وهي اللعنة في الدارين .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ

(١) القرطبي ٩/٩٢ . (٢) المختصر ٢/٢٣١ . (٣) الطبري ١٢/٩ .

أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل ، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهلُه وبقي بنيانُه ، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب ، ولكنْ ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عقاب الله وعذابه ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين ، يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة قال الألوسي : وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ الآية[١] ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أي إن عذابه موجع شديد ، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلآخِرَةِ ﴾ أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرون قال ابن عباس : يشهده البر والفاجر[٢] ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم ـ يوم القيامة ـ إلا لزمن معيَّن سبق به قضاء الله ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي فمن أهل الموقف شقّي ، ومنهم سعيد كقوله ﴿ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ أي فأما الأشقياء الذين

(١) روح المعاني ١٢/١٣٧ . (٢) القرطبي ٩/٩٦ .

فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم ، لهم من شدة كربهم ﴿ زفيرٌ ﴾ وهو إخراج النَّفَس بشدة ﴿ وشهيقٌ ﴾ وهو ردُّ النَّفَس بشدة ، وقال بعض المفسرين : شبَّه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال الطبري : في روايته عن قتادة : صوتُ الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخيره شهيق[١] ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض قال الطبري : إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائمٌ دوام السموات والأرض بمعنى انه دائمٌ أبداً ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد : ما دامت السماء سماءً ، والأرض أرضاً والمعنى خالدين فيها أبداً[٢] وقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد ، والثاني : أن يكون عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع[٣] ﴿ إلاَّ مَاشَاءَ رَبُّكَ ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد[٤] ، لأن لفظة ﴿ شقوا ﴾ تعم الكفار والمذنبين ، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين ، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة ويقال لهم : ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ﴿ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ أي يفعل ما يريد يرحم ويعذب كما يشاء ويختار ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه .

* وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إلاَّ مَاشَاءَ رَبُّكَ ﴾ هذا بيانٌ لحال الفريق الثاني « أهل السعادة » اللهم اجعلنا منهم أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة ، لا يُخْرجون منها أبداً ، دائمون فيها دوام السموات والأرض ، أو ما

(١) الطبري ١١٧/١٢ . (٢) الطبري ١١٧/١٢ . (٣) الكشاف ٤٣/٢ .

(٤) هذا اختيار الطبري وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء وانظر القرطبي ٩٩/٩ .

دامت سمواتُ الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى ، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي عطاءً غير مقطوع عنهم ، بل هو ممتد إلى غير نهاية ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ ﴾ أي لا تكن في شكٍ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال بمعنى لا تشك في فساد دينهم ﴿ مَايَعْبُدُونَ إلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ ﴾ أي هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان ، وهذه تسلية للرسول ﷺ ووعدٌ له بالانتقام منهم ، إذ حالُهم حال من سبقهم من الضالين المكذبين ، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله ﴿ وَإنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ أي وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص وقال ابن عباس : ما قُدِّر لهم من الخير والشر[1] ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ قال الطبري : يقول تعالى مسلياً نبيه في تكذيب مشركي قومه له : لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان ، فاختلف في ذلك الكتاب ، فكذَّب به بعضُهم ، وصدَّق به بعضُهم ، كما فعل قومك[2] ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضي بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب ﴿ وَإنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي وإن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مُريب لهم ، إذ لا يدرون أحقٌ هو أم باطل ؟ .

وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ وَإنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي وإنَّ كلاً من المؤمنين والكافرين لمَّا ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربُّك جزاءها في الآخرة ﴿ إنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي عليمٌ بأعمالهم جميعاً ، صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي استقم يا محمد على أمر الله واثبت وداوم على الاستقامة كما أمركَ ربُّك ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿ وَلاَتَطْغَوْا ﴾ أي لا تجاوزا حدود الله بارتكاب المحارم ﴿ إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي إنه تعالى مطلع على أعمالكم ويجازي عليها ﴿ وَلاَ تَرْكَنوا إلى الذين ظلموا

(١) الطبري ١٢/١٢٢ . (٢) الطبري ١٢/١٢٣ .

فتمسَّكم النار ﴾ أي لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكم نار جهنم قال البيضاوي : الركونُ هو الميل اليسير أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسكم النار بركونكم إليهم ، وإذا كان الركونُ اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ، والميل إليهم كلَّ الميل[١] ؟! ﴿ وَمَا لَكُم مِن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لاتجدون من ينصركم من ذلك البلاء قال القرطبي : والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي فإن صحبتهم كفرٌ أو معصية إذْ الصحبةُ لا تكون إلا عن مودَّة ، وأما صحبة الظالم على التقيَّة فمستثناةٌ من النهي بحال الاضطرار[٢] .

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلاةَ طَرَفَي ٱلنَّهَارِ ﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره ، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار[٣] ﴿ وزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ ﴾ أي ساعات منه قريبةً من النهار ، والمراد بهما المغرب والعشاء ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفِّر الذنوب الصغائر ، لحديث (الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينها ما اجتُنبتْ الكبائرُ) قال المفسرون : المراد بالحسنات الصلواتُ واستدلوا على ذلك بسبب النزول ، وهذا قول الجمهور ، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال : المعنى إن فعل الخيرات يكفِّر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث (ما من مسلم يُذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غُفر له)[٤] ﴿ ذٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة ، عظةٌ للمتعظين وإرشادٌ للمسترشدين ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي اصبر يا محمد على ما تلقى من المكاره ومن أذى المشركين ، فإنَّ الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي فهلَّا كان من الأمم الماضية قبلكم أولُو عقل وفضل ، وجماعةٌ

(١) البيضاوي ٢٥٨ . (٢) القرطبي ١٠٨/٩
(٣) هذا قول الحسن وقتادة واختار الطبري أنها الصبح والعصر وهو مروي عن ابن عباس . (٤) المختصر ٢٣٥/٢ .

إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

أخيارٌ ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ استثناء منقطع أي لكنْ قليلاً منهم ، نَهَوْا عن الفساد فَنَجَوْا قال في البحر : « لولا » في الآية للتحضيض صحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿ يا حسرةً على العباد ﴾ والغرضُ التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره[1] ﴿ **وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ أي واتَّبع أولئك الظلمة شهواتهم ، وما نُعِّموا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿ **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ أي وكانوا قوماً مصرِّين على الإجرام ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ أي ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلُها مصلحون في أعمالهم ، لأنه تعالى منزّه عن الظلم ، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلَّهم مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام ، ولكنَّه لم يفعل ذلك للحكمة ﴿ **وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى ، ومِلل متعددة ما بين يهودي ، ونصراني ، ومجوسي .

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

﴿ **إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ** ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق ، ﴿ **وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ اللام لامُ العاقبة أي خلقهم لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد قال الطبري : المعنى وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ، فريق في الجنة ، وفريقٌ في السعير[2] ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي تَمَّ أمر الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجنّ والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال الألوسي : والجملة متضمنة معنى القسم ولذا جيء باللام في ﴿ لأملأنَّ ﴾[3] وكأنه قال : والله لأملان جهنم مَن أتباع إبليس من الإنس والجن أجمعين ﴿ **وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ أي كل هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين ، إنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة ،

(١) البحر ٥/٢٧١ . (٢) الطبري ١٢/١٤٤ . (٣) روح المعاني ١٢/١٦٥ .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وتطمين قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿ **وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ٱلْحَقُّ** ﴾ أي جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ ليقيني الصادق ﴿ **وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين ، وخصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ القرآن ﴿ **وَقُل لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ** ﴾ أي اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا ، وهو أمرٌ ومعناه التهديد والوعيد ﴿ **وَٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ** ﴾ تهديدٌ آخر أي انتظروا ما يحلُّ بنا إنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله ﴿ **وللهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ أي علمُ ما غاب وخفي فيهما ، كلُّ ذلك بيده وبعلمه ﴿ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ** ﴾ أي إليه يردُّ أمر كل شيء ، فينتقم ممن عصى ، ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿ **فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ أي اعبد ربَّك وحده ، وفوِّضْ إليه أمرك ، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه ، فإنه كافي من توكَّل عليه ﴿ **وَمَا ربك بغافل عمَّا تعملون** ﴾ أي لايخفى عليه شيء من أعمال العباد ، ويجازي كلاً بعمله .

(تم بعونـــه تعالى تفسير سورة هـــود)

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّة وآياتها إحدى عشرة ومائة

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء ، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله « يوسف بن يعقوب » وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر ، وفي السجن ، وفي تآمر النسوة ، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق ، والمقصودُ بها تسلية النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة ، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

* والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وأدائها ، وفي قَصصَها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري ـ برقتها وسلاستها ـ في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية ، التي تحمل ـ في الغالب ـ طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت طريَّةً نَديِّةً ، في أسلوب ممتع لطيف ، سَلِسٍ رقيق ، يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالدُ بن مَعْدان : « سورة يوسف ومريم ممَّا يتفكَّه بهما أهل الجنة في الجنة » وقال عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها »(١)

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة « هود » ، في تلك الفترة الحرجة العصبية من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين ، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيريه : زوجه الطاهر الحنون « خديجة » وعمَّه « أبا طالب » الذي كان له خير نصير ، وخير معين ، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ، حتى عُرف ذلك العام بـ « عام الحُزْن » .

* في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون ، الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، كان الله سبحانه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٢٣٣

ينزِّل على نبيه الكريم هذه السورة تسليةً له ، وتخفيفاً لآلامه ، بذكر قصص المرسلين ، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك ، وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فَرَجاً ، وإن بعد الضيق مخرجاً ، أُنظر إلى أخيك « يوسف » وتمعَّنْ ما حدث له من صنوف البلايا والِمحَن ، وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المِحَن : محنة حَسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة رميه في الجب ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له ، ثم مراودته عن نفسه بشتّى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن بعد ذلك العزِّ ورغد العيش !! انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة ، وصبر على الضرّ والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، وملَّكه الله خزائنها ، فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرَّم . . وهكذا أفعل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلابدَّ أن توطِّد النفس على تحمل البلاء ، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين **﴿ فاصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل ﴾ ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضَيْقٍ مما يمكرون ﴾** .

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصدّيق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه ، وجاءت تحمل البِشْرَ والأنس ، والراحة والطمأنية لمن سار على درب الأنبياء ، فلابدَّ من الفرج بعد الضيق ومن اليسر بعد العسر ، وفي السورة دروس وعبر ، وعظات بالغات ، حافلات بروائع الأخبار العجيبة ، والأنباء الغريبة **﴿ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾** .

* **هذا هو جوُّ السورة** ، وهذه إيحاءاتُها ورموزُها . . تُبشِّر بقرب النصر ، لمن تمسكَّ بالصبر ، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، فهي سلوى للقلب ، وبلسمٌ للجروح ، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة ، بقصد « العظة والاعتبار » ولكنْ بإيجاز دون توسع ، لاستكمال جميع حلقات القصة ، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل ، وأما سورة يوسف فقد ذُكرت حلقاتها هنا متابعة بإسهاب وإطناب ، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قَصص الرسل ، لتشير إلى « إعجاز القرآن » في المجمل والمفصَّل ، وفي حالتي الإيجاز والإطناب ، فسبحان المَلِك العلي الوهاب .

قال العلاَّمة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في

وجوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان ، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر ، والإعجاز واضح لمن تأمل . وصدق الله ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب** . . ﴾ !

تفسير سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

﴿ **الٓر** ﴾ إشارة إلى الإعجاز ، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز(١) ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك يامحمد هي آيات الكتاب المعجز في بيانه ، الساطع في حججه وبراهينه ، الواضح في معانيه ، الذي لا تشتبه حقائقه ، ولا تلتبس دقائقُه ﴿ **إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ أي لكي تعقلوا وتدركوا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز ليس بشراً ، وإنما هو إله قدير ، وهذا الكلام وحيٌ منزل من رب العالمين ﴿ **نحن نقصُّ عليك أحسن القصص** ﴾ أي نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة ، بأصدق كلام ، وأحسن بيان ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿ **وإن كنتَ من قبلِهِ لمن الغافلين** ﴾ أي وإن الحال والشأن أنك كنتَ من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرعْ سمعك ، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب ﴿ **إذْ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً** ﴾من هنا بدايةُ القصة ، أي اذكر حين قال يوسفُ لأبيه يعقوب يا أبي إني رأيت في المنام هذه الرؤ يا العجيبة ، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء خرّت ساجدةً لي ﴿ **والشمسَ**

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة .

والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ أي ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب قال ابن عباس : كانت الرؤيا فيهم وحياً[١] قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة[٢] ﴿ **قال يا بُنيَّ لا تقصص رؤياك على إخوتك** ﴾ أي قال له يعقوب : لاتخبرْ بهذه الرؤيا إخوتك ﴿ **فيكيدوا لك كيداً** ﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على ردّها ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين** ﴾ أي ظاهر العداوة قال أبو حيان : فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلّغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم[٣] .

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ * لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

﴿ **وكذلك يجتبيك ربك** ﴾ أي وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾أي يعلمك تفسير الرؤيا المناميةً ﴿ **ويتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب** ﴾ أي يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿ **كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق** ﴾ أي كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحق بالرسالة والاصطفاء ﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾أي عليمٌ بمن هو أهلٌ للفضل ، حكيم في تدبيره لخلقه ﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين** ﴾ أي لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبرٌ وعظاتٌ للسائلين عن أخبارهم ﴿ **إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا** ﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام أي حين قالوا : والله ليوسفُ وأخوه « بنيامين » أحبُّ منّا عند أبينا ، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابتٌ لاشبهة فيه ، وإنما قالوا ﴿ **وأخوه** ﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿ **ونحن عصبةٌ** ﴾ أي والحال نحن جماعة ذوو عدد ، نقدر على النفع والضر ، بخلاف الصغيرين ﴿ **إنَّ أبانا لفي ضلال مبين** ﴾ أي إنه في خطإٍ وخروج عن الصواب بينّ واضح ، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة قال القرطبي : لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه في خطإٍ بيِّن في إيثار اثنين على عشرة[٤] ﴿ **اقتلوا يوسف**

(١) الطبري ١٥١/١٢ . (٢) الصاوي على الجلالين ٢٣٤/٢ . (٣) البحر ٢٨٠/٥ . (٤) القرطبي ١٣١/٩ .

أو اطرحوه أرضاً ﴾ أي أقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة ﴿ يخْلِ لكم وجهُ أبيكم ﴾ أي فعند ذلك يخلصْ ويصفو لكم حبُّ أبيكم فيُقْبل عليكم قال الرازي : المعنى إن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه ، فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل[١] ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ أي وتتوبوا من بعد هذا الذنب وتصبحوا قوماً صالحين .

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ قال قائلٌ منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴾ أي قال لهم أخوهم « يهوذا »[٢] وهو أكبر ولد يعقوب : لا تقتلوا يوسف بل ألقوه في قعر الجب وغوره ﴿ يلتقطْه بعضُ السيّارة ﴾ أي يأخذه بعض المارَّة من المسافرين ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي إن كان لا بدَّ من الخلاص منه فاكتفوا بذلك ، وكان رأيه فيه أهون شراً من رأي غيره ﴿ قالوا يا أبانا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا على يوسفَ ﴾ المعنى أيُّ شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف ، ونحن جميعاً أبناؤك ؟ ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير قال المفسرون : لما أحكموا العزْم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف ، وفي غاية الشفقة عليه ، ليستنزلوه عن رأيه في تخوفه منهم وكأنهم قالوا : لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به !! ﴿ أرسلْه معنا غداً يرتَعْ ويلعبْ ﴾ أي أرسله معنا غداً إلى البادية ، يتسع في أكل ما لذَّ وطاب ، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه ، أكّدوا كلامهم بإنَّ واللام وهم كاذبون ﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي قال لهم يعقوب : إنه ليؤلمني فراقُه لقلة صبري عنه ﴿ وأخاف أن يأكله الذئبُ وأنتم عنه غافلون ﴾ أي وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم عنه ، وكأنه لقنهم الحجة قال الزمخشري : إعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقته إياَّه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم[٣] ﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عُصبة إنّا إذاً لخاسرون ﴾ اللام للقسم أي والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسار والدمار .

(١) الرازي ٩٤/١٨ . (٢) هذا قول ابن عباس وقيل هو « روبيل » وهو قول قتادة . (٣) الكشاف ٤٤٨/٢ .

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿ **فلما ذهبوا به** ﴾ في الكلام محذوف أي فأرسله معهم فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿ **وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب** ﴾ أي عزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ أي أوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف ، قال الرازي : وفائدة هذا الوحي تأنيسُه ، وتسكينُ نفسه ، وإزالةُ الغمّ والوحشةِ عن قلبه ، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة[1] ﴿ **وجاءو أباهم عشاءً يبكون** ﴾ أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون ، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم فزع ، وقال : مالكم يابَنيَّ ، وأين يوسف ؟ ﴿ **قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق** ﴾ أي نتسابق في العَدْو ، أو في الرمي ﴿ **وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب** ﴾ أي تركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿ **وما أنت بمُؤْمِنٍ لنا ولو كنا صادقين** ﴾ أي لست بمصدّق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا ؟ وهذا القول منهم يدل على الارتياب ، وكما قيل : يكاد المريبُ يقول خذوني ﴿ **وجاءو على قميصه بدمٍ كذبٍ** ﴾ أي جاءوا على ثوبه بدمٍ كاذب ، وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينُه قال ابنُ عباس : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم لو أكله الذئب لخرقَ القميص[2] وروي أنه قال : « ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشقَّ قميصه » ؟! ﴿ **قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً** ﴾ أي زيَّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿ **فصبرٌ جميل** ﴾ أي أمري صبرٌ جميل لا شكوى فيه ﴿ **والله المستعانُ على ما تصفون** ﴾ أي وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ

(١) الفخر الرازي ١٨/١٠٠ . (٢) الطبري ١٢/١٦٤ .

أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿ **وجاءت سيارة** ﴾ أي قوم مسافرون مروا بذلك الطريق قال ابن عباس : جاء قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جب يوسف ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران[1] ﴿ **فأرسلوا واردهم** ﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ أي أرسل دلوه في البئر قال المفسرون : لما أدلى الواردُ دلوه وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر تعلّق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿ **قال يا بشرى هذا غلام** ﴾ قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته قال أبو السعود : كأنه نادى البشرى وقال تعالىْ فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة[2] ﴿ **وأسرّوه بضاعة** ﴾ أي أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر متاعاً كالبضاعة ، والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿ **والله عليمٌ بما يعملون** ﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم ، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿ **وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ** ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصدّيق وهي محنة الاسترقاق أي باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمنٍ قليل منقوص هو عشرون درهماً كما قال ابن عباس ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبداً آبقاً فينتزعه سيّده من أيديهم ، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان ﴿ **وقال الذي اشتراه من مصرَ لامرأته أكرمي مثواه** ﴾ أي وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته أكرمي إقامته عندنا قال ابن عباس : كان اسم الذي اشتراه « **قطفير** » وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر[3] ﴿ **عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً** ﴾ أي عسى أن يكفينا بعض المهمات إذا بلغ أو نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** ﴾ أي وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكناً في أرض مصر يعيش فيها بعز وأمان ﴿ **ولنعلّمه من تأويل الأحاديث** ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿ **والله غالبٌ على أمره** ﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ﴿ **ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون** ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن

(١) الرازي ١٨/١٠٥ . (٢) أبو السعود ٢/٥٩ . (٣) الطبري ١٢/١٧٥ .

نَفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ ولما بلغ أشدَّه ﴾ أي بلغ منتهى شدته وقوته وهو ثلاثون سنة ﴿ آتيناه حُكماً وعلماً ﴾ أي أعطيناه حكمةً وفقهاً في الدين ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾أي المحسنين في أعمالهم ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ هذه هي المحنة الثالثة بعد محنة الجب والاسترقاق ، والمراودةُ الطلبُ برفق ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى : طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها ، ودعته برفق ولين أن يواقعها ، وتوسلّت إليه بكل وسيلةٍ ﴿ وغلّقت الأبواب ﴾ أي غلّقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها قال القرطبي : كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها[1] ﴿ وقالت هيتَ لك ﴾ أي هلُمَّ وأسرع إلى الفراش فليس ثمة مايُخشى قال في البحر : أمرته بأن يسرع إليها[2] ﴿ قال معاذ الله ﴾ أي عياذاً بالله من فعل السوء قال أبو السعود : وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، لما أراه الله من البرهان النيِّر على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء[3] ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أي إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسيء إليه بالخيانة في حَرَمه ؟ ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المُجازون الإحسانَ بالسوء .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شراكها ، وتوسلّت إليه بكل وسائل الإغراء ، ولولا أنَّ الله جلَّ وعلا حفظه من كيدها لهلك فقال ﴿ ولقد همَّت به ﴾ أي همَّت بمخالطته عن عزمٍ وقصدٍ وتصميم ، عزماً جازماً على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف ، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة ، بعد ان استحكمت من تغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع ، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ﴿ وهمَّ بها ﴾ أي مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة

(١) القرطبي ١٦٣/٩ . (٢) البحر ٢٩٣/٥ . (٣) أبو السعود ٦٢/٢ .

البشرية ، وحدثته نفسُه بالنزول عند رغبتها حديث نفسٍ ، دون عزمٍ وقصد ، فبين الهمَّيْن فرق كبير[1] قال الإمام الفخر : الهمُّ خطورُ الشيء بالبال أو ميلُ الطبع ، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسُه على الميل إليه وطلب شربه ، ولكنْ يمنعه دينُه عنه[2] ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ جوابه محذوفٌ أي لولا حفظ الله ورعايتُه ليوسف ، وعصمتهُ له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به ، ولكنَّ الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيءٌ البتَّة قال في البحر : نسب بعضُهم ليوسف ما لا يجوز نسبتُه لآحاد الفُسَّاق ، والذي أختاره أن « يوسف » عليه السلام لم يقع منه همٌّ البتَّة ، بل هو منفيٌّ لوجود رؤ ية البرهان كما تقول : « قارفتَ الذنبَ لولا أن عصمك الله » وكقول العرب : « أنتَ ظالمٌ إن فعلتَ » وتقديره : إن فعلتَ فأنتَ ظالم وكذلك هنا التقدير : لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولكنه وجد رؤ ية البرهان فانتفى الهمُّ ، وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيءُ من ذلك ، لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقضُ بعضهُا بعضاً مع كونها قادحة في بعض فساق الملل فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة[3] وقال أبو السعود : إن همَّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ميلاً جبلياً ، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً ، ألايرى إلى ما سبق من استعصامه المنبيء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلاً محكماً ؟ وماقيل : إنه حلَّ الهميان ، وجلس مجلس الختان ، فإنما هي خرافات وأباطيل ، تمجها الآذان ، وتردّها العقول والأذهان[4] ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء** ﴾ أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور ، وهذه آية بيِّنة ، وحجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية ، ولو كان كما زعموا لقال « لنصرفه عن السوء والفحشاء » فلما قال ﴿ **لنصرف عنه** ﴾ دلَّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه ، بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تناهى قبحُه ﴿ **إنه من عبادنا المخلَصين** ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله لطاعته ، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته ، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان . . ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدوم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب ، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿ **واستبقا الباب** ﴾ أي تسابقا نحو باب القصر ، هو للهرب ، وهي للطلب ﴿ **وقدَّتْ قميصه من دبُرُ** ﴾ أي شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبته فشقت قميصه ﴿ **وألفيا سيدها لدا الباب** ﴾ أي وجدا العزيز عند

(١) هذا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمُّ منها كان همَّ عزمٍ وقصدٍ ، والهمُّ منه كان حديث نفس . (٢) الفخر الرازي ١٨/١١٩ . (٣) البحر ٥/٢٩٥ . (٤) أبو السعود ٢/٦٣ .

باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره ، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً ، والبريء متهمًا ﴿ **قالتْ ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذابٌ أليم** ﴾ أي ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً ﴿ **قال هي راودتني عن نفسي** ﴾ أي قال يوسف مكذباً لها : هي التي دعتني إلى مقارفة الفاحشة لا أني أردت بها السوء ﴿ **وشهد شاهدٌ من أهلها** ﴾ قال ابن عباس : كان طفلاً في المهد أنطقه الله ، وكان ابن خالها[1] قال في البحر : وكونُه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثقُ لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة[2] ﴿ **إن كان قميصهُ قدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين** ﴾ أي إن كان ثوبهُ قد شُقَّ من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿ **وإن كان قميصهُ قُدَّ من دُبُر فكذبتْ وهو من الصادقين** ﴾ أي وإن كان ثوبه قد شُقَّ من الوراء فهي كاذبة وهو صادق ، لأن الأمر المنطقي أن يُشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب .

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿ **فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر** ﴾ أي فلما رأى زوجها أن الثوب قد شُقَّ من الوراء ﴿ **قال إنه من كيدكنَّ** ﴾ أي إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة ﴿ **إنَّ كيدكنَّ عظيم** ﴾ تأكيد لما سبق ذكره أي مكركنَّ معشر النسوة واحتيالكنَّ للتخلص مما دبرتُنَّ شيءٌ عظيم ﴿ **يوسفُ أعرضْ عن هذا** ﴾ أي يا يوسف أكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد ، يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : وهنا تبدو صورةٌ من « الطبقة الراقية » في المجتمع الجاهلي ، رخاوةٌ في مواجهة الفضائح الجنسية ، وميلٌ إلى كتمانها عن المجتمع ، فيلتفت العزيز إلى يوسف البريء ويأمره بكتم الأمر وعدم إظهاره لأحد ، ثم يخاطب زوجهُ الخائن بأسلوب اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ﴿ **واستغفري لذنبك** ﴾ أي توبي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح ، وكأن هذا هو المهم محافظة على الظواهر[3] ﴿ **إنكِ كنتِ من الخاطئين** ﴾ أي من القوم المتعمدين للذنب ،

(١) الطبري ١٩٣/١٢ . (٢) البحر ٢٩٧/٥ . (٣) الظلال .

وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغَيْرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته ، وتدنيس فراشه بالإِثم والفجور قال ابن كثير : كان زوجها لينَّ العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه[1] ﴿ **وقال نسوة في المدينة** ﴾ أي قال جماعة من النساء في مدينة مصر ، روي أنهن خمس نسوة : امرأة ساقي العزيز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن قاله ابن عباس وغيره ، والأظهر أن تلك الواقعة شاعت في البلد ، واشتهرت وتحدث بها النساء ﴿ **امرأة العزيز تراودُ فتاها عن نفسه** ﴾ أي امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها منه قال أبو حيان : وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه ، وعبَّرن بـ ﴿ **تراود** ﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجيّةً لها فهي دائمًا تخادعه عن نفسه لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار[2] ﴿ **قد شغفها حباً** ﴾ أي بلغ حبُّه شَغَاف قلبها ـ وهو حجابه ـ وشقَّه حتى وصل إلى فؤادها ﴿ **إنَّا لنراها في ضلال مبين** ﴾ أي إنا لنعتقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب حبها إيّاه ﴿ **فلما سمعت بمكرهنّ** ﴾ أي فلما سمعت بحديثهن ، وسماه مكراً لأنه كان في خفية ، كما يخفي الماكر مكره ﴿ **أرسلتْ إليهنّ** ﴾ أي أرسلت إليهنَّ تدعوهنَّ إلى منزلها لحضور وليمة قال المفسرون : دعت أربعين امرأةً من الذوات منهن النساء الخمس المذكورات ﴿ **وأعتدتْ لهنَّ متكأً** ﴾ أي هيأتْ لهنَّ ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد[3] ﴿ **وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ** سكيناً ﴾ في الكلام محذوف أي قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدةٍ منهنَّ سكيناً لتقطع به ﴿ **وقالتْ** اخرجْ عليهن ﴾ أي وقالت ليوسف وهنَّ مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن : اخرجْ عليهنَّ فلم يشعرن إلا ويوسف يمرُّ من بينهن ﴿ **فلما رأينه أكبرْنَه** ﴾ أي فلما رأين يوسف أعظمْنه وأجللْنه ، وبهُتن من جماله ودُهشن ﴿ **وقطَّعْن أيديهن** ﴾ أي جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط الدهشة المفاجئة ﴿ **وقلن حاش لله** ﴾ أي تنزَّه الله عن صفات العجز ، وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله ﴿ **ما هذا بشراً** ﴾ أي ليس هذا من البشر ﴿ **إنْ هذا إلا ملك كريم** ﴾ أي ما هو إلا مَلَك مِن الملائكة ، فإن هذا الجمال الفائق ، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر .

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٤٧ .

(٢) البحر ٥/٣٠١ .

(٣) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ، وندرك من هذا أنهن كنّ نساء الطبقة الراقية ، فهن اللواتي يُدعين إلى المآدب في القصور ، وهنَّ اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهنَّ يأكلن وهنَّ متكئات على الوسائد والحشايا وأعدت لهن هذا المتكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام ، ويؤخذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور ، وبينما هنَّ منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهنَّ بيوسف فلما رأينه بهتن لطلعته ودهشن وجرحن أيديهن بالسكاكين . ظلال القرآن ١٢/٢٣٢ .

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

﴿ **قالت فذلكنَّ الذي لمتنني فيه** ﴾ صرَّحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهن فقالت قولة المنتصرة : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لُمْتنَّني في محبته ، فانظرن ماذا لقيتنَّ منه من الافتتان والدهش والإعجاب !! ﴿ **ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم** ﴾ أي أردت أن أنال وطري منه ، وأن أقضي شهوتي معه ، فامتنع امتناعاً شديداً ، وأبى إباءً عنيفاً قال الزمخشري : والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد[1] ﴿ **ولئن لم يفعلْ ما آمُره ليسجننَّ وليكونا من الصاغرين** ﴾ أي ولئن لم يطاوعني ليعاقبنَّ بالسجن والحبس وليكوننَّ من الأذلاء المهانين قال القرطبي : عاودته المراودة بمحضر منهنَّ وهتكتْ جلباب الحياء ، وتوعدتْ بالسجن إن لم يفعل ، ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً ، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه[2] ﴿ **قال ربّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه** ﴾ لجأ يوسف إلى ربه وجعل يناجيه في خشوع وتضرع فقال : ربّ السجن آثرُ عندي وأحبُّ إلى نفسي من اقتراف الفاحشة ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح ، وقيل إنها لما توعدته نصحنه وزيَّن له مطاوعتها ، ونهينه عن إلقاء نفسه في السجن ﴿ **وإلاّ تصرفْ عني كيدهُنَّ** ﴾ أي وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن ﴿ **أصبُ إليهنَّ** ﴾ أي أملْ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿ **وأكنْ من الجاهلين** ﴾ أي بسبب ما يدعونني إليه من القبيح ، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين ﴿ **فاستجاب له ربُّه فصرفَ عنه كيدهنَّ** ﴾ أي أجاب الله دعاءه فنجّاه من مكرهن ، وثبتَّه على العصمة والعفة ﴿ **إنه هو السميع** ﴾ أي لدعاء الملتجئين إليه ﴿ **العليم** ﴾ بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم . . وهكذا اجتاز يوسف محنته الثالثة بلطف الله ورعايته .

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ

(١) الكشاف ٢/٤٦٧ .

(٢) القرطبي .

إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنُنَّه حتى حين** ﴾ هذه بداية المحنة الرابعة وهي الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصدّيق وهي « محنة السجن » وكل ما بعدها فرخاء والمعنى ثم ظهر للعزيز وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف ، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة ، روي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف وأيست منه ، احتالت بطريق آخر ، فقالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر ، وإما أن تحبسه ، فعند ذلك بدا له سجنه قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضُرِب بالطبل ، ونُودي عليه في أسواق مصر ، إن يوسف العبراني أراد سيدته فجزاؤ ه أن يسجن ، قال أبو صالح ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى[1] ﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ أي أُدخل يوسف السجن واتفق أنه أُدخل حينئذٍ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه ، والآخر ساقيه ، اتهما بأنهما أرادا أن يسماه فحبسهما ﴿ **قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً** ﴾ أي قال الساقي إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يئول إلى خمر وأسقى منه الملك ﴿ **وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه** ﴾ أي وقال الخباز : إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز ، والطيرُ تأكل من ذلك الخبز ﴿ **نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ أي أخبرنا بتفسير ما رأينا إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤ يا ، أخبراه عن رؤ ياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤ يا ﴿ **قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ أي لا يأتيكما شيء من الطعام إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما ، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة « المغيبات » توطئةً لدعائهما إلى الإيمان قال البيضاوي : أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه ، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد ، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير[2] ﴿ **ذلكما مما علّمني ربي** ﴾ إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم ، وإنما هو بإلهامٍ ووحيٍ من الله ﴿ **إني تركتُ ملة قوم لا يؤمنون بالله** ﴾ أي خصني

(١) البحر المحيط ٣٠٧/٥ . (٢) البيضاوي ٢٦٤ .

ربي بذلك العلم لأني من بيت النبوة وقد تركت دين قومٍ مشركين لا يؤمنون بالله ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ أي يكذبون بيوم القيامة ، نبّه على أصلين عظيمين : الإيمان بالله ، والإيمان بدار الجزاء ، إذ هما أعظم أركان الإيمان ، وكرر لفظة ﴿ **هم** ﴾ على سبيل التأكيد .

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ **واتبعتُ ملة آبائي إبراهيمَ وإسحٰقَ ويعقوبَ** ﴾ أي اتبعت دين الأنبياء ، لا دين أهل الشرك والضلال ، والغرضُ إظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء** ﴾ أي ما ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ **ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس** ﴾ أي ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة ، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿ **ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ أي لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره . . ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل ، تلطَّفَ في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال ﴿ **ياصاحبي السجنِ أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار** ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن أآلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام ، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد ، المتفرد بالعظمة والجلال ؟! ﴿ **ما تعبدونَ من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم** ﴾ أي ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماءً فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿ **ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ أي ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿ **إنِ الحكمُ إلا لله** ﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿ **أمر ألاّ تعبدوا إلا إيّاه** ﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له ، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ **ذلك الدين القيِّم** ﴾ أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿ **ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ

فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

تدرّج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بيَّن لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة ، ثم نصَّ على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله ، حيث قدَّم الهداية والإرشاد ، والنصيحة والموعظة ، ثم شرع في تفسير رؤ ياهما فقال : ﴿ **يا صاحبي السجنِ أمَّا أحدكما فيسقي ربه خمراً** ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن أمّا الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر ، وأمّا الآخر الذي رأى على رأسه الخبز فيُقتل ويُعلَّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه ، قال المفسرون : روي أنه لما أخبرهما بذلك جحدا وقالا ما رأينا شيئاً فقال ﴿ **قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾ أي انتهى وتمَّ قضاء الله صدقتما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿ **وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما** ﴾ أي قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقي ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ أي اذكرني عند سيّدك وأخبره عن أمري لعلّه يخلصني ممّا ظُلمتُ به ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه** ﴾ أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿ **فلبث في السجن بضع سنين** ﴾ أي مكث يوسف في السجن سبع سنين ، قال المفسرون : وإنما لبث في السجن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا قال القرطبي : قال وهب بن منبه : أقام أيوب في البلاء سبع سنين ، وأقام يوسف في السجن سبع سنين . ﴿ **وقال الملكُ إني أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجاف** ﴾ أي قال ملك مصر إني رأيت في منامي سبع بقرات سمانٍ خرجت من نهرٍ يابس ، وفي أثرهن سبع بقراتٍ هزيلة في غاية الهُزال فابتعلت العجافُ السمانَ ﴿ **وسبعَ سنبلاتٍ خُضرٍ وأُخرَ يابساتٍ** ﴾ هذا من تتمة الرؤ يا ورأيتُ أيضاً سبع سنبلات خضر قد انعقد حبُّها وسبعاً أُخر يابسات قد استحصدت ، فالتوتْ اليابسات على الخضر فأكلتهنَّ ﴿ **يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي** ﴾ أي يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤ يا ﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبُرون** ﴾ أي إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها .

قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ

سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ **قالوا أضغاث أحلام** ﴾ أي أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها قال الضحاك : أحلامٌ كاذبة ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ أي ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة[1] ﴿ **وقال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أُمَّةٍ** ﴾ أي وقال الذي نجا من السجن وهو الساقي وتذكّر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة ﴿ **أنا أنبئكم بتأويله** ﴾ أي أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿ **فأرسلون** ﴾ أي فأرسلوني إليه لآتيكم بتأويلها ، خاطب الملك بلفظ التعظيم قال ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال فأرسلون[2] ﴿ **يوسفُ أيها الصدّيق** ﴾ في الكلام محذوف دلَّ عليه السياق وتقديره : فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له : يا يوسف يا أيها الصِّديق وسمّاه صديقاً لانه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن ، والصدّيق مبالغةٌ من الصدق ﴿ **أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجاف ، وسبع سنبلات خضرٍ وأُخر يابسات** ﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿ **لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون** ﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك قال الإمام الفخر : وإنما قال ﴿ لعلِّي أرجع إلى الناس ﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبّرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال لعلِّي[3] ﴿ **قال تزرعون سبع سنين دَأَباً** ﴾ أي تزرعون سبع سنين دائبين بجدٍ وعزيمة ﴿ **فما حصدتم فذروه في سنبله** ﴾ أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبلة لئلا يسوّس ﴿ **إلا قليلاً مما تأكلون** ﴾ أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد** ﴾ أي ثمَّ يأتي بعد سنيّ الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿ **يأكلْنَ ما قدمتم لهنَّ** ﴾ أي تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿ **إلا قليلاً مما تحصنون** ﴾ أي إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغُاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ أي ثم يأتي بعد سنيّ القحط والجدب العصيبة عام رخاء ، فيه يُمطر الناس ويغُاثون ، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه ، قال الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرّهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة

(١) وقيل المعنى : لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق . (٢) الطبري ٢٢٩/١٢ . (٣) الرازي ١٤٩/١٨ .

الوحي[1] .

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝﴾

﴿ **وقال الملك ائتوني به** ﴾ أي ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه استحسن ذلك فقال : أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره ﴿ **فلما جاءه الرسول** ﴾ أي فلما جاء رسول الملك يوسف ﴿ **قال ارجع إلى ربك** ﴾ أي قال يوسف للرسول : إرجع إلى سيدك الملك ﴿ **فسأله ما بال النسوة اللاتي قطَّعْن أيديهن** ﴾ أي سلْه عن قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن هل يعلم أمرهنَّ ؟ وهل يدري لماذا حُبستُ ودخلت السجن ؟ وأني ظُلمت بسببهنَّ ؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبس بلا جرم ﴿ **إن ربي بكيدهن عليم** ﴾ أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبّرن من كيدٍ لي ﴿ **قال ما خطبكنَّ إذْ راودتُنَّ يوسف عن نفسه** ﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن : ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة ؟[2] ﴿ **قُلن حاشَ للّهِ ما علمنا عليه من سوء** ﴾ أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء ، وهو تنزيهٌ له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿ **قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق** ﴾ أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿ **أنا راودتُه عن نفسه وإنه لمن الصَّادقين** ﴾ أي أنا التي أغريتُه ودعوتُه إلى نفسي وهو بريءٌ من الخيانة وصادقٌ في قوله « هي روادتني عن نفسي » وهذا اعتراف صريحٌ ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنْه بالغيب** ﴾ الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لمّا وصله براءة النسوة له والمعنى ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردّ الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿ **وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين** ﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدّد خطاه .

---

(1) الكشاف ٢/٤٧٧ . (2) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة : رجع الرسول فأخبر الملك ، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن ، والخطبُ : الأمرُ الجلل ، فكأن الملك استقصى فعلم أمرهنَّ ، فهو يواجههن مقرراً الاتهام ، ومشيراً إلى أمر لهن جلل وشأن لهنَّ خطير ﴿ **ما خطبكنَّ إذْ راودتن يوسف عن نفسه** ﴾ ؟ ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز ، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة ، ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ ، فالجاهلية دائمًا هي الجاهلية ، إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميّع ، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية !! ظلال القرآن ١٢/٢٤٨ .

* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ **وما أبرّىء نفسي إن النفس لأمّارةٌ بالسوء** ﴾ أي لا أزكي نفسي ولا أنزّهها ، فإن النفس البشرية ميَّالة إلى الشهوات ، قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري : أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها معجباً ومفتخراً[1] ﴿ **إلا ما رحم ربي** ﴾ أي إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿ **إن ربي غفور رحيم** ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ **وقال الملكُ ائتوني به استخلصْهُ لنفسي** ﴾ أي ائتوني بيوسف اجعله من خاصتي وخلصائي ، قال ذلك لمَّا تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه ﴿ **فلما كلَّمه قال إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين** ﴾ أي فلما أتوا به وكلَّمه يوسف وشاهد الملك فضله ، ووفور عقله ، وحُسن كلامه قال إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة ، مؤتمنٌ على كل شيء ﴿ **قال اجعلني على خزائن الأرض** ﴾ أي قال يوسف للملك اجعلني على خزائن أرضك ﴿ **إني حفيظ عليم** ﴾ أي أمينٌ على ما استودعتني ، عليمٌ بوجوه التصرف ، وإنما طلب منه الولاية رغبة في العدل ، وإقامة الحق والإحسان ، وليس هو من باب التزكية للنفس ، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة الماليَّة ﴿ **وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض** ﴾ أي وهكذا مكنّا ليوسف في أرض مصر ، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿ **يتبوأ منها حيث يشاء** ﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿ **نصيب برحمتنا من نشاء** ﴾ أي نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿ **ولانضيع أجر المحسنين** ﴾ أي لانضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له .

وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

(١) الكشاف ٢/٤٨٠ .

﴿ **ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أي أجر الآخرة وثوابها خيرٌ للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا ، وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يُدَّخر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجلُّ من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿ **وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون** ﴾ أي دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهيبة المُلْك ، وبُعْد العهد ، وتغير الملامح قال ابن عباس : كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلذا أنكروه[1] ، وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمَّ البلاد ، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من الطعام الذي ادخره يوسف ، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ قالوا : جئنا للميرة ، قال : لعلكم عيونٌ « جواسيس » علينا ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية ـ وكان أحبَّنا إليه ـ وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلّى به عنه وجئنا نحن العشرة ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم[2] ﴿ **ولما جهّزهم بجهازهم** ﴾ أي هيأ لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿ **قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم** ﴾ أي ائتوني بأخيكم بنيامين لأصدقكم ﴿ **ألا ترون أني أوفي الكيل** ﴾ أي ألا ترون أني أتم الكيل من غير بخس ﴿ **وأنا خير المنزلين** ﴾ أي خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ **فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون** ﴾ أي إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولاتقربوا بلادي مرة ثانية ، رغبهم ثم توعدهم قال في البحر : والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحيٍ من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكنَّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ، ولتتفسَّر الرؤ يا الأولى[3] ﴿ **قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون** ﴾أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في طلبه منه ، وإنّا لفاعلون ذلك .

وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ

(١) حاشية الصاوي ٢/٢٤٩ .

(٢) تفسير الجلالين ٢/٢٤٩ . (٣) البحر المحيط ٥/٣٢٢ .

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ أي قال يوسف لغلمانه الكيالين اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها ، فإنه علم أنَّ دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهّرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منا الكيل ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له ـ قبل أن يفتحوا متاعهم ـ يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين ، فإنَّ ملك مصر ظنَّ أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿ فأرسلْ معنا أخانا نكتلْ ﴾ أي أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ أي نحفظه من أن يناله مكروه ﴿ قال هل آمَنُكم عليه إلا كما أمِنتُكمْ على أخيه من قبل ﴾ أي قال لهم يعقوب : كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه ، ثم خنتم العهد ؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه ؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما بحفظ الله ﴿ فالله خيرٌ حافظاً ﴾ أي حفظُ الله خيرٌ من حفظكم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ أي هو أرحم من والديه و إخوته ، فأرجو أن يمُنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم ﴾ أي ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة وجدوا ثمن الطعام في متاعهم ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي ﴾ أي ماذا نبغي ؟ وأيَّ شيءٍ نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا ؟ ﴿ هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا ﴾ أي هذا ثمن الطعام قد رُدَّ إلينا من حيثُ لا ندري ، فهل هناك مزيدٌ فوق هذا الإحسان ، أوفى لنا الكيل ، وردَّ لنا الثمن !! أرادوا بذلك استنزال أبيهم عن رأيه ﴿ ونَميرُ أهلنا ﴾ أي نأتي بالميرة والطعام لأهلنا ﴿ ونحفظ أخانا ﴾ أي نحفظه من المكاره ، وكرروا حفظ الأخ مبالغةً في الحض على إرساله ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أي ونزداد باستصحابنا له حمل بعير ، روي أنه ما كان يعطي الواحد إلا كيل بعير من الطعام ، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر حتى يحضر أخوهم ﴿ ذلك كيلٌ يسيرٌ ﴾أي سهلٌ على الملك إعطاؤه لسخائه .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به ﴾ أي قال لهم أبوهم : لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفوا بالله لتردُنه عليَّ ﴿ إلاّ أن يُحاط بكم ﴾ أي إلا أن تُغلبوا فلا تقدروا على تخليصه ، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلُّكم فيكون ذلك عذراً عندي ﴿ فلما أتوه موثقهم ﴾ أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد ﴿ قال الله على مانقول وكيل ﴾ أي الله شهيد رقيب على ذلك ﴿ وقال يا بنيَّ لا تَدْخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرقة ﴾ أي لا تدخلوا مصر من بابٍ واحد قال المفسرون : خاف عليهم من العين إن دخلوا مجمعين إذ كانوا أهل جمال وهيبة ، والعينُ حقٌ تُدخل الرجلَ القبرَ ، والجملَ القِدر كما جاء في الحديث ﴿ وما أُغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي لا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم ، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم إلا لله جلَّ وعلا وحده لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء ﴿ عليه توكلت ﴾ أي عليه وحده اعتمدت وبه وثقت ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ أي وعليه فليعتمدْ أهل التوكل والإيمان ، ولْيفوضوا أمورهم إليه .

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ أي دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿ ما كان يغني عنهم من الله من شيء ﴾ أي ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً ﴿ إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها ﴾ أي إلا خشية العين شفقةً منه على بنيه ﴿ وإنه لذو علمٍ لما علمناه ﴾ أي وإن يعقوب لذو علمٍ واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي ، وهذا ثناءٌ من الله تعالى عظيمٌ على يعقوب ، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياءه من العلوم التي تنفعهم في الدارين ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿ قَالَ إِنّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ أي أنا أخوك يوسف ، أخبره بذلك واستكتمه ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تحزنْ بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير قال المفسرون : لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي « بنيامين » وحيداً فقال : هذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات

يوسف يضمه إليه ويعانقه ، وقال له : أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا ، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ** ﴾ أي ولّما قضى حاجتهم وحمَّل إبلهم بالطعام والميرة ﴿ **جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ في رَحْلِ أَخِيه** ﴾ أي أمر يوسف بأن تُجعل السقاية - وهي صاعٌ من ذهب مرصَّعٌ بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ **ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ** ﴾ أي نادى منادٍ ﴿ **أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ** ﴾ أي يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿ **إنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴾ أي أنتم قوم سارقون ، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿ **قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم ماذَا تَفقِدُونَ** ﴾ قال المفسرون : لما وصل المنادون إليهم قالوا : ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوفي الكيل ؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قالوا : فقدنا سقاية الملك ولا نتّهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى : ﴿ **قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون** ﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فُقد ؟ وفي قولهم ﴿ **ماذا تفقدون** ﴾ بدل « ماذا سرقْنا » إرشادُ لهم مراعاة حسن الأدب ، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة ، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿ **قالوا نفقِد صُوَاعَ الملك** ﴾ أي ضاع منا مكيال الملِك المُرصَّع بالجواهر ﴿ **ولمنْ جاءَ به حمْل بعير** ﴾ أي ولمن جاءنا بالمكيال وردَّه إلينا حِمْلُ بعيرٍ من الطعام كجائزة له ﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ أي أنا كفيلٌ وضامنٌ بذلك ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنُفْسد في الأرض** ﴾ قسمٌ فيه معنى التعجب أي قالوا متعجبين : والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم ﴿ **وما كنا سارقين** ﴾ أي ولسنا ممن يُوصف بالسرقة قطُّ لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح قال البيضاوي : استَشْهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم ، كردّ البضاعة التي جُعلت في رحالهم ، وككمِّ أفواه الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد[1] ﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة

(١) البيضاوي ٢٦٧ .

﴿ **قالوا جزاؤه من وُجِدَ في رَحْله فهو جزاؤه** ﴾ أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترقَّ ويصبح مملوكاً لمن سَرَق منه ﴿ **كذلك نجزي الظالمين** ﴾ أي كذلك نجازي من تعدّى حدود الله بالسرقة وأمثالها ، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ
ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ
أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه** ﴾ أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون : هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قالوا لهم : لابدَّ من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء « بنيامين » قال قتادة : ذُكر لنا أنه كان لايفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به ، حتى بقي أخوه ـ وكان أصغرَ القوم فقال : ما أظُنُّ هذا أخذ شيئاً فقالوا : والله لا نتركُك حتى تنظر في رحَله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصُواع فيه فذلك قوله تعالى ﴿ **ثم استخرجها من وعاء أخيه** ﴾ أي استخرج الصُواع من متاع أخيه بنيامين ، فلما أخرجها منه نكَّس الإخوةُ رءوسَهم من الحياء ، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له فضحتنا وسوَّدت وجوهنا يا ابن راحيل ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه في دين الملِك** ﴾ أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر ، لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرَّم ضعفَ ما سَرَق ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه ، وقد دلّت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿ **نرفع درجاتٍ مَنْ نشاء** ﴾ أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿ **وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ** ﴾ أي فوق كل عالمٍ من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو ربُّ العالمين قال الحسن : ليس عالمٌ إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم[1] ﴿ **قالوا إنْ يسرقْ فقد سرق أخٌ له من قبل** ﴾ أي إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف ، تنصّلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿ **فأسرَّها يوسفُ في نفسه ولم**

(١) الطبري ١٣/٢٧ .

يُبدها لهم ﴾ أي أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يظهرها لإخوته تلطفاً معهم ﴿ **قال أنتم شرٌ مكاناً** ﴾ أي أنتم شرٌ منزلةً حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿ **والله أعلمُ بما تصفون** ﴾ أي أعلم بما تتقوّلون وتفترون .

قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿ **قالوا يا أيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً** ﴾ استرحامٌ واستعطافٌ أي قالوا مستعطفين يا أيها السيد المبجَّل إنَّ أباه شيخ كبير في السِّن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿ **فخذْ أحدنا مكانه** ﴾أي خذ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ أي أتممْ إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿ **قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿ **إنا إذاً لظالمون** ﴾ أي نكون ظالمين إن فعلنا ذلك قال الألوسي : والتعبير بقوله ﴿ **من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ بدل « من سَرَقَ » لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب[1] ﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً** ﴾ أي ولما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً ، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء ، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿ **قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله** ﴾ أي قال أكبرهم سناً وهو « روبيل » أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً بردِّ أخيكم؟ ﴿ **ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف** ﴾أي ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف ؟ فكيف ترجعون إليه الآن ؟ ﴿ **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي** ﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ﴿ **أو يحكم الله لي** ﴾ أي يحكم لي بخلاص أخي ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ أي وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق .

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ

(١) روح المعاني ١٣/٣٤ .

جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

﴿ **ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنك سَرَق** ﴾ أي ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى وقولوا له إن ابنك بنيامين سَرَق ﴿ **وما شهدنا إلا بما علمنا** ﴾ أي ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رَحْله ﴿ **وما كنّا للغيب حافظين** ﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿ **واسألْ القرية التي كنا فيها** ﴾ أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث قال البيضاوي : أي أرسلْ إلى أهلها واسألهم عن القصة[1] ﴿ **والعيرَ التي أقبلنا فيها** ﴾ أي واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿ **قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً** ﴾ أي زيَّنتْ وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذتموها ، اتهمهم بالتآمر على « بنيامين » لماسبق منهم في أمر يوسف ﴿ **فصبرٌ جميل** ﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً أجري عند الله ﴿ **عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً** ﴾ أي عسى أن يجمع الله شملي بهم ، ويقرّ عيني برؤ يتهم جميعاً ﴿ **إنه هو العليم الحكيم** ﴾ أي العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه .

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ **وتولّى عنهم** ﴾ أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿ **وقال يا أَسَفى على يوسف** ﴾ أي يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿ **وابيضَّتْ عيناه من الحزن** ﴾ أي فقد بصره وعشي[2] من شدة البكاء حزناً على ولديه ﴿ **فهو كظيم** ﴾أي مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه ، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء قال أبو السعود : وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إيابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه

---

(١) البيضاوي ٢٦٨ . (٢) عشي البصر ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كأن غشاوة صارت عليه قال الشاعر : عشيتْ عيناي من طول البكا . قال المفسرون : إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى ﴿ **ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً** . . ﴾ .

سوى رحمة الله وفضله[١] وقال الرازي : الحزن الجديد يقوّي الحزن القديم الكامن في النفس ، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان قال الشاعر :

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كلـه قبر مالك[٢]

﴿ **قالوا تاللّهِ تفتَؤا تذكر يوسف** ﴾ أي لاتفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه ﴿ **حتى تكون حَرَضاً أو تكون من الهالكين** ﴾ أي حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسىً وحسرة وتموت ﴿ **قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله** ﴾ أي قال لهم يعقوب : لستُ أشكو غمّي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه ﴿ **وأعلمُ من الله ما لاتعلمون** ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿ **يا بنيَّ اذهبوا فتحسسَّوا من يوسف وأخيه** ﴾ أي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرّفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿ **ولاتيأسوا من رَوْح الله** ﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه ﴿ **إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون** ﴾ أي فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جلَّ وعلا .

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾

﴿ **فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضرُّ** ﴾ في الكلام محذوف أي فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجدب والقحط ﴿ **وجئنا ببضاعة مزجاة** ﴾ أي وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً قال ابن عباس : كانت دراهمهم رديئة لاتقبل في ثمن الطعام[٣] ، أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿ **فأوف لنا الكيل** ﴾ أي أتمم لنا الكيل ولا تنقصْه لرداءة بضاعتنا ﴿ **وتصدَّق علينا** ﴾ أي يردّ أخينا إلينا[٤] أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿ **إن الله يجزي المتصدقين** ﴾ أي يثيب المحسنين أحسن الجزاء . . ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من

(١) أبو السعود ٣/٨٨ . (٢) الفخر الرازي ١٨/١٩٣ . (٣) الرازي ١٨/٢٠١ .
(٤) هذا قول ابن جريج واختار الطبري أن المراد المسامحة لرداءة البضاعة .

الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذْ أنتم جاهلون ﴾ ؟ أي هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم ؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ! قال أبو السعود : وإنما قاله نصحاً لهم ، وتحريضاً على التوبة ، وشفقة عليهم[1] ﴿ قالوا أئنك لأنت يوسف ﴾ أي قال إخوته متعجبين مستغربين : أأنت يوسف حقاً ؟ ﴿ قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ أي قال : نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿ قد منَّ الله علينا ﴾ أي منَّ علينا بالخلاص من البلاء ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ أي إنه من يتق الله فيراقبه ويصبر على البلايا والمحن ﴿ فإنَّ الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ أي لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء قال البيضاوي : ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر[2] ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ اعترافٌ بالخطيئة وإقرار بالذنب أي والله لقد فضَّلك الله علينا بالتقوى والصبر ، والعلم والحلم ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي وحالُنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك ، ولذلك أعزَّك الله وأذلنا ، وأكرمك وأهاننا .

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي قال لهم يوسف : لاعتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿ يغفر الله لكم ﴾ دعاءٌ لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ أي هو جل وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة ، أرحم بعباده من كل أحد ﴿ إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ قال الطبري : ذُكر أن يوسف لّما عرَّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا : ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه[3] وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿ يأت بصيراً ﴾ أي يرجع إليه بصره ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب ﴿ ولمَّا فصلت

(١) ابو السعود ٣/٩٠ . (٢) البيضاوي ٢٦٩ . (٣) الطبري ١٣/٥٧ .

العير ﴾ أي خرجت منطلقة من مصر إلى الشام ﴿ **قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف** ﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قرابته إني لأشمّ رائحة يوسف قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال[1] ﴿ **لولا أن تفنّدون** ﴾ أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخَرَف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿ **لولا** ﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حيٌّ ﴿ **قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم** ﴾ أي قال حفدته ومن عنده : والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم ، بإفراطك في محبة يوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه قال المفسرون : وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿ **فلما أن جاء البشير** ﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السارّ قال مجاهد : كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال : أُفرحه كما أحزنته[2] ﴿ **ألقاه على وجهه** ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿ **فارتدَّ بصيراً** ﴾ أي عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿ **قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ أي قال يعقوب لأبنائه : ألم أخبركم بأني أعلم مالا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليَّ لتتحقق الرؤيا ؟ قال المفسرون : ذكّرهم بقوله ﴿ **إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ روي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر ، قال ما أصنع بالملك ! على أيّ دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمَّت النعمة[3] .

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿ **قالوا يا أبانا استَغْفِر لنا ذنُوبَنا** ﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطأهم بقولهم ﴿ **إنَّا كنّا خاطئين** ﴾ أي مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف ﴿ **قال سوف استغفر لكم ربي** ﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسرون : أخَّر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل : أخّرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة[4] ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ أي الساتر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه** ﴾ أي فلما دخل يعقوب وأبناؤه

(١) القرطبي ٩/٢٥٩ . (٢) الطبري ١٣/٦٣ . (٣) الرازي ١٨/٢٠٩ . (٤) يقول سيد قطب عليه الرحمة : وحكاية عبارته بكلمة ﴿ سوف ﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد أن يصفو ويسكن ويستريح .

وأهلوهم على يوسف ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله امنين ﴾ أي ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه ، وإنما قال ﴿ إن شاء الله ﴾ تبركاً وتيمناً ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ أيَ أجلسهما على سرير الملك بجانبه ﴿ وخّروا له سُجَّداً ﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه قال المفسرون : كان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ أي هذا تفسير الرؤ يا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿ وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن ﴾ أي أنعم عليَّ بإخراجي من السجن قال المفسرون : ولم يذكر قصة الجب تكرماً منه لئلا يُخْجل إخوته ويذكّرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ أي جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين ، ذكّرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر قال الطبري : ذُكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة ، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف[1] ﴿ من بعد أن نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي ﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء قال أبوحيان : وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثْر بلاءٍ وشدة كانت أحسن موقعاً[2] ﴿ إنَّ ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي لطيف التدبير يحقّق مشيئتَه بلطفٍ ودقةٍ خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ أي العليم بخلقه الحكيم في صنعه قال المفسرون إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يُدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحق ، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمَّة ، ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد ، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحق فقال .

* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

(١) الطبري ٧٣/١٣ . (٢) البحر ٣٤٩/٥ .

﴿ ربِّ قد آتيتني من الملك ﴾ أي أعطيتني العزَّ والجاه والسلطان ، وذلك من نعمة الدنيا ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ أي علمتني تفسير الرؤيا ، وذلك من نعمة العلم ﴿ فاطرَ السمواتِ والأرضِ ﴾ أي يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق ﴿ أنتَ وليي في الدنيا والآخرة ﴾ أي أنت يارب متولي أموري وشئوني في الدارين ﴿ توفني مسلماً وألحقْني بالصالحين ﴾ أي اقبضني إليك مسلماً ، واجعل لحاقي بالصالحين ، ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه ، وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصدّيق ، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ أي ذلك الذي أخبرناك عنه يامحمد من أمر يوسف وقصته ، من الأخبار المغيَّبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي ، وإنما نُعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير ، ليظهر صدقُك في دعوى الرسالة ﴿ وما كنت لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ أي وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم ، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحيٍ من العليم الخبير ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي ليس أكثر الخلق ولو حرصتَ على إيمانهم وبالغتَ في إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر ﴿ وما تسألهم عليه من أجرٍ ﴾ أي وما تطلب منهم على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يثقل عليهم ﴿ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا .

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم
مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ
سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿ وكأيّنْ من آية في السموات والأرض ﴾ أي كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جلا وعلا ووحدانيته ، الكائنة في السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم ، والجبال والبحار والأشجار ، وسائر ما فيهما من العجائب ﴿ يمرون عليها ﴾ أي يشاهدونها ليلَ نهار ، ويمرون عليها بالعشي والإبكار ﴿ وهم عنها معرضون ﴾ أي لا يفكرون فيها ولا يعتبرون ، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب

وأعجب ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره ، فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام قال ابن عباس : ومن ذلك قولهم في تلبيتهم : « لبَّيْك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك »[1] ﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله** ﴾ أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبةً من عذاب الله تغشاهم وتشملهم ؟ ﴿ **أو تأتيهم الساعة بغتةً وهم لا يشعرون** ﴾ أي أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون ؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ﴿ **قل هذه سبيلي** ﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿ **أدعواْ إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني** ﴾ أي أدعو إلى عبادة الله وطاعته ، على بيان وحجة واضحة أنا ومن آمن بي ﴿ **وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ أي وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد ، فأنا مؤمن موحِّد ولست من المشركين .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة من السماء قال الطبري : أي رجالاً لا نساءً ولا ملائكة نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا[2] ، والآية ردٌّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر ، أو زعم أن في النساء نبيات ﴿ **من أهل القرى** ﴾ أي من أهل المُدن والأمصار لا من أهل البوادي قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن[3] قال المفسرون : وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم ، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك ؟ والاستفهام

(١) القرطبي ٩/٢٧٢ . (٢) الطبري ١٣/٨٠ . (٣) القرطبي ٩/٢٧٤ .

للتوبيخ ﴿ **ولدارُ الآخرة خيرٌ للذين اتقوا** ﴾ أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي أفلا تعقلون فتؤمنون !! ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ أي يئس الرسل من إيمان قومهم ﴿ **وظنوا أنهم قد كُذبوا** ﴾ أي أيقن الرسل أن قومهم كذّبوهم ﴿ **جاءهم نصرنا** ﴾ أي أتاهم النصر عند اشتداد الكرب ، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة ، ويأخذ فيها الكرب بالمخانق ، ولا يبقى أملٌ في غير الله ، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً ﴿ **فَنُجيَّ من نشاء** ﴾ أي فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿ **ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ أي ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب** ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيِّرة ﴿ **ما كان حديثاً يُفترى** ﴾ أي ما كان هذا القرآن أخباراً تُروى أو أحاديث تختلق ﴿ **ولكنْ تصديق الذي بين يديه** ﴾ أي ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل ﴿ **وتفصيل كل شيء** ﴾أي تبيان كل مايحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام والشرائع والاحكام ﴿ **وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ أي وهداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدقون به ويعملون بأوامره ونواهيه .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة يوســـف)

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَدَنِيَّة وآياتها ثلاث وأربعون

بين يدي السورة

سورة الرعد من السور المدنية ، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية ، من تقرير « الوحدانية » و « الرسالة » و « البعث والجزاء » ودفع الشبه التي يثيرها المشركون .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى ، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، فمع سطوع الحق ووضوحه ، كذَّب المشركون بالقرآن ، وجحدوا وحدانية الرحمن ، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى ، وعجيب خلقه ، في السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والزروع والثمار ، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع .
* ثم تلتها الآيات في إثبات البعث والجزاء ، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإمانة ، والنفع والضر ، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل أحدهما : في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشعاب ، ثم هو يجرف في طريقة الغثاء ، فيطفو على وجهه الزَّبد الذي لا فائدة فيه والثاني : في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة ، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث ، الذي لا يلبث أن يذهب جفاءً ويضمحل ويتلاشى ، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدرها فاحتمل السيلُ زبداً رابياً** ﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل .
* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير ، وبينت مصير كلٍ من الفريقين ، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله .

التسمِيَـــــة : سميت ﴿ سورة الرعد ﴾ لتلك الظاهرة الكونية العجيبة ، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه ، فالماء جعله الله سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحاب ، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق ، وفي الماء الإحياء ، وفي الصواعق الإفناء ، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل : جمعُ النقيضين من أسرار قدرته : هذا السحاب به ماء به نار . فما أجلَّ وأعظم قدرة الله !!

تفسـير سـورة الرعـد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

﴿ آلمر ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن[1] وقال ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأرى[2] ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات القرآن المعجز ، الذي فاق كل كتاب ﴿ والذي أُنزل إليك من ربك الحقُّ ﴾ أي والذي أوحي إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل ، ولا يحتمل الشك والتردّد﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون ﴾أي ومع وضوحه وجلائه كذّب به أكثر الناس ﴿ الله الذي رفع السمواتِ بغير عمد ترونها ﴾ أي خلقها مرتفعة البناء ، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم ، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تكييف ولا تعطيل[3] ﴿ وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى ﴾ أي ذلَّل الشمس والقمر لمصالح العباد ، كلٌّ يسير بقدرته تعالى إلى زمنٍ معيَّن هو زمن فناء الدنيا ﴿ يدبّر الأمر ﴾ أي يصرِّف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام ، وإحياء وإماتة وغير ذلك ﴿ يفصِّل الآيات ﴾ أي يبيّنها ويوضّحها ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أي لتصدقوا بلقاء الله ، وتوقنوا بالمعاد إليه ، لأن من قدر على ذلك كلّه فهو قادرٌ على إحياء الإنسان بعد موته .

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ *

(١) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة . (٢) الطبري ١٣/٩١

(٣) أنظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب .

﴿ **وهو الذي مدَّ الأرض** ﴾ أي هو تعالى بقدرته بسط الأرض وجعلها ممدودة فسيحة ، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوعٌ به ، والغرضُ أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان ، ولو كانت كلها جبالاً ووديانا لما أمكن العيش عليها قال في التسهيل : ولا يتنافى لفظُ البسط والمدِّ مع التكوير ، لأن كل قطعةٍ من الأرض ممدودةٌ على حِدتَها ، وإنما التكوير لجملة الأرض[1] ﴿ **وجعل فيها رواسي** ﴾ أي وخلق في الأرض جبالاً ثوابتَ رواسخ لئلا تضطرب بأهلها كقوله ﴿ أن تميدَ بكم ﴾ ﴿ **وأنهاراً** ﴾ أي وجعل فيها الأنهار الجاريات ﴿ **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ليتمَّ بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمة[2] وقال أبو السعود : أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين ، إمّا في اللون كالأبيض والأسود ، أو في الطعم كالحلو والحامض ، أو في القَدْر كالصغير والكبير ، أو في الكيفيّة كالحارّ والبارد وما أشبه ذلك[3] ﴿ **يغشي الليلَ النهار** ﴾ أي يُلبسه إياه فيصير الجو مُظْلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أي إنَّ في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكَّر ، وخُصَّ « المتفكرون » بالذكر لأنَّ ما احتوتْ عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يُدرك إلا بالتفكر ﴿ **وفي الأرض قطعٌ متجاورات** ﴾ أي في الأرض بقاعٌ مختلفةٌ متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض قال ابن عباس : أرضٌ طيبة ، وأرضٌ سَبْخه تُنْبتُ هذه ، وهذه جنبها لا تُنْبت[4] ﴿ **وجناتٌ من أعناب** ﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿ **وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوان وغير صِنْوان** ﴾ أي وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب ، منها ما يَنْبُت منه من أصل واحدٍ شجرتان فأكثر ، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿ **يُسْقى بماءٍ واحد ونفضّل بعضَها على بعض في الأُكُل** ﴾ أي الكل يسقى بماء واحدٍ ، والتربة واحدة ، ولكنَّ الثمار مختلفات الطعوم قال الطبري : الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ ، والكمثرى ، والعنب الأبيضُ والاسود ، بعضُها حلوٌ ، وبعضُها حامض ، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شربٍ واحد[5] ﴿ **إن في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون** ﴾ أي علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتَدبرَّ ، وفي ذلك ردُّ على القائلين بالطبيعة .

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٢/١٣٠ . (٢) قال في الظلال : هذه حقيقة لم يعرفها البشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباًوهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور تبينً أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود . الظلال ٥/٧٢ .

(٣) أبو السعود ٣/٩٧ . (٤) الطبري ١٣/٩٧ . (٥) نفس المرجع السابق ١٣/٩٨ .

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

﴿ **وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولُهم أئذا كنا تُراباً أئنَّا لفي خلقٍ** جديد ﴾ أي إن تعجب يا محمد من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد ؟ فإن إنكارهم للبعث حقيقٌ أن يُتعجب منه ، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض ، والأشجار والثمار ، والبحار والأنهار قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم** ﴾ أي هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿ **وأولئك الأغلال في أعناقهم** ﴾ أي يُغلُّون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أي وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخْرجون ﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أي يستعجلك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية ، استعجلوا ما هُدّدوا به من عذاب الدنيا استهزاءً ﴿ **وقد خَلَتْ من قبلهم المَثُلاتُ** ﴾ أي وقد مضت عقوباتُ أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لا يعتبرون ولا يتَّعظون ؟ ﴿ **وإنَّ ربكَ لذُو مغفرةٍ للناس على ظلمهم** ﴾ أي وإن ربك لذو صفح عظيم للناس ، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿ **وإنَّ ربكَ لشديدُ العقاب** ﴾ أي شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب من ذنوبه . قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة ، والرجاء والخوف ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من ربه** ﴾ أي ويقول المشركون من كفار قريش هلاّ أُنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى !! قال في البحر : لم يعتدّوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر ، وانقياد الشجر ، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آيات أخرى[1] ﴿ **إنما أنتَ منذرٌ ولكل قوم هاد** ﴾ جواب لما اقترحوا أي لستَ أنت يا محمد إلا محذّر ومبصّر ، شأنك شأن كل رسول قبلك ، فلكل قوم نبيٌّ يدعوهم إلى الله وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبّر الكون والعباد .

---

(١) البحر ٥/٣٦٧ .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

﴿ **اللَّهُ يعلم ما تحملُ كلُّ أنثى** ﴾ أي الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أنثى ؟ تامٌ أم ناقص ؟ حسنٌ أو قبيح ﴿ **وما تغيضُ الأرحامُ** ﴾ أي وما تنقصه الأرحامُ بإلقاء الجنين قبل تمامه ﴿ **وما تَزْداد** ﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة قال ابن عباس : ما تغيضُ بالوضع لأقلَّ من تسعة أشهر ، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، وعنه المراد بالغيض : السقطُ الناقص ، وبالازدياد : الولدُ التام[1] ﴿ **وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار** ﴾ أي كلُّ شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿ **عالمُ الغيب والشهادة** ﴾ أي ما غاب عن الحسّ وما كان مشاهَداً منظوراً ، فعلمهُ تعالى شاملٌ للخفيِّ والمرْئيِّ لا يخفى عليه شيء ﴿ **الكبيرُ المتعال** ﴾ أي العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المستعلي على كل شيء بقدرته المنزَّه عن المشابهة والمماثلة ﴿ **سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به** ﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرتْهُ القلوبُ وما نطقتْ به الألسنة ﴿ **ومن هو مستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنَّهار** ﴾ أي ويستوي عنده كذلك من هو مستترٌ بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء ، ومن هو ذاهبٌ في طريقه بوَضَح النهار مستعلنٌ لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور ﴿ **له معقباتٌ** ﴾ أي لهذا الإنسان ملائكة موكّلةٌ به تتعقب في حفظه يأتي بعضُهم بعَقِب بعض كالحَرَس في الدوائر الحكومية ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أي من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾ أي يحفظونه من الأخطار والمضارّ بأمره تعالى قال مجاهد : ما من عبدٍ إلا وملكٌ موكلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوام[2] ﴿ **إنَّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ أي لا يزيل نعمته عن قومٍ ولا يسلبهم إيّاها إلا إذا بدّلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة ، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدل ما بقومٍ من عافيةٍ ونعمة ، وأمنٍ وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي وفي الأثر « أوحى الله إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن قلْ لقومك : إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون »[3] ﴿ **وإذا أراد الله**

(١) زاد المسير ٤/٣٠٨ . (٢) الطبري ١٣/١١٩ . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في مختصر ابن كثير ٢/٢٧٤ .

بقوم سوءاً ﴾ أي وإذا أراد تعالى هلاك قوم أو عذابهم ﴿ **فلا مردَّ له** ﴾ أي لا يقدر على ردّ ذلك أحد ﴿ **وما لهم من دونه من وال** ﴾ أي ليس لهم من دون الله وليٌّ يدفع عنهم العذاب والبلاء .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

﴿ **هو الذي يريكم البرق** ﴾ هذا بيانٌ لآثار قدرته تعالى المنبثة في الكون أي يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب ﴿ **خوفاً وطمعاً** ﴾ قال ابن عباس : خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث[1] ، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمّرة ، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعباد ﴿ **ويُنشىءُ السحاب الثقال** ﴾ أي وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحمَّلة بالماء الكثير ﴿ **ويسبّح الرعد بحمده والملائكةُ من خيفته** ﴾ أي يسبّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه ، وتسبّح له الملائكة خوفاً من عذابه ، وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حقٌّ كما قال ﴿ **وإن من شيءٍ إلا يسبّح بحمده** ﴾﴿**ويرسلُ الصواعقَ فيصيب بها من يشاء** ﴾ أي يرسل الصواعق المدمِّرة نقمة يهلك بها من شاء ﴿ **وهم يجادلون في الله** ﴾ أي وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿ **وهو شديد المِحال** ﴾ أي وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال ، القادر على الانتقام ممن عصاه ﴿ **له دعوةُ الحقِّ** ﴾ أي لله تعالى تتجه الدعوة الحق فهو الحقيق بأن يعُبد وحده بالدعاء والالتجاء ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾ أي والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله ﴿ **لا يستجيبون لهم بشيء** ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاءً ، ولا يسمعون لهم نداءً ﴿ **إلا كباسطِ كفيه إلى الماء ليبلغ فاهُ وما هو ببالغه** ﴾ أي إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعوه ويناديه ليصل الماء إلى فمه ، والماءُ جمادٌ لا يُحسُّ ولا يسمع قال أبو السعود : شبّه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل ، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه[2] ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ أي ما دعاؤ هم والتجاؤ هم لآلهتم إلا في ضياع وخسار لأنه لا يُجدي ولا يفيد .

(١) زاد المسير ٣١٣/٤ . (٢) أبو السعود ١٠٢/٣ .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض** ﴾ أي ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض ﴿ **طوْعاً وكرْهاً** ﴾ أي طائعين وكارهين قال الحسن : المؤمن يسجد طوعاً ، والكافر يسجد كرْهاً[1] أي في حالة الفزع والاضطرار ﴿ **وظلالُهم بالغدو والآصال** ﴾ أي وتسجد ظلالهم أيضاً لله في أول النهاروأواخره ، والغرض الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء ، ودان له كل شيء ، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّن ، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿ **قل من رب السموات والأرض** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مَنْ خالق السموات والأرض ومدبّر أمرهما ؟ والسؤال للتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله ﴿ **قل الله** ﴾ أي قل لهم تقريعاً وتبكيتاً : اللَّهُ خالقُهما ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً** ﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة عليهم - أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم ، ولا على دفع الضُرِّ عنها ، فكيف يستطيعونه لغيرهم ؟ ﴿ **قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلماتُ والنور** ﴾ هذا تمثيلُ لضلالهم في عبادة غير الله ، والمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، وبالظلمات الضلالُ وبالنور الهدى أي كما لا يستوي الأعمى والبصير ، وكما لا تستوي الظلمات والنور ، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق ، والمشرك الذي عمي عن رؤ ية ذلك الضياء ، فالفارق بين الحق والباطل واضحٌ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم** ﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم أي أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم ؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كلّه يعبدونها من دون الله ، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين ، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿ **قل الله خالقُ كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره ، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية ، الغالب لكل شيء ، وجميعُ الأشياء تحت قدرته وقهره .

(١) القرطبي ٣٠١/٩ .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

﴿ **أنزَل من السماء ماءً** ﴾ أي أنزل تعالى من السماء مطراً ﴿ **فسالتْ أوديةٌ بقَدَرها** ﴾ أي فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحَسَبه ، فالكبير بمقدار كبره ، والصغير بمقدار صغره ﴿ **فاحتمل السيلُ زبداً رابياً** ﴾ أي حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غثاء ، ورغوة تظهر على وجه الماء قال الطبري : هذا مثلٌ ضربه الله للحق والباطل ، والإِيمان والكفر ، فمثل الحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، مثلُ الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض ، فاحتمل السيل زبداً عالياً ، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض ، والزبد الذي لا يُنتفع به هو الباطل ، وهذا أحد مثلي الحق والباطل ، والمثل الآخر[1] قوله تعالى ﴿ **ومما يُوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُه** ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، مما يُسبك في النار طلب الزينةِ أو الأشياء التي يُنْتفع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل ، لا يُنْتفع به كما لا يُنْتفع بزَبد السيل ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل** ﴾ أي كذلك يضرب الله المَثَل للحق والمَثَل للباطل ، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس ، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل ﴿ **فأما الزبدُ فيذهب جفُاءً** ﴾ أي فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزّق ويذهب في جانبَيْ الوادي ﴿ **وأمّا ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض** ﴾ أي وأمّا ما ينتفع الناس به من الماء الصافي ، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ أي مِثْلَ المَثلين السابقين يبينّ الله الأمثال للحق والباطل ، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا[2] ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحُسْنى** ﴾ أي للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإِيمان والطاعة المثوبةُ الحسنى وهي

---

(١) الطبري ١٣/١٣٤ . (٢) يقول الشهيد « سيد قطب » في تفسيره الظلال ما نصه : « ثم نمضي مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل ، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح ، إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلمّ في طريقه غثاءً يطفو على وجهه في صورة الزبد ، وهو نافش رابٍ منتفخ ولكنه بعدُ غثاء ، والماء من تحته ساربٌ ساكنٌ هادىء ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة ، كذلك يقع في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة أو آنية كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء ، ذلك مثل الحق والباطل ، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رابياً منتفخاً ولا يلبث أن يذهب جفاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك ، والحق يظل هادئاً ساكناً ولكنه الباقي في الأرض كالماء المحيي ، والمعدن الصريح »

الجنة دار النعيم ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾ أي لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به وهم الكافرون ﴿ **لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً** ﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿ **ومثْلَه معه** ﴾ أي ومثلَ جميع ما في الدنيا ﴿ **لافتدوا به** ﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿ **أولئك لهم سوء الحساب** ﴾ أي لهم الحساب السيء قال الحسن : يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ أي بئس هذا المستقر والفراش الممهد لهم في النار .

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

﴿ **أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى** ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي هل يستوي من آمن وصدَّق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لُبَّ له كالأعمى ؟ والمراد به عمى البصيرة قال ابن عباس نزلت في حمزة وأبي جهل ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ أي إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة ، ثم عدَّد تعالى صفاتهم فقال ﴿ **الذين يوفون بعهد الله** ﴾ أي يتمون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلَّف بها عباده ﴿ **ولا ينقضون الميثاق** ﴾ أي لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله ، وبين العباد ﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يُوصل** ﴾ أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ أي يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿ **ويخافون سوء الحساب** ﴾ أي يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار ، فهم لرهبتهم جادّون في طاعة الله ، محافظون على حدوده ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ أي صبروا على المكاره طلباً لمرضاة الله ﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ أي أدَّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿ **وَأَنْفَقُوا مما رَزَقْنَاهُمْ سراً وعلانية** ﴾ أي أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿ **ويدرءون بالحسنةِ السيئة** ﴾ أي يدفعون الجهلَ بالحلم والأذى بالصبر وقال ابن عباس : يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال[1] بمعنى يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات وفي الحديث (وأتبع السيئةَ الحسنة تمحها) ﴿ **أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة .

(١) القرطبي ٣١١/٩ .

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾
سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ
أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾

وقد جاء تفسيرها في قوله ﴿ **جناتُ عدنٍ يدخلونها ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم ، ليأنسوا بلقائهم ويتمَّ بهم سرورهم ، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله ، ثم إنَّ لهم إكراماً آخر بيّنه بقوله ﴿ **والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب** ﴾ أي والملائكةُ تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم ﴿ **سلامٌ عليكم بما صبرتم** ﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا ، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة ، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿ **فنعم عقبى الدار** ﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار ، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿ **وَيُفْسدُون في الأرض أولئك لهم اللعنة** ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من القبائح لهم البعد من رحمته ، والطردُ من جنته ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ أي لهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم على عكس المتقين ﴿ **اللّهُ يَبْسُط الرزق لمن يشاء ويقدرُ** ﴾ أي يوسّع على من يشاء من عباده ويضيّق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة ﴿ **وفرحوا بالحياة الدنيا** ﴾ أي وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشَر وبطر ، وهو إخبار في ضمنه ذم وتسفيه لمن فرح بالدنيا ولذلك حقّرها بقوله ﴿ **وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متا عُ** ﴾ أي قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آيةٌ من ربه** ﴾ أي ويقول كفار مكة هلاّ أُنزل على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر ، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك ﴿ **قلْ إنَّ الله يُضلُّ من يشاءُ ويَهْدي إليهِ من أناب** ﴾ أي قل لهم يا محمد الأمر بيد الله وليس إليَّ ، يُضلُّ من يشاء إضلاله فلا تغني عنه الآياتُ والنُّذر شيئاً ، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إلى ربه بالتوبه والإنابة قال في التسهيل : خرج بالكلام مخرج التعجب حين طلبوا آية والمعنى قد جاءكم محمد ﷺ بالقرآن وآيات كثيرة فعميتُم عنها ، وطلبتم غيرها ، وتماديتم على الكفر فإنه تعالى يضل من يشاء مع ظهور الآيات ، ويهدي من يشاء دون ذلك[1] ﴿ **الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله** ﴾ هذا بدلٌ والمعنى يهدي أهل الإنابة وهم الذين آمنوا وتسكن وتستأنس قلوبهم بذكر الله وتوحيده ، وجيء بصيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿ **ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب** ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم فإن بذكر الله تستأنس وتسكن قلوب المؤمنين ، فلا يشعرون بقلق واضطراب من سوء العقاب ، على عكس الذين إذا ذكر الله اشمأزتْ قلوبهُم ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسنُ مآب** ﴾ أي أما المؤمنون أهل الأعمال الصالحة فقرة عينٍ لهم ونعم ما يلقون من الهناءة والسعادة في المرجع والمنقلب قال ابن عباس : ﴿ **طوبى لهم** ﴾ فرحٌ وقرة عين ﴿ **كذلك أرسلناك في أمةٍ قد خَلَتْ من قبلها أممٌ** ﴾ أي كما أرسلنا الأنبياء من قبلك كذلك أرسلناك يا محمد في أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة ، فهي آخر الأمم وأنتَ خاتم الأنبياء ﴿ **لتتلوَاْ عليهمُ الذي أوحينا إليك** ﴾ أي لتبلّغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ أي والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ﴿ **قل هو ربي لا إله إلا هو** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته هو ربي الذي آمنتُ به لا معبود لي سواه ﴿ **عليه توكلت وإليه متاب** ﴾ أي عليه وحده اعتمدت ، وإليه توبتي ومرجعي فيثيبني على مجاهدتكم ، والغرضُ تسلية النبي ﷺ مما يلقاه من كفار قريش من الجحود والعناد فقد كذَّب قبلهم الأمم .

(١) التسهيل ٢/١٣٤ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ **ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال** ﴾ أي لو كان كتابٌ من الكتب المنزّلة سُيرت بتلاوته الجبال وزعزعت عن أماكنها ﴿ **أو قُطّعت به الأرض** ﴾ أي شُققت به الأرض حتى تتصدَّع وتصير قطعاً ﴿ **أو كُلِّم به الموتى** ﴾ أي خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها ، وجواب ﴿ **لو** ﴾ محذوف تقديره : لكان هذا القرآن ، لكونه غايةً في الهداية والتذكير ، ونهايةً في الإنذار والتخويف[1] وقال الزجاج : تقديره « لما آمنوا » لغلوهم في المكابرة والعناد ، وتماديهم في الضلال والفساد ﴿ **بلْ لِلَّهِ الأمرُ جميعاً** ﴾ بلْ للإضراب والمعنى : لو أن قرآناً فُعل به ما ذُكر لكان ذلك هذا القرآن ، ولكنَّ الله لم يجبهم إلى ما اقترحوا من الآيات ، لأنه هو المالك لجميع الأمور والفاعل لما يشاء منها من غير أن يكون لأحدٍ عليه تحكّمٌ أو اقتراح ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً** ﴾ أي أفلم يقنط وييأس المؤمنون من إيمان الكفار ، ويعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم لأن الأمر له ، ولكنْ قضت الحكمة أن يكون بناء التكليف على الاختيار[2] ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة** ﴾ أي ولا يزال كفار مكة يصيبهم بسوء أعمالهم وكفرهم داهيةٌ تقرع أسماعهم وتقلق بالهم من صنوف البلايا والمصائب ﴿ **أو تحلُّ قريباً من دارهم** ﴾ أي أو تحلُّ القارعة والداهية قريباً من ديارهم فيفزعون منها ويتطاير إليهم شررها ﴿ **حتى يأتي وعدُ الله** ﴾ بإظهار الإسلام وانتصارك عليهم بفتح مكة ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ أي لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرتهم على أعدائه .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ *

(١) هذا اختيار الزمخشري واختار الزجاج أن التقدير « لما آمنوا » .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا** ﴾ أفلم يعلم ويتبيَّن وهي لغة هوازن وهذا منقول عن بعض السلف ، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي طالما يمكن فهمها على الوجه المتبادر كما بينا .

﴿ ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك ﴾ تسلية وتأنيس للنبي ﷺ أي كما استهزأ بك المشركون فقد استهزأ المجرمون برسلهم وأنبيائهم ﴿ فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتهم ﴾ أي أمهلتهم وتركتهم في أمنٍ وَدَعة ثم أخذتهم بالعذاب ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أي فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب ؟ ﴿ أفمن هو قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبتْ ﴾ أي أفمن هو رقيب حفيظ على عمل كل إنسان لايخفى عليه شيء من أعمال العباد وهو الله تعالى ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تملك من الأمر شيئاً قال الفراء : وتُرك جوابُه لأن المعنى معلومٌ وقد بيّنه بعد هذا بقوله ﴿ وجعلوا للّهِ شركاء ﴾ كأنه قيل : هل الله كشركائهم ؟[1] وقال الزمخشري : هذا احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفسٍ صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعدَّ لكلٍ جزاءه كمن ليس كذلك[2] ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سَموُّهُمْ ﴾ أي وجعل المشركون آلهة عبدوها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة ، قل لهم يا محمد : سمّوهم لنا وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله ؟ ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ أي أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ ﴿ أم بظاهرٍ من القول ﴾ أي أم تسمونهم شركاء بظن باطلٍ فاسد لا حقيقة له ، لفرط الجهل وسخافة العقل ﴿ بل زُيّن للذين كفروا مكرهُم ﴾ أي زيَّن لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال ﴿ وَصُدُّوا عن السبيل ﴾ أي مُنعوا عن طريق الهدى ﴿ ومن يضللِ الله فما له من هاد ﴾ أي ومن يضلله الله فما له أحدٌ يهديه ﴿ لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ﴾ أي لهؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن ﴿ ولعذاب الآخرة أشقُّ ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ أي وليس لهم من يحميهم من عذاب الله أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه .

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

﴿ مثلُ الجنةِ التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار ﴿ أُكُلها دائم

(١) زاد المسير ٤/٣٣٣ . (٢) الكشاف

وظلها ﴾ أي ثمرها دائم لا ينقطع ، وظلُّها دائم لا تنسخه الشمس ﴿ **تلك عقبى الذين اتقوا** ﴾ أي تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم ﴿ **وعقبى الكافرين النار** ﴾ أي وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار ﴿ والذين آتيناهم **الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك** ﴾ أي والذين أنزلنا إليهم التوراة والإِنجيل ـ ممن آمن بك واتبعك يا محمد ـ كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه **يفرحون** بهذا القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿ **ومن الأحزاب من يُنْكِر بعضه** ﴾ أي ومن أهل الملل المتحزبين عليك وهم أهل أديان شتى من ينكر بعض القرآن مكابرة مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما معهم ﴿ **قل إنما أمرتُ أن أعبد الله ولا أُشرك به** ﴾ أي قل يا محمد إنما أُمرتُ بعبادة الله وحده لا أشركُ معه غيره ﴿ **إليه أدعوا وإليه مآب** ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس وإليه مرجعي ومصيري .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا
وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** ﴾ أي ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس ﴿ **ولئن اتَّبعْتَ أهواءهم بعدما جاءك من العلم** ﴾ أي ولئن اتبعتَ المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعدما آتاك الله من الحجج والبراهين ﴿ **مالك من الله من وليٍّ ولا واق** ﴾ أي ليس لك ناصرٌ ينصرك أو يقيك من عذاب الله ، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس قال القرطبي : الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة[١] ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك** ﴾أي أرسلنا قبلك الرسل الكرام ﴿ **وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ أي وجعلنا لهم النساء والبنين ، وهو ردٌّ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا : لو كان مرسلاً حقاً لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء ، فرد الله مقالتهم وبيَّن أن محمد ﷺ ليس ببدع في ذلك ، بل هو كمن تقدم من الرسل ﴿ **وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله** ﴾ أي لم يكن لرسول أن يأتي قومه بمُعجزة إلا إذا أذن الله له فيها ، وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات ﴿ **لكل أجلٍ كتاب** ﴾ أي لكل مدةٍ مضروبة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ ، وكلُّ شيء عنده بمقدار قال الطبري : لكل أمر قضاه الله

---

(١) القرطبي ٩/٣٢٧ .

كتابٌ قد كتبه فهو عنده(١) ﴿ **يمحواْ الله ما يشاءُ ويُثْبت** ﴾ أي ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام ، ويثبتُ ما يشاء منها دون تغيير قال ابن عباس : يبدّل الله ما يشاء فينسخه إلا الموتَ والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها(٢) وقيل : إن المحو والإثبات عامٌ في جميع الأشياء لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول : اللهمَّ إن كنتَ كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمُّ الكتاب ، واجعله سعادةً ومغفرة(٣) ، وقد رجحه أبو السعود وهو قول ابن مسعود أيضاً ﴿ **وعنده أمُّ الكتاب** ﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياءِ كلِّها .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿ **وإنَّ ما نرينك بعض الذي نعدهم** ﴾ أي وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب ﴿ **أو نتوفينَّك** ﴾ أي نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم وجزائهم ﴿ **أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ أي أولمْ ير هؤلاء المشركون أنّا نمكّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام ؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجزٌ وعده لرسوله عليه السلام(٤) ﴿ **والله يحكم لا معقّب لحكمه** ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقضٍ ولا تغيير ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾ أي سريع الانتقام ممن عصاه ﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم** ﴾ أي مكر الكفار الذين خَلَوْا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك ﴿ **فلله المكر جميعاً** ﴾ أي له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإرادته ، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ﴿ **يعلم ما تكسب كلُّ نفس** ﴾ أي من خير وشر فيجازي عليه ﴿ **وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ أي لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة ﴿ **ويقول الذين**

(١) الطبري ١٣/١٦٥ . (٢) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال : إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران .
(٣) الطبري ١٣/١٦٧ . (٤) فقال سيد قطب : أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثرائها وتحصرها في رقعة من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان أقول : هذا التفسير جديدٌ وفيه اشراقة من إشراقات النور ، ونفحة من نفحات الجمال .

كفروا لست مرسلاً ﴾ أي يقول كفار مكة لست يا محمد مرسلاً من عند الله ﴿ **قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾ أي حسبي شهادة الله بصدقي بما أيدني من المعجزات ﴿ **ومَنْ عنده علم الكتاب** ﴾ أي وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد)

(١٤) سُورَةُ إبراهِيمَ مكيّة وآياتها اثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة « الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء » ويكاد يكون محور السورة الرئيسي « الرسالة والرسول » فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل ، وبيَّنتْ وظيفة الرسول ، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا لتشييد صرح الإيمان ، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنو له الوجوه ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فدعوتُهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وإن كان بينهم اختلافٌ في الفروع .

* وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام ، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه ، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل ، من الأمم السابقة كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور ، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

* وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة ، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء ، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل ، ينتهى بتكدس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيرها ، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير ، ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان ، وكلمة الضلال ، بالشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين .

التسميَــــة : سميت السورة الكريمة « سورة إبراهيم » تخليداً لمآثر أب الأنبياء ، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ، الذي حطم الأصنام ، وحمل راية التوحيد ، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين ، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق ، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد .

(١٤) سورة إبراهيم مكية
وآياتها ثنتان وخمسون

بين يدي السورة

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة « الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء » ويكاد يكون محور السورة الرئيسي « الرسالة والرسول » فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل ، وبيَّنتْ وظيفة الرسول ، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا لتشييد صرح الإيمان ، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنو له الوجوه ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فدعوتُهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وإن كان بينهم اختلافٌ في الفروع .

* وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام ، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه ، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل ، من الأمم السابقة كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور ، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

* وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة ، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء ، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل ، ينتهي بتكدس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيرها ، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير ، ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان ، وكلمة الضلال ، بالشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين .

التسمِيَــــة : سميت السورة الكريمة « سورة إبراهيم » تخليداً لمآثر أب الأنبياء ، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ، الذي حطم الأصنام ، وحمل راية التوحيد ، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين ، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق ، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد .

تفسـير سـورة إبـراهيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾

﴿ **آلر** ﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فأتوا بمثله إن استطعتم ﴿ **كتابٌ أنزلناه إليك** ﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد ، لم تنشئْه أنتَ وإنما أوحيناه نحن إليك ﴿ **لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿ **إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ أي لتهديهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب ، المحمود بكل لسان ، الممجَّد في كل مكان ﴿ **الله الذي له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي المالك لما في السموات والأرض ، الغني عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ﴿ **وويلٌ للكافرين من عذاب شديد** ﴾ قال الزجاج : ﴿ **ويلٌ** ﴾ كلمة تُقال للعذاب والهلكة[1] ، أي هلاك ودمارٌ للكافرين ويا ويلهم من عذاب الله الأليم ، ثم وضحّ صفات أولئك الكفار بقوله ﴿ **الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة** ﴾ أي يفضّلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة الآخرة الباقية ﴿**ويصدُّون عن سبيل الله** ﴾ أي يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام ﴿ **ويبغونها عِوَجاً** ﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجَّة لتوافق أهواءهم ﴿ **أولئك في ضلالٍ بعيد** ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلال عن الحق مبين ، لا يُرجى لهم صلاح ولا نجاح ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسانِ قومه** ﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا بلغة قومه ﴿ **ليبيِّنَ لهم** ﴾ أي ليبيّن لهم شريعة الله ويفهمهم مراده ، لتتمَّ الغاية من الرسالة ﴿ **فيضلُّ الله من يشاءُ ويهدي من يشاءُ** ﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد الله يضلُّ من يشاء إضلاله ، ويهدى من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أي وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه .

(١) القرطبي ٩/٣٣٩ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿ **أنْ أخرجْ قومكَ من الظلمات إلى النور** ﴾ أن تفسيرية بمعنى أيْ والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد قال أبو حيان : وفي قوله ﴿ **قومك** ﴾ خصوص لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد ﴿ لتخرج الناس ﴾ مما يدل على عموم الرسالة[1] ﴿ **وذكّرهم بأيام الله** ﴾ أي ذكّرهم بأياديه ونعمه عليهم ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور** ﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء ، شاكر للنعماء ﴿ **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أي اذكر وانعم الله الجليلة عليكم ﴿ **إذْ أنجاكم من آل فرعون** ﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿ **ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار ﴿ **وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم** ﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاءٌ واختبار لكم من ربكم عظيم قال المفسرون : وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون إنَّ مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل كل مولود .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ

﴿ **وإذْ تأذّنَ ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ هذا من تتمة كلام موسى أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿ **ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد** ﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد ، وعدَ بالعذاب على الكفر ، كما وعَدَ بالزيادة على الشكر ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أَنْتُمْ ومن في الأرض جميعاً** ﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن يأس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق

(١) البحر ٥/٤٠٥ .

بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾

فلن تضروا الله شيئاً ﴿ **فإنَّ الله لغني حميد** ﴾ أي هو غنيٌّ عن شكر عباده ، مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن كفره من كفره ﴿ **ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود** ﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حلَّ بهم لما كذبوا بآيات الله ؟ ﴿ **والذين من بعدهم** ﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم ﴿ **لا يعلمهم إلا الله** ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي بالحجج الواضحات ، والدلائل الباهرات ﴿ **فردّوا أيديهم في أفواههم** ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم وقال ابن مسعود : عضوا أصابعهم غيظاً[1] ﴿ **وقالوا إنا كفرنا بما أُرسلتم به** ﴾ أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به ﴿ **وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ أي في شك عظيم من دعوتكم ، وقلق واضطراب من دينكم .

۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ

﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك** ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله ووحدانيته شك ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ولهذا لفتوا الانتباه إلى براهين وجوده بقولهم ﴿ **فاطر السمواتِ والأرض** ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿ **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أي إن آمنتم أمدَّ في أعماركم إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ﴿ **قالوا إن أنتم إلا بَشَرٌ مثلنا** ﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ﴿ **تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا** ﴾ أي تريدون أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤ نا ﴿ **فأتونا بسلطانٍ مبين** ﴾ أي فأتونا بحجة ظاهرة على صدقكم ﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾ أي قالت الرسل : نحن كما قلتم بشر مثلكم ﴿ **ولكنَّ الله يَمُنُّ عَلَىٰ من يشاء من عباده** ﴾ أي يتفضل على من يشاء بالنبوة والرسالة قال الزمخشري : لم يذكروا فضلهم تواضعاً

(١) مبنى القول الثاني على المجاز ومثله ﴿ **عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فمه .

لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

منهم وسلّموا لقولهم وأنهم بشرٌ مثلُهم في البشرية وحدها ، فأماً ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم[١] ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله** ﴾ أي وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه ﴿ **وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون** ﴾ أي على الله وحده فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم ﴿ **وما لنا ألاَّ نتوكل على الله** ﴾ أي قالت الرسل : أيُّ شيء يمنعنا من التوكل على الله ؟ ﴿ **وقد هدانا سبُلنا** ﴾ أي والحال أنه قد بصّرنا طريق النجاة من عذابه ﴿ **ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا** ﴾ أي ولنصبرنَّ على أذاكم قال ابن الجوزي : وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقتدي بمن قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم[٢] ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ ليس هذا تكراراً وإنما معناه الثبات على التوكل أي فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده ، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحاً بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ

﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنَّ في ملتنا** ﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار والله لنطردنكم من ديارنا أو لترجعنَّ إلى ديننا ﴿ **فأوحى إليهم ربُّهُم لنهلكنَّ الظالمين** ﴾ أي أوحى الله إلى الرسل لأهلكنَّ أعداءكم الكافرين المتجبرين ﴿ **ولنسكننكم الأرضَ من بعدهم** ﴾ أي ولأمنحنكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وَعيدِ** ﴾ أي ذلك النصر للرسل وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يديَّ وخاف عذابي ووعيدي قال في البحر : ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم أقسم تعالى على إهلاكهم ، وأي إخراج أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً[٣] ﴿ **واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد** ﴾ أي واستنصر الرسل بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿ **من ورائه جهنم ويُسقى من ماءٍ صديد** ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من

(١) الكشاف ٢/٥٤٤ . (٢) زاد المسير ٤/٣٥٠ . (٣) البحر ٥/٤١١ .

كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

ماءٍ صديد هو من قيح ودم ﴿ **يتجرعه ولا يكاد يسيغه** ﴾ أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته ، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميِّت** ﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنَّه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ أي ومن بين يديه عذابٌ أشدُّ مما قبله وأغلظ .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

﴿ **مثلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم** كرمادٍ **اشتدت به الريح** ﴾ أي مثلُ أعمالِ الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقةٍ وصلة رحم وغيرها مثلُ رمادٍ عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً ﴿ **في يوم عاصف** ﴾ أي في يومٍ شديد هبوب الريح قال القرطبي : ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى[١] ﴿ **لايقدرون ممَّا كسبوا على شيء** ﴾ أي لايقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا لإحباطة بالكفر ، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيَّرته الريح ﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾ أي الخسران الكبير ﴿ **ألم تر أنَّ الله خلق السموات والأرض بالحق** ﴾أي ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أنَّ الله العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد ، وأنه خلق السموات والأرض ليُستدلَّ بهما على قدرته ؟ قال المفسرون : أي لم يخلقهن عبثاً وإنما خلقهنَّ لأمرٍ عظيم ﴿ **إنْ يشأْ يذهبْكم ويأتِ بخلقٍ جديد** ﴾ أي هو قادرٌ على الإفناء كما قادر على الإيجاد والإحياء قال ابن عباس يريد : يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع[٢] ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ أي

(١) القرطبي ٩/٣٥٣ . (٢) زاد المسير ٤/٣٥٥ .

ليس ذلك بصعبٍ أو متعذرٍ على الله ، فإنَّ القويَّ القادر لا يصعبُ عليه شيء ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ أي خرجوا من قبورهم يوم البعث ، وظهروا للحساب لا يسترهم عن الله ساتر قال الإمام الفخر : ورد بلفظ الماضي ﴿ وبرزوا ﴾ وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدقٌ وحقٌ ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾[1] ﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا ﴾ أي قال الأتباع والعوام للسادة الكبراء والقادة الذين أضلوهم في الدنيا ﴿ إنّا كنّا لكم تبعاً ﴾ أي كنا أتباعاً لكم نأتمر بأمركم ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ أي قال القادة معتذرين : لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه ، ولكن حصل لنا الضلال فأضللناكم فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع ﴿ سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر قال الطبري : إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض : إنما أدركَ أهل الجنةِ ببكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله ، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لاينفعهم قالوا : تعالوا نصبرفصبروا صبراً لم يُر مثلُه ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾[2] وقال مقاتل : جزعوا خمسمائة عام ، وصبروا خمسمائة عام[3] ﴿ ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا من مهرب أو ملجأ .

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ

﴿ وقال الشيطان لما قُضي الأمر ﴾ هذه هي الخطبة البتراء التي يخطب بها إبليس في محفل الأشقياء في جهنم أي لّما فُرغ من الحساب ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ﴿ إنّ الله وعدكم وعْدَ الحقِّ ﴾ أي وعدكم وعداً حقاً بإثابة المطيع وعقبات العاصي فوفّى لكم وعده ﴿ ووعدتُكم فأخلفتُكم ﴾ أي وعدتكم ألاّ بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتكم وأخلفتكم الوعد ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي لم يكن لي قدرة وتسلط وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فاستجبتم لي باختياركم ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ أي لاترجعوا باللوم عليَّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ﴿ ما أنا بمُصرخكم وما أنتم بمُصْرخيَّ ﴾ أي ما أنا بمغيثكم

(١) الفخر الرازي ١٩/١٠٧ . (٢) الطبري ١٣/٢٠٠ . (٣) زاد المسير ٤/٣٥٦ .

أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله ﴿ **إني كفرتُ بما أشركتمون من قبل** ﴾ أي كفرت بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿ **إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ أي إن المشركين لهم عذاب مؤلم قال المفسرون : هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنةِ في الجنة ، وأهلُ النار في النار ، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن[١] وقال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبرٍ من نار يسمعه الخلائق جميعاً[٢] ﴿ **وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم** ﴾ لمَّا ذكر تعالى أحوال الأشقياء ، ذكر بعده أحوال السعداء ، ليبقى العبد بين الرغبة والرهبة ، وبين الخوف والرجاء أي أدخلهم الله تعالى جناتٍ تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته ﴿ **تحيتهم فيها سلام** ﴾ أي تُحَيِّهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن

﴿ **ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة** ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراك ، فمثَّل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة ، ولكلمة الإشراك بالشجرة الخبيثة قال ابن عباس : الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله » والشجرة الطيبة « المؤمن »[٣] ﴿ **أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾ أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحوِ السماء ﴿ **تؤتي أكلَها كُلَّ حين بإذن ربها** ﴾ أي تعطي ثمرها كلَّ وقت بتيسير الخالق وتكوينه ، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن ، وعملُه يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت ﴿ **ويضربُ الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ أي يبيّن لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون ﴿ **ومثلُ كلمةٍ خبيثة كشجرة خبيثة** ﴾ أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الحَنْظل الخبيثة ﴿ **اجتُثَّتْ من فوق الأرض** ﴾ أي استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها ﴿ **ما لها من**

(١) الفخر الرازي ١٩/١١٠ . (٢) القرطبي ٩/٣٥٦ . (٣) المختصر ٢/٢٩٦ .

﴿فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قرار ﴾ أي ليس لها استقرارٌ وثبات ، كذلك كلمة الكفر لاثبات لها ولا فرع ولا بركة قال ابن الجوزي : شُبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين ، فالمؤمن كلما قال « لا إله إلا الله » صعدت إلى السماء ثم جاء خيرُها ومنفعتها ، والكافر لا يُقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى ، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت ، ولافرع في السماء[1] ﴿ **يثّبتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا** ﴾ أي يثبتهم على كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » وعلى الإيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يفُتنون ﴿ **وفي الآخرة** ﴾ أي عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث الشريف (المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى ﴿ يثّبتُ الله الذين آمنوا ﴾ . .)[2] الآية ﴿ **ويضلُّ الله الظالمين** ﴾ أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات ﴿ **ويفعل الله ما يشاء** ﴾ أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً** ﴾ استفهام للتعجيب أي ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيَّروا نعمة الله بالكفر والتكذيب ؟ قال المفسرون : هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمه الآمن ، وجعل عيشهم في السِّعة ، وبعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، وكفروا به وكذبوه ، فابتلاهم الله بالقحط والجدب ﴿ **وأحلّوا قومهم دار البوار** ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم ثم فسَّرها بقوله ﴿ **جهنَّم يصلونها وبئس القرار** ﴾ أي أحلوهم في جهنم يذوقون سعيرها وبئست جهنم مستقراً ﴿ **وجعلوا لله أنداداً ليُضلوا عن سبيله** ﴾ أي جعلوا لله شركاء مماثلين عبدوهم كعبادته ليُضلوا الناس عن دين الله ﴿ **قل تمتعوا فإنَّ مصيركم إلى النار** ﴾ أي استمتعوا بنعيم الدنيا فإن مردَّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم ، وهو وعيد وتهديد ﴿ **قل لعبادي الذينَ آمنوا يقيموا الصلاة** ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين آمنوا

(١) زاد المسير ٤/٣٦٠ . (٢) أخرجه البخاري وهذا الرأي هو اختيار الطبري .

فلْيقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل ﴿ **وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية** ﴾ أي ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفيةً وجهراً ﴿ **من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولاخلال** ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة ، ولا فداء ولا شفاعة .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾

ولما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم فقال ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض** ﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال سبق ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ أي أنزل من السحاب المطر ﴿ **فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾[1] أي أخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ﴿ **وسخر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره** ﴾ أي ذلَّل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته ، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿ **وسخَّر لكم الأنهار** ﴾ أي الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ﴿ **وسخَّر لكم الشمسَ والقمر دائبين** ﴾ أي وذلَّل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يفتران ، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿ **وسخَّر لكم الليل والنهار** ﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار ، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ أي أعطاكم كل ما تحتاجون إليه ، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم ، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تُحْصوها** ﴾ أي وإن تعدُّوا نِعمَ الله عليكم لاتطيقوا حصرها وعدَّها ، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد ﴿ **إن الإنسان لظلومٌ كفار** ﴾ الإنسان اسم جنس أي أن الإنسان لمبالغٌ في الظلم والجحود ، ظالمٌ لنفسه بتعديه حدود الله ، جحودٌ لنعم الله ، وقيل : ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفَّار في النعمة يجمع ويمنع ﴿ **وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً** ﴾ أي

(١) يقول سيد قطب رحمه الله : « وهنا يُفتح كتاب الكون على مصراعيه ، فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تُحصى : السموات والأرض ، الشمس والقمر ، الليل والنهار ، البحار والأنهار ، الأمطار والثمار ، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكنَّ البشر لاينظرون ولا يقرءون ، ولا يتدبرون ولا يشكرون ، إن الإنسان لظلوم كفار ، يجعل لله أنداداً وهو الخالق الرازق مسخر الكون لهذا الإنسان ، والمشهد الهائل المعروض هنا لأيادي الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة : أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السموات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ثم تخرج به الثمار ، والبحر تجري فيه الفُلك بأمر الله مسخرة ، والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان ، والشمس والقمر دائبان لايفتران ، والليل والنهار يتعاقبان ، أفكل ذلك للإنسان ثم لا يشكر ولا يذكر !؟ » الظلال ١٣/١٦٦ .

اجعل مكةَ بلد أمنٍ يأمن أهله وساكنوه ﴿ **واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام** ﴾ أي احمني يارب وجنبني وأولادي عبادة الأصنام ، والغرضُ تثبيتهُ على ملة التوحيد والإِسلام .

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ **ربّ إنهنَّ أضلَلْن كثيراً من الناس** ﴾ أي ياربّ إنَّ هذه الأصنام أضلَّت كثراً من الخلق عن الهداية والإِيمان ﴿ **فمن تبعني فإنه مني** ﴾ أي فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه من أهل ديني ﴿ **ومن عصاني فإنك غفور رحيم** ﴾ أي ومن خالف أمري فإنك يارب غفار الذنوب رحيمٌ بالعباد ﴿ **ربَّنا إني أسكنتُ من ذريتي** ﴾ كرّر النداء رغبةً في الإِجابة وإِظهاراً للتذلل والإِلتجاء إلى الله تعالى أي يا ربنا إني أسكنت من أهلي ـ ولدي إسماعيل وزوجي هاجر ـ[1] ﴿ **بوادٍ غَيْرِ ذي زرعٍ عند بيتك المحرم** ﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك المحرم ، وهو وادي مكة شرفها الله تعالى ﴿ **ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهْوي إليهم** ﴾ أي يا ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي فاجعل قلوبَ الناسِ تحنُّ وتسرع إليهم شوقاً قال ابن عباس : لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناسُ كلهم ، ولكنْ قال ﴿ من النَّاس ﴾ فهم المسلمون[2] ﴿ **وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ أي وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نِعمك ، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبى إليها ثمرات كل شيء رزقاً من عند الله ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نُخفي وما نعلن** ﴾ أي يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما نسرُّ وما نظهر ﴿ **وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات ، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء ، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها ؟ ﴿ **الحمد لله الذي وهب لي على الْكِبَرِ إسماعيل وإسحق** ﴾ أي الحمد الله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإِسحاق قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة[3] ﴿ **إن ربي لسميع الدعاء** ﴾ أي مجيبٌ لدعاء من دعاه .

---

(١) روي أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها « سارة » زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه من الشام إلى مكة فوضعهما عند دوحة مكان زمزم كما في الحديث . (٢) القرطبي ٣٧٣/٩ . (٣) زاد المسير ٣٦٨/٤ .

رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

﴿ **ربِّ اجعلني مقيمَ الصلاة ومن ذريتي** ﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام أي يارب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً ، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحبَّ له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿ **ربنا وتقبل دعاء** ﴾ أي تقبَّلْ واستجبْ دعائي فيما دعوتك به ﴿ **ربنا اغفر لي ولوالديَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين قال المفسرون : استغفر لوالديه قبل أن يتبيَّن له أنَّ أباه عدوٌ لله قال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه . .[1] وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام ﴿ **ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون** ﴾ أي لاتظننَّ يا محمد أنَّ الله ساهٍ عن أفعال الظلمة ، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ، قال ميمون بن مِهْران : هذا وعيدٌ للظالم ، وتعزيةٌ للمظلوم[2] ﴿ **إنما يؤخرهم ليومٍ تشْخص فيه الأبْصار** ﴾ أي إنما يؤخرهم ليومٍ رهيب عصيب ، تَشْخص فيه الأبصار من الفزع والهَلع ، فتظلُّ مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك قال أبو السعود : تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه[3] ﴿ **مهطعين مقنعي رءوسهم** ﴾ أي مسرعين لايلتفتون إلى شيء رافعين رءوسهم مع إدامة النظر قال الحسن : وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[4] ﴿ **لا يرتدّ إليهم طرفُهم** ﴾ أي لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿ **وأفئدتُهم هواء** ﴾ أي قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع .

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

(١) القرطبي ٩/٣٧٥ . (٢) الطبري ١٣/٢٣٦ . (٣) أبو السعود ٣/١٣٣ . (٤) القرطبي ٩/٣٧٧ .

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب** ﴾ أي خوّف يا محمد الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد ﴿ **فيقول الذين ظلموا ربنا أخّرنا إلى أجلٍ قريب** ﴾ أي فيتوجه الظالمون يومئذٍ إلى الله بالرجاء يقولون يا ربنا أمهلنا إلى زمنٍ قريب لنستدرك ما فات ﴿ **نجبْ دعوتك ونتّبع الرسل** ﴾ أي نجب دعوتك لنا إلى الإيمان ونتّبع رسلك فيما جاءونا به ﴿ **أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زوال** ﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى ؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾ أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم ، فهلاَّ اعتبرتم بمساكنهم ؟ ﴿ **وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم** ﴾ أي تبيَّن لكم بالإخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أي بينا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا ﴿ **وقد مكروا مكرهم** ﴾ أي مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله ﴿ **وعند الله مكرهم** ﴾ أي وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم ﴿ **وإن كان مكرهم لتَزُول منه الجبال** ﴾ أي وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ولكنَّ الله عصَم ووقى منه ﴿ **فلا تحسبنَّ الله مخُلف وعدِهِ رسُله** ﴾ أي لا تظننَّ أيها المخاطب أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وأخذ الظالمين المكذبين ﴿ **إن الله عزيزٌ ذو انتقام** ﴾ أي إنه تعالى غالبٌ لا يعجزه شيء منتقم ممن عصاه .

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾

﴿ **يوم تبدَّل الأرضُ غير الأرض والسمواتُ** ﴾ أي ينتقم من أعدائه يوم الجزاء ، يوم تتبدل هذه الأرض أرضاً أخرى ، وتتبدل السماوات سموات أخرى قال ابن مسعود : تُبدَّل الأرضُ بأرضٍ كالفضة نقية ، لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة[1] ﴿ **وبرزوا لله الواحدِ القهار** ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم ، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين ، لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واقٍ ، ليسوا في دورهم ولا في قبورهم ، وإنما هم في أرض المحشر أمام الواحد القهار ﴿ **وترى المجرمين يومئذٍ مُقرنين في الأصفاد** ﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر

(١) الطبري ١٣/ ٢٥٠ وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغيرٌ صفاتها فتسوى الجبال وتقلع الأشجار وتنشق الأنهار ، وتتناثر الكواكب وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم   وما الدارُ بالدار التي كنت تعلم

أبو السعود ٣/١٣٧ .

فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

المجرمين مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال قال الطبري : أي مقرَّنة أيديهم وأرجُلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل ﴿ **سرابيلهم من قَطِران** ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار ، تُطلى بها الإبل الجربى فيحرق الجربَ بحرّه وحدته ، وهو أسود اللون منتنُ الريح ﴿ **وتَغْشى وجوههم النارُ** ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار ، جزاء المكر والاستكبار ﴿ **ليجزيَ الله كل نفسٍ ما كسبت** ﴾ أي برزوا يوم القيامة لأحكم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم ، المحسنَ بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ **إنَّ الله سريع الحساب** ﴾ أي لا يشغله شأن عن شأن ، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان ، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر ﴿ **هذا بلاغٌ للناس** ﴾ أى هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان ، أُنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ﴿ **ولينْذَروا به** ﴾ أي لكي يُنصحوا به ويخوّفوا من عقاب الله ﴿ **وليعلموا أنما هو إله واحد** ﴾ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة ، على أنه تعالى واحد أحدٌ ، فردٌ صمد ﴿ **وليذَّكر أولوا الألباب** ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة ، وهم السعداء أهل النهى والصلاح .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم)

(١٥) سُورَةُ الحِجْرِ مَكِّيَّة وآيَاتُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

بَيْن يَدى السُّورَة

* سورة الحِجْر من السور المكية ، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية « الوحدانية ، النبوة ، البعث والجزاء » ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتَّى الأزمان والعصور ، ولهذا ابتدأت السورة بالإِنذار والتهديد ، ملفَّعاً بظل التهويل والوعيد ﴿ **ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين* ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ .

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء ، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام ، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومه الضالون ، من لدن بعثة شيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام ، إلى بعثة خاتم المرسلين ، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين ، في كل زمان وحين ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك في شيَعِ الأولين* وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** . . ﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات ، المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينطق بآثار اليد المبدعة ، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير ، بدءاً بمشهد السماء ، فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح ، فمشد الحياة والموت ، فمشهد الحشر والنشر ، وكلُّها ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وشاهدة بوحدانيته وقدرته ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين* وحفظناها من كل شيطان رجيم** . . ﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى قصة « البشرية الكبرى » قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام ، وعدوه اللدود إبليس اللعين ، وما جرى من سجود الملائكة لآدم ، واستكبار إبليس عن السجود ، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصالٍ من حمإٍ مسنون** . . ﴾ الآيات .

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء ، تسليةً لرسول الله عليه السلام ، وتثبيتاً

لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط ، فتذكر قصة لوط ، وشعيب ، وصالح عليهم السلام ، وما حل بأقوامهم المكذبين .

* وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه ، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز ، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين ، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمِيَة : سميت السورة الكريمة « سورة الحِجر » لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح ، وهم قبيلة ثمود ـ وديارهم في الحِجْر بين المدينة والشام ـ فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها ، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعتريهم موت ولا فناء ، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ

التفسير : ﴿ **الٓر** ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ أي هذه آيات الكتاب ، الكامل في الفصاحة والبيان ، والمتعالي عن الطاقة البشرية ، ﴿ **وقرآنٍ مبين** ﴾ أي قرآن عظيم الشأن ، واضح بيّن ، لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿ **رُبما يود الذين كفروا** ﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿ **لو كانوا مسلمين** ﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ أي دَعْهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم ، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿ **ويلههم الأمل** ﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل ، عن التفكر فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا ، وهو وعيد وتهديد ﴿ **وما أهلكنا من قرية** ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله

مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

﴿ **إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ أي إلا لها أجل محدود لإهلاكها ﴿ **ما تسبقُ من أمة أجلها** ﴾ أي لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل مجيء أوانه ﴿ **وما يستأخرون** ﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير : وهذا تنبيهٌ لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العِناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك[1] ﴿ **وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر** ﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم : يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ أي إنك حقاً لمجنون ، أكّدوا الخبر بإنّ واللام مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿ **لو ما تأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين** ﴾ أي هلاّ جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله !! قال تعالى رداً عليهم ﴿ **ما ننزّل الملائكة إلا بالحق** ﴾ أي ما ننزّل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿ **وما كانوا إذاً منظرين** ﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذٍ لا إمهال ولا تأجيل ، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ففيه ردُّ عليهم فيما اقترحوا .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ

﴿ **إنّا نحن نزَّلنا الذكر** ﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿ **وإنّا له لحافظون** ﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن ، نصونه عن الزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير ، قال المفسرون : تكفَّل الله بحفظ هذا القرآن ، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان ، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكولٌ إلى أهلها لقوله تعالى ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدَّلوا وغيرَّوا ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَعِ الأولين** ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف وفرق الأمم الأولين ﴿ **وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ أي وما جاءهم رسولٌ إلاّ سخروا منه واستهزءوا

(١) المختصر ٢/٣٠٨ .

﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾

به ، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿ **كذلك نسلكه في قلوب المجرمين** ﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين ، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين ﴿ **لا يؤمنون به وقد خلَتْ سنةُ الأولين** ﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار ؟ ثم بيَّن تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإيمان فهم معاندون مكابرون ، وفي ضلالهم وعنادهم سائرون فقال ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون** ﴾ أي لو فرض أننا أصعدناهم إلى السماء ، وفتحنا لهم باباً من أبوابها ، فظلوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملكوت ﴿ **لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا** ﴾ أي لقالوا ـ لفرطِ مكابرتهم وعنادهم ـ إنما سُدَّت أبصارنا وخُدعت بهذا الارتقاء والصعود ﴿ **بل نحن قومٌ مسحورون** ﴾ أي سحرنا محمد وخيَّل إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبين قال الرازي : لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكّوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر ، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله[1] ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجاً** ﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿ **وزيناها للناظرين** ﴾ أي زيناها بالنجوم ليُسرَّ الناظر إليها .

وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

﴿ **وحفظناها من كل شيطان رجيم** ﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿ **إلا من استرق السمعَ فأَتبعه شهابٌ مبين** ﴾ أي إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي** ﴾ أي بسطناها

(١) الفخر الرازي ١٩/١٦٧

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿ إلا من استرق السمعَ فأتبعه شهابٌ مبين ﴾ أي إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدركه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ أي بسطناها ووسعناها وجعلنا فيها جبالاً ثوابت[1] ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ أي أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيء موزون بميزان الحكمة ، بدقةٍ وإحكام وتقدير ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ أي وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين ، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿ وإنْ من شيء إلاَّ عندنا خزائنه ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته ﴿ وما ننزّله إلا بقدر معلوم ﴾ أي ولكن ننزله إلاعلى حسب حاجة الخلق إليه ، وعلى حسب المصالح ، كما نشاء ونريد ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أي تلقِّح السحاب فيدر ماءً ، وتلقّح الشجر فيتفتّح عن أوراقه وأكمامه ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر ﴿ فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه ﴾ أي فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً ، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ أي لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار ، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين ﴾ ؟﴿ وإنا لنحن نحيي ونميتُ ونحن الوارثون ﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون .

وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى
فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾

(١) قال الفخر الرازي : أن الأرض كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا نُظر إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ سماها أوتاداً مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا . الرازي ١٩/١٧٠ .

﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين ، الأموات منهم والأحياء قال ابن عباس : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة[١] وقال مجاهد : المستقدمون : الأمم السابقة ، والمستأخرون أمة محمد ﷺ ، والغرضُ أنه تعالى محيطٌ علمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لايخفى عليه شيء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ﴿ وإنَّ ربكَ هو يحشرُهم ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء ﴿ إنه حكيمٌ عليم ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ، ولما ذكر تعالى الموت والفناء ، والبعث والجزاء ، نبّههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفس واحدة ، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء والإعادة ، وذكّرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ﴾ أي خلقنا آدم من طين يابس يسمع له صَلْصلة أي صوت إذا نُقر ﴿ من حمإٍ مسنون ﴾ أي من طين أسود متغيّر ﴿ والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السموم ﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجانَّ ـ أي الشياطين ورئيسهم إبليس ـ من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسامّ فتقتل بحرها ، قال المفسرون : عني بالجانِّ هنا « إبليس » أبا الجنِّ لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون ﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين يابس ، أسود متغيّر قال ابن كثير : فيه تنويهٌ بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له ، وتشريفه إيّاه بأمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً[٢] ﴿ فإذا سويته ﴾ أي سويت خَلْقه وصورته ، وجعلته إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء ﴿ ونفختُ فيه من روحي ﴾ أي أفضتُ عليه من الروح التي هي خلقٌ من خلقي فصار بشراً حياً ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ أي خروا له ساجدين ، سجود تحيةٍ وتكريم لا سجود عبادة ، قال المفسرون : وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم كقوله « بيت الله ، ناقة الله ! شهر الله » وهي من إضافة الملك إلى المالك ، والصنعة إلى الصانع ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد .

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ

---

(١) هذا اختيار الطبري ، وقد فسرت الآية بثمان تأويلات ذكرها في البحر ثم قال : الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر البحر ٤٥١/٥ . المختصر ٣١١/٢ .

أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ **إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾ الاستثناء منقطع لأن إبليس خلقٌ آخر غير الملائكة[1] ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى : سجد جميع الملائكة لكنْ إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي ﴿ **قال يا إبليس ما لكَ ألاّ تكونَ مع الساجدين** ﴾ أي ما المانع لك من السجود ؟ وأيُّ داعٍ دعا بك إلى الإباء والامتناع ؟ وهو استفهام تبكيت وتوبيخ ﴿ **قال لم أكنْ لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنون** ﴾ أي قال إبليس : لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طين يابس متغير ، فهو من طين وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير ، والفاضل للمفضول ؟ رأى عدوُّ الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم ، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿ **قال فاخرج منها فإنك رجيم** ﴾ أي اخرجْ من السموات فإنك مطرودٌ من رحمتي ﴿ **وإنَّ عليكَ اللعنةَ إلى يوم الدين** ﴾ أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ﴿ **قال ربِّ فأنْظرني إلى يوم يُبْعثون** ﴾ أي قال اللعين : أمهلني وأخرني إلى يوم البعث ﴿ **قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ أي قال له الله : إنك من المؤجلين إلى حين موتِ الخلائق قال القرطبي : أراد بسؤاله الإنظار - إلى يوم يبعثون - ألا يموت ، لأن البعث لا موتَ بعده ، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق ، فيموت إبليس ثم يُبعث[2] ﴿ **قال ربِّ بما أغويتني** ﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي ﴿ **لأزيننَّ لهم في الأرض** ﴾ أي لأزيننَّ لذرية آدم المعاصي والآثام ﴿ **ولأغوينهم أجمعين** ﴾ أي ولأضلَّنهم عن طريق الهدى أجمعين .

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ

(١) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف ، وتقدم قول الحسن البصري : « والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين » وانظر كتابنا « النبوة والأنبياء » ص ١٢٨ ففيه البيان الشافي . (٢) القرطبي ١٠/٢٧ .

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ۝٤٨﴾ *

﴿ إلا عبادكَ منهم المخلَصين ﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿ قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم ﴾ أي قال تعالى : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزليةٌ لا تتخلف وهي ﴿ إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم ﴿ إلا من اتَّبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين والمعنى لكنْ من غوى وضلَ من الكافرين فلك عليهم تسلط ، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي موعد إبليس وأتباعه جميعاً ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلوها منها لكثرتهم وروي عن عليّ أنها أطباقٌ ، طبقٌ فوق طبق وأنها دركاتٌ بعضها أشد من بعض ﴿ لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسوم ﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم ، قال ابن كثير : كلٌ يدخل من بابٍ بحسب عمله ، ويستقر في دَرَكٍ بقدر عمله[١] ﴿ إنَّ المتقين في جنات وعيون ﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة ، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل ﴿ ادخلوها بسلامٍ آمنين ﴾ أي يقال لهم : أُدخلوا الجنة سالمين من كل الآفات ، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلّ ﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين ﴾ أي حال كونهم إخوةً متحابين لا يكدِّر صفوهم شيء ، على سررٍ متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد : لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض زيادةً في الإِنس والإِكرام ، وقال ابن عباس : على سررٍ من ذهب مكلَّلة بالدر والياقوت والزبرجد[٢] ﴿ لا يمسُّهم فيها نصَبٌ ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياءٌ وتعب ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ أي لا يُخْرجون منها ولا يُطردون ، نعيمهم خالد ، وبقاؤهم دائم ، لأنها دار الصفاء والسرور .

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٥٣ قَالَ﴾

(١) المختصر ٢/٣١٢ .   (٢) زاد المسير ٤/٤٠٤ .

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ نبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿ وأنَّ عَذَابِي هو العذاب الأليم ﴾ أي وأخبرهم أنَّ عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان : وجاء قوله ﴿ وأنَّ عذابي ﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأني المعذّب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة[1] ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإِهلاك قوم لوط ، وكانوا عشرة على صورة غلمان حسانٍ معهم جبريل ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلَّموا عليه ﴿ قال إنَّا مِنْكُمْ وجلون ﴾ أي قال إبراهيم إنَّا خائفون منكم ، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿ قالوا لا توجَلْ إنّا نبشرك بغلام عليم ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإنا نبشرك بغلام واسع العلم ، عظيم الذكاء ، هو إسحاق ﴿ قال أبشرتموني على أنْ مسّنيَ الكبر فبم تُبشِّرون ﴾ أي قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم ، فبأي شيء تبشروني ؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكنْ من القانطين ﴾ أي بشرناك باليقين الثابت فلا تستبعدْه ولا تيأس من رحمة الله ﴿ قال ومن يقْنَطُ من رحمة ربهِ إلا الضالّون ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب ، الجاهلون برب الأرباب ، أما القلب العامر بالإِيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط قال البيضاوي : وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر ؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب[2] ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أي قال إبراهيم ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام ؟ .

قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ

(١) البحر ٥/٤٥٧ . (٢) البيضاوي ٢٨٦ .

يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ قالوا إنَّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قومٍ مشركين ضالين لإهلاكهم يعنون قوم لوط ﴿ إلاّ آل لوطٍ إنا لمنجُّوهم أجمعين ﴾ أي إلا أتباعَ لوط وأهلَه المؤمنين ، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين ﴿ إلا امرأتَه قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي إلا امرأة لوط فقد قدَّر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال القرطبي : استثنى : من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك[1] ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ أي فلما أتى رسلُ الله لوطاً عليه السلام ﴿ قال إنكم قومٌ منكرون ﴾ أي قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فما ذا تريدون ؟ ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أي قالوا له بل نحن رسل الله ، جئناك بما كان فيه قومك يشكُّون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿ وأتيناك بالحق وإنّا لصادقون ﴾ أي أتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿ فأَسْر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أي سْر بأهلك في طائفةٍ من الليل ﴿ واتَّبعْ أدبارهم ﴾ أي كنْ من ورائهم وسرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم ﴿ ولا يلتفتْ منكم أحدٌ ﴾ أي لا يلتفتْ أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿ وامضوا حيث تُؤمرون ﴾ أي سيروا حيث يأمركم الله عز وجل قال ابن عباس : يعني الشام ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوعٌ ﴾ أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيُستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم أحدٌ ﴿ مصبحين ﴾ أيَ إذا دخل الصباح تمَّ هلاكهم واستئصالهم .

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

(١) القرطبي ١٠/٣٦ .

﴿ **وجاء أهلُ المدينة يستبشرون** ﴾ أي جاء أهل مدينة سدوم ـ وهم قوم لوطٍ ـ مسرعين يستبشرون بأضيافه ، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم ، ظناً منهم أنهم أناسٌ أمثالهم قال المفسرون : أُخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوطٍ شباناً مرداً حساناً فأسرعوا فرحين يبشّر بعضهم بعضاً بأضياف لوط[1] ﴿ **قال إنَّ هؤلاء ضيفي فلا تفضحون** ﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتُلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿ **واتقوا الله ولا تُخزون** ﴾ أي خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿ **قالوا أوَلَمْ نَنْهك عن العَالمين** ﴾ أي قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد ؟ قال الرازي : المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة[2] ؟ ﴿ **قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين** ﴾ أي هؤلاء النساء فتزوجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة قال المفسرون : المراد بقوله ﴿ **بناتي** ﴾ بناتُ أمته لأن كل نبيٍّ يعتبر أباً لقومه ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ أي وحياتك يا محمد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون ، وهذه جملة اعتراضيه جاءت ضمن قصة لوط قسماً بحياة الرسول ﷺ تكريماً له وتشريفاً قال ابن عباس : « ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ على الله من محمد ﷺ وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيره[3] ﴿ **فأخذتهم الصيحةُ مشرقين** ﴾ أي أخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿ **فجعلنا عاليها سافلَها** ﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون : حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها ، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملاك ثم قلبها بهم ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل** ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة كالمطر من طين طبخ بنار جهنم ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ أي فيما حلَّ بهم من الدمار والعذاب لدلالات وعلامات المعتبرين المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿ **وإنها لبسبيلٍ مقيم** ﴾ أي وإن هذه القرى المهلكة ، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه ، لطريق ثابتٍ لم يندرس ، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ ﴿ **إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنين** ﴾ أي لعبرةً للمصدّقين .

---

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : « تسامع القوم بأن في بيت لوطٍ شباناً صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيداً ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القومِ في الدَّنس والفجور ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية ، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان بينما أولئك القوم المجرمون يجاهرون بها ويتلمظون عليها ، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير ، فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه ، وقف يستثير النخوة الأدمية فيهم ، ويستجيش وجدان التقوى لله وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني ، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع . » الظلال ١٤/٣١ . (٢) الفخر الرازي ١٩/٢٠٢ . (٣) الطبري ١٤/٤٤ .

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

﴿ **وإن كان أصحاب الأيكةِ لظالمين** ﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب ـ وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف ـ لظالمين بتكذيبهم شعيباً ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ أي أهلكناهم بالرجفة وعذاب يوم الظُلَّة قال المفسرون : اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك ، فبعث الله عليهم سحابة كالظلة ، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها ، فبعث الله عليهم منها ناراً فاحرقتهم جميعاً ﴿ **وإنهما لبإمامٍ مبين** ﴾ أي وإن قرى قوم لوط وشعيب لطريق واضح أفلا تعتبرون بهم يا أهل مكة ؟ ﴿ **ولقد كذَّب أصحابُ الحِجْرِ المرسلين** ﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام أي كذبت ثمود نبيَّهم صالحاً ـ والحجرُ وادٍ بين المدينة والشام وآثاره باقية يمرُّ عليها المسافرون ـ قال البيضاوي : ومن كذَّب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ولذا قال ﴿ **المرسلين** ﴾[1] ﴿ **وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين** ﴾ أي وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتَّعظون قال ابن عباس : كان في الناقة آيات : خروجُها من الصخرة ، ودنوُّ ولادتها عند خروجها ، وعظمُ خَلْقها فلم تشبهها ناقة ، وكثرةُ لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً فلم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها[2] ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين** ﴾ أي كانوا ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتاً آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين** ﴾ أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أي ما دفع عنهم عذابَ الله ما كانوا يشيدونه من القلاع والحصون ﴿ **وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحق** ﴾ أي وما خلقنا الخلائق كلَّها سمائها وأرضها وما بينهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلا يعم الفساد ﴿ **وإن الساعة لآتيةٌ فاصفحِ الصفحَ الجميل** ﴾ أي وإن القيامة لآتيةُ لا محالة فيُجازى المحسنُ بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فأعرضْ يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم .

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) زاد المسير ٤/٤١١ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

﴿ **إنَّ ربك هو الخلاّقُ العليم** ﴾ أي الخالق لكل شيء ، العليمُ بأحوال العباد ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني** ﴾ أي ولقد أعطيناك يا محمد سبع آيات هي الفاتحة لأنها تثنّى أي تكرر قراءتها في الصلاة وفي الحديث (الحمدُ لله رب العالمين هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتهُ)[1] وقيل : هي السور السبع الطوال ، والأول أرجح ﴿ **والقرآنَ العظيم** ﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم الجامع لكمالات الكتب السماوية ﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم** ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم ، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ أي لا تحزن لعدم إيمانهم ﴿ **واخفضْ جناحك للمؤمنين** ﴾ أي تواضعْ لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم ﴿ **وقل إني أنا النذيرُ المبينُ** ﴾ أي قل لهم يامحمد أنا المنذر من عذاب الله ، الواضح البيِّن في الإنذار لمن عصى أمر الجبار ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين** ﴾ الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه ، فانقسموا إلى قسمين ﴿ **الذين جعلوا القرآن عِضين** ﴾ أي جعلوا القرآن أجزاءً متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس : آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض ، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر ، وشعر ، وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة ﴿ **فوربك لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ أي فأقسمُ بربك يا محمد لنسألنَّ الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ **فاصدعْ بما تؤمرُ وأعرضْ عن المشركين** ﴾ أي فاجهر بتبليغ أمر ربك ، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ أي كفيناك شرَّ أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش .

---

(١) أخرجه البخاري وهذا القول هو اختيار الطبري .

ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

﴿ **الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر** ﴾ أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرك بما يقولون** ﴾ أي يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب ﴿ **فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين** ﴾ أي فافزع فيما نالك من مكروه إلى التسبيح والصلاة والإكثار من ذكر الله ﴿ **واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾أي اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت. ، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر)

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ مَكِّيَّة وآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ وَمِائَة

بين يدي السورة

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى « الأُلوهية ، والوحي ، والبعث والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهول والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلَّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوَّفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا ستعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً .

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ « وحدانية الله » جلَّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهَّار ، فخاطبت كل حاسةٍ في الإنسان ، وكل جارحةٍ في كيانه البشري ، ليتجه بعقله إلى ربِّه ، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه .

* ثم تتابعت السورة الكريمةُ تذكِّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذرهم تلك العاقبة الوخيمة التى يئول إليها مصيرُ كل معاندٍ وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عمَّا يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله .

التسِـــمَية : سميت هذه السورة الكريمة « سورة النحل » لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

تفسير سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه ، قال الرازي : لما كان واجب الوقوع لامحالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث : جاءك الغوثُ فلا تجزع[1] ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ أي تنزَّه الله عما يصفه به الظالمون ، وتقدس عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿ **يُنزّل الملائكة بالروح من أمره** ﴾ أي يُنزّل الملائكة بالوحي والنبوة بإرادته وأمره ﴿ **على من يشاء من عباده** ﴾ أي على الأنبياء والمرسلين ، وسمّى الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿ **أنْ أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ أي بأن أنذروا أهل الكفر أنه لا معبود إلا الله فخافوا عذابي وانتقامي ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت ، والحكمة الفائقة ، لا عبثاً ولا جزُافاً ﴿ **تعالى عما يشركون** ﴾ أي تمجَّد وتقدَّس عن الشريك والنظير ﴿ **خلق الإنسان من نُطفة** ﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفةٍ مهينة ضعيفة هي المنيُّ ﴿ **فإذا هو خصيمٌ مبين** ﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخاصمٌ لخالقه ، واضح الخصومة ، يكابر ويعاند ، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضداً قال ابن الجوزي : لقد خُلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وبأن من قدر على إيجاده أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً[2] ﴿ **والأنعامَ خلقها** ﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ **لكم فيها دفءٌ** ﴾ أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار

(١) الرازي ٢١٨/١٩ . (٢) زاد المسير ٤/ ٤٢٩ .

﴿ ومنافع ومنها تأكلون ﴾ أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدر وركوب الظهر ، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم ﴿ ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينةٌ وجمالٌ حين رجوعها عشياً من المرعى ، وحين غُدوّها صباحاً لترعى ، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحةً سمينةً فارهة .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس ﴾ أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة ﴿ إنَّ ربكم لرءوفٌ رحيم ﴾ أي إنَّ ربكم أيها الناس الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لعظيمُ الرأفة والرحمة بكم ﴿ والخيل والبغالَ والحمير لتركبوها وزينةً ﴾ أي وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ أي ويخلق في المستقبل ما لاتعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث : القاطرات ، والسيارات ، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان[1] ﴿ وعلى الله قصدُ السبيل ﴾ أي وعلى الله جل وعلا بيانُ الطريق المستقيم ، الموصلِ لمن يسلكه إلى جنات النعيم ﴿ ومنها جائرٌ ﴾ أي ومن هذه السبيل طريقٌ مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه ، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى الإيمان لهداكم جميعاً ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ليترتب عليه الثواب والعقاب ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام ، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبثة في الكائنات فقال ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماءً ﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿ لكم منه شراب ﴾ أي أنزله عذباً

(١) قال في الظلال : « لقد جدَّت وسائل للحمل والركوب لم يكن يعلمها أهل الزمان ، والقرآن يهيء لها القلوب والأذهان بلا جحود ولا تحجر ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ حتى لا يقول الناس : إنما استخدم آباؤ نا الخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، ولهذا هيأ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم ويتمخض عنه العلم ويتمخض عنه المستقبل » .

فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿ **ومنه شجرٌ فيه تُسيمون** ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ﴿ **يُنبتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب** ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿ **ومن كل الثمرات** ﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطايب الطعام ﴿ **إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون** ﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقومٍ يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان : ختم الآية بقوله ﴿ **يتفكرون** ﴾ لأن النظرِ في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل ، واستعمال فكر ، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومرَّ عليها زمن معيَّن لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيُشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرةُ أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، المشتملة على أجسامٍ مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادرٍ مختار وهو الله تعالى [1] .

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿ **وسخَّر لكم الليل والنهار والشمسَ والقمر** ﴾ أي ذلّل الليل والنهار يتعاقبان لمنامكم ومعاشكم ، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿ **والنجومُ مسخراتٌ بأمره** ﴾ أي والنجومُ تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿ **إنَّ في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون** ﴾ أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة ، لأصحاب العقول السليمة ﴿ **وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه** ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والنباتات ، والمعادن والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وخواصها ومنافعها ﴿ **إنَّ في ذلك لآية لقومٍ يذَّكَّرون** ﴾ أي لعبرةً لقومٍ يتعظون ﴿ **وهو الذي سخَّر البحر** ﴾ أي وهو تعالى ـ بقدرته ورحمته ـ ذلّل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿ **لتأكلوا منه لحماً طرياً** ﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطريَّ الذي

(١) البحر ٤٧٩/٥ .

تصطادونه ﴿ **وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها** ﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿ **وترى الفُلك مواخر فيه** ﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عُباب البحر جاريةً فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ أي سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذُكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معايشكم بالتجارة ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله ﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم** ﴾ أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات لئلا تضطرب بكم وتميل قال أبو السعود : إن الأرض كانت كرةً خفيفة قبل أن تُخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خُلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها[1] ﴿ **وأنهاراً وسبُلاً لعلكم تهتدون** ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم .

وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡـمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٍۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمۡ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ **وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار ، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس : العلاقات معالمُ الطرق بالنهار وبالنجم هم يهتدون **بالليل**[2] ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾ الاستفهام أنكاري أي أتسوون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة ، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره ؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل ؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطال لعبادتهم الأصنام ﴿ **أفلا تذكَّرون** ﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله ؟ وهو توبيخٌ آخر ﴿ **وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها** ﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها ﴿ **إن الله لغفور رحيم** ﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿ **والله يعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلقون** ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان

(١) أبو السعود ١٦٧/٣ . (٢) زاد المسير ٤٣٦/٤ .

والأصنام لا يقدرون على خلق شيء أصلاً والحال أنهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم ، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله ؟ ﴿ أمْواتٌ غير أحياء ﴾ أي وتلك الأصنام أمواتٌ لا أرواح فيها ، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها ، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة ؟ ﴿ وما يشعرون أيّان يبعثون ﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدوها ، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿ إلهكم إله واحدٌ ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحدٌ لا شريك له ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ أي فالذين لايصدقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله .

لَاجَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ لاجرم أنَّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي حقاً إن الله تعالى لاتخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أيَّ شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ ؟ ﴿ قالُوا أساطير الأولين ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء : ما أنزله ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون : كان المشركون يجلسون على مداخل مكة يُنفِّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أُنزل على محمد ؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين[1] ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملةً من غير أن يُكفَّر منها شيء ﴿ ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم ﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليلٍ أو برهان ، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿ ألاَ ساء ما يزرون ﴾ ألاَ للتنبيه أي فانتبهوا أيها القوم بئس الحمل الذي حملوه على ظهورهم ، والمقصودُ المبالغة في الزجر ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة ،

(١) البحر ٥/٤٨٤ .

وهذا تسلية له ﷺ ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأسسه ، وهذا تمثيلٌ لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسل ﴿ **فخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم** ﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدّم البناء وماتوا ﴿ **وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم ، والآية مشهد كاملٌ للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين ، وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُردّ ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم** ﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويهينهم ﴿ **ويقول أين شركائيَ الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء ؟ أحضروهم ليشفعوا لكم ، والأسلوب استهزاءٌ وتهكمٍ ﴿ **قال الذينَ أُوتوا العلمَ إنَّ الخزي اليوم والسوءَ على الكافرين** ﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شماتةً بأولئك الأشقياء إن الذلَّ والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم** ﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿ **فألقوا السَّلم ما كنا نعمل من سوء** ﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة ، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿ والله ربنا ماكنا مشركين ﴾ ﴿ **بلى إنَّ الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ أي يكذبهم الله ويقول : بلى قد كذبتم وعصيتم وكنتم مجرمين ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أي أدخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ أي بئست جهنم مقراً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله .

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإيمان ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله ؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون : هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وعن ما أنزل الله عليه فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن[١] ، قال تعالى بياناً لجزائهم الكريم ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي لهؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿ ولدار الآخِرةِ خَيْرٌ ﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿ ولنِعم دار المتقين ﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿ جناتُ عدن ﴾ أي جناتُ إقامة ﴿ يدخلونها تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا انقطاعٍ ولا نَصب ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه ، المتمسكين بأوامره ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ أي هم الذين تقبض الملائكةُ أرواحهم حال كونهم أبراراً ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي ، طيبة نفوسهم بلقاء الله ﴿ يقولون سلامٌ عليكم ﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين[٢] ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ أي هنيئاً لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي أمرُ ربك ﴾ عاد الكلام إلى تقريع المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر هؤلاء إلا أحد أمرين : إما نزول الموت بهم ، أو حلول العذاب العاجل ، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرةٌ وغناء ؟ ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حلَّ بهم العذاب

(١) الرازي ٢٠/٢٣ . (٢) الطبري ١٤/١٠١ .

﴿ وما ظلمهم الله ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكنْ ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش ﴿ لو شاء اللَّهُ ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آباؤ نا ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد ، وغرضُهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راضٍ به وهو حقٌ وصواب[1] ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس على الرسل إلا التبليغ ، وأمَّا أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلَّ وعلا .

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحدّوه ، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فآمن ﴿ ومنهم من حقّت عليه الضلالة ﴾ أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر ، أعْلَمَ تعالى

(١) قال في الظلال « وهذه مقولةٌ جديدة من مقولات المشركين في علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا اشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله ـ في زعمهم ـ ألاّ يفعلوا شيئاً من هذا لمنعهم من فعله . . وهذا وهمٌ وخطأٌ في فهم معنى المشيئة الإلهية ، فالله سبحانه لايريد لعبادة الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على ألسنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ ولهذا قال تعالى بعده ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فهذا أمره ، وهذه إرادته لعباده ، وقد شاءت ارادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار » ا.هـ ظلال القرآن ١٤/٦١ .

أنه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله ، ومنهم من كفر فأضلَّه الله ﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ أي سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون ! ﴿ **إن تحْرص على هداهم فإنَّ الله لا يهدي من يُضلُّ** ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿ **وأقسموا باللَّهِ جهْد أيمانهم لا يبعث ٱللَّهُ من يموتُ** ﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ، واستبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البِلى وتفرق الأشلاء والذرات ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ **بلى وعداً عليه حقاً** ﴾ أي بلى ليبعثنَّهم ، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بدَّ منه ﴿ **ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أي ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور .

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ **ليُبيِّن لهم الذي يختلفون فيه** ﴾ أي سيبعثهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث ، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ﴿ **وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث ، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كنْ فيكون** ﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإنا نقول للشيء كنْ فيكون قال المفسرون : هذا تقريبٌ للأذهان ، والحقيقةُ أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿ كن ﴾ ﴿ **والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا** ﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عُذّبوا في الله قال القرطبي : هم صهيب وبلال وخبّاب وعمّار ، وعذَّبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا ، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة [1] ﴿ **لنبوئنهم في الدنيا حسنةً** ﴾ أي لنسكننهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس : بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿ **ولأجرُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون** ﴾ أي ثواب الآخرة

(١) القرطبي ١٠/١٠٧

أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿ **الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره ، فهجروا الأوطان ، وفارقوا الإخوان ، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره ومثوبته ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم** ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحي إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون : أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلَّا بعث إلينا ملكاً فنزلت[1] ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ **بالبيِّنات والزبر** ﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبُر أي الكتب المقدسة ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر** ﴾ أي القرآن المذكّر الموقظ للقلوب الغافلة ﴿ **لتبيّنَ للناس ما نُزّل إليهم** ﴾ أي لتعرّف الناس الأحكام ، والحلال والحرام ﴿ **ولعلَّهم يتفكرون** ﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿ **أفأمَنَ الذين مكروا السيئاتِ أن يخسف الله بهم الأرض** ﴾ أي هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة ، هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟ ﴿ **أو يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون** ﴾ أي يأتيهم العذاب بغتةً في حال أمنهم واستقرارهم ، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهةٍ لا يعلمون بها ﴿ **أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين** ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أى حال لا يعجزون الله ﴿ **أو يأخذهم على تخوّفٍ** ﴾ أي يهلكهم الله على حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديدٌ[2] ﴿ **فإنَّ ربكم لرءوفٌ رحيم** ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿ **أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء** ﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿ **يَتَفَيَّؤُا**

(١) زاد المسير ٤/٤٤٩ . (٢) المختصر ٢/٣٣٣ .

ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّداً للَّهِ ﴾ أي تميل ظلالها من جانب إلى جانب ساجدة للَّهِ سجود خضوعٍ لمشيئته تعالى وانقياد ، لا تخرج عن إرادته ومشيئته ﴿ **وهم داخرون** ﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدبيره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون ؟ .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩ * وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ **ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾ أي له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته ، ويمتثلون أوامره على الدوام ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين** ﴾ أي لا تعبدوا إلهين فإن الإِله الحق لا يتعدد ﴿ **إنما هو إله واحد** ﴾ أي إلهكم واحد أحد فردٌ صمد ﴿ **فإياي فارهبون** ﴾ أي خافون دون سواي ﴿ **وله ما في السموات والأرض** ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿ **وله الدين واصباً** ﴾ أي له الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإِله الحق ، وله الطاعة خالصة ﴿ **أفغير الله تتقون** ﴾ الهمزة للإِنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره ، ولا نفع ولا ضر إلا بيده ؟ ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ أي ما تفضَّل عليكم أيها الناس من رزق ونعمةٍ وعافيةٍ ونصر فمن فضلِ الله وإحسانه ﴿ **ثم إذا مسَّكم الضُرُّ فإليه تجأرون** ﴾ أي ثم إذا أصابكم الضُّرُّ من فقرٍ ومرضٍ وبأساء فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ، والغرض أنكم تلجأون إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، ولا تتوجهون إلا إليه دون الشركاء ﴿ **ثم إذا كشف الضُرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون** ﴾ أي إذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإِشراك بالله قال القرطبي : ومعنى الكلام التعجيبُ من الإِشراك بعد النجاة من الهلاك[1] .

لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ

(١) القرطبي ١١٥/١٠ .

ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ أي ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ، وهو أمرٌ للتهديد والوعيد ﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم** ﴾ أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة[1] نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إليها ﴿ **تاللَّهِ لتُسْألنَّ عما كنتم تفترون** ﴾ أي والله أيها المشركون لتُسألنَّ عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله ، والمراد سؤال توبيخٍ وتقريع ﴿ **ويجعلون لِلَّهِ البنات** ﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿ **سبحانه** ﴾ أي تنزَّه الله وتعظَّم عن هذا الإفك والبهتان ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿ **وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى** ﴾ أي إذا أخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ **ظلَّ وجهه مسوداً** ﴾ أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال القرطبي : وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد ، والعربُ تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه[2] ﴿ **وهو كظيم** ﴾ أي مملوءٌ غيظاً وغماً ﴿ **يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به** ﴾ أي يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت ، كأنها بليَّة وليست هبةً إلهية ، ثم يفكر فيما يصنع ﴿ **أيمسكه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب** ﴾ أي أيمسك هذه الأنثى على ذلٍ وهوان أم يدفنها في التراب حية ؟ ﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ أي ساء صنيعهم وساء حكمهم ، حيث نسبوا لخالقهم البنات ـ وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة ـ وأضافوا البنين إليهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوء** ﴾ أي لهؤلاء الذين لم يصدّقوا بالآخرة ونسبوا لله

(١) وقيل المعنى يجعلون لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيباً مما أعطاهم الله . (٢) القرطبي ١٠/١١٦ .

البنات سفهاً وجهلاً ، صفةُ السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح ، فالنقص إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿ **ولِلَّهِ المثلُ الأعلى** ﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن ، والكمال المطلق ، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أي العزيزُ في ملكه ، الحكيمُ في تدبيره ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ﴿ **ولو يؤاخذُ اللَّهُ الناس بظلمهم** ﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿ **ما ترك عليها من دابة** ﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدب على ظهرها من إنسان وحيوان ﴿ **ولكنْ يؤخرهم إلى أجل مسمًّى** ﴾ أي ولكنْ يؤخرهم إلى وقت معيَّن تقتضيه الحكمة ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون** ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدَّد لهلاكهم لا يتأخرون برهةً يسيرةً من الزمن ولا يتقدمون عليها كقوله ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ ﴿ **ويجعلون لِلَّهِ ما يكرهون** ﴾ أي يجعلون له تعالى البنات مع كراهتهم لهنَّ ، وهو تأكيد لما سبق للتقريع والتوبيخ ﴿ **وَتَصِفُ ألسنتُهم الكذبَ أنَّ لهم الحُسْنى** ﴾ أي يجعلون لله ما يجعلون ومع ذلك يزعمون أنَّ لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم أهل الجنة ﴿ **لا جَرم أنَّ لهم النار** ﴾ أي حقاً إنَّ لهم مكان ما أملّوا نار جهنم التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿ **وأنهَّم مفرَطون** ﴾ أي معجَّلون إليها ومُقدَّمون[1] ، ثم ذكر تعالى نعمته في إرسال الرسل ليتأسى صلوات الله عليه بهم في الصبر على تحمل الأذى فقال ﴿ **تاللَّهِ لقد أرسلنا إلى أمم من قبلِك فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم** ﴾ أي والله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم فحسَّن الشيطان أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل وردّوا عليهم ما جاءوهم به من البينات ﴿ **فهو وليُّهم اليوم** ﴾ أي فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا وبئس الناصر ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم .

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيه** ﴾ أي ما أنزلنا عليك القرآن يا محمد إلالتبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام لتقوم الحجة عليهم ﴿ **وهدى ورحمةً**

---

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء ، وقال مجاهد : « مُفرطون » متركون منسيُّون في النار .

لقومٍ يؤمنون ﴾ أي وأنزلنا القرآن هدايةً للقلوب ، ورحمة وشفاءً لمن آمن به ، ثم ذكر تعالى عظيم قدرته الدالة على وحدانيته فقال ﴿ **والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ أي أنزل بقدرته الماء من السحاب فأحيا بذلك الماء النبات والزرع بعد جدب الأرض ويُبسها ﴿ **إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون** ﴾ أي إن في هذا الإحياء لدلالةً باهرة على عظيم قدرته لقوم يسمعون التذكير فيتدبرونه ويعقلونه ﴿ **وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة** ﴾ أي وإنَّ لكم أيها الناس في هذه الأنعام « الإبل والبقر والضأن والمعز » لعظةً وعبرة يعتبر بها العقلاء ، ففي خلقها وتسخيرها دلالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿ **نُسقيكم مِمَّا في بطونه** ﴾ أي نسقيكم من بعض الذي في بطون هذه الأنعام ﴿ **من بين فَرثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالصاً** ﴾ أي من بين الروث والدم ذلك الحليب الخالص واللبن النافع[1] ﴿ **سائغاً للشاربين** ﴾ أي سهل المرور في حلقهم ، لذيذاً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ **ومن ثمراتِ النخيل والأعنابِ تتخذون منه سكراً** ﴾ أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمراتِ النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمراً يسكر قال الطبري : وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حُرِّمتْ بعد[2] ﴿ **ورزقاً حسناً** ﴾ كالتمر والزبيب قال ابن عباس : الرزق الحسن : ما أحلَّ من ثمرتها ، والسَّكر : ما حُرِّم من ثمرتها . ﴿ **إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون** ﴾ أي لآيةٍ باهرة ، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقوم يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير : وناسب ذكرُ العقل هنا لأنه أشرفُ ما في الإنسان ، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها[3] .

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته ، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ ، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل ، وهي حشرةٌ ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة ، وكل هذا يدل

---

(١) قال الزمخشري : والآية بيانٌ للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلونٍ ، ولا طعم ، ولا رائحة ، فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . الكشاف ٢/٦١٥ . (٢) الطبري ١٤/١٣٤ . (٣) التفسير الكبير ٢٠/٧٢ .

على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ المراد من الوحي : الإلهامُ والهدايةُ أي ألهمها مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدّسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال ، والشجر ، والأكوار التي يبنيها الناس ﴿ **ثم كلي من كلّ الثمرات** ﴾ أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو ، والمر ، والحامض ، فإن الله بقدرته يحيله إلى عسل ﴿ **فاسلكي سبُلَ ربك ذُللاً** ﴾ أي أدخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرةً لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب ﴿ **يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس** ﴾ أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، فيه شفاءٌ للناس من كثيرٍ من الأمراض قال الرازي فإن قالوا : كيف يكون شفاءً للناس وهو يضر بالصفراء ؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل : إنه شفاءٌ لكل الناس ، ولكل داء ، وفي كل حال ، بل لمَّا كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنَّ فيه شفاء[1] ﴿ **إنَّ في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون** ﴾ أي لعبرة لقومٍ يتفكرون في عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم** ﴾ أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ﴿ **ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر** ﴾ أي يُردُّ إلى أردء وأضعف العمر وهو الهَرم والخرف ﴿ **لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئاً** ﴾ أي لينسى ما يعلم فيشبه الطفل في نقصان القوة والعقل ﴿ **إنَّ اللَّهَ عليم قديرٌ** ﴾ أي عليمٌ بتدبير خلقه ، قديرٌ على ما يريده ، فكما قدر على نقل الإنسان من الجهل إلى العلم ، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر[2] .

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾

﴿ **واللَّهُ فضَّل بعضكم على بعضٍ في الرزق** ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غنيٌّ وذاك فقير ، وهذا مالكٌ مملوك ﴿ **فما الذين فُضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكتْ أيمانهم فهم فيه سواء** ﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى

(١) المختصر ٢/٣٣٦ . (٢) زاد المسير ٤/٤٦٨ .

يستووا في ذلك مع عبيدهم ، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني[1] ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ الاستفهام للإنكار أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم ؟ ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً** ﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿ **وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدَة** ﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد ، سمّوا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿ **ورزقكم من الطَّيِّبات** ﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ أي أبعد تحقق ما ذُكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ وهو استفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ **ويعبدون من دون اللَّهِ ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً** ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال مطر ، ولا على إخراج زرعٍ أو شجر ، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً ﴿ **ولا يستطيعون** ﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت .

فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ أي لا تمثّلوا لله الأمثال ، ولا تشبّهوا له الأشباه ، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿ **إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي يعلم كل الحقائق ، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق ﴿ **ضرب اللَّهُ مثلاً عبداً** مملوكاً **لا يقدر على شيء ومَنْ رزقناه منا رزقاً حسناً** ﴾ هذا مثلُ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جلا وعلا أي مثلُ هؤلاء في إشراكهم مثلُ من سوَّى بين عبدٍ مملوكٍ عاجز عن التصرف ، وبين حرٍّ مالك يتصرف في أمره كيف يشاء ، مع أنهما سيّان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى ، فما الظنُّ بربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟ ﴿ **فهو يُنفق منه سراً وجهراً** ﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿ **هل يستوون** ﴾ ؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضُرب لهم

(١) المختصر ٢/٣٣٨ .

المثل ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له المُلك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء ، فكيف يُسوَّى بينه وبين الأصنام ؟ ﴿ **الحمد للّهِ بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أي شكراً لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة ، ولكنَّ المشركين بسفههم وجهلهم يسوّون بين الخالق والمخلوق ، والمالكِ والمملوك ﴿ **وضرب اللّهُ مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء** ﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإِله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد : هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن والحقّ تعالى[1] فالوثنُ أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجرٌ أو شجر ، ﴿ **وهو كلٌ على مولاه** ﴾ أي ثقيل عالة على وليّه أو سيده ﴿ **أينما يوجّهه لا يأت بخير** ﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس ، بليد ، ضعيف ﴿ **هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم** ﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس ، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان ، وهو على طريق الحق والاستقامة ، مستنيرٌ بنور القرآن ؟ وإذا كان العاقل لايسوّي بين هذين الرجلين ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر[2] ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ **ولِلَّهِ غيب السموات والأرض** ﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب ، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿ **وما أمرُ الساعةِ إلا كَلمح البصر أو هو أقرب** ﴾ أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين ، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال ﴿ **إنَّ اللّهَ على كل شيء قدير** ﴾ أي قادرٌ على كل الأشياء ومن جملتها القيامة التي يكذب بها الكافرون ﴿ **واللّهُ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لاتعرفون شيئاً أصلاً ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدةَ لعلكم تشكرون** ﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه ﴿ **ألمْ يروا إلى الطير مسخرات في جوِّ السماء** ﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى : ألم يشاهدوا الطيور مذلّلات

(١) الرازي ٢٠/٩٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٣٤٠ .

للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض ﴿ **ما يُمسكهنَّ إلا الله** ﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهنَّ وبسطها إلا هو سبحانه ﴿ **إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لآيات ظاهرة ، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدِّقون بما جاءت به رسل الله .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر لتسكنوا فيها أيام مقُامكم في أوطانكم ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً** ﴾ أي وجعل لكم بيوتاً أخرى وهي الخيام والقِباب المتخذة من الشعر والصوف والوبَر ﴿ **تستخفونها يوم ظَعْنِكم ويومَ إقامتكم** ﴾ أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم ، وهي خفيفةٌ عليكم في أوقات السفر والحضَر ﴿ **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً** ﴾أي وجعل لكم من صوف الغنم ، ووبر الإبل ، وشعر المعز ما تلبسون وتفرشون به بيوتكم ﴿ **ومتاعاً إلى حين** ﴾ أي تنتفعون وتتمتعون بها إلى حين الموت[1] ﴿ **واللَّهُ جعل لكم ممّا خلق ظلالاً** ﴾ أي جعل لكم من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حرَّ الشمس ﴿ **وجعل لكم من الجبال أكناناً** ﴾ أي وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال الرازي : لما كانت بلادُ العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة[2] ﴿ **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرَّ** ﴾ أي جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر والبرد ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم في الحرب ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم** ﴾ أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يُتم نعمة الدنيا والدين عليكم ﴿ **لعلكم تُسلمون** ﴾ أي لتخلصوا لله الربوبية ، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحدٌ سواه ﴿ **فإن توَلَّوا فإنما عليك البلاغ المبين** ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يؤ منوا بما جئتهم

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقال مقاتل : تنفعون بها إلى أن تبلى . (٢) التفسير الكبير ٢٠/٩٣ .

به يا محمد فلا ضرر عليك لأن وظيفتك التبليغ وقد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ﴿ **يعرفون نعمةَ الله ثم ينكرونها** ﴾ أي يعرف هؤلاء المشركون نِعَم الله التي أنعم بها عليهم ، ويعترفون بأنها من عند الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم وقال السُّدي : نعمةُ الله هي محمد ﷺ عرفوا نبوته ، ثم جحدوها وكذّبوه[١] ﴿ **وأكثرهُم الكافرون** ﴾ أي أكثرهم يموتون كفاراً وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام وأما أكثرهم فمصرّون على الكفر والضلال .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ **ويوم نبعث من كل أمةٍ شهيداً** ﴾ أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيَّها يشهد عليها بالإيمان والكفر ﴿ **ثم لا يُؤذن للذين كفروا** ﴾ أي لا يُؤذن للذين كفروا في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿ **ولا هم يُسْتعتبون** ﴾ أي لا يُطلب منهم أن يسترضوا ربَّهم بقول أو عمل ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب قال القرطبي : العُتبى هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة فاذا وجد عليه يقال : عَتَب ، وإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعتب[٢] ﴿ **وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخُفف عنهم** ﴾ أي وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يُفتَّر عنهم ساعة واحدة ﴿ **ولا هم يُنظرون** ﴾ أي لايؤخرون ولا يُمهلون ﴿ **وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم** ﴾ أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية ﴿ **قالوا ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك** ﴾ أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك قال البيضاوي : وهذا اعترافٌ بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب[٣] ﴿ **فألقوا إليهم القولَ إنكم لكاذبون** ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد ، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ﴿ **وألقوا إلى اللّهِ يومئذٍ السَّلمَ** ﴾ أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله .

(١) وهذا اختيار الطبري . (٢) القرطبي ١٠/١٦٣ . (٣) البيضاوي ٢٩٦ .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

ثم أخبر تعالى عن مآلهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿ **الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل اللَّهِ** ﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿ **زدناهم عذاباً فوق العذاب** ﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر ، لأنهم ارتكبوا جريمة صدّ الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿ **بما كانوا يُفْسِدُونَ** ﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿ **ويوم نبعث في كل أُمَّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم** ﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهوْله حين نبعث في كل أمةٍ نبيَّها ليشهد عليها ﴿ **وجئنا بك شهيداً على هؤلاء** ﴾ أي وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿ **ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ أي ونزَّلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة قال ابن مسعود : قد بُيّن لنا في هذا القرآن كلُّ علم ، وكلُ شيء[1] ﴿ **وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين** ﴾ أي هداية للقلوب ، ورحمة للعباد ، وبشارةً للمسلمين المهتدين ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس ، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿ **وَإيتَاءِ ذي القُربى** ﴾ أي مواساة الأقرباء ، وخصَّه بالذكر اهتماماً به ﴿ **وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قولٍ ، أو فعلٍ أو عَمَلٍ قال ابن مسعود : هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثل ، ولشر يُجتنب[2] والفحشاء كل ما تناهى قبحه كالزنى والشرك ، والمنكر كل ما تنكره الفطرة ، والبغي هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿ **يعظكم لعلكم تذكَّرون** ﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله .

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن

(١) المختصر ٢/٣٤٣ . (٢) القرطبي ١٠/١٦٥ .

تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ **وأوفوا بعهد اللَّهَ إذا عاهدتم** ﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾ أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ **وقد جعلتم اللَّهَ عليكم كفيلاً** ﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على تلك البيعة ﴿ **إنَّ اللَّهَ يعلم ما تفعلون** ﴾ أي عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضتْ غزْلها من بعد قوةٍ أنكاثاً** ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده[1] ، شبَّهت الآية الذي يحلف ويعاهد ويبُرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحلُه أنكاثاً أي أنقاضاً قال المفسرون : كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضة ، وكان الناس يقولون : ما أحمق هذه ! ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم** ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿ **أن تكون أمةٌ هي أربى من أمة** ﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزَّ ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك[2] ﴿ **إنما يبلوكم اللَّهُ به** ﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع من العاصي ﴿ **وَلَيُبيِّنن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ أي ليجازي كل عاملٍ بعمله من خير وشرّ ﴿ **ولو شاء اللَّهُ لجعلكم أمة واحدة** ﴾ أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، وجعلهم أهل ملةٍ واحدة ، لا يختلفون ولا يفترقون ﴿ **ولكنْ يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ أي ولكنْ اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم ، ناسُ للسعادة وناس للشقاوة ، فيضلُّ من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً ، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿ **ولتُسألنَّ عمَّا كنتم تعملون** ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتيل والقطمير .

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

(١) هذا قول مجاهد وقتادة . (٢) مختصر ابن كثير ١٠/ ١٧١ .

﴿ **ولاتتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم** ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية[1] ﴿ **فتزلَّ قدمٌ بعد ثبوتها** ﴾ أي فتزلَّ أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجة الحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير : هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة ، المشتملة على الصدّ عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوقٌ بالدين ، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام[2] ولهذا قال ﴿ **وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله** ﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدّكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿ **ولكم عذاب عظيم** ﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً** ﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني ﴿ **إنما عند الله هو خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة ، ثم علَّل ذلك بقوله ﴿ **ما عندكم يَنفد وما عند الله باقٍ** ﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فانٍ زائل ، وما عند الله فإنه باقٍ دائم ، لا انقطاع له ولا نَفاد ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿ **ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ أي ولنثيبنَّ الصابرين بأفضل الجزاء ، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات ، وهذا وعدٌ كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه ، وكل ذلك بفضل الله ﴿ **من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن** ﴾ أي من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى بشرط الإيمان ﴿ **فلنحيينَّه حياةً طيبة** ﴾ أي فلنحيينَّه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال ، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن : لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة[3] ﴿ **ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾ أي ولنجزينَّهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم ، وما أكرمه من جزاء ! .

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

(١) قال في الظلال : « واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوّه صورتها في ضمائر الآخرين ، فالذي يقسم وهو يعلم انه خادع في قسمه ، لايمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها ، وهو في الوقت نفسه يشوّه صورة العقيدة عند من يُقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدَّخل ، ومن ثمَّ يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضربه للمؤمنين بالله » . (٢) المختصر ٢/٣٤٥ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٢٧ . والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر .

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿ فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته ، كيلا يوسوس لك عند القراءة فيصدَّك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿ إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا ﴾ أي ليس له تسلطٌ وقدرة على المؤمنين بالإغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ أي إنما تسلُّطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبائحهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿ وإذا بدَّلنا آيةً مكان آيه ﴾ أي وإذا أنزلنا آيةً مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿ والله أعلم بما يُنزّل ﴾ جملةٌ اعتراضية سيقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم ، فإنَّ مثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة ﴿ قالوا إنما أنت مفتر ﴾ أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقوِّل كاذبٌ على الله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً قال ابن عباس : كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمرٍ ، وينهاهم غداً عنه ، وإنه لا يقول : ذلك إلا من عند نفسه فنزلت[1] ﴿ قل نزَّله رُوحُ القُدُس من ربك بالحق ﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما نزَّله جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل ﴿ ليثبِّت الذين آمنوا ﴾ أي ليثبّت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ أي وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى ، وفيه تعريضٌ بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ

(١) التفسير الكبير الرازي ٢٠/١١٦ .

ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾

﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ** ﴾ أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم « جبْر الرومي » وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿ **لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي** ﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علَّمه وينسبون إليه التعليم أعجميٌ ﴿ **وهذا لسانٌ عربيٌ مبين** ﴾ أي وهذا القرآن عربيٌ في غاية الفصاحة ، فكيف يمكن لمن لسانُه أعجمي أن يُعلم محمداً هذا الكتاب العربيَّ المبين ؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه !! ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بآياتِ الله لايهديهم اللَّهُ** ﴾ أي إن الذين لايُصدّقون بهذا القرآن لا يوفقهم الله لإصابة الحق ، ولايهديهم إلى طريق النجاة والسعادة ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي لهم في الآخرة عذابٌ موجع مؤلم ، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافترائهم ﴿ **إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه ، فالكذب جريمةٌ فاحشة لا يُقدم عليها مؤمن ، وهذا ردٌّ لقولهم ﴿ إنما أنتَ مفترٍ ﴾ ﴿ **وأولئك هم الكاذبون** ﴾ أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين ﴿ **من كفر باللَّهِ من بعد إيمانه** ﴾ أي من تلفَّظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه ﴿ **إلا منْ أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان** ﴾ أي إلا من تلفَّظ بكلمة الكفر مكرهاً والحال أن قلبه مملوءٌ إيماناً ويقيناً ، والآيةُ تغليظُ لجريمة المرتد لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة قال المفسرون : نزلت في عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مُكْرهاً فقال الناس : إنَّ عماراً كفر فقال رسول الله ﷺ : إنَّ عماراً ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئناً بالإيمان قال : إن عادوا فعُدْ[1] ﴿ **ولكنْ من شرَح بالكفر صدراً** ﴾ أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له ﴿ **فعليهم غضبٌ من اللَّهِ ولهم عذابٌ عظيم** ﴾ أي ولهم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم ، إذْ لا جرم أعظم من جرمهم .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٢١ .

طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

﴿ **ذلك بأنهم استحبوا الحياةَ الدنيا على الآخرة** ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة ﴿ **وأَنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ أي لا يوفقهم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال ﴿ **أولئك الذين طبع اللَّهُ على قلوبهم وسمعهم وأبصارِهم** ﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فجعل عليها غلافاً بحيث لا تُذعن للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿ **وأولئك هم الغافلون** ﴾ أي الكاملون في الغفلة إذْ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب ﴿ **لا جَرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون**﴾ أي حقاً ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيَّعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال المفسرون :[١] وصفهم تعالى بست صفات هي : الغضب من الله ، والعذاب العظيم ، واختيارهم الدنيا على الآخرة ، وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم ، وجعلهم من الغافلين ﴿ **ثم إنَّ ربَّك للذينَ هاجروا من بعد ما فُتنوا** ﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ **ثم جاهدوا وصبروا** ﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاقّ الجهاد ﴿ **إن ربك من بعدها لغفورٌ** رحيم ﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم ﴿ **يوم تأتي كلُّ نفسٍ تجادل عن نفسها** ﴾ أي ذكّرهم يوم القيامة حين تخاصم كلُّ نفسٍ عن ذاتها سعياً في خلاصها ، لايهمها شأنُ غيرها ﴿ **وتُوفّى كل نفسٍ ما عملت** ﴾ أي تُعطى جزاءَ ما عملت من غير بخْس ولا نقصان ﴿ **وهم لا يُظلمون** ﴾ أي لاينقصون أجورهم بل يُعطونها كاملةً وافية .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

﴿ **وضرب اللَّهُ مثلاً قرية** ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة وغيرهم ، بقومٍ أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فعصوا وتمردوا ، فبدَّل الله نعمتهم بنقمة ﴿ **كانت آمنةً مطمئنة** ﴾ أي كان أهلها

(١) حاشية الصاوي ٢/٣٢٩ .

في أمنٍ واستقرار ، وسعادة ونعيم ﴿ **يأتيها رزقها رغداً من كل مكان** ﴾ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعةٍ وكثرةٍ من كل الجهات ﴿ **فكفرت بأنعم اللّهِ** ﴾ أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير ، وما وهبهم من رزق ﴿ **فأذاقها اللّهُ لباسَ الجوع والخوف** ﴾ أي سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان ، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان ﴿ **بما كانوا يصنعون** ﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم ، قال الرازي : وهذا مثلٌ أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصْب ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به ، وبالغوا في إيذائه ، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام[1] ﴿ **ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه** ﴾ أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤمنوا برسالته ، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿ **فأخذهم العذابُ وهم ظالمون** ﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿ **فكلوا مِمَّا رزقكم اللّهُ حلالاً طيباً** ﴾ أي كلوا من نِعَم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿ **واشكروا نعمة اللّهِ إن كنتم إيّاه تعبدون** ﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه .

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿ **إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** ﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ **وما أُهل لغير اللّهِ به** ﴾ أي وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإنَّ فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿ **فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن اللّهَ غفور رحيم** ﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرَّم الله من المذكورات من غير بغيٍ ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً ، ثم وبّخ تعالى المشركين الذين حلّلوا وحرّموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿ **ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ** ﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٢٨ .

ألسنتكم من الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليلٍ ولا برهان ﴿ **لتفتروا على اللّهِ الكذب** ﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿ **إن الذين يفترون على اللّهِ الكذب لايفلحون** ﴾ أي إن الذين يختلقون الكذبَ على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ **متاعٌ قليلٌ ولهم عذاب أليم** ﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ، ثم ذكر تعالى ما حرَّم على اليهود فقال ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل** ﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبةً لهم وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر ﴿ **وما ظلمناهم ولكنْ كانوا أنفسهم يظْلمون** ﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكنْ ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك كقوله ﴿ فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلَّت لهم ﴾ .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ
ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ **ثم إنَّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة** ﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهلٍ وسفه ﴿ **ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل ﴿ **إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم** ﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة ، والآية تأنيسٌ لجميع الناس وفتحُ لباب التوبة ﴿ **إن إبراهيم كان أمةً** ﴾ أي إنَّ إبراهيم كان إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير ولذلك اختاره الله لخلته ﴿ **قانتاً للّهِ** ﴾ أي مطيعاً لربه قائماً بأمره ﴿ **حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، دين الإسلام ﴿ **ولم يك من المشركين** ﴾ تأكيد لما سبق وردٌّ على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿ **شاكراً لأنعمه** ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله ﴿ **اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ أي اختاره واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام وإلى عبادة الواحد الأحد ﴿ **وآتيناه في الدنيا حسنة** ﴾ أي جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا ﴿ **وإنه في الأخرة لمن الصالحين** ﴾ أي وهو في الأخرة من أمن صحاب الدرجات الرفيعة ، وفي أعلى مقامات الصالحين ﴿ **ثم أوحينا إليك**

أن اتَّبعْ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾(١) لما وصف تعالى إبراهيم بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه **محمد** ﷺ أن يتبَّع ملته والمعنى ثم أمرناك يا **محمد** باتباع دين إبراهيم وملته الحنيفية السمحة ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ أي وما كان يهودياً أو نصرانياً ، وإنما كان حنيفاً مسلماً ، وهو تأكيد آخر لردّ مزاعم اليهود والنصارى أنهم على دينه .

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ **إنما جُعل السبتُ على الذين اختلفوا فيه** ﴾ أي لم يكن تعظيم يوم السبت وتركُ العمل فيه من شريعة إبراهيم ولا من شعائر دينه ، وإنما جعل تغليظاً على اليهود لاختلافهم في الدين وعصيانهم أمر الله ، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا فمسخهم قردةً وخنازير ﴿ **وإنَّ ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أي وسيفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ، فيجازي كلاًّ بما يستحق من الثواب أو العقاب ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ أي أدع يا **محمد** الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم ، واللطف واللين ، **بما يؤثر** فيهم وينجع ، لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ أي وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين ، والرفق واللين ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ، فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم ، وليس عليك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ أي وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون : نزلت في شأن « حمزة بن

---

(١) قال المفسرون : العطف بثمَّ ﴿ **ثم أوحينا إليك** ﴾ فيه تعظيم منزلة الرسول ﷺ وإجلاله محله فكأنه بعد أن عدَّد مناقب الخليل عليه السلام قال : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً ، وأرفع رتبة ، وهو أن النبي ﷺ الأمي الذي هو سيد البشر متبعٌ لملة إبراهيم ، مستمسك بشريعته وكفى بذلك فخراً .

عبد المطلب » لما بقر المشركون بطنه يوم أُحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين منهم ﴿ **ولئنْ صبَرتُمْ لهو خيرٌ للصابرين** ﴾ أي ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا ندبٌ إلى الصبر ، وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿ **واصبر وما صبرك إلا باللَّهِ** ﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله ، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿ **ولا تحزنْ عليهم** ﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿ **ولاتكُ في ضيْقٍ مما يمكرون** ﴾ أي ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السَّفه والجهل ، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿ **إنَّ اللَّهَ مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون** ﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره ، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية ، ومن كان الله معه فلن يضرَّه كيد الكائدين .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل)

(١٧) سُورَةُ الإِسْرَاءِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بين يدي السورة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين « الوحدانية ، والرسالة ، والبعث » ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو « شخصية الرسول ﷺ » ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء ، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب .

* وتحدثت عن بني إسرائيل ، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدُنَّ في الأرض مرتين** . . ﴾ لآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية ، التي تدل على العظمة والوحدانية ، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار ، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل** . . ﴾ الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية ، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءاً من قوله تعالى ﴿ **وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلا إياه** . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد ، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات ، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير ، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً** . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت عن البعث والنشور ، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه ، ثم تحدثت عن القرآن العظيم ، معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم ، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجّر لهم الأنهار ، ويجعل مكة حدائق وبساتين ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . .** ﴾ الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبّره تكبيراً** ﴾ .

التسـمية : سميت السورة الكريمة « سورة الإسراء » لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم .

تفسير سورة الإسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً** ﴾ أي تنزّه وتقدّس عما لا يليق بجلاله ، الله العليُّ الشأن ، الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ في جزءٍ من الليل ﴿ **من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا** ﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون : وإنما قال ﴿ **ليلاً** ﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿ **سبحان** ﴾ الدال على كمال القدرة ، وبالغ الحكمة ، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين ، وكان الإسراء بالروح والجسد ، يقظة لا مناماً ﴿ **الذي باركنا حوله** ﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية ، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام ، وبكونه مقر الأنبياءومهبط الملائكة الأطهار

﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ أي لنريَ محمداً ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة ، ونطلعه على ملكوت السموات والأرض ، فقد رأى صلوات الله عليه السمواتِ العُلى والجنةَ والنار ، وسدرة المنتهى ، والملائكة والأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿ **إنه هو السميعُ البصير** ﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد ، البصير بأفعاله ، فلهذا خصَّه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاءً وتكريماً ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل** ﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿ **ألاّ تتخذوا من دوني وكيلاً** ﴾ أي لا تتخذوا لكم رباً تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون : لما ذُكر المسجدُ الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني أسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ **ذريةَ من حملنا مع نوح** ﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة ، لقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿ **إنه كان عبداً شكوراً** ﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به ، وفي النداء لهم تلطفٌ وتذكير بنعمة الله ﴿**وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب** ﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿ **لتُفْسدُنَّ في الأرض مرتين** ﴾ أي ليحصلنَّ منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين[1] قال ابن عباس : أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيىٰ عليهما السلام ﴿ **ولَتَعْلُنَّ علواً كبيراً** ﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلمِ والعداوان وانتهاك محارم الله .

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

﴿ **فإذا جاء وعد أُولاهما** ﴾ أي أُولى المرتين من الإفساد ﴿ **بعثنا عليكم عباداً لنا** ﴾ أي سلَّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿ **أولي بأسٍ شديدٍ** ﴾ أي أصحاب قوةٍ وبطش في الحرب شديد قال المفسرون : إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر والزام ، وإنما هو إخبارٌ من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبَّهْ .

سلَّط الله عليهم بختنصرَّ ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده ، وذلك أول الفسادين ﴿ **فجاسوا خلالَ الديار** ﴾أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد﴿ **وكان وعداً مفعولاً** ﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل ﴿ **ثم رددنا لكم الكَرَّة عليهم** ﴾ أي ثمَّ لما تبتم وأنبتم أهلكنا أعداءكم ورددنا لكم الدَّوْلةَ والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿ **وأمددناكم بأموالٍ وبنين** ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية الوفيرة ، بعد أن نُهبت أموالكم وسُبيت أولادكم ﴿**وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم** ﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لاينتفع الله منها بشيء ﴿ **وإن أسأتم فلها** ﴾ أي وإن أسأتم فعليها لايتضرر الله بشيء منها ، فهو الغني عن العباد ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ **فإذا جاء وعدُ الآخرة** ﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة ثانية ﴿ **ليسوءوا وجوهكم** ﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة باديةً على وجوهكم بالإذلال والقهر ﴿ **وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة** ﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة ﴿ **وليتبِّروا ما عَلَوْا تتبيراً** ﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً ، فقد سلّط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمَّروا مملكتهم تدميراً ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ أي لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم إن تبتم وأنبتم ، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله و﴿ **عسى** ﴾ من الله واجبه ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة والانتقام[1] ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً** ﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين ، لا يقدرون على الخروج منها أبَدَ الآبدين .

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

(١) قال في الظلال : « ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلَّط الله عليهم عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط الله عليهم « هتلر » ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » وليسلطنَّ الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنَّته التي لا تتخلف ، وإنَّ غداً لناظره قريب » .

عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

ثم بيَّن تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ أي إنَّ هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السُّبُل ، ولما هو أعدل وأصوب ﴿ **ويُبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً** ﴾ أي ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿ **وأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾أي ويبشرهم بأن لأعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب ﴿ **وَيَدْعُ الإنسان بالشرِّ دعاءه بالخير** ﴾ أي يدعو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير ، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لايحبُّ أن يستجاب له : اللهّم أهلكه اللهمَّ دمره ونحوه[1] ﴿ **وكان الإنسان عجولاً** ﴾ أي ومن طبيعة الإنسان العجلة ، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر بباله ، دون النظر في عاقبته ، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، التي كلٌّ منها برهانٌ نيِّر على وحدانية الله فقال ﴿ **وجعلنا الليلَ والنهار آيتين** ﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿ **فمحونا آية الليل** ﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿ **وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار ﴿ **لتبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معايشكم ﴿ **ولتعلموا عدد السنينَ والحساب** ﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام ، بتعاقب الليل والنهار ، فالليل للراحة والسكون ، والنهار للكسب والسعي ﴿ **وكلَّ شيءٍ فصَّلناه تفصيلاً** ﴾ أي وكلَّ أمرٍ من أمور الدنيا والدين ، بيَّناه أحسن تبيين ، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجُزاف ، وإنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ حكيم .

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

(١) القرطبي ١٠/٢٢٥ .

﴿ **وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه** ﴾ أي أن الإنسان مرهون بعمله مجزي به ، وعملُه ملازم له لزوم القلادة للعُنُق لا ينفك عنه أبداً ﴿ **ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** ﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿ **اقرأْ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً** ﴾ أي إقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت ، لاتحتاج إلى شاهد أو حسيب ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها** ﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿ **ولا تزر وازرةٌ وِزْر أخرى** ﴾ أي لايحمل أحد ذنب أحد ، ولايجني جانٍ إلا على نفسه ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين فتقوم عليهم الحجة ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها** ﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعِّمين فيها والقادة والرؤ ساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿ **فحقَّ عليها القول فدمَّرناها تدميراً** ﴾ أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكاً مُريعاً قال ابن عباس : ﴿ **أمرنا مترفيها ففسقوا فيها** ﴾ أي سلَّطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب[1] ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير : والآية إنذار لكفار قريش والمعنى إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى[2] ﴿ **وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً** ﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويجازي عليها .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ
أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ
عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى ليس له همٌّ إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها لا كلَّ

(١) المختصر ٢/٣٧١ . (٢) المختصر ٢/٣٧١ .

ما يريد ﴿ **ثم جعلنا له جهنَّم يصلاها مذموماً مدحوراً** ﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن** ﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿ **فأولئك كان سعيُهم مشكوراً** ﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص ، والعمل الصالح ، والإيمان . كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول ، مثاباً عليه ﴿ **كلاً نُمِدُّ هؤلاَءِ وهؤلاء من عطاء ربك** ﴾ أي أي كل واحدٍ من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نعطيه من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً ، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿ **وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ أي ما كان عطاؤه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد ﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ أي أنظر يا محمد كيف فاوتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير ، وهذا شريف وذاك حقير ﴿ **وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً** ﴾ أي ولتفاوتُهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لاعينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ **لا تجعل مع الله إلَهاً آخر** ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولاتتخذ غيره إلهاً تعبده ﴿ **فتقعد مذموماً مخذولاً** ﴾ أي فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين .

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾

﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلاّ إيَّاه** ﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلَهاً غيره وقال مجاهد : ﴿ **وقضى** ﴾ يعني وصَّىٰ بعبادته وتوحيده ﴿ **وبالوالدين إحساناً** ﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون : قرن تعالى بعبادته برَّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه ، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿ **إمّا يبلغنَّ عندكَ الكبرَ أحدهما أو كلاهما** ﴾ أي قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما ، وإنما خصَّ حالة الكبِرَ لأنهما حينئذ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما ومعنى ﴿ **عندك** ﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿ **فلا تقل لهما أفٍّ** ﴾

أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمة أفٍّ ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ أي لاتزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿ **وقلْ لهما قولاً كريماً** ﴾ أي قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدبٍ ووقار وتعظيم ﴿ **واخفِضْ لهما جناح الذُلّ من الرحمة** ﴾ أي ألنْ جانبك وتواضعْ لهما بتذلّلٍ وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما ﴿ **وقلْ ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً** ﴾ أي أدع لهما بالرحمة وقل في دعائك يارب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إليَّ في تربيتهما حالة الصغر ﴿ **ربُّكم أعلم بما نفوسكم** ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق ﴿ **إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبِرّ والصلاح دون العقوق والفساد فإنه جلَّ وعلا يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال الرازي : والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلَّت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخلُّ بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلَّة البشرية كانت في محل الغفران[١] ، وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين ﴿ **وآتِ ذا القربى حقَّه** ﴾ أي أعط كلَّ من له قرابة بك حقَّه من البر والإحسان ﴿ **والمسكينَ وابن السبيل** ﴾ أي وأعط المسكين المحتاج والغريبَ المنقطع في سفره حقَّه أيضاً ﴿ **ولا تبذّر تبذيراً** ﴾ أي لا تنفق مالكَ في غير طاعة الله فتكون مبذّراً ، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كلَّه في الحق لم يكن مبذّراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق كان مبذّراً وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد[٢] .

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

﴿ **إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ هذا تعليل للنهي وهو غاية في الذم والتقبيح أي إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد ، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في

(١) التفسير الكبير ١٩٢/٢٠ . (٢) المختصر ٣٧٥/٢ .

الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿ **وكان الشيطانُ لربه كفوراً** ﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حقَّ النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقّها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿ **وإمَّا تُعْرِضنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً** ﴾أي إن أعرضتَ عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعِدْهم وعداً جميلاً ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك** ﴾ تمثيلٌ للبخل أي لا تكنْ بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإِنفاق وشدتَّ إلى عنقه ﴿ **ولا تبسطها كلَّ البسط** ﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإِنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء ، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿ **فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ أي فتصير مذموماً من الخَلْق والخالق ، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي يوسعّ الرزق على من يشاء ويضيِّق على من يشاء ، وهو القابض ، الباسط المتصرف في خلقه ، بما يشاء حسب الحكمة ﴿ **إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد ، والتفاوتُ في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ أي لا تُقدموا على قتل أولادكم مخافة الفقر ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ أي رزقُهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافون الفقر بسببهم ﴿ **إنَّ قتلهم كان خِطْأً كبيراً** ﴾ أي قتلُهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يئدون البنات مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم .

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

﴿ **ولاتقربوا الزنى** ﴾ أي لاتدنوا من الزنى وهو أبلغ من « لا تزنوا » لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللَّمس ، والقُبلة ، والنظرة ، والغمز وغير ذلك مما يجرُّ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل ﴿ **إنه كان فاحشة** ﴾ أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح ﴿ **وساء سبيلاً** ﴾ أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا**

الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿ **وكان الشيطانُ لربه كفوراً** ﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حقَّ النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقُّها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿ **وإمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً** ﴾أي إن أعرضتَ عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعِدْهم وعداً جميلاً ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك** ﴾ تمثيلٌ للبخل أي لا تكنْ بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإنفاق وشدتَّ إلى عنقه ﴿ **ولا تبسطها كلَّ البسط** ﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء ، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿ **فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ أي فتصير مذموماً من الخَلْق والخالق ، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي يوسعّ الرزق على من يشاء ويضيِّق على من يشاء ، وهو القابض ، الباسط المتصرف في خلقه ، بما يشاء حسب الحكمة ﴿ **إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد ، والتفاوتُ في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ أي لا تُقدموا على قتل أولادكم مخافة الفقر ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ أي رزقُهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافون الفقر بسببهم ﴿ **إنَّ قتلهم كان خِطْأً كبيراً** ﴾ أي قتلُهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يئدون البنات مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم .

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

﴿ **ولاتقربوا الزنى** ﴾ أي لاتدنوا من الزنى وهو أبلغ من « لا تزنوا » لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللَّمس ، والقُبلة ، والنظرة ، والغمز وغير ذلك مما يجرُّ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل ﴿ **إنه كان فاحشة** ﴾ أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح ﴿ **وساء سبيلاً** ﴾ أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا**

بالحقّ ﴾ أي لاتقتلوا نفساً حرَّم الله قتلها بغير حق شرعي موجب للقتل كالمرتد ، والقاتل عمداً ، والزاني المحصن ﴿ **ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً** ﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍ يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه ، أو أخذ الدية ، أو العفو ﴿ **فلا يسرفْ في القتل إنه كان منصوراً** ﴾ أي فلا يتجاوز الحدَّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يُمثّل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون ، فحسبُه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾ أي لاتتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره ﴿ **حتى يبلغ أَشُدَّهُ** ﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾ أي وفّوا بالعهود سواءً كانت مع الله أو مع الناس لأنكم تُسألون عنها يوم القيامة ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم** ﴾ أي أتموا الكيل إذا كلتم لغيركم من غير تطفيفٍ ولا بَخْس ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ أي زنوا بالميزان العدل السويّ بلا احتيال ولا خديعة ﴿ **ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً** ﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم** ﴾ أي لا تتَّبعْ ما لا تعلم ولا يَعنيك بل تثبَّتْ من كل خبر ، قال قتادة : لا تقل رأيتُ ولم تر ، وسمعتُ ولم تسمع ، وعلمتُ ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله[1] ﴿ **إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ﴿ **ولا تمش في الأرض مَرَحاً** ﴾ أي لا تمش في الأرض مختالاً مشية المعجب المتكبر ﴿ **إنك لن تَخْرق الأرضَ ولن تبلغ الجبال طولاً** ﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر ؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً ؟ وكيف تتطاول وتتعظَّمْ على الجبال ولن تبلغها طولاً ؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحدٍ من الجمادين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال ؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿ **كلّ**

(١) المختصر ٢/٣٧٧ .

ذلك كان سَيِّئُهُ عند ربّكَ مكروها ﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرماً عند الله تعالى ﴿ **ذلك مّما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾ أي ذلك الذي تقدم من الاداب والقصص والأحكام بعضُ الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة ، والحِكَم الفريدة ﴿ **ولا تجعلْ مع اللَّهِ إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثن أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق مطروداً مبعداً من كل خير قال الصاوي : ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارةً إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها ، وهو رأس الأشياء وأساسُها ، والأعمالُ بدونه باطلةٌ لاتفيد شيئاً[1] .

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟** ﴾ خطابٌ على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكور واختار لنفسه ـ على زعمكم ـ البنات ؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى ! ﴿ **إنكم لتقولون قولاً عظيماً** ﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون ﴿ **ولقد صرَّفْنا في هذا القرآن ليذَّكروا** ﴾ أي ولقد بينّا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ ، والوعد والوعيد ، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيِّرة والبراهين الساطعة ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿ **وما يزيدهم إلا نفوراً** ﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق ، وغفلةً عن النظر والاعتبار ﴿ **قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العَرْش سبيلاً** ﴾ أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[2] ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً** ﴾ أي تنزَّه تعالى وتقدَّس عما يقول

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٥٠ . (٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة والوجه الآخر أن المعنى : لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه ، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير ، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها ﴿ **سبحانه** ﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم .

أولئك الظالمون ، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً ، فإن مثل هذه الفرية مما يتنزّه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب : وذكر العلوِّ بعد عنوانه بـ ﴿ ذي العرش ﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿ تسبّح له السموات السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهن ﴾ أي تسبح له الكائنات ، وتنزهه وتقدسه الأرض والسموات ، ومن فيهن من المخلوقات ﴿ وإنْ من شيءٍ إلا يسبح بحمده ﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جلَّ وعلا[١] ، السمواتُ تسبّح الله في زرقتها ، والحقولُ في خضرتها ، والبساتينُ في نضرتها ، والأشجار في حفيفها ، والمياهُ في خريرها ، والطيورُ في تغريدها ، والشمسُ في شروقها وغروبها ، والسحبُ في إمطارها ، والكل شاهد بالوحدانية لله .

وفـي كـل شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلى أنـه واحـدُ

﴿ ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي ولكنْ لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ أي إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، غفورٌ لمن تاب وأناب ، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيزٍ مقتدر .

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿ وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينكَ وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره وحِكمه ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه ﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ﴿ وَفي آذانِهمْ وَقراً ﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿ وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآنِ وحده ولَّوْا على أدْبارهم نفوراً ﴾ أي وإذا وحَّدت الله وأنت تتلو القرآن فرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿ نحن

(١) قال في الظلال : « وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كلَّ حصاةٍ وكلَّ حجر ، كلَّ حبةٍ وكل ورقة ، كلَّ زهرة وكل ثمرة ، كل نبتةٍ وكل شجرةٍ ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض ، وكل سابحة في الماء والهواء ومعها سكان السماء ، كلُّها تسبّح الله وتتوجه إليه في علاه ، وحين تشف الروح وتصفو تدرك من أسرار هذا الوجود ما لايدركه الغافلون » . الظلال ١٥/٣٩ .

أعلم بما يستمعون به ﴾ أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون : كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مظهرين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء فنزلت الآية تسلية للرسول ﷺ وتهديداً للمشركين ﴿ **إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى** ﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم يتناجون ويتحدثون بينهم سراً ﴿ **إذ يقول الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً** ﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً سُحر فجُنَّ فاختلط كلامه ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا** ﴾ أي انظر يا محمد وتعجَّبْ كيف يقولون تارة عنك إنك ساحر ، وتارة إنك شاعر ، وتارة إنك مجنون ! وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿ **فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ أي لايجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاماً ورُفاتاً** ﴾ استفهام تعجب وإنكار أي قال المشركون المكذبون بالبعث أئذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتته كالتراب ﴿ **أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً** ﴾ أي هل سنُبعث ونُخْلق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى ؟ ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً** ﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارةً أو حديداً لقدر الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء ، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فيكف لايقدر على إعادتكم إذا كنتم عظاماً ورفاتاً ؟ ﴿ **أو خَلْقاً مما يكبُر في صدوركم** ﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصوُّرُ الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون ﴿ **فسيقولون من يعيدنا** ﴾ ؟ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا ﴿ **قل الذي فطركم أولَ مرة** ﴾ أي قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة ﴿ **فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو** ﴾ ؟ أي يحركون رءوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون استنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث والإعادة ؟ ﴿ **قل عسى أن يكون قريباً** ﴾ أي لعله

يكون قريباً فإن كلَّ ما هو آتٍ قريب ﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً** ﴾أي سيكون بعثكم يوم الحشر الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتجيبون لأمره ، وتظنون لهوْل ما ترون أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً ﴿ **وقلْ لعبادي يقولوا التي هي أحسن** ﴾ أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿ **إن الشيطان ينزَغ بينهم** ﴾ أي إن الشيطان يُفسد ويُهيج بين الناس الشرَّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُفلت بها اللسان ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً** ﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقَطَات لسانه ليُحْدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه .

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

﴿ **ربكُمْ أَعْلمُ بكم إنْ يَشَأْ يرحَمْكُم أو إنْ يَشَأْ يعذبْكم** ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان ، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿ **وما أرسلناك عليهم وكيلاً** ﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتقسرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار ﴿ **وربك أعلمُ بمن في السموات والأرض** ﴾ إنتقالٌ من الخصوص إلى العموم أي ربك جلَّ وعلا أعلمُ بعباده بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه ، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء ، والآية ردٌّ على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا : كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً ؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ؟ ﴿ **ولقد فضَّلْنا بعض النبيين على بعض** ﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة ، فاصطفينا إبراهيم بالخُلَّة ، وموسى بالتكليم ، وسليمان بالمُلْك العظيم ، ومحمداً بالإسراء والمعراج وجعلناه سيّد الأولين والآخرين ، وكلُّ ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيءٌ إلا عن حكمته ﴿ **وآتينا داود زبوراً** ﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمةِ وفصلِ الخطاب ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه** ﴾

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أدعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعُزيراً فقد كانوا يقولون إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿ **فلايملكون كشفَ الضر عنكم ولا تحويلاً** ﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب** ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله ، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ، فكيف تعبدونهم معه ؟ ﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿ **إنَّ عذابَ ربك كان محذوراً** ﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله .

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

﴿ **وإنْ من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً** ﴾ أي ما من قريةٍ من القرى الكافرة التى عصتْ أمر الله وكذَّبتْ رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطوراً** ﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لايتغيَّر ﴿ **وما منعَنا أنْ نُرسلَ بالآياتِ إلا أنْ كذَّب بها الأولون** ﴾ قال المفسرون : اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزات عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال ، وقد اقتضت حكمته تعالى إمهالهم لأنه علم أنَّ منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا أو المعنى ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلاّ تكذيبُ مَنْ سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿ **وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فظلموا بها** ﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آيةً بينة ومعجزة ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿ **وما نُرسل بالآياتِ إلا تخويفاً** ﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعد والخسوف والكسوف إلا

تخويفاً للعباد من المعاصي قال قتادة : إن الله تعالى يخوّف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويرجعون[١] ﴿ **وإذ قلنا لك إنَّ ربك أحاط بالناس** ﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علماً في الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جئتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس** ﴾ أي وما جعلنا الرؤية التي أريناكها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤ يا عينٍ أُرِيها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به وليست برؤ يا منام[٢] ﴿ **والشجرةَ الملعونةَ في القرآن** ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فتنةً أيضاً للناس قال ابن كثير : لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهكماً : هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقّموا فلا نعلم الزقوم غير هذا[٣] ﴿ **ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً** ﴾ أي ونخوّف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغياً واستمراراً على الكفر والضلال ، فماذا تنفع معهم الخوارق ؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج ، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاء وإمعاناً في الضلال .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس** ﴾ أي أذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿ **قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً** ﴾ استفهامٌ إنكاري أي أأسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقته من الطين ؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني ؟ ﴿ **قال أرأيتك هذا الذي كرَّمتَ عليَّ** ﴾ أي قال إبليس اللعين جراءة على الربّ وكفراً به : أترى هذا المخلوق

(١) الطبري ١٥/١٠٩ . (٢) الطبري ١٥/١١٠ . (٣) المختصر ٢/٣٨٦ .

الذي فضلته عليَّ وجعلتَه أكرَم مني عندك ؟ ﴿ **لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً** ﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلنَّ ذريته بالاغواء والإضلال قال الطبري : أقسم عدوُّ الله فقال لربه : لئن أخرتَ إهلاكي إلى يوم القيامة لأستأصلنَّهم ولأستميلنَّهم وأضلنَّهم إلا قليلاً منهم [1] ﴿ **قال اذهبْ فمنْ تَبِعكَ منهم فإن جنهم جزاؤُكم جزاءً موفوراً** ﴾ أي قال الرب جلَّ وعلا : إذهب فقد أنظرتُك وابذل جهدك فيهم فمن أطاعك من ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم نارُ جهنم جزاء كاملاً وافراً لا ينقص لكم منه شيء قال القرطبي : والأمر في ﴿ **اذهبْ** ﴾ أمرُ إهانة والمعنى اجهد جهدك فقد أنظرناك[2] ﴿ **واستَفْزِزْ من استطعتَ منهم بصوتِكَ** ﴾ أي استخفف واستجهل وحرِّكْ من أردتَ أن تستفزَّه فتخدعه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس : صوته كلُّ داعٍ يدعوا إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد : صوته الغناء والمزامير واللهو[3] ﴿ **وأَجْلِبْ عليهمْ بخَيلِكَ وَرَجِلِكَ** ﴾ أي صِحْ عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجل قال الطبري : المعنى أجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك ، والصرفِ عن طاعتي قال ابن عباس : خيلُه ورَجِله كلُّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى [4] وقال الزمخشري : الكلام واردٌ مورد التمثيل ، مُثِّلَتْ حالُه في تسلطه على من يُغويه بفارسٍ مغوار أوقع على قومٍ فصوَّت بهم صوتاً يستفزهم عن أماكنهم ، ويُقلقهم عن مراكزهم ، وأجلبَ عليهم بجنده من خيَّالة ورجَّالة حتى استأصلهم [5] ﴿ **وشاركْهُمْ في الأموالِ والأولاد** ﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم ، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي ، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿ **وَعِدْهُمْ وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غروراً** ﴾ أي عدْهم بالوعود المغرية الخادعة والأماني الكاذبة ، كالوعد بشفاعة الأصنام ، والوعد بالغِنى من المال الحرام ، والوعد بالعفو والمغفرة وسَعَة رحمة الله ، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر :

خذوا بنصيبٍ من سرورٍ ولـذةٍ ... فكلٌ وإن طـال المدى يتصـرَّم

(١) الطبري ١٥/١١٦ والمراد بالقليل : المخلصون الذين عصمهم الله . (٢) القرطبي ١٠/٢٨٨ . (٣) القرطبي ١٠/٢٨٨ .
(٤) الطبري ١٥/١١٨ . (٥) الكشاف ٢/٦٧٨ . ويقول سيد قطب في الظلال : » إنه تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهي المعركة الصاخبة تُستخدم فيها الأصوات والخيل والرجال على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوتُ فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدّبرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال « الظلال ١٥/٥١ .

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ أي إنَّ عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلطٌ بالإِغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿ **وكفى بربك وكيلاً** ﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك ، ثم ذكّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووحدانيته فقال ﴿ **ربكم الذي يُزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله** ﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يُسيّر لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراتكم ﴿ **إنه كان بكم رحيماً** ﴾ أي تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهَّل لهم أسباب ذلك ﴿ **وإذا مسَّكم الضُرُّ في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه** ﴾ أي وإذا أصابتكم الشدة والكرب في البحر وخشيتم من الغَرَق ذهب عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم ، فالإِنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن ، والمَلك والفَلَك وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿ **فلما نجّاكم إلى البرِّ أعرضتم** ﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البَرِّ أعرضتم عن الإِيمان والإِخلاص ﴿ **وكان الإِنسان كفوراً** ﴾ أي ومن طبيعة الإِنسان جحود نعم الرحمن ، ثم خوَّفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرِّ** ﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها ؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزال أو رجفةٍ أو بركان ؟ ﴿ **أو يرسل عليكم حاصباً** ﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ **ثم لاتجدوا لكم وكيلاً** ﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى .

أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ أي يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿ فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مُدمرة ، لا تَمرُّ بشيءٍ إلا كسرته ودمَّرته ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل ، والعلم ، والنطق ، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿ وحملناهم في البرّ والبحر ﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿ وفضلناهم على كثيرٍ ممَّنْ خلقنا تفضيلاً ﴾ أي وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿ يوم ندعو كلَّ أُناس بإمامهم ﴾ أي اذكر يوم الحشر حين نادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلَّم له وينال جزاءه ، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقوّيه ﴿ وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمام مبين ﴾ قال ابن عباس : الإمام ما عُمل وأُملي فكتب عليه ، فمن بُعث متقياً لله جُعل كتابُه بيمينه فقرأه واستبشر[1] ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ أي فمن أعطي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنُّهى المتقون لله ﴿ فأولئك يقرءون كتابهم ﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب ، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿ فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾ أي فهو في الآخرة أشدُّ عمىً وأشدُّ ضلالاً[2] عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة : من كان في هذه الدنيا أعمى عمَّا عايَنَ من نعم الله وخلقه وعجائبه ، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضلُّ طريقاً .

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

---

(١) الطبري ١٥/١٢٦ وهذا ما رجحه ابن كثير وقيل : إمام هدى أو إمام ضلالة وقيل : نبيهم .

(٢) هذا كله من عمى القلب وقيل المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبكمًا وصُمًا . . ﴾ الآية .

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿ لتفتري علينا غيره ﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه ﴿ وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون : حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم ، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرَّمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء ، فعصمه الله من شرهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره[1] ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ أي لولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك ﴿ لقد كدتَ تركَنُ إليهم شيئاً قليلاً ﴾ أي كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعفَ المماتِ ﴾ أي لو ركَنْتَ إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذابَ الآخرة ، لأن الذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب ، والغرضُ من الآية بيانُ فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلَّى عن عصمتِه لمالَ إليهم بعض الشيء و ﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، فليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿ ثم لاتجد لك علينا نصيراً ﴾ أي لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ أي وإن كاد المشركود بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿ وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم قال قتادة : همَّ أهلُ مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكنَّ الله تعالى منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج[2] ﴿ سُنَّة من قد أرسلنا قبلَكَ من رسلِنَا ﴾ أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كلِ أمةٍ أخرجتْ رسولها من بين أظهرهم ﴿ ولاتجدُ لسنَّتِنَا تحويلاً ﴾ أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً .

أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى

---

(١) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكنْ هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه . القرطبي ١٠/٣٠٠ (٢) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣

مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

﴿ **أقم الصلاةَ لدلوك الشمس إلى غَسَقِ الليل** ﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ أي وأقم صلاة الفجر ، وإنما عبَّر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿ **إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر ، وصلاة الفجر . .) الحديث ، قال المفسرون : في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فدلوكُ الشمس زوالهُا وهو إشارة إلى الظهر والعصر ، وغَسَقُ الليل ظلمتُه وهو إشارة إلى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر صلاة الفجر ، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس[1] ﴿ **ومن الليل فتهجَّدْ به نَافِلةً لَكَ** ﴾ أي وقم من الليل بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ أي لعلَّ ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو **مقام** « الشفاعة العظمى » قال المفسرون : ﴿ **عسى** ﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس : عسى من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿ **وقل ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صدقٍ** ﴾ أي قل يارب أدخلني قبري مُدْخل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿ **وأخرجني مُخْرج صدق** ﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس ، وقال الحسن والضحاك : المراد دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه[2] ﴿ **واجعلْ لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً ومَنَعة تنصرني بها على أعدائك وتُعزُّ بها دينك ، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء ، وأعلا دينه على سائر الأديان ﴿ **وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطل** ﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام ، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادةُ الأصنام ، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان ﴿ **إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى ، وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تخبو سريعاً ، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً

(١) قال القرطبي : وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين .

(٢) اختار هذا القول الطبري وهو المشهور ، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان .

فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت[1] ﴿ **وننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين** ﴾ أي وننزّل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال ، ويُذهب صدأ النفس من الهوى والدَّنس ، والشُّح والحسد ، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان والحكمة والخير المبين ﴿ **ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** ﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه** ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحةٍ ، وأمنٍ ، وغنىً أعرض عن طاعة الله وعبادته ، وابتعد عن ربه غروراً وكِبْراً ﴿ **وإذا مسَّه الشر كان يئوساً** ﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله ، والآية تمثيلٌ لطغيان الإنسان فإن أصابته بطر وتكبَّر ، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿ إن الإنسان خُلق هَلُوعاً ، إذا مسَّه الشرُ جزوعاً ، وإذا مسَّه الخير منوعاً ﴾ ﴿ **قل كلٌّ يعمل على شاكلته** ﴾ أي كل واحدٍ يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال ، فإن كانت نفس الإنسان مشرقةً صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة ، وإن كانت نفسه فاجرةً كافرة صدرت عنه أفعال سيئةٌ شرّيرة ﴿ **فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً** ﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضلَّ عنه وسيجزي كل عاملٍ بعمله ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي ؟ وما حقيقتها ؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا ربُّ البرية ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿ **ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك** ﴾ أي لو أردنا لمحونا هذا القرآن الذي هو مِنَّةُ الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ **ثم لاتجد لك به علينا وكيلاً** ﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده ، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿ **إلا رحمةً من ربك** ﴾ أي لكنْ رحمةً من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدر

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣ وأصل الحديث أخرجه البخاري .

أصحابك ﴿ إنَّ فضله كان عليك كبيراً ﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن ، وأعطاك المقام المحمود ، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ، والمقصود بالآية الأمتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه ، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته .

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾

﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعاً فإن هذا أمر لا يستطاع وليس بمقدور أحد ﴿ **ولقد صرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أي بيَّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحقَّ بالآيات والعِبَر ، والترغيب والترهيب ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وتكذيباً لله ورسوله ﴿ **وقالوا لن نُؤْمن لكَ حتى تَفْجُر لنا من الأرض يَنْبوعاً** ﴾ لما تبيّن إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلَّلون باقتراح الآيات والخوارق والمعنى قال المشركون لن نصدِّقك يا محمد حتى تشقّق لنا من أرضِ مكة عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء ﴿ **أو تكونَ لك جنةٌ من نخيلٍ وعِنَبٍ** ﴾ أي يكون لك بستانٌ فيه أنواع النخيل والأعناب ﴿ **فتفجِّر الأنهارَ خِلاَلَها تفجيراً** ﴾ أي تجعل الأنهار تتفجرّ فيها وتسير وسطها بقوةٍ وغزارة ﴿ **أو تُسقِط السماءَ كما زعمت علينا كسفاً** ﴾ هذا هو الاقترح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قِطَعاًقِطَعاً كما كنتَ تخوِّفنا وتزعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون : أشاروا إلى قوله تعالى ﴿ إنْ نشَأْ نخسفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء ﴾ ﴿ **أو تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً** ﴾ أي تُحضر لنا الله وملائكته مقابلةً وعياناً فنراهم .

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا

رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

﴿ **أو يكون لك بيتٌ من زخرف** ﴾ أي يكون لك قصرٌ مشيَّد عظيم من ذهب لا من حجر أو طين ﴿ **أو تَرْقى في السماءِ ولن نؤمن لرقيِّك حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نَقْرؤُه** ﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير ، وكلُّها تدل على سفهٍ وجهلٍ كبير ، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أو تصعد يا محمد إلى السماء بسُلَّم ولن نصدّقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسولُه نقرؤه بأنفسنا ﴿ **قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً** ﴾ أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم : سبحانَ الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات ؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد ؟! ﴿ **وما مَنَعَ الناسَ أَنْ يُؤْمنوا إذ جَاءهم الهُدَى إلا أَنْ قالوا أَبعَثَ اللَّهُ بَشراً رسولاً** ﴾ ؟ أي إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر ، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً ؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين** ﴾ أي قل لهم يا محمد : لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها ﴿ **لنزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً** ﴾ أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكنَّ أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسهم ، إذْ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قومٍ رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته ، وهذا تسفيهٌ وتجهيل لمنطق المشركين ﴿ **قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾ أي كفى الله شاهداً على صدقي ﴿ **إنه كان بعبادِهِ خبيراً بصيراً** ﴾ أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

﴿ **ومن يهدِ اللَّهُ فهو المُهْتَد** ﴾ أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد ﴿ **ومن يُضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه** ﴾ أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً

يعصمونهم من عذاب الله ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم** ﴾ أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرُّهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ﴿ **عمياً وبُكمًا وصُمًا** ﴾ أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبكمًا وصمًا يعني فاقدي الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يردُّ الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم ، عن أنس قيل يارسول الله : كيف يُحشر الناسُ على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم[١] ﴿ **مأواهم جهنَّمُ كلما خَبَتْ زدناهم سعيراً** ﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً[٢] ﴿ **ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أئذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية ؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿ **أوَلم يروْا أنَّ اللَّهَ الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهُم** ﴾ أي أولم ير هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه ؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأحرى قال في البحر : نبَّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته بقوله ﴿ **أولَمْ يرَوْا** ﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ على استبعادهم الإعادة ، واحتجاجٌ عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التى بعضُ ما تحويه البشرُ ، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم ثم ينكرون إعادته[٣] ﴿ **وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه** ﴾ أي جعل لهؤلاء المشركين موعداً محدَّداً لموتهم وبعثهم ، لا شك ولا ريب في مجيئه ﴿ **فأبى الظالمون إلا كفوراً** ﴾ أي أبى هؤلاء الكافرون الظالمون ـ مع وضوح الحق وسطوعه ـ إلا جحوداً وتمادياً في الكفر والضلال .

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾

(١) أخرجه الشيخان . (٢) قال في التسهيل : المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهبها بُدلوا أجساداً أخر ، ثم صارت ملتهبة أكثر مما كانت . (٣) الكشاف ٢/٦٩٦ .

﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين ، المقترحين للخوارق والمعجزات : لو كنتم تملكون خزائن رزق الله ونِعَمه التي أفاضها على العباد ﴿ إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ أي إذاً لبخلتم به وامتنعتم عن الإنفاق خوفاً من نفادها ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل قال ابن عباس : قتوراً ﴾ أي وكان الإنسان شحيحاً مبالغاً في البخل قال ابن عباس : ﴿ قتوراً ﴾ أي بخيلاً منوعاً وقال الزمخشري : ولقد بلغ هذا الوصف بالشُّح الغاية التي لايبلغها الوهم [1] ، ثم ذكر تعالى أن كثرة الخوارق لا تُنشىء الإيمان في القلوب الجاحدة ، وها هوذا موسى قد أُوتي تسع آيات بينات ثم كذَّب بها فرعون وملؤه فحلَّ بهم الهلاك جميعاً ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهي « العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، وانفلاق البحر ، والسنين » خمسٌ منها في سورة الأعراف ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدَّم آيات مفصلات ﴾ والباقي متفرقات ﴿ فسألْ بني إسرائيل إذ جاءهم ﴾ أي فسألْ يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة قال الرازي : وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد[2] ﴿ فقال له فرعون إني لأظُنك يا موسى مسحوراً ﴾ أي إني لأظنك يا موسى قد سُحرت فتخبَّط عقلُك ﴿ قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرض بصائر ﴾ أي قال له موسى توبيخاً وتبكيتاً : لقد تيقّنت يا فرعون أن هذه الآيات التسع ما أنزلها إلا رب السموات والأرض شاهدة على صدقي ، تبصِّرُ الناس بقدرة الله وعظمته ولكنه مكابرٌ معاند ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي وإني لأعتقدك يا فرعون هالكاً خاسراً ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ أي فأغرقنا فرعون وجنده أجمعين في البحر .

وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

(١) التفسير الكبير٢١/٦٥ . (٢) البحر ٦/٨٢ .

﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر ، والبرُّ والفاجر ، ثم نفصل بينكم ونميِّز السعداء من الأشقياء ، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿ وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نزل ﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحق ، لا يعتريه شك أو ريب ، فيه الحكم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أُنزل من عند الله ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع ، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿ وقرآنا فَرَقْنَاه لتَقْرأه على الناسِ على مُكْثٍ ﴾ أي وقرآناً نزّلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تُؤدةٍ ومهل ، ليكون حفظه أسهل ، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿ ونزّلناه تنزيلاً ﴾ أي نزّلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿ قل آمنوا به أو لاتؤمنوا ﴾ خطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد أي آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لايزيده كمالاً ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿ إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلى عليهم يخرُّون للأذقان سجداً ﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالحي أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرّوا ساجدين لله رب العالمين ، والجملة تعليل لما تقدم والمعنى : إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لَمَفعُولاً ﴾ أي يقولون تنزَّه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿ ويَخِرُّونَ للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي ويخرُّون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استماع القرآن ويزيدهم تواضعاً لله قال الرازي : والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن[1] .

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

﴿ قل ادعوا اللّهَ أو ادعوا الرحمن ﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿ الله ﴾ أو باسم ﴿ الرحمن ﴾ ﴿ أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي بأي هذين الإسمين ناديتموه فهو حسن

(١) التفسير الكبير ٢١/٦٩ .

لأن أسماءه جميعها حسنى وهذان منها قال المفسرون : سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو (يا الله ، يارحمن) فقالوا إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحدٍ وها هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنهما لمسمًّى واحد ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ أي لاتجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت[١] ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً** ﴾ أي الحمد لله الذي تنزَّه عن الولد ﴿ **ولم يكن له شريك في الملك** ﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿ **ولم يكن له وليٌّ من الذل** ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الوليّ والنصير ﴿ **وكبِّرهُ تكبيراً** ﴾ أي عظِّمْ ربك عظمةً تامه واذكره بصفات العز والجلال ، والعظمة والكمال ، ختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير ، وهو العلي الكبير .

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الاسراء»

(١) التفسير الكبير ٢١/٧٠ .

(١٨) سُورَةُ الكَهْفِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا عَشْرٌ وَمِائَة

بين يدي السورة

* سورةُ الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سورٍ خمس بُدئت بـ « الحمدُ لله » وهذه السور هي « الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر » وكلُّها تبتدىء بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال . . **أما الأولى فهي** قصة « أصحاب الكهف » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .

* **والقصة الثانية** : قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح « الخضر » ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار

* **والقصة الثالثة** : قصة « ذي القرنين » وهو ملك مكَّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

* وكما استخدمت السورة ـ في سبيل هدفها ـ هذه القصص الثلاث ، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحقَّ لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة ، المثل الأول : للغني المزهو بماله ، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه ، في قصة أصحاب الجنتين . والثاني : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، والثالث : مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية : سميت « سورة الكهف » لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف .

تفسير سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** ﴾ أي الثناء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿ **ولم يجعل له عِوجاً** ﴾ لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه ، وليس فيه أي عيبٍ أو تناقض ﴿ **قيّماً** ﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولاتناقض قال الطبري : هذا من المُقدَّم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيّماً ولم يجعل له عِوَجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق[(١)] ، ﴿ **لينذر بأساً شديداً من لدُنه** ﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿ **ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات** ﴾ أي ويبشّر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿ **أن لهم أجراً حسناً** ﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ **ماكثين فيه أبداً** ﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿ **ويُنذر الذين قالوا اتخذ اللَّهُ ولداً** ﴾ أي ويخوّف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال البيضاوي : خصَّهم بالذكر وكرَّر الإنذار استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المُنْذَر به استغناءً بتقدم ذكره[(٢)] ﴿ **ما لهم به من علم** ﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيءٌ من العلم أصلاً ﴿ **ولا لآبائهم** ﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلَّدوهم فتاهوا جميعاً في بيداء الجهالة والضلالة ﴿ **كبرت كلمةً تخرج من**

(١) الطبري ١٥/١٩٠ . (٢) البيضاوي ٢/٢ .

أفواههم ﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ؟ خرجت من أفواه أولئك المجرمين ، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿ **إن يقولون إلا كذباً** ﴾ أي ما يقولون إلا كذباً وسفهاً وزوراً ﴿ **فلعلَّك باخعٌ نفسك على آثارهم** ﴾ أي فلعلك قاتلٌ نفسك يا محمد ومهلكها غمّاً وحزناً على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿ **إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً** ﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفاً عليهم ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسليةٌ للنبي عليه السلام .

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها** ﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿ **لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرته ﴿ **وإنَّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً** ﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لانبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهجة قال القرطبي : الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظمنَّ عليك كفرهُم فإنا سنجازيهم[١] ﴿ **أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً** ﴾ ؟ بدء قصة أصحاب الكهف ، والكهفُ الغار المتسع في الجبل ، والرقيمُ اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور والمعنى : لا تظننَّ يا محمد أن قصة أهل الكهف ـ على غرابتها ـ هي أعجبُ آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب[٢] منهم ﴿ **إذْ أوى الفتية إلى الكهف** ﴾[٣] أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل

(١) القرطبي ١٠/٣٥٤ . (٢) زاد المسير ٥/١٠٨

(٣) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى =

وجعلوه مأواهم ﴿ فقالوا ربَّنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿ وهيء لنا من أمرنا رشَداً ﴾ أي أصلح لنا أمرنا كلَّه واجعلنا من الراشدين المهتدين ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة ﴿ ثُمَّ بعثناهم لِنعلم أيُّ الحِزْبين أحْصى لما لبثُوا أمداً ﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أيَّ الفريقين أدقُّ إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف ؟ قال في التسهيل : والمراد بالحزبين : أصحابُ الكهف ، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم[1] وقال مجاهد : الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم : يوماً أو بعض يوم وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم[2] ، والقول الأول مروي عن ابن عباس .

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

﴿ نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق ﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادة ولا نقصان ﴿ إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ أي إنهم جماعة من

=« طرطوس » بعد زمن عيسى عليه السلام ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهُم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا ﴿ ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ فقال لهم : إنكم فتيانٌ حديثةٌ أسنانكم وقد أخّرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومرّوا براع معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك : سدّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائه وتسع سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه . لعلي أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشترى طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود ؟ واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً ؟ فقال لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي ، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس ، قال : وما فعل دقيانوس ؟ قالوا مات من قرون عديدة ، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله : لقد كنا فتيةً وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك ـ وكان مؤمناً صالحاً ـ فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبَة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس : لنتخذن عليهم مسجداً .(١) التسهيل ١٨٣/٢.(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٧/٣

الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ أي قوينا عزمهم وألهمنا الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق معتزة بالإيمان ﴿ **إذْ قامُوا فقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرض** ﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالو ربنا هو خالق السموات والأرض لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ **لن ندعوا من دونه إلهاً** ﴾ أي لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿ **لقد قلنا إذاً شَطَطاً** ﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحقَّ ، وحُدنا عن الصواب ، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿ **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ﴿ **لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيّن** ﴾ أي هلاّ يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر ، والغرض من التحضيض ﴿ **لولا** ﴾ التعجيز كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كذبة على الله[1] ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على اللّهِ كذباً** ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى .

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم
مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا
مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿ **وإذْ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا اللَّهَ** ﴾ أي وإذْ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى ﴿ **فأووا إلى الكهف** ﴾ أي التجئوا إلى الكهف ﴿ **ينشر لكم ربكم من رحمته** ﴾ أي يبسط ربكم ويوسّعْ عليكم رحمته ﴿ **ويهيء لكم من أمركم مرفقاً** ﴾ أي يُسهّل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت تزاورُ عن كهفهم ذات اليمين** ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم

(١) يقول الشهيد « سيد قطب » في الظلال : « وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسمًا ، لا تردُّد ولا تلعثم ، إنهم فتيةٌ أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم ، أشداء في استنكار ما عليه قومهم ، ولقد تبينَّ الطريقان فلا سبيل إلى الإلتقاء ، ولا بدَّ من الفرار بالعقيدة . . إنهم فتية تبينَّ لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط ؟ إن هم اعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم ثم يأوون إلى الكهف الضيق المظلم يستروحون فيه رحمة الله ، فإذا الكهف فسيح تنتشر فيه الرحمة وتمتد ظلالها فتشملهم بالرفق والرخاء واللين » . الظلال ١٥/١٣ .

جهة اليمين ﴿ وإذا غربتْ تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي وإذا غربت تقطعهم وتُبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامةً لهم من الله لئلا تؤذيهم بحرها ﴿ وهم في فجوةٍ منه ﴾ أي في متّسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره ﴿ ذلك من آيات اللّهِ ﴾ أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يُقلَّبون لأكلتهم الأرض[1] ﴿ من يهد اللّهُ فهو المهتد ﴾ أي من يُوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً ﴿ ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

﴿ وتحسبُهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ أي لو رأيتهم أيها الناظر لظننتم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿ ونُقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ أي ونقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم ﴿ وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد ﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم باسطٌ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿ لو اطَّلعتَ عليهم لولَّيتَ منهم فِراراً ولمُلِئْتَ منهم رعباً ﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ، فرؤيتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾ أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿ قال قائلٌ منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ أي قال أحدهم : كم مكثنا في هذا الكهف ؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم قال المفسرون : إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً ، ثم رأوها لم

(١) الطبري ١٥/٢١١ .

تغرب فقالوا أو بعض يوم ، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿ **قالوا ربكم أعلمُ بما لبثتم** ﴾ أي قال بعضهم ، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿ **فابعثوا أحدكم بورِقِكم هذه إلى المدينة** ﴾ أي فأرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿ **فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه** ﴾ أي فليختر لنا أحلَّ وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿ **وليتلطّف ولا يُشعرن بكم أحداً** ﴾ أي وليتلطف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد .

إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ
قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿ **إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم** ﴾ أي إن يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿ **ولن تُفْلحوا إذاً أبداً** ﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخيرٍ أبداً ، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج وأخذ الحيطة والحذر ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنَّ وعد اللّهِ حقٌّ وأن الساعة لا ريب فيها** ﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها ، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿ **إذ يتنازعون بينهم أمرهم** ﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم ﴿ **فقالوا ابنوا عليهم بنياناً** ﴾ أي قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علَماً عليهم ﴿ **ربهم أعلم بهم** ﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجداً** ﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة : لنتخذنَّ على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه .

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ
قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ
رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** ﴾ أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم ﴿ **ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبُهم رجماً بالغيب** ﴾ أي ويقول البعض : إنهم خمسةٌ سادسهم الكلب قذفاً بالظنِّ من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ﴿ **ويقولون سبعةٌ وثامنهم كلبهم** ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعةٌ والثامن هو الكلب ﴿ **قلْ ربي أعلمُ بعدتهم** ﴾ أي الله أعلم بحقيقة عددهم ﴿ **ما يعلمهم إلا قليل** ﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعةً إن الله عدَّهم حتى انتهى إلى السبعة[1] قال المفسرون : إن الله تعالى لَّما ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿ **رجماً بالغيب** ﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكأنه أقر قائله ثم نبَّه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو ردُّ العلم إلى علام الغيوب ﴿ **فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً** ﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر ﴿ **ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً** ﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإنَّ فيما أوحي إليك الكفاية ﴿ **ولا تقولنَّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء اللَّهُ** ﴾ أي لا تقولنَّ لأمرٍ عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير : سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال : (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً[2] ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرةً عظمة الله ﴿ **وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً** ﴾ أي لعلَّ الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي .

وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

(١) زاد المسير ٥/١٢٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٤١٥ .

﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعاً** ﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين ، وهذا بيانٌ لما أُجمل في قوله تعالى ﴿ **سنين عدداً** ﴾ ﴿ **قل اللَّهُ أعلم بما لبثوا** ﴾ أي الله أعلم بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿ **له غيب السموات والأرض** ﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيمُ الخبير ﴿ **أبْصِرْ بهِ وأسمِعْ** ﴾ أي ما أبصره بكل موجود ، وما أسمعه لكل مسموع ، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿ **ما لهم من دونه من ولي** ﴾أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿ **ولا يُشركُ في حكمه أحداً** ﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير ، ولا يقبل في قضائه وحكمة أحداً لأنه الغنيّ عما سواه ﴿ **واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك** ﴾ أي إقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿ **لا مبدّل لكلماته** ﴾ أي لايقدر أحدٌ أن يغيّر أو يبدّل كلام الله ﴿ **ولن تجد من دونه ملتحداً** ﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً .

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

﴿ **واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ **ولا تعدُ عيناك عنهم** ﴾ أي لاتصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغني والشرف قال المفسرون : كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤ ساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأمِر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[1] ﴿ **ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله ، وقد شغلوا عن الدين وعبادةِ ربهم بالدنيا قال المفسرون : نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه أتى

(١) المختصر ٢/٤١٦ .

النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم « سلمان الفارسي » وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عُيينة للنبي ﷺ : أما يؤذيك ريح هؤلاء ؟ ونحن سادةُ مضر وأشرافُها إن أسلمنا يسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحِّهِمْ عنك حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس ، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم) ﴿ **واتَّبع هواه** ﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿ **وكان أمره فُرُطاً** ﴾ أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً ﴿ **وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤْمن ومن شاء فليكفر** ﴾ ظاهرهُ أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿ **اعملوا ما شئتم** ﴾ ﴿ **إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرَادقها** ﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حاميةً شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم ﴿ **وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه** ﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أُغيثوا بماءٍ شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمى يشوي وجوههم إذ قَرُب منهم من شدة حره وفي الحديث (ماءُ كعكر الزيت فإذا قُرب إليه سقطت فروة وجهه فيه)[1] أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا الله من جهنم ﴿ **بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به وساءت جهنم منزلاً يرتفق به أهل النار .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً** ﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿ **أولئك لهم جنات عدن** ﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار** ﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة

(١) أخرجه أحمد والترمذي .

﴿ **يُحلَّون فيها من أساور من ذهب** ﴾ أي يُحلَّون في الجنة بأساور الذهب قال المفسرون : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور : سوارٌ من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ ، لأن الله تعالى قال ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ وقال ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفي الحديث (تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء) ﴿ **ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق** ﴾ أي وهم رافلون في ألوان من الحرير ، برقيق الحرير وهو السندس ، وبغليظه وهو الاستبرق قال الطبري : معنى الآية أنهم يلبسون من الحلي أساور من ذهب ، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رقَّ من الديباج ، والاستبرق وهو ما غلظ فيه وثَخُن[1] ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ أي متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور قال ابن عباس : الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكلَّلة بالدُر والياقوت عليها الحجال ، الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيلة ، وما بين عدن إلى الجابية[2] ﴿ **نعم الثواب وحسنت مرتفقاً** ﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين ، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿ **واضربْ لهم مثلاً رجلين** ﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون : هما أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين ، وأنفق المؤمن من ماله في مرضاة الله حتى نفد ماله فعيَّره الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله ، والكافر الذي أبطرته النعمة ﴿ **جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب** ﴾ أي جعلنا لأحدهما ـ وهو الكافر ـ بستانينِ من شجر العنب ، مثمريْن بأنواع العنب اللذيذ ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ أي أحطناهما بسياجٍ من شجر النخيل ﴿ **وجعلنا بينهما زرعاً** ﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً ويتفجر بينهما نهر ، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم ، المحفوفتين بأشجار النخيل ، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار .

كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

(١) الطبري ٢٤٣/١٥ . (٢) القرطبي ٣٩٨/١٠ .

﴿ **كلتا الجنتين آتت أُكُلها ولم تظلم منه شيئاً** ﴾ أي كلُّ واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً ﴿ **وفجَّرنا خلالهما نهراً** ﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿ **وكان له ثَمر** ﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿ **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً** ﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصاراً وخدماً ﴿ **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه** ﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر ﴿ **قال ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه أبداً** ﴾ أي ما أعتقد أنْ تفنى هذه الحديقة أبداً ﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة ، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿ **ولئن رددتُ إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها** ﴾ أي ولئن كان هناك بعثٌ ـ على سبيل الفرض والتقدير كما تزعمُ ـ فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿ **منقلباً** ﴾ أي مرجعاً وعاقبة ، فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره** ﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله ﴿ **أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً** ﴾ أي أجحدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من منيّ ثم سوَّاك إنساناً سوياً ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ .

لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾

﴿ **لكنَّا هو اللَّهُ ربي** ﴾ أي لكنْ أنا أعترف بوجود الله فهو ربي وخالقي ﴿ **ولا أُشرك بربي أحداً** ﴾ أي لا أُشرك مع الله غيره ، فهو المعبودُ وحده لا شريك له ﴿ **ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت ماشاء الله** ﴾ أي فهلاّ حين دخلتَ حديقتك وأُعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : **هذا** من فضل الله ، فما شاءَ اللهُ كان ومالم يشأْ لم يكن ﴿ **لاقُوَّةَ إلاَّ با اللَّهِ** ﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿ **إن تَرَنِ أنا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً** ﴾ أي قال المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتز عليَّ بكثرة مالك وأولادك ﴿ **فَعَسَىٰ رَبّي أن يُؤتِيَنِ خَيْراً مِنَ جَنَّتِكَ** ﴾ جواب الشرط أي إني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى

فيرزقني جنةً خيراً من جنتك لإيماني به ، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرّب بستانك ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنْ ٱلسَّمَاءِ ﴾ أي يرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمّرها ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أي يغور ماؤ ها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته وردّه ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقّق رجاءُ المؤمن بزوال النعيم عن الكافر ، وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَاأَنفَقَ فِيهَا ﴾ أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب قال القرطبي : أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من النادم ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي مهشّمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً ﴿ وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى .

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقّ ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أولياءه ﴿ هُوَ خَيرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خيرٌ عاقبةً لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلْدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلْسَّماء فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلأَرْضِ ﴾ هذا مثلٌ آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماءٍ نزل من

السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي قادراً على الإفناء والاحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية ، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول ﴿ وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الآباد فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل عمل صالحٍ من قول أو فعلٍ يبقى للآخرة[1] وفي الحديث (سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، هنَّ الباقيات الصالحات) .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ ﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيّرها كما نسيّر السحاب فنجعلها هباءً منبثاً ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة ﴿ وحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرمنْهُمْ أَحَداً ﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم نترك أحداً منهم ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً ﴾ أي عُرضوا على رب العالمين مصطفّين ، لا يحجبُ أحدٌ أحداً وفي الحديث (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ صفوفاً) قال مقاتل : يُعرضون بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمةٍ وزمرةٍ صفاً[2] ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا حفاةً عراةً لاشيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً ﴾ أي زعمتم أن لا بعث ولا جزاء ، ولا حساب ولا عقاب ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ ﴾ أي

(١) هذا ما رجحه الطبري قال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله . (٢) القرطبي ٤١٧/١٠ .

وضعت صحائف أعمال البشر وعُرضت عليهم ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيه ﴾ أي فترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا ﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿ مَالِهَذَا ٱلْكِتَابِ لاَيُغَادِرُ صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها ؟ قال تعالى ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ أي مكتوباً مثبتاً في الكتاب ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ أي لا يعاقب إنساناً بغير جرم ، ولا يُنقص من ثواب المحسن .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائَكَة ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبّه ﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه ، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة[1] ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِيتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُو ﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم أعداء ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمينَ بَدَلاً ﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿ ما أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمواتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿ وَلاَخَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلّينَ عَضُداً ﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني ؟ ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين : أُدعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبوا لَهُمْ ﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم موْبِقاً ﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكةً لا يجتازها هؤلاء وهي النار .

(١) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا « النبوة والأنبياء » على أن ابليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨ .

وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

﴿وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُون ٱلنَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مواقِعُوهَا﴾ أي عاينوها وهي تتغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يجدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدروا على الهرب منها ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا في هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ من كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكرَّرنا الحجج والمواعظ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ أي وطبيعة الإِنسان الجدلُ والخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤمنوا إذْ جاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي ما منع الناس من الإيمان حين جاءهم الهُدى من الله ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا ربهُمْ﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إلاّ أن تأْتِيهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أو يأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعُدوا به عياناً ومواجهة كقولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[1] ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشّرِينَ ومنذرِينَ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿وَيُجَادلُ ٱلَّذين كَفرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضوا به ٱلْحَقَّ﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿واتَّخذُوا آيَاتي وَمَا أُنْذِروا هزُواً﴾ أي اتخذوا القرآن وما خُوّفوا به من العذاب سخرية واستهزاءً.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم

(١) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير، كذا في المختصر ٢/٤٢٥.

بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ممن ذُكّرَ بِآيَاتِ رَبّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي لا أحد أظلمُ ممن وُعظ بآيات الله البينة ، وحججه الساطعة ، فتعامى عنها وتناساها ولم يُلقِ لها بالاً ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة ، والأفعال القبيحة ، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿ إنا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره ، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿ وَفي آذَانِهِم وقْراً ﴾ أي وفي آذانهم صمماً معنوياً يمنعهم أن يسمعوه سماع تفهم وانتفاع ﴿ وإن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إذًا أَبَداً ﴾ أي وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى قلوبٌ متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَاب ﴾أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجّل لهم عذاب الدنيا ، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمةً بهم ، وقد جرت سنته بأن يمهل الظالم ولكن لا يهمله ﴿ بَل لَهُم موعِد لن يَجِدواْ من دُونِهِ مَوْئلاً ﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكناهم حين ظلموا ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ موْعِداً ﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدَّداً معلوماً ، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون ؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش قال ابن كثير : والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أعظم نبيٍّ وأشرف رسول ، ولستم بأعزَّ علينا منهم فخافوا عذابي ونُذري[1] .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ

(١) مختصر ابن كثير ٢/٤٢٦ .

فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة والمعنى اذكر حين قال موسى الكليم لفتاه « يوشع بن نون » لا أزال أسير وأتابع السير حتى أصل إلى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين[1] ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي « يوشع » أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب ، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مِكْتل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَباً ﴾ أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً قال المفسرون : كان الحوت مشوياً فخرج من المِكْتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله وكان ذلك آيةً من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿ فَلَماَّ جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ أي فلما قطعا ذلك المكان وهو مجمع البحرين الذي جُعل موعداً للملاقاة قال موسى لفتاه أعطنا طعام الغداء ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ أي لقينا في هذا السفر العناء والتعب ، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ أي قال الفتى « يوشع بن نون » حين طلب موسى منه الحوت للغداء أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب ؟ لقد خرج الحوتُ من المكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة وقد نسيتُ أن أذكر لك ذلك حين استيقظت ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إلا ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَباً ﴾ أي واتخذ الحوتُ طريقه في البحر وكان أمره عجباً ، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبَّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لُقْيا الرجل الصالح ﴿ فارتدا على آثارهما قَصَصاً ﴾ أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتتبعان أثرهما الأول لئلا يخرجا عن الطريق .

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا

(١) هكذا نقل الطبري عن قتادة ١٥/٢٧١ .

﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا ﴾ أي وجدا الخضر عليه السلام عند الصخرة التى فقد عندها الحوت ، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجَّى بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنّى بأرضك السلام[1] ؟ ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا ﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه[2] ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ أي علماً خاصاً بنا لايُعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء : هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى « العلم اللدُنّي » يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصَّه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي ؟ قال المفسرون : هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي قال الخضر : إنك لا تستطيع الصبر على ماترى قال ابن عباس : لن تصبر على صنعي لأني علمتُ من غيب علم ربي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ أي كيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكرٌ وأنت لا تعلم باطنه ؟ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنيِ إن شَاءَ اللَّهُ صَابراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ أي قال موسى ستراني صابراً ولا أعصي أمرك إن شاء الله ﴿ قَالَ فَإِنِ آتَّبَعْتَني فَلَا تسأَلْني عَن شَيءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مْنهُ ذكراً ﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم ، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتي أبيّنه لك بنفسي .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ

(١) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله . (٢) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليمًا للخلق فضل العبودية .

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

﴿ فَٱنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوهما بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ أي قال له موسى مستنكراً : أخرقت السفينة لتغرق الركاب ؟ ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أي فعلت شيئاً عظيماً هائلاً ، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر : قومٌ حملونا بغير أجر عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً !! ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي ؟ ذكَّر بلطف في مخالفته الشرط ﴿ قَالَ لَاتُؤاخِذْني بِماَ نَسِيتُ ﴾أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿ وَلاَ تُرْهِقْني مِنْ أَمري عُسْراً ﴾ أي لا تكلفني مشقةً في صحبتي إياك وعاملني باليُسر لا بالعُسر ﴿ فا نطلقا حتى إِذَا لَقِيا غُلاَماً فَقَتَلَهُ ﴾ أي فقبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرَّا بغلمان يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغير نفْس ﴾ أي قال موسى : أقتلت نفساً طاهرة لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكراً ﴾ أي فعلت شيئاً منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه . . لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن يُنكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده ، وقال هنا ﴿ نُكراً ﴾ أي منكراً فظيعاً وهو أبلغ من قوله ﴿ إِمْراً ﴾ في الآية السابقة ، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿ أقتلت نفساً زكيَّة ﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافرٌ لا يؤمن بالله أبداً[١] ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي ألم أقل لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني ؟ قال المفسرون : وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿ لك ﴾ لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْء بعدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْني ﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر

(١) القرطبي ١١/٢٢ .

منك فلا تصحبني معك ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لدُنّي عُذْراً ﴾ أي قد أعذ رت إليَّ في ترك مصاحبتي فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَة ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيفوهُما ﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس : هي انطاكية فطلبا طعاماً وكان أهلها لئاماً لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً ، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿ فأقامه ﴾ أي مسحه الخضر بيده فاستقام ، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مرويٌ عن ابن عباس ﴿ قَالَ لَوْشِئْتَ لاَ تَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام !! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله ، روي أن موسى قال للخضر : قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضفناهم فلم يضيّفونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئتَ لأتخذت عليه أجراً ! ﴿ قَالَ هَذَا فِراقُ بَيْني وَبَيْنِكَ ﴾ أي قال الخضر : هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيل مَالَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليَّ ولم تستطع عليها وفي الحديث (رحم الله أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولو لبث مع صاحبه لأبصر العجب)[1] ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِين يَعْمَلُونَ فيِ ٱلْبَحْرِ ﴾ هذا بيانٌ وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبراً والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لايقدرون على مدافعة الظَّلمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿ فَأَرَدتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي أردتُ بخرقها أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم ﴿ وكان وَرَاءَهُم مِلكٌ ﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالمٌ ﴿ يأْخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ غَصْباً ﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿ وَأما ٱلْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته فكان

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان .

كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث (إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً)[١] ﴿ فخشينا أن يُرْهقهُما طُغْياناً وَكُفراً ﴾ أي فخفنا أن يحملهما حبُّه على اتباعه في الكفر والضلال .

فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقرب براً ورحمة بوالديه ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يتيمين في ٱلْمَدِينَة وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لهُمَا ﴾ أي وأما الجدار الذي بنيتُه دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبيء تحته كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح[٢] الوالد قال المفسرون : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿ رَحْمَةً مِن ربِّكَ ﴾ أي رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي ما فعلتُ ما رأيت من خرْقِ السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأي واجتهادي ، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه ؟ وما قصته ؟ ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآناً ووحياً ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وآتَيْنَاهُ مِن كُلّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ، وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون : ذو القرنين هو « الاسكندر اليوناني » ملكَ المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين ، وكان ملكاً مؤمناً مكّن الله له في الأرض فعدل في حكمه

(١) رواه مسلم .
(٢) قيل إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح .

وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فنمرود وبختنصر[1] ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب .

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي وصل المغرب ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين ـ حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة ـ فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال الرازي : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وَهِدَةٍ مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشطَّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر[2] ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿ قُلْنَا يا ذا ٱلْقَرْنَين إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام : إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون : كانوا كفاراً فخيَّره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام فيُحسن إليهم ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أي من أصرَّ على الكفر فسوف نقتله ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نكراً ﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي وأما من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدَّم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعَّم فيها ﴿ وَسَنَقولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسَّر . اختار الملك العادل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة ، والمعاملة الطيبة ، والمعونة والتيسير ، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي حتى إذا وصل أقصى

(١) البحر ٦/١٥٧ . (٢) التفسير الكبير ٢١/١٦٦ .

المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿ **وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُم مِنْ دُونِهَا سِتْراً** ﴾ أي وجد الشمس تشرقُ على أقوامٍ ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض ، وإذا غربتْ خرجوا لمكاسبهم قال قتادة : مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلاّ من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراةً ، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم ، وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج[1] .

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾

﴿ **كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً** ﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره ، وعتاده وجنوده ، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ **ثُم أَتْبَعَ سَبَباً** ﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ** ﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال الطبري : والسَّدُّ : الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سُدَّ ما بينهما ، فردَم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم[2] ﴿ **وَجَدَ مِن دُونِهِما قَوْماً لَّايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** ﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعسر قال المفسرون : إنما كانوا لا يفقهون القول لغرابة لغتهم ، وبطء فهمهم ، وبعدهم عن مخالطة غيرهم ، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿ **قَالُوا يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ في ٱلْأَرْضِ** ﴾ أي قال القوم لذي القرنين : إن يأجوج ومأجوج ـ قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويهٌ ، منهم مفرطٌ في الطول ، ومنهم مفرطٌ في القِصر[3] ـ قومٌ مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون : كانوا من أكلة

(١) زاد المسير ١٨٧/٥ والطبري ١٤/١٦ . (٢) الطبري ١٥/١٦ . (٣) روى ذلك عن علي وابن عباس .

لحوم البشر ، يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ أي هل نفرض لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿ عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ أي لتجعل سداً يحمينا من شر يأجوج ومأجوج قال في البحر : هذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب[1] ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي ما بسطه الله عليَّ من القُدرة والمُلك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ أي أجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوّع ببناء السد واكتفى بعون الرجال .

ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

﴿ آتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا ﴾ أي انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي أعطوني أصبُّ عليه النحاس المذاب قال الرازي : لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً[2] ﴿ فَمَا ٱسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته ﴿ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته ، وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أي قال ذو القرنين : هذا السدُّ نعمةٌ من الله ورحمة على عباده ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿ جعلهُ دَكَّاءَ ﴾ أي جعله مستوياً بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقاً ﴾أي

(١) البحر ٦/١٦٤ . (٢) التفسير الكبير ٢١/١٧٢ .

كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لامحالة . . وههنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** ﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض ـ لكثرتهم ـ كاضطراب موج البحر ﴿ **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً** ﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحدٍ جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً** ﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدوها بأهوالها عرضاً مخيفاً .

ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَايَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾

﴿ **ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي** ﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عُمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿ **وَكَانُوا لَايَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً** ﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال أبو السعود : وهذا تمثيلٌ لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عميٌ صم[١] ﴿ **أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ** ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أفظنَّ الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم ، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي ؟ قال القرطبي : جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم[٢] ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّم لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** ﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافةً لهم كالنُزُل المعد للضيف قال البيضاوي : وفيه تهكمٌ بهم وتنبيهٌ على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر جهنم دونه[٣] ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله ؟ ﴿ **ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لاتنفع معه طاعة قال الضحاك : هم القسيّسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿ **وهُمْ يَحسَبون أنَّهم يحسنون صنعاً** ﴾

(١) أبو السعود ٣/٢٦٧ . (٢) القرطبي ١١/٦٥ . (٣) البيضاوي ٢/١٣ .

أي يظنون أنهم محسنون بأفعالهم ﴿ **أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ربهم وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ** ﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿ **فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ وَزْناً** ﴾ أي ليس لهم عند الله قيمةٌ ولا وزن ، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث (يُؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة)(١) .

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

﴿ **ذَلِكَ جَزَاؤهُمْ جهنم بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخذُوا آياتي وَرُسُلِي هُزُواً** ﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿ **إنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ** ﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿ **كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** ﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا لاَيَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة : في جنانِ الفردوس ليس يخافون : خُروجاً عنها ولا تحويلاً ﴿ **قُل لوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لكَلِماتِ رَبِّي** ﴾ هذا تمثيلٌ لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه ﴿ **لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي** ﴾ أي لفني ماء البحر على كثرته وانتهى ، وكلامُ الله لا ينفد لأنه غير متناهٍ كعلمه جل وعلا ﴿ **وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً** ﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَر مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي ، وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ لا شريك له ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ** ﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿ **فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً** ﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿ **وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** ﴾ أي لايرائي بعمله ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله ، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف)

(١) ذكره الحافظ في الفتح ٣٢٤/٨ .

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَتِسْعُونَ

بَيْنَ يَدَيْ السُّورة

* سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله « زكريا » وولده « يحيى » الذي وهبه على الكبر من امرأةٍ عاقر لا تلد ، ولكنَّ الله قادرٌ على كل شيء ، يسمع دعاء المكروب ، ويستجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه .

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة « مريم العذراء » وإنجابها لطفلٍ من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : « إسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوحا » وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدفُ من ذلك إثبات « وحدة الرسالة » وأن الرسل جميعاً جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك والأوثان .

* وتحدث السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقوداً لها .

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد ، والشريك ، والنظير ، وردَّت على ضلالات المشركين بأنصع بيان ، وأقوى برهان .

التِسْــمِيَة : سميت « سورة مريم » تخليداً لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسان بلا أب ، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام .

تفسير سورة مريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

﴿ **كهيعص** ﴾ حروفٌ مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] وتقرأ : « كافْ ، هَا ، يَا ، عَيْنْ ، صَادْ » ﴿ **ذِكْرُ رَحمَةِ رَبِّك عَبْدَهُ زكَرِيَّا** ﴾ أي هذا ذكرُ رحمةِ ربِّك لعبدِهِ زكريا نقصُّه عليك يا محمد ﴿ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً** ﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوت خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون : لأن الإخفاء في الدعاء أدخلُ في الإخلاص وأبعدُ من الرياء ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنّي** ﴾ أي دعا في ضراعة فقال يارب : لقد ضعف عظمي ، وذهبتْ قوتي من الكبِر ﴿ **وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً** ﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿ **وَلَمْ أَكُن بِدُعَائكَ رَبِّ شَقِيّاً** ﴾ أي لم تخيّب دعائي في وقت من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال البيضاوي : هذا توسلٌ بما سلف له من الاستجابة ، وأنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها ، ومن حقّ الكريم أن لا يخيِّب من أطمعه[2] ﴿ **وَإِنّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي** ﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يُحسنوا وراثة العلم والنبوة ﴿ **وَكَانَت ٱمْرَأَتِي عَاقِراً** ﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلدْ قطُّ ﴿ **فَهَبْ لي مِن لَدُنكَ وَلِيّاً** ﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني ﴿ **يَرِثُني وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال البيضاوي : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال[3] ﴿ **وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً** ﴾ أي اجعله يارب مرضياً عندك قال الرازي : قدَّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة : أحدها : كونه ضعيفاً ، والثاني : أن الله ماردَّ دعاءه البتة ، والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرَّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله

---

(١) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة . (٢) البيضاوي ٢/ ١٤ . البيضاوي ٢/ ١٤ .

وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة(١) ﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلامٍ يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿ فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ﴾ ﴿ لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي لم يسمَّ أحدٌ قبله بيحيى فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد : ليس له شبيه في الفضل والكمال .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُوُن لي غُلَام ﴾ أي كيف يكون لي غلام ؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتي عَاقِراً ﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها فكيف وهي الآن عجوز !! ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً ﴾ أي بلغتُ في الكبر والشيخوخة نهاية العمر قال المفسرون : كان قد بلغ مائةً وعشرين سنة ، وامرأتُه ثمان وتسعين سنة ، فأراد أن يطمئنَّ ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي قال الله لزكريا : هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين ، وخلقه وإيجادُه سهلٌ يسيُر علي ﴿ وَقَد خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ أي كما خلقتُك من العدم ولم تكُ شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال المفسرون : ليس في الخلق هينٌ وصعبٌ على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدةٌ ﴿ كن فيكون ﴾ وإنما هو أهونُ في اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لّي ايَةً ﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿ قال آيَتُكَ أَلاَ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويُّ الخلق ليس بك خرسٌ ولا علة قال ابن عباس : اعتُقِل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد : حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم(٢) ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾

(١) التفسير الكبير ٢١/١٨١ . (٢) الطبري ١٦/٥٢ .

أي أشرف عليهم من المصلّى وهو بتلك الصفة ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سبّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره ، وكان كلامه مع الناس بالإِشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيامٍ إلا رمزاً ﴾ ﴿ يَايَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ في الكلام حذفٌ والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السنَّ الذي يؤمر فيه قال الله له : يا يحيىٰ خذ التوراة بجدٍ واجتهاد ﴿ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ أي أعطيناه الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر ، روي أن الصبيان قالوا ليحيىٰ : اذهب بنا نلعبْ فقال لهم : ما للَّعب خُلقت ، وقيل : أعطي النبوة منذ الصغر والأول أظهر قال الطبري : المعنى أعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال[1] ﴿ وَحَنَاناً مِنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً ﴾ أي فعلنا ذلك رحمةً منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكيةً له من الخصال الذميمة ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله ، لم يهمَّ بمعصيةٍ قط قال ابن عباس : طاهراً لم يعمل بذنب .

وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

﴿ وَبراً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأُمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه ، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية : حيَّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله[2] ﴿ وَٱذْكُرْ في ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة « ميلاد يحيىٰ » لأنها ولادة عذراء من غير بعل ، وهي أغرب من ولادة عاقرٍ من بعلها الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ أي حين تنحَّتْ واعتزلت أهلها في مكان شرقيًّ بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً ﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿ فَأَرْسَلْنَا

---

(١) الطبري ١٦/٥٥ . (٢) القرطبي ١١/٨٨ .

﴿ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ أي تصوَّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعْدَ الشعر مستوى الخلقة[1] قال المفسرون : إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولاتنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرتْ ولم تقدر على السماع لكلامه ، ودلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن[2] ﴿ قَالَتْ إِنّي أَعُوذُ بِالْرَّحْمٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ أي فلما رأته فزعت وخشيتْ أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت : إني أحتمي وألتجىء إلى الله منك ، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّك لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِياً ﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف : ما أنا إلا ملَكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهبَ لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لي غُلَام ﴾ أي كيف يكون لي غلام ؟ وعلى أيِّ صفةٍ يوجد هذا الغلام مني ؟ ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ أي ولستُ بذاتِ زوج حتى يأتيني ولد ولستُ بزانية .

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي كذلك الأمر حكم ربُّك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج ، فإنَّ ذلك على الله سهل يسير ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي وليكون مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون بإرشاده ﴿ وَكَانَ أَمْراً مقْضِيّاً ﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغيّر ولا يتبدل لأنه في سابق علم الله الأزلي ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال المفسرون : إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت ـ وهو في بطنها ـ مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيرّوها بالولادة من غير زوج ﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي فألجأها ألم

(١) زاد المسير ٥/ ٢١٧ . (٢) البحر ٦/ ١٨٠ .

الطَّلق وشدة الولادة إلى ساق نخلةٍ يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ أي قالت ياليتني كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر(١) قال ابن كثير : عرفت أنها ستُبتلى وتُمتحن بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها ، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت(٢) ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ أي فنادها الملك من تحت النخلة قائلاً لها : لا تحزني لهذا الأمر ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً يجري أمامك قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ أي يتساقط عليك الرُّطب الشهيُّ الطريُّ قال المفسرون : أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً ، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامةً من الله لها .

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي ﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي ، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿ فإما تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً ﴾ أي فإن رأيتِ أحداً من الناس وسألكِ عن شأن المولود ﴿ فَقُولِي إنّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً ﴾ أي نذرت السكوتَ والصمت لله تعالى ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إنسِيّاً ﴾ أي لن أكلّم أحداً من الناس . . أُمِرت بالكفّ عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ أي أتتْ قومها بعد أن ظهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها : لقد جئت شيئاً عظيماً مُنكراً ﴿ يَا أُخْتَ هَارونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْء ﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة

(١) هذا قول قتادة وقال ابن عباس ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ أي لم أُخلق ولم أكُ شيئاً . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٤٤٨ .

ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ أي وما كانت أُمكِ زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروفٍ بالصلاح والعبادة ؟ قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها[١] به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام وقال السهيلي : هارون رجل من عُباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبّه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهراً طويلاً[٢] ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي لم تجبهم وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ أي قالوا متعجبين : كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه ؟ قال الرازي : روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان[٣] ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم : أنا عبدٌ لله خلقني بقدرته من دون أب ، قدّم ذكر العبودية ، ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أزلاً لابدَّ إلا أن يقع ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي جعل فيَّ البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿ وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً ﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي .

وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي محسناً لها ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ أي ولم يجعلني متعظماً متكبراً على أحد شقياً في حياتي ﴿ وَٱلسلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ أي سلام الله عليَّ في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حياً من قبري ، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد . . وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما عبدٌ

(١) الطبري ٧٧/١٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٤٥٠/٢ . (٣) التفسير الكبير ٢٠٨/٢١ .

ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أُم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي ذلك هو القول الحقُّ في عيسى بن مريم لا مايصفه النصارى من أنه ابن الله ، ولا اليهود من أنه ابن زنى ويشكّون في أمره ويمترون ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزَّه الله عن الولد والشريك ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كنْ فكان ، ولا يحتاج إلى معاناة أو تعب ، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ قال المفسرون : وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال : إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء ، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿ كُنْ ﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده ، فهو تبكيتٌ وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي ومّما أمر به عيسى قومَه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿ فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم من يزعم أنه ابن الله ، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي ويلٌ لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مبِينٍ ﴾ أي لكنْ الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أي أنذر الخلائق وخوّفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يُحسن ، والمقصر إذ لم يزدد من الخير ﴿ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي قُضي أمرُ الله في الناس ، فريقٌ في الجنة وفريق في السعير ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي وهم اليوم في غفلة سادرون ﴿ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ ﴾ أي لايصدقون بالبعث والنشور ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي

نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء ﴿ وَاذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نبيّاً ﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه ، جامعاً بين الصدّيقية والنبوة والغرضُ تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابه ، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ، يا أبتِ لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضراً ؟ ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ كرَّر النصح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لاتعلمه أنت ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه .

يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً ﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن ، مستكبر على عبادة ربه ، فمن أطاعه أغواه ، قال القرطبي : وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده[1] ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ فَتكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة والمعنى أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام الفخر : وإيراد الكلام بلفظ ﴿ يا أبت ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب ، وإرشاده إلى الصواب ، وقد رتَّب إبراهيم

(١) القرطبي ١١/١١١ .

الكلام في غاية الحسن ، لأنه نبَّهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان ، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى ، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق ، وقوله ﴿ إني أخاف ﴾ دليلٌ على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوَّة(١) ﴿ **قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهتي يَا إِبْرَاهِيم** ﴾ أي قال له أبوه آزر : أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرفٌ عنها ؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل قال البيضاوي : قابل أبوه استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله ﴿ يا أبت ﴾ بـ « يا ابني » وقدَّم الخبر وصدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لايرغب عنها عاقل(٢) ، ثم هدَّده بقوله ﴿ **لئن لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ** ﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب آلهتي لأرجمنك بالحجارة ﴿ **وَٱهْجُرْني مَلِيّاً** ﴾ أي اهجرني دهراً طويلاً قال السديُّ : أبداً . . بهذه الجهالة تلقى « آزر » الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة قابل القول المؤدَّب المهذَّب ، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان ، وشأن القلب الذي هذَّبه الإيمان ، والقلب الذي أفسده الطغيان ﴿ **قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّي** ﴾ أي قال إبراهيم في جوابه : أمَّا أنا فلا ينالك مني أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك بعدُ مايؤذيك لحرمة الأبوَّة ، وسأسأل الله أن يهديك ويغفر لك ذنبك ﴿ **إِنَّهُ كَانَ بي حَفِيّاً** ﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وما تدعون من دُون ٱللَّهِ** ﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿ **وَأَدْعُوا رَبّي** ﴾ أي وأعبد ربي وحده مخلصاً له العبادة ﴿ **عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبّي شَقِيّاً** ﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألَّا يجعلني شقياً ، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء آلهتهم . . وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان ، وهجر الأهل والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذريةً وعوَّضه خيراً .

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

(١) التفسير الكبير ٢١/٢٢٦ . (٢) البيضاوي ٢/١٧ .

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ قال المفسرون : لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام ، واعتزل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خيرٌ منهم ، فوهب له إسحاق ويعقوب أولاداً أنبياء ، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار ، ويعقوب ابن اسحاق ، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل قال ابن كثير : المعنى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء ، أقرَّ الله بهم عينه في حياته بالنبوة[1] ولهذا قال ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِن رَحْمَتِنَا ﴾ أي أعطينا الجميعَ - إبراهيم وإسحق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي ، من المال والولد والعلم والعمل ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأديان يثنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ، ويُصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة ، قال الطبري : أي رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس[2] ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً ﴾ أي استخلصه الله لنفسه ، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾ أي من الرسل الكبار ، والأنبياء الأطهار ، جمع الله له بين الوصفين الجليلين ، وإنما أعاد لفظ « كان » لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنِ ﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ أي أدْنيناه للمناجاة حين كلمناه قال ابن عباس : أُدني موسى من الملكوت ورُفعت له الحُجُب حتى سمع صريف الأقلام[3] قال الزمخشري : شبّهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلَّمه بغير واسطة ملك ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ جعلناه له عضُداً وناصراً ومعيناً ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَاعِيل ﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدّك « إسماعيل » الذبيح ابن إبراهيم ، وهو أبو العرب جميعاً ﴿ إِنهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ أي كان صادقاً في وعده ، لا يعد بوعدٍ إلا وفى به قال المفسرون : وذُكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً ، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد مالم يعانه غيره من الأنبياء ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نبِيّاً ﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة قال ابن كثير : وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه

(١) المختصر ٢/٤٥٤ . (٢) الطبري ١٦/٩٣ . (٣) البحر ٦/١٩٩ .

أنما وُصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة[١] ، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاة** ﴾ أي كان يحث أهله على طاعة الله ، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين ، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿ **وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً** ﴾ أي نال رضى الله قال الرازي : وهذا نهاية المدح لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات[٢] .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾

﴿ **وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً** ﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، موحى إليه من الله قال المفسرون : إدريس هوجدُّ نوح ، وأول مرسل بعد آدم من خطَّ بالقلم ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً** ﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله[٣] ﴿ **أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنبيينَ** ﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام ، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة ـ وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس ـ وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿ **مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ** ﴾ أي من نسل آدم كإدريس ﴿ **وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ** ﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ** ﴾ كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ **وَإِسْرَائيل** ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو « يعقوب » كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا** ﴾ أي وممن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً** ﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة ، وسموِّ النفس ، والزلفى من الله تعالى ، قال القرطبي : وفي الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيراً

(١) المختصر ٢/٤٥٦ . (٢) الفخر الرازي ٢١/٢٣٢ . (٣) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة .

في القلوب[١] ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ ﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء ، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ أي سوف يلقون كل شرٍّ وخسارٍ ودمار ، قال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ بالله من حره[٢] .

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

﴿ إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَملَ صَالِحاً ﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿ فَأُولَئكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَيُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي فأولئك يُسعدون في الجنة ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ التَّي وَعَدَ ٱلرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي هي جنات إقامة التى وعدهم بها ربهم فآمنوا بها بالغيب قبل أن يروها تصديقاً بوعده تعالى ﴿ إنه كَان وَعْدُهُ مَأتِيّاً ﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آت وحاصلٌ لا يخُلف ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلاَّ سَلاَماً ﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام ، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام ، والاستثناء منقطع ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍّ ولا تعب ، ولا تنغص ولا انقطاع ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلتَّي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿ وَمَانَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترةً من الزمن والمعنى : ما نتنزل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْن ذَلِكَ ﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر ، أمر الدنيا والآخرة ، وهو المحيط بكل شيء لاتخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه ؟ ﴿ وَما كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد .

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ

(١) القرطبي ١١/١٢٠ . (٢) القرطبي ١١/١٢٥ .

أَءِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ
لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ
عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

﴿ **ربُّ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ** ﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿ **وَٱصْطَبِرْ لِعَبادَتِه** ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** ﴾ أي تعلم له شبيهاً ونظيراً ؟ ﴿ **وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أئذاَ مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً** ﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإِنكار والاستبعاد : أئذا متُّ وأصبحت تراباً ورفاتاً فسوف أُخرج من القبر حياً ؟ قال ابن كثير : يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته[1] ، واللام « لسوف » للمبالغة في الإِنكار ، وهو إنكار منشؤه غفلة الإِنسان عن نشأته الأولى ، أين كان ؟ وكيف كان ؟ ولو تذكّر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿ **أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسان أَنا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً** ﴾ أي أَولاَ يتذكر هذا المكذِّب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإِعادة ؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء ؟ قال بعضُ العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذْ لا شكَّ أنَّ الإِعادة ثانياً أهونُ من الإِيجاد أولاً[2] ، ونظيره قوله ﴿ قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّياطينَ** ﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرنَّ هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغووهم قال المفسرون : يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ **ثُمَّ لَنُحْضِرنَّهُمْ حَوْلَ جَهنَّمَ جِثِيّاً** ﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفزع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ **ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ** ﴾ أي لنأخذنَّ ولننتزعنَّ من كل فرقةٍ وجماعة ارتبطت بمذهب ﴿ **أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمٰنِ عِتِيّاً** ﴾ أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً ، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقذف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود : يُبدأ بالأكابر جرماً ﴿ **ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِها صِلِيّاً** ﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرها وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبدأ بهم ﴿ **وَإِن مِنكُمْ إِلاّ وَارِدُهَا** ﴾ أي ما منكم أحدٌ من بر أو فاجر إلّا وسيرد على النار ، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿ **كَانَ عَلَىٰ رَبّكَ حَتْماً مقْضِيّاً** ﴾ أي كان ذلك

(١) المختصر ٢/٤٦٠ . (٢) الفخر الرازي ٢١/٢٤١ .

الورود[١] قضاءً لازماً لا يمكن خلفه .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٞ مَّقَامٗا وَأَحْسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءْيٗا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضْعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ **ثُمَّ نُنَجّي ٱلذينَ ٱتَّقوا** ﴾ أي ننجّي من جهنم المتقين بعد مرور عليها ﴿ **ونَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ أي ونترك الظالمين في جهنم قعوداً على الركب قال البيضاوي : والآية دليلٌ على أن المراد بالورود الجثوُ حواليها ، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم[٢] ﴿ **وَإِذَا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، واضحات الإعجاز ، بينات المعاني ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمنوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً** ﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أيُّ الفريقين : ـ نحن أو أنتم ـ أحسنُ مسكناً ، وأطيب عيشاً ، وأكرم منتدى ومجلساً ؟ قال البيضاوي : إن المشركين لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا ، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم[٣] ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئياً** ﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً ، وأجمل صورة ومنظراً ، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين ، فلا يغترَّ هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿ **قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَنُ مَدّاً** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق : من كان في الضلالة منا ومنكم فليمهله الرحمن فيما هو فيه ، وليدعْه في طغيانه ، حتى يلقى ربه وينقضي أجله قال القرطبي : وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد[٤] ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ** ﴾ أي حتى يروا ما يحلُّ بهم من وعد الله ﴿ **إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ** ﴾ أي إمّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأهوال ﴿ **فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌ مكاناً وَأَضْعَفُ جُنداً** ﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين شرٌّ

(١) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس : الورود الدخول ، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلّا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقال ابن مسعود وقتادة : الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط ، ولعل هذا القول أصح أجارنا الله من جهنم . (٢) البيضاوي ٢/١٩ . (٣) القرطبي ١١/١٤٤ .
(٤) البيضاوي ٢/٢٠ .

منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصاراً ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا في مقابلة قولهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ .

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

﴿ **وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدىً** ﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين ، بصيرة وإيماناً وهداية ﴿ **وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً** ﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿ **وَخَيْرٌ مرَدّاً** ﴾ أي وخير رجوعاً وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿ **أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآياتنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً** ﴾ نزلت في العاص بن وائل ، والاستفهام للتعجب أي تعجَّب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿ **أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ** ﴾ أي هل اطَّلع على الغيب الذي تفرَّد به علاّم الغيوب ؟ ﴿ **أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً** ﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟ ﴿ **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ** ﴾ ردٌّ عليه ، ولفظةُ « كلاّ » للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه ﴿ **وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدّاً** ﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه ، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿ **وَنرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً** ﴾ أي ونرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه ، ويأتينا وحيداً لامال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ﴿ **وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ آلِهةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً** ﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزَّ والشرف ﴿ **كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً** ﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة .

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ

نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّياطين على الكفرين تؤزهم أزّاً** ﴾ أي ألم تر يا محمد أنَّا سلطنا الشياطين على الكافرين تُغريهم إغراءً بالشر ، وتهيّجهم تهييجاً متى ركبوا المعاصي قال الرازي : أي تقربهم على المعاصي وحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات[١] ﴿ **فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً** ﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم ألا أيام وأنفاس نعدُّها عليهم عدّاً ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس : نعدُّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدُّ عليهم سنيَّهم[٢] ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمٰنِ وَفْداً** ﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزَّزين مكرَّمين ، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿ **وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً** ﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث (يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتُجرُّ بقيتهم إلى النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا)[٣] ﴿ **لايَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ** ﴾ أي لايشفعون ولا يُشفع لهم ﴿ **إلاَّ مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً** ﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ من تحلَّى بالإِيمان والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس : العهدُ « شهادة أن لا إله إلا الله » ﴿ **وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَداً** ﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿ **لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً** ﴾ أي لقد أتيتم أيها المشركون بقول منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة ﴿ **تَكَادُ ٱلسَّمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ** ﴾ أي تكاد السموات تتشقَّق من هول هذا القول ﴿ **وَتَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً** ﴾ أي وتنشقُّ كذلك الأرض وتندكُّ الجبال وتُهدُّ هداً استعظاماً للكلمة الشنيعة ﴿ **أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً** ﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة ، وهو المنزَّه عن الشبيه والنظير ، والغني عن المعين والنصير .

---

(١) التفسير الكبير ٢٥٢/٢١ . (٢) القرطبي ١٥٠/١١ (٣) أخرجه الشيخان .

إن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

﴿ **إن كُلُّ مَن في ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إلاَّ آتي ٱلرَّحْمٰنِ عَبْداً** ﴾ أي مامن مخلوق في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبدُ لله ، ذليلٌ خاضعٌ بين يديه ، منقادٌ مطيع له كما يفعل العبيد ﴿ **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً** ﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿ **وَكُلُّهُمْ آتِيه يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ فَرْداً** ﴾ أي وكل فردٍ يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً ، بلا مال ولا نصير ، ولا معين ولا خفير ﴿ **إنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمٰنُ وُدّاً** ﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة قال الربيع : يحبُّهم ويحببهم إلى الناس﴿ **فَإنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً** ﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه ، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره ، لتبشّر به المؤمنين المتقين ، وتخوّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ** ﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، و« كم » للتكثير ﴿ **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ** ﴾ أي هل ترى منهم أحداً ؟ ﴿ **أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً** ﴾ أي أو تسمع لهم صوتاً خفياً ؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار ، وأوحشت منهم المنازل ، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم)

(٢٠) سُورَةُ طٰهٰ مَكِّيَّة
وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بَيْنَ يَدَيْ السُّورَة

سورة طه مكية ، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية ، وغرضُها تركيز أصول الدين « التوحيد ، والنبوة ، والبعث والنشور » .

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ ، في شدّ أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد ، والاستهزاء والتكذيب ، ولإرشاده إلى وظيفته الأساسية ، وهي التبليغ والتذكير ، والإنذار والتبشير ، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان .

* عرضت السورة لقصص الأنبياء، تسلية لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف ، فذكرت بالتفصيل قصة « موسى وهارون » مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه ، وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة ، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعايةُ الله لموسى ، نبيّه وكليمه ، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين .

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف ، برزت فيه رحمة الله لآدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر .

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة ، في عبارات يرتجف لها الكون ، وتهتز لها القلوب هَلعاً وجزعاً ، ويعتري الناس الذهولُ والسكون ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً** ﴾ .

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر ، حيث يتم الحساب العادل ، ويعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين .

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية : سميت «سورة طه » وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، تطييباً لقلبه ، وتسليةً لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

تفسير سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾

﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن[1] وقال ابن عباس : معناها يا رجل ، ومعنى الآية : ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة ، رُوى أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلّى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فنزلت هذه الآية[2] ﴿ إلا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه ، وهو المؤمنُ المستنير بنور القرآن ﴿ تَنزِيلاً ممن خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّموَاتِ الْعُلَى ﴾ أي أنزله خالقُ الأرض ، ومبدعُ الكون ، ورافع السموات الواسعة العالية ، والآية إخبارٌ عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر : ووصفُ السمواتِ بالعُلى دليلٌ على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علُوّها من غيره تعالى[3] ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ أي ذلك الربُّ الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تجسيم ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف[4] ﴿ لَهُ مَا في

(١) انظر أول سورة البقرة . (٢) هذا قول الضحاك وانظر زاد المسير ٥/٢٦٨ . (٣) البحر ٦/٢٢٦ .
(٤) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرعد .

﴿ ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا في ٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كلّه : السمواتُ السبعُ ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات ، الكلُّ ملكُه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه أي وإن تجهرْ يا محمد بالقول أو ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ تخفه في نفسك فسواءُ عند ربك ، فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخاطر . . والغرضُ من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه ، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السرَّ وما هو أخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسرِّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿ ٱللَّهُ لَاإِله إلا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحُسن وفي الحديث (إن للّهِ تسعةً وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة)[1] ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقى إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة ؟ .

إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ
أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ
فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

﴿ إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا۟ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي حين رأى ناراً فقال لامرأته أقيمي مكانك فإني أبصرتُ ناراً قال ابن عباس : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شررٌ فبينما هو كذلك إذْ بصر بنارٍ من بعيد على يسار الطريق ، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله ﴿ لعَلّى آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي لعلي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدىً ﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ أي فلما أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء وناداه ربُّه يا موسى[2] : إني

(١) أخرجه الترمذي . (٢) قال سيد قطب تغمده الله بالرحمة ، وجمَّل قاتليه باللعنة : إن القلب ليجفُّ ، وإن الكيان ليرتجف ، وهو يتصور ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة ، والليل دامسٌ ، والظلام شامل ، والصمت مخيم ، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور ، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء العلوى ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ الظلال ٥/٦٨ .

أنا ربُّك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأَقْبل ﴿ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ﴾ أي فإنك بالوادي المطهَّر المبارك المسمّى طوى ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ أي اصطفيتك للنبوة فاستمع لما أُوحيه إليك قال الرازي : فيه نهايةُ الهيبة والجلالة فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه(١) ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ أي أقم الصلاة لتذكرني فيها قال مجاهد : إذا صلّى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار(٢) وقال الصاوي : خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلةً في جملة العبادات لعظم شأنها ، واحتوائها على الذكر ، وشغل القلب واللسان والجوارح ، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد(٣) ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف أطلعكم عليها(٤) ؟ قال المبرِّد : وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أي لتنال كلُّ نفس جزاء ما عملت من خير أو شر قال المفسرون : والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار ، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت ، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك ، فيتخلصون من العقاب ، ولكنَّ الله عمَّى الأمر ، ليظلَّ الناس على حذر دائم ، وعلى استعداد دائم ، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ أي لا يصرفنَّك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي مالَ مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾
قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾
وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾
ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾

(١) الرازي ٢٢/١٩ . (٢) الرازي ٢٢/١٩ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٥٠ . (٤) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره الطبري وهو الأرجح في تفسير الآية وهناك أقوال أخرى لاتخلو من ضعف وانظر البحر المحيط ٦/٢٣٢ .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسىٰ ﴾ أي وما هذه التي بيمينك يا موسى ؟ أليست عصا ؟ والغرضُ من الاستفهام التقريرُ والإيقاظُ والتنبيهُ إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية ، لتظهر لموسى القدرة الباهرة ، والمعجزة القاهرة قال ابن كثير : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي أمَا هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ؟ فسترى ما نصنع بها الآن[1] ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيها ﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿ وَأَهُشُّ بها عَلَىٰ غَنَمي ﴾ أي أهزُّ بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿ وَلِي فيها مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أُخَر غير ذلك قال المفسرون : كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة ، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب ، وكلام الحبيب مريحٌ للنفس ومُذْهبٌ للعَناء ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسىٰ ﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى ! ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أي فلما ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك في غاية السرعة قال ابن عباس : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً[2] قال المفسرون : لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل ، لحقه ما يلحق البشر عند رؤ ية الأهوال والمخاوف ، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول ، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرَّب وتعوَّد ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ﴾ أي قال له ربه : خذْها يا موسى ولا تخفْ منها ﴿ سَنُعيدُهَا سيرتهَا ٱلأُولَىٰ ﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حيَّة ، فأمسكها فعادت عصا ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص قال ابن كثير : كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى[3] ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي معجزة ثانية غير العصا ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرى ﴾ أي لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة . . أراه الله معجزتين « العصا واليد » وهي بعض ما أيَّده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان ﴿ ٱذْهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي إذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبَّر وتجبَّر وجاوز الحدَّ في الطغيان حتى ادَّعى الألوهية ﴿ قَالَ

(١) المختصر ٢/٤٧٢ . (٢) القرطبي ١١/١٩٠ . (٣) المختصر ٢/٤٧٣ .

رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ أي وسِّعْه ونوِّره بالإِيمان والنُّبوّة ﴿ وَيَسِّرْ لي أَمْرِي ﴾ أي سهِّلْ عليَّ القيام بما كلفتني من أعباء الرسالة والدعوة .

وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَاني يَفْقَهُوا قَولِي ﴾ أي حلَّ هذه اللُّكْنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي قال المفسرون : عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حِجْرِهِ وهو صغير فجرَّ لحية فرعون بيده فهمَّ بقتله ، فقالت له آسية : إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك ، قدّمْ إليه جمرتين ولؤلؤتين ، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل ، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل ، فقدَّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حَبْسة[1] ﴿ وَٱجْعَل لي وَزِيراً مِنْ أَهْلي هَارُونَ أَخي ﴾ أي اجعل لي معيناً يساعدني ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿ ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ أي لتقوِّي به يارب ظهري ﴿ وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي ﴾ أي اجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كثيراً ﴾ أي كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ أي عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا ، طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشدُّ به أزره ، لما يعلم منه من فصاحة اللسان ، وثبات الجنَان ، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ ﴾ أي أُعطيت ما سألتَ وما طلبتَ ، ثم ذكّره تعالى بالمنن العظام عليه ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ أي أنعمنا عليك يا موسى بمنَّة أخرى غير هذه المنة ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحىٰ ﴾ أي ألهمناها ما يُلهم ممّا كان سبباً في نجاتك .

أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ

(١) انظر الطبري ١٦/١٥٩ وقيل كان ذلك خلقة فسأل الله تعالى إزالته .

جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾

﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ أي ألهمناها أن ألْقِ هذا الطفل في الصندوق ثم اطرحيه في نهر النيل ، ثم ماذا ؟ ومن يتسلمه ؟ ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوُّه قال في البحر : ﴿فلْيلْقه ﴾ أمرٌ معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذْ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها[1] ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّي ﴾ أي زرعتُ في القلوب محبتك بحيث لايكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبَّك فرعون قال ابن عباس : أحبَّه الله وحبَّبه إلى خلقه ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ أي ولتُربّى بعين الله بحفظي ورعايتي ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أي حين تمشي أختك وتتَّبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع : هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته ؟ قال المفسرون : لمّا التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرَّم عليه المراضع وبقيت أُمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتَّبع خبره ، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت : هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل ؟ فطلبوا منها إحضارها فأتت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً وقالت لها : كوني معي في القصر فقالت : لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكنْ آخذه معي وآتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسنت إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ ﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تُسرَّ بلقائك ، وتطمئن بسلامتك ونجاتك ، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمّ ﴾ أي قتلت القبطي حين أصبحت شاباً فنجيناك من غمّ القتل وصرفنا عنك شرَّ فرعون وزبانيته ، وفي صحيح مسلم : وكان قتله خطأ ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتوناً ﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المِحن ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مدْيَنَ ﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَامُوسَىٰ ﴾ أي جئت على موعدٍ ووقت مقدر للرسالة والنبوة ﴿ وَٱصطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي اخترتك لرسالتي ووحيي ﴿ اذْهَبْ أَنت وَأَخُوكَ بآيَاتي ﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون : المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيّد الله بها موسى ﴿ وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ أي لا تفترا وتقصِّرا في ذكر الله وتسبيحه قال ابن كثير : والمراد ألاّ يفترا عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له[2] .

(١) البحر المحيط ٦/٢٤١ . (٢) المختصر ٢/٤٨٢ .

ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾

﴿ **ٱذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** ﴾ أي تجبَّر وتكبَّر وبلغ النهاية في العتُو والطغيان ﴿ **فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً** ﴾ أي قولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً ﴿ **لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿ **قالاَ رَبَّنَا إنّنا نَخافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ** ﴾ أي قال موسى وهارون : يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه إلى الإيمان أن يعجِّل علينا العقوبة ، أو يجاوز الحدَّ في الإساءة إلينا ﴿ **قَالَ لاَتَخَافَا إنَّني مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما ، وأرى ما يفعل بكما ﴿ **فَأتِيَاهُ فقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ** ﴾ أي إنا رسولان من عند ربك أرسلنا إليك ، وتخصيص الذكر بلفظ ﴿ ربك ﴾ لإعلامه أنه مربوبٌ وعبدٌ مملوكٌ لله إذْ كان يدَّعي الربوبية ﴿ **فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَني إسْرائيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ** ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿ **قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِن ربِّكَ** ﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿ **وَٱلسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ** ﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله قال المفسرون : لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب الله وسخطه ﴿ **إنَّا قد أُوحِيَ إلَيْنَا أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا أن العذاب الأليم على من كذَّب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿ **قَالَ فَمَن ربُّكُمَا يا مُوسَىٰ** ﴾ أي قال فرعون : ومن هذا الربُّ الذي تدعوني إليه يا موسى ؟ فإني لا أعرفه ؟ ولم يقل : من ربّي لغاية عتّوه ونهاية طغيانه بل أضافة إلى موسى وهارون ﴿ من ربكما ﴾ .

قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أي ربُّنا هو الذي أبدع كل شيء خَلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه ، وهذا جوابٌ في غاية البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها ، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأُذُن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان قال الزمخشري : ولله درُّ هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿ قَالَ فما بَالُ ٱلْقُرُون ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية ؟ لِم لَمْ يُبعثوا ولم يحُاسبوا إن كان ما تقول حقاً ؟ قال ابن كثير : لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدَّر فهدى ، شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى كأنه يقول : ما بالهم إذْ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربَّك بل عبدوا غيره ؟[1]
﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتاب ﴾ أي قال موسى : علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطرٌ في اللوح المحفوظ ﴿ لايَضِلُّ رَبِّي وَلَايَنسَى ﴾ أي لا يخطىء ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها .
ثم شرع موسى يبيّن له الدلائل على وجود الله وآثار قدرته الباهرة فقال ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً ﴾ أي جعل الأرض كالمهد تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي جعل لكم طُرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فراتاً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِن نباتٍ شَتَّىٰ ﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كلُّ صنف منها زوج ، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿ كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله ، والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنِّعم ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأولي ٱلنُّهى ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي من الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب . . ثم أخبر تعالى عن عتوِّ فرعون وعناده فقال ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهاَ ﴾ أي والله لقد بصَّرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوّة موسى من العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، وسائر الآيات التسع ﴿ فكَذَّب وأَبَىٰ ﴾ أي كذَّب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر ، وأبى الإيمان والطاعة لعتوِّهِ واستكباره .

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا

(١) الطبري ١٦/١٦٨ .

لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾

﴿ **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسىٰ** ﴾ أي قال فرعون : أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر ؟ ﴿ **فَلَنَأتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ** ﴾ أي فلنعارضنَّك بسحر مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولستَ برسول ﴿ **فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً** ﴾ أي عيِّنْ لنا وقت اجتماع ﴿ **لانُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوىً** ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معيَّن ووقت معيَّن[1] ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً** ﴾ أي قال موسى : موعدنا للاجتماع يوم العيد ـ يومٌ من أيام أعيادهم ـ وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون : وإنما عيَّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد ، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿ **فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ** ﴾ أي انصرف فرعون فجمع السَّحرة ثم أتى الموعد ومعه السَّحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطفىء نور الله قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ[2] ﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيلَكُمْ لاَتفْتَرُوا عَلَىٰ ٱللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ** ﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ** ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله . . قدَّم لهم النصح والإنذار لعلَّهم يثوبون إلى الهُدى ، ولما سمع السَّحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعتْ في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿ **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوىٰ** ﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرّاً .

قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾

(١) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿ **مكاناً سُوى** ﴾ واختار الطبري أن المراد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين .
(٢) القرطبي ١١/٢١٤ .

﴿ قَالُوا إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ أي قالوا بعد التناظر والتشاور ما هذان إلا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أي غرضهُما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان قال الزمخشري : والظاهر أنهم تشاوروا في السرِّ وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا ﴿ إنْ هذان لساحران ﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما وتثبيطاً للناس من اتباعهما[١] ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفّاً ﴾ أي أحْكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعوا وارموا عن قوس واحدة ، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب قال المفسرون : أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى ﴿ قالوا أئنَّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ أي قال السحرة لموسى : إمَّا أن تبدأ أنت بالإلقاء أو نبدأ نحنُ ؟ خيرُّوه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أي قال لهم موسى : بل ابدءوا أنتم بالإلقاء قال أبو السعود : قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسنَ من أدبهم حيث بتَّ القول بإلقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ليُبرزوا ما معهم ، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم ، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه[٢] ﴿ فإذاحِبَالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ في الكلام حذفٌ دلَّ عليه المعنى أي فألقوا فإذا تلك الحبال والعصيُّ التي ألقوها يتخيلها موسى ويظنُّها ـ من عظمة السحر ـ أنها حيات تتحركُ وتسعى على بطونها ، والتعبيرُ يوحي بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ أي أحس موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً ﴿ قُلْنَا لاتَخَفْ إنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي قلنا لموسى لا تخف ممّا توهمت[٣] فإنك أنت الغالب المنتصر .

وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ

(١) الكشاف ٣ . (٢) أبو السعود ٣/٣١٣ . (٣) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الراهنة بهذا القول .

ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ أي ألقِ عصاك التي بيمينك تبتلعْ بفهمها ما صنعوه من السحر ﴿ إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ أي إنَّ الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ أي لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلِّل ﴿ فَأُلْقِي ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخرَّ السحرة حينئذ سجداً لله ربّ العالمين لما رأوا من الآية الباهرة قال ابن كثير : لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ، ذا قوائم وعُنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتعلته ، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً نهاراً ، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حقٌّ لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ، قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة[١] ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أسمح لكم بذلك وقبل أن تستأذنوني ؟ ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علَّمكم السحر فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال القرطبي : وإنما أراد فرعون بقوله هذا أن يُلبِّس على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم[٢] ، ثم توعدَّهم وهدَّدهم بالقتل والتعذيب فقال ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلاَفٍ ﴾ أي فوالله لأقطعنَّ الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أي لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شرَّ قِتْلة ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ ﴾ أي ولتعلمُنَّ أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذاباً وأدوم ، هل أنا أم ربُّ موسى الذي صدقتم به وآمنتم

قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن

(١) المختصر ٢/٤٨٦ . (٢) القرطبي ١١/٢٢٤ .

يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَاجَاءَنَا مِن الْبَيِّنَاتِ ﴾ أي قال السحرة : لن نختارك ونفضّلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ﴾ قسمٌ بالله أي مقسمين بالله الذي خلقنا ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي فاصنع ما أنت صانع ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في النعيم الخالد قال عكرمة : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا[١] ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصي ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور الله ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي والله خيرٌ منك ثواباً وأبقى عذاباً ، وهذا جوابُ قوله ﴿ ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وابقى ﴾ ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ هذا من تتمة كلام السحرة عظة لفرعون أي من يلقى ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر ، فإن له نار جهنم ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة[٢] ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ أي ومن يلقى ربه مؤمناً موحّداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيانٌ للدرجات العُلى جناتُ إقامة ذات الدرجات العاليات ، والغُرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ﴾ أي تجري من تحت غرفها وسرُرها أنهار الجنة من الخمر والعسل ، واللّبن ، والماء ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين في الجنة دوماً

(١) القرطبي ٢٢٥/١١ . (٢) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى : ألاَ مَنْ لنفسٍ لا تُموتُ فينقضي شقاها ولا تحيا حياةً لها

لا يخرجون منها أبداً ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي وذلك ثواب من تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي ، وفي الحديث (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة فإذا سألتم الله فأسألوه الفردوس)[٣] ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ موسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي ﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أنْ سرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿ فَٱضْرِب لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً ﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرون عليه ﴿ لا تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَىٰ ﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده ، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم ، وغشيهم من الأهوال مالا يعلم كُنهه إلا الله ، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة ، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِن عَدُوِّكُمْ ﴾ خطابٌ لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتى العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين يسومونكم سوء العذاب ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن ، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون منفعتها راجعة إليهم إذْ في نزول التوراة صلاحُ دينهم ودنياهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمنِّ وهو يشبه العسل ، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم . . وفي هذا الترتيب غايةُ الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء ، ثم بالنعمة الدينية ، ثم بالنعمة الدنيوية .

كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ * وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

﴿ كُلُوا مِن طَيِبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي وقلنا لكم كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمتُ به عليكم ﴿ وَلاَتَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي ﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمري فينزل بكم عذابي ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي

(٣) رواه أحمد والترمذي .

وعقابي فقد هلك وشقي ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسَّن إيمانه وعمله ، ثم استقام على الهدى والإيمان ، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة العصيان ببيان المخرج كيلا ييأس ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَامُوسَىٰ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ عجَّل بك عن قومك يا موسى ؟ قال الزمخشري : كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه[1] ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلاۤءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أي قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي وعجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضىً عني . . اعتذر موسى أولاً ثم بيَّن السبب في إسراعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ أي وأوقعهم السامريُّ في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل ، وكان السامري ساحراً منافقاً من قومٍ يعبدون البقر قال المفسرون : كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامريُّ الحليَّ ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً .

فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ أي ألم يعدْكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِن ربِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم موْعِدِي ﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم

(١) الكشاف ٣/٨٩ .

وعدي ؟ قال ابو حيان : وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنّة موسى عليه السلام ، ولا يخالفوا أمر الله أبداً ، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل[١] ﴿ **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا** ﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿ **وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزاراً مِن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا** ﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حُليِّ آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد : أوزاراً : أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿ **فَكَذَلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ** ﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون : كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحُلي قبل خروجهم من مصر ، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري : إنما احتُبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري ، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضةً من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور[٢] فذلك قوله تعالى ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً** جَسَداً **لهُ خُوَار** ﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحليّ المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوارٌ وهو صوت البقر[٣] ﴿ **فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي موسى إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور ، قال قتادة : نسي موسى ربه عندكم ، فعكفوا عليه يعبدونه ، قال تعالى رداً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَيَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً** ﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يردُّ لهم جواباً ، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾

﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ** ﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إنما ابْتُليتُم وأُضللتم بهذا العجل ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُوني وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ أي وإنَّ ربكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا العجل ، فاقتدوا بي فيما أدعوكم إليه من

(١) البحر ٦/٢٦٨ . (٢) هذا خلاصة قول ابن عباس وقتادة ومجاهد كذا في الطبري ١٦/٢٠٠ . (٣) قال الرازي : قيل إنه صارحياً وخار ، وقيل : لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل . الرازي ٢٢/١٠٣ .

عبادة الله ، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أي قالوا لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر[1] ﴿ قَالَ يَاهَارُونُ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ ؟ في الكلام حذفُ أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلأ غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له : أيُّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال ؟ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي ؟ قال المفسرون : وأمرهُ هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخْلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتّبع سبيل المفسدين ﴾ ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ولا بِرَأْسِي ﴾ أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً : يا ابن أمي - أي يا أخي - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس : أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لأن الغيْرة في الله ملكتْه ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي إني خفت إن زجرتُهم بالقوة أن يقع قتالٌ بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي : لقد أشعلتَ الفتنة بينهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي لم تنتظر أمري فيهم ، فمن أجل ذلك رأيتُ ألا أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ ﴾ أي ما شأنك فيما صنعت ؟ وما الذي حملك عليه يا سامري ؟ .

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي قال السامريُّ : رأيتُ مالم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فأُلقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيتُه على شيء إلا دبَّت فيه

(١) قال سيد قطب عليه الرحمة في تفسير الظلال « ماكاد بنو إسرائيل يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر ، وبلادة روح قالوا ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه ، وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم بأنه غير موصول بربه حتى ليضل الطريق إليه فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه ، وهذا العجل لم يكن حياً يسمع قولهم ويستجيب نداءهم لأنه جسد لا حياة فيه فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية ، ولقد نصحهم هارون ولكنهم بدلاً من الاستجابة التووا وتملصوا من نصحه » .

الحياة ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أي وكذلك حسَّنتْ وزيَّنَتْ لي نفسي ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أي قال موسى للسامريّ : عقوبتك في الدنيا ألّا تمسَّ أحداً ولا يمسَّك أحد قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماسَّ الناس وَلا يمسّوه عقوبة له في الدنيا وكأن الله عز وجل شدَّد عليه المحنة ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لن تُخْلَفَهُ ﴾ أي وإن لك موعداً للعذاب في الآخرة يتخلَّف ﴿ وٱنظُرْ إلى إلٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿ لَنُحَرِقَنَّهُ ثُمَّ لننسفنه في ٱلْيَمِّ نَسْفاً ﴾ أي لنحرقنَّه بالنار ثم لنطيرنَّه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿ إِنَّما إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا ربَّ سواه ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي وسع علمه كلَّ شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْراً ﴾ أي أعطيناك قرآناً يتلى منطوياً على المعجزات الباهرة قال في البحر : امتن تعالى عليك بإيتائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار ، الدال على معجزات أُوتيها عليه السلام[1] .

مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾

﴿ منْ أَعْرَضَ عَنْهُ فإنهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وزراً ﴾ أي من أعراض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يتَّبع ما فيه ، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً ، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم ﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حِمْلاً ﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم ، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم ، شُبِّهَ الوزرُ بالحمل لثقله ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ في ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ

(١) البحر المحيط ٢٧٨/٦ .

زُرْقاً ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زُرق العيون سود الوجوه قال القرطبي : تُشوه خلقتُهم بزرقة العيون وسواد الوجوه(١) ﴿ **يَتخافَتُونَ بَينَهُمْ إن لبثتم إلا عَشْراً** ﴾ أي يتهامسون بينهم ويسرُّ بعضهم إلى بعض قائلين : ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال أبو السعود : استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال(٢) ﴿ **نحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَة إن لبِثْتُمْ إلا يَوْماً** ﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعدلهم قولاً ما لبثتم إلا يوماً واحداً ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** ﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم : إن ربي يفتّتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيّرها ﴿ **فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً** ﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿ **لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً** ﴾ أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

﴿ **يَوْمَئذٍ يَتبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لاَعِوَجَ لَهُ** ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتّبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿ **وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ** ﴾ أي ذلّت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿ **فَلَا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً** ﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكادُ يسمع وعن ابن عباس : هو همسُ الأقدام في مشيها نحو المحشر(٣) ﴿ **يَوْمَئذٍ لاتنفعُ ٱلشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلّا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، ورضي لأجله شفاعة الشافع ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله ، قال ابن عباس ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ أي يعلم تعالى أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿ **وَلَايُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً** ﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا(٤) ﴿ **وَعَنَت ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيّ ٱلْقَيُّوم** ﴾ أي ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السموات والأرض الذي

(١) القرطبي ١١/٢٤٤ . (٢) أبو السعود ٣/٣٢٤ . (٣) الطبري ١٦/٢١٤ . (٤) وقيل المراد : لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله واختاره في التسهيل .

لا يموت قال الزمخشري : المراد بالوجوه وجوهُ العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوهُهم عانيةً أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العُناة وهم الأسارى كقوله ﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾[1] ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** ﴾ أي خسر من أشرك بالله ، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤمِنٌ** ﴾ أي من قدَّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿ **فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضماً** ﴾ أي فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا بخساً ونقصاً لحسناته .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾

﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً** ﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر ﴿ **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيد** ﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** ﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿ **فَتَعَالَىٰ ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ** ﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عمّا يصفه به المشركون من خلقه ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُه** ﴾ أي إذا آقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه ، بل استمع إليهِ واصبر حتى يفرغَ من تلاوته وحينئذٍ تقرأه أنت قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿ لا تحرِّكْ به لسانك لتعجلَ به ﴾[2] ﴿ **وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْماً** ﴾ أي سل الله عز وجل زيادة العلم النافع قال الطبري : أمره بمسألته من فوائد العلم مالا يعلم[3] ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ** ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** ﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عمّا نهيناه عنه ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ آسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ**

(١) الكشاف ٣/٩٢ . (٢) القرطبي ١١/٢٥٠ . (٣) الطبري ١٦/٢٢٠ .

أَبَىٰ ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضّله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فامتثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي : كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم[1] ﴿ **فقلنا يا آدمُ إن هذا عدوٌ لك ولزوجك** ﴾ أي ونبهنا آدم فقلنا له إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ أي لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان ، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل ولاستلزام شقائه لشقائها قال ابن كثير : المعنى إياك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك ، فإنك ههنا في عيش رغيد ، بلا كلفةٍ ولا مشقة[2] .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ** ﴾ أي إنَّ لك يا آدم ألَّا ينالك في الجنة الجوعُ ولا العريُ ﴿ **وَأَنَّكَ لاَتَظْمأ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ** ﴾ أي ولك أيضاً ألاّ يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس ، لأن الجنة دار السرور والحبور ، لاتعب فيها ولا نصب ، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ** ﴾ أي حدَّثه خفيةً بطريق الوسوسة ﴿ **قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّيَبْلَىٰ** ﴾ أي قال له إبليس اللعين : هل أدلك يا آدم على شجرة من أكل منها خُلّد ولم يمت أصلاً ، ونال المُلك الدائم الذي لا يزول أبداً ؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً ؟ ﴿ **فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا** ﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس : عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما[3] ﴿ **وَطَفِقَاَ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِماَ مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ** ﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿ **وَعَصَىٰ آدمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضلَّ عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٦٦/٣ . (٢) المختصر ٤٩٦/٢ . (٣) أبو السعود ٣٢٧/٣ .

بقول العدّو قال أبو السعود : وفي وصفه بالعصيان والغواية ـ مع صغر زلته ـ تعظيمٌ لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها[١] ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرَّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي قال الله لآدم وحواء : إنزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعضُ ذريتكما لبعض عدوٌّ بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري : لما كان آدم وحواء أصلي البشر جُعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم[٢] ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنّي هُدًى ﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل لهدايتكم ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ﴾ أي فمن تمسَّك بشريعتي واتَّبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الأخرة قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه إلا يضلَّ في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية[٣]

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسية شديدة وإن تنعَّم ظاهره ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير : من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيِّقٌ حرج لضلاله وإن تنعَّم ظاهره ولبس ما شاء وسكن حيث شاء ، وأكل ما شاء ، فإن قلبه في قلقٍ وحيرة وشك ، وقيل : يُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه[٤] ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴾ أي قال الكافر : يارب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً ؟ ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أي قال الله تعالى له : لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميتَ عنها وتركتها ، وكذلك تترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبهِ ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله

(١) نفس المرجع السابق والصفحة . (٢) الكشاف ٩٣/٣ . (٣) القرطبي ٢٥٨/١١ . (٤) المختصر ٤٩٧/٢ .

نعاقب من أسرف بالانهماك في الشهوات ، ولم يصدّق بكلام ربه وآياته البينات ﴿ **وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأنَّ عذابها أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿ **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ ٱلْقُرُونِ** ﴾ أي أفلم يتبيَّن لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسلهم ﴿ **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون ؟ ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ** ﴾ أي إنَّ في آثار هذا الأمم البائدة لدلالات وعبراً لذوي العقول السليمة .

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن ربّكَ لَكَانَ لِزاماً وَأَجلٌ مسَمًّى** ﴾ أي لولا قضاءُ الله بتأخير العذاب عنهم ووقتٌ مسمًّى لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم قال الفراء : في الآية تقديم وتأخيرٌ والمعنى ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى لكان لزاماً أي لكان العذاب لازماً لهم ، وإنما أخَّره لتعتدل رءوس الآي[1] ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ** ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿ **وَسَبِّحْ بحمدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها** ﴾ أي صلِّ وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر ﴿ **وَمِنْ آنَاءِ ٱللَّيْلِ فَسبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ** ﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره ﴿ **لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** ﴾ أي لعلَّك تُعطى ما يرضيك قال القرطبي : أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس ﴿ قبلَ طلوع الشمس ﴾ صلاة الصبح ﴿ وقبل غروبها ﴾ صلاة العصر ﴿ ومن آناءِ الليل ﴾ صلاة العشاء ﴿ وأطراف النهار ﴾ صلاة المغرب والظهر ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ، وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير[2] ﴿ **وَلَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ** ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع ﴿ **زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾

(١) زاد المسير ٥/٣٣٣ . (٢) القرطبي ١١/٢٦١ .

أي زينة الحياة الدنيا ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون : الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أُمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدَّ رغبة فيما عند الله ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير : أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله[1] .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن ربّهِ ﴾ أي قال المشركون هلاّ يأتينا بمعجزة تدل على صدقه ؟ ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا في ٱلصُّحُفِ ٱلأولَىٰ ﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع قال في البحر : اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة[2] ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي لو أنا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أي لقالوا يا ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً حتى نؤمن به ونتّبعه ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذلّ بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون : أراد تعالى أن يبيّن أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿ قُلْ كُلٌّ مترَبِصٌ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين كلٌ منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أمر تهديد أي فانتظروا العاقبة والنتيجة ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِراطِ ٱلسَّوِيّ ﴾ أي فستعلمون

(١) المختصر ٢/٥٠٠ . (٢) البحر المحيط ٦/٢٩٢ .

عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم ؟ ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال القرطبي : وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة[1] .

(تم بعونه تعالى تفسير سورة طه)

(١) القرطبي ١١/٢٦٥ .

(٢١) سُورَةُ الأنبِيَاءِ مَكِّيَّة وآيَاتُهَا اثنتَا عَشْرَةَ وَمِائَةٌ

بَيْن يَدَيْ السُّورَة

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة « الرسالة ، الوحدانية ، البعث والجزاء » وتتحدث عن الساعة وشدائدها ، والقيامة وأهوالها ، وعن قصص الأنبياء المرسلين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، بينما القيامة تلوح وهم غفلةٍ عن ذلك اليوم الرهيب ، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين ، وهم يشهدون مصارع الغابرين ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون ، حتى إذا ما فاجأهم العذاب ، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات .

* وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق ، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم ، فيما خلق وأبدع ، ولتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الإله الكبير .

* وبعد عرض الأدلة والبراهين ، الشاهدة على وحدانية رب العالمين ، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وتعقّب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين .

* ثم تتناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل ، وتتحدث بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين ، في أسلوب مشوّق ، فيه من نصاعة البيان ، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوع واستسلام ، وفي قصته عبر وعظات .

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن « إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذي الكفل ، وذي النون ،

وزكريا ، وعيسى » بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها ، وتختم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين .

التسـمية : سميت « سورة الأنبياء » لأن الله تعالى ذكر فيها جملةً من الأنبياء الكرام في استعراضٍ سريع ، يطول ويقصر أحياناً ، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية .

تفسـير سـورة الأنبياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات ، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب ، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل : الناس في غفلاتهم : ورحَى المنيَّة تطحن[1] ، وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آت قريب ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ ﴾ أي ما يأتيهم شيءٌ من الوحي والقرآن من عند الله متجدد في النزول فيه عظةٌ لهم وتذكير ﴿ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ أي إلا استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن : كلما جُدّد لهم الذكرُ استمروا على الجهل[2] ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ ﴾ أي ساهيةً قلوبهم عن كلام الله ، غافلة عن تدبر معناه ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سراً ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ أي قالو فيما بينهم خفيةً هل محمد الذي يدّعي الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ﴿ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ قال الألوسي : أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر ،

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٢/٥٠١ . (٢) القرطبي ١١/٢٦٨ .

وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن[1] ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ في ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قال محمد ﷺ إنَّ ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي السميع بأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديدٌ لهم ووعيد ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ هذا إضرابٌ من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن إنه أخلاط منامات ﴿ بَلِ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد قال في التسهيل : حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لا يستقرون على شيء[2] ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي فليأتنا محمدٌ بمعجزةٍ خارقة تدل على صدقه كما أُرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ما صدَّق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفيصدّق هؤلاء بالآيات لو رأوها ؟ كلا قال أبو حيان : وهذا استبعادٌ وإنكار أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضلَّ من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكنَّ الله تعالى حكم بإبقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون[3] .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إلاَّ رِجَالاً نوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإِنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة ؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر

(١) الألوسي ٩/١٧ . (٢) التسهيل ٢٣/٣ . (٣) البحر ٢٩٨/٦ .

البشر يأكلون ويشربون ، وينامون ويموتون ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ أي ما كانوا مخلَّدين في الدنيا لا يموتون ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْد فَأنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَشَاءُ ﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل ، المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال ، وهذا تخويفٌ لأهل مكة ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فيه ذِكْرُكُمْ ﴾ اللام للقسم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفُكم وعزكُم لأنه بلغتكم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام ؟ ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ وَأَنشَأْنَا بعْدَها قَوْماً آخَرِينَ ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان : لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين[1] .

لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿ لَاتَرْكُضُوا وَٱرجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاءً : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿ ومَسَاكِنِكُمْ ﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم ، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي قالوا يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل ، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويردّدونها ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزرع المحصود بالمناجل ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْض وَمَا بَيْنَهُمْا لَاعِبِينَ ﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً

(١) البحر ٦/٣٠٢ .

وباطلاً وإنما خلقناهما دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبّر الحكيم ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ قال ابن عباس : هذا ردٌّ على من قال اتخذ الله ولداً والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يُتلهى به من زوجةٍ أو ولد ﴿ لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَدُنَّا ﴾ أي لاتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿ إن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لاتخذنا من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويُبطله ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي هالك تالف ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد .

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي وله جلَّ وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له ؟ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَايَسْتَحْسِرونَ ﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يَعْيَون ولا يملّون ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَايَفْتُرُونَ ﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزهون الله عما لا يليق به ويصلّون ويذكرون الله ليل نهارٍ لا يضعفون ولا يسأمون ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض ملكٌ له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم ، و ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض قادرين على إحياء الموتى ؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرةُ على الإحياء والإماتة ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ هذا برهان على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع[1] في

(١) قال المفسرون : في الآية دليل على التمانع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلَهَين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه ، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين ، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلهاً .

الخلق والتدبير وقصد المغالبة ، ألا ترى أنه لا يوجد ملِكان في مدينة واحدة ، ولا رئيسان في دائرة واحدة ؟ ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزّه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ أي لا يسأل تعالى عمّا يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم فأفعاله كلُّها جارية على الحكمة ، وهم يُسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد .

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ كرّر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين ائتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَن مَعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلي ﴾ أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراك بالله ، ففي أي كتاب نزل هذا ؟ في القرآن أم في الكتب المنزّلة على سائر الأنبياء ؟ ! فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل ، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلمُونَ ٱلْحَق فَهُم معْرِضُونَ ﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِن رسُولٍ ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل ﴿ إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَإِلَهَ إلاَّ أَنَا ﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا ربَّ ولا معبود بحق سوى الله ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخذَ ٱلرَّحْمٰنُ وَلَداً ﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون : هم حيٌّ من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون ﴿ بَلْ عِبَادٌ مكْرَمُونَ ﴾ أي بل هم عبادٌ مبجَّلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿ لايسْبِقُونَهُ بالقوْلِ وهم بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنهم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربهم في أمرٍ من الأوامر ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

﴿ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس : هم أهل شهادة لا إله إلا الله ﴿ وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن : يرتعدون من خشية الله .

* وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إنّي إلهٌ مِن دُونِهِ ﴾ أي ومن يقل من الملائكة إني إلَهٌ ومعبودٌ مع الله ﴿ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهنَّمَ ﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون : هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرطُ لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿ كَذلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿ أَوَلَمْ يرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمواتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة وردٌّ على عبدة الأوثان أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرَّ الأرض كما هي ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السموات والأرض ملترقتين ففصل الله بينهما بالهواء[1] وقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تُنبت ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات[2] ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كَلَّ شَيءٍ حَيٍ ﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي أفلا يصدّقون بقدرة الله ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا في ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿ وَجَعَلْنَا فيِهَا فِجَاجاً سُبُلاً لعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير : جعل في الجبال ثُغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون

(١) القرطبي ٢٨٣/١١ . (٢) زاد المسير ٣٤٨/٥ .

الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوةً ليسلك الناس فيها من ههنا إلى هنا[١] ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً ﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس : حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون لا يتفكرون فيما ابدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة قال القرطبي : بيَّن تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها ، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك[٢] .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أي وهو تعالى بقدرته نوَّع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وبالعكس ، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي كلٌّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي وما جعلنا لأحدٍ من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿ أَفَئن مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴾ أي فهل إذا متَّ يا محمد سيخلَّدون بعدك في هذه الحياة ؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كلٌّ إلى الفناء قال المفسرون : هذا ردٌّ لقول المشركين ﴿ شاعرٌ نتربص به ريب المنون ﴾ فأعلم تعالى بأن الانبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ﴿ كُلُّ نَفسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء ولا يدوم إلا الحيُّ القيوم ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنِّعم لنرى الشاكر من الكافر ، والصابر من القانط قال ابن عباس : نبتليكم بالشدة

(١) المختصر ٢/٥٠٧ . (٢) القرطبي ١١/٢٨٥ .

والرخاء ، والصحة والسَّقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال[1] وقال ابن زيد : نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم ، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم[2] !! ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿ وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ أي إذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلا مهْزُوءاً به يقولون ﴿ أَهَذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ استفهام فيه إنكار وتعجيب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفه أحلامكم ؟ ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله قال القرطبي : كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل[3] ﴿ خُلِقَ ٱلإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي رُكب الإنسان على العَجلة فخُلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرَّة قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك[4] ولهذا قال ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى .

لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر : وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب وقدَّره الزمخشري بقوله : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكنَّ جهلهم هو الذي هوَّنه عندهم[5] ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا ناصر لهم من

(١) المختصر ٢/٥٠٨ . (٢) ابن الجوزي ٥/٣٥٠ (٣) القرطبي ١١/٢٨٨ —
(٤) المختصر ٢/٥٠٨ . (٥) البحر ٦/٣١٣ .

عذاب الله ﴿ **بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ** ﴾ أي بل تأتيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿ **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** ﴾ أي فلا يقدرون على صرفها عنهم ولا يُمهلون ويُؤخرون لتوبةٍ واعتذار ﴿ **وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ** ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزىء برسلٍ أولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿ **فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ أي فنزل وحلَّ بالساخرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان : سلّاه تعالى بأنَّ من تقدَّمه من الرسل وقع من أممهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جَنَوْها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين[1] ﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَٱلنَّهارِ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ** ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم ؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم ؟ وهو سؤال تقريع وتنبيه كيلا يغْترُّوا بما نالهم من نعم الله ﴿ **بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم معْرِضُونَ** ﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دُونِنَا** ﴾ أي ألهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا ؟ ﴿ **لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ أي لا يقدرون على نصر أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم ؟ ﴿ **وَلَا هُم مِنَّا يُصْحَبُونَ** ﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس : يُصحبون : يُجارون أي لا يُجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب لجاره[2] .

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ** ﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاغتروا بذلك ﴿ **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴾ أي أفلا ينظرون فيعْتبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها ؟ ﴿ **أَفَهُمُ**

(١) البحر ٦/٣١٤ . (٢) زاد المسير ٥/٣٥٣ .

﴿ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ استفهام بمعنى التقريع والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون ؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أخوفكم وأحذركم بوحيٍ من الله لا من تلقاء نفسي ، فأنا مبلّغٌ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصُمّ الذين لايسمعون الكلام والإنذار فلا يتعظون ولا ينزجرون ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ أي ولئن أصابهم شيء خفيف مما أُنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون : يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه ، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته ﴿ وَ إِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبةٍ من خردل جئنا بها وأحضرناها قال أبو السعود : أي وإن كان في غاية القلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر[1] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن : والغرضُ منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشدّ الخوف منه[2] .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نوراً وضياءً وتذكيراً للمؤمنين المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يروه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً عظيماً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه ﴿ وَهُم مِنَ

(١) أبو السعود ١٢٤/٣ . (٢) حاشية الجمل ١٣١/٣ .

﴿ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مبارَكٌ أنزَلْنَاهُ ﴾ أي وهذا القرآن العظيم كتاب عظيم الشأن فيه ذكرٌ لمن تذكّر ، وعظة لمن اتعظ ، كثير الخير أنزلناه عليكم بلغتكم ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكرونَ ﴾ أي أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور ؟ قال الكرخي : الاستفهام للتوبيخ والخطابُ لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه ، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتَهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤه[1] ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هُداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي عالمين أنه أهلٌ لما آتيناه من الفضل والنبوة ﴿ إِذْ قَالَ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ هذا بيانٌ للرشد الذي أُوتيه إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين ما هذه الأصنام التي مقيمون على عبادتها ؟ وفي قوله ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ تحقيرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أي نعبدها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير : لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال[2] ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ في ضَلَالٍ مبِينٍ ﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأ بيِّن بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّاعِبِينَ ﴾ أي هل أنت جادٌّ فيما تقول أم لاعب ؟ وهل قولك حقٌّ أم مزاح ؟ استعظموا إنكاره عليهم ، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً ، وجوَّزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جادٌّ فيما قال غير لاعب .

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿ قَالَ بَل ربُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو ربُّ السموات والأرض الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ لا هذه الأصنام المزعومة ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِنَ

(١) انظر البحر المحيط ٦/٣١٢ . (٢) المختصر ٢/٥١١ .

﴿ ٱلشَّاهِدِينَ ﴾ أي وأنا شاهد للهِ بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدَّعاوى ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أي وأقسمُ بالله لأمكرنَّ بآلهتكم وأحتالنَّ في وصول الضر إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون : كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا !! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿ وتالله لأكيدنَّ أصنامكم ﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها[1] ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ أي كسَّر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحطاماً ﴿ إلاَّ كبيراً لهُمْ ﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتجَّ به عليهم[2] ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ أي لعلَّهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسَّر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره : فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فُعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ : إنَّ من حطَّم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي قال من سمع من سمع إبراهيم يقول ﴿ وتالله لأكيدنَّ أصنامكم ﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبُّهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فلعله هو الذي حطَّم الآلهة ! ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي قال نمرود وأشراف قومه أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه ، والغرضُ أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به .

قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾

(١) تفسير الخازن ٣/٢٤١ . (٢) القرطبي ١١/٢٩٨ .

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي هل أنتَ الذي حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم ؟ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ أي قال إبراهيم بل حطَّمها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها ، والغرض تبكيتُهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها ؟ إن كانوا يقدرون على النطق قال القرطبي : والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه ﴿ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ فقال إبراهيم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضربون فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة[1] ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِم ﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم : لقد علمتَ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة ، وحينئذٍ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعنّفهم ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قبحاً لكم ونتناً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم ؟ ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ لمَّا لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا : احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرة لها ﴿ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي إن كنتم ناصريها حقاً .

قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ قُلْنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ أي ذات بردٍ وسلامة وجاءت العبارة هكذا للمبالغة قال المفسرون : لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة

(١) القرطبي ١١/٣٠٠ .

تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم ، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها لهب عظيم حتى إن الطائر ليمرُّ من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها ، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار ، فجاء إليه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ قال أمّا إليك فلا ، فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم[1] ، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس : لو لم يقل الله ﴿ وسلاماً ﴾ لآذى إبراهيم بردها[2] ﴿ **وَأَرَادوا به كيداً** ﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿ **فجعلناهم الأخسرين** ﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبيّ الله فردَّ الله كيدهم في نحورهم ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾ أي ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخِصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال ابن الجوزي : وبركُتها أن الله عزَّ وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخِصب والأنهار[3] ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ أي أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلة أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون : سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأنَّ ولد الولد كالولد ﴿ **وكلا جعلنا صالحين** ﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿ **وجعلنَاهُمْ أئمَّة يهدُونَ بأمرنَا** ﴾ أي جعلناهم قدوةً ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿ **وأوحينَا إليهِمْ فعل الخيرات** ﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿ **وإقام الصَّلاة وإيتاءَ الزكاة** ﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضلُ العبادات البدنية ، والزكاة أفضلُ العبادات المالية ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ أي موحدين مخلصين في العبادة .

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾

(١) القرطبي ٣٠٣/١١ . (٢) المختصر ٥١٤/٢ . (٣) زاد المسير ٣٦٨/٥ .

﴿ وَلوطاً آتيناهُ حكماً وعلماً ﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد قال ابن كثير : كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتَّبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿ فآمن لوطٌ وقال إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ فآتاه الله حُكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى « سدوم » فكذبوه فأهلكهم الله ودمَّر عليهم كما قصّ خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز[١] ﴿ **ونجَّيناهُ من القرية التي كانت تعمل الخبائث** ﴾ أي خلَّصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك ﴿ **إنهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين** ﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿ **وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين** ﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ﴿ **ونوحاً إذ نادى من قبل** ﴾ أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله ﴿ ربِّ لا تذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّاراً ﴾ ﴿ **فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾ أي استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين ـ ركاب السفينة ـ من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغماً شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أي منعناه من شر قومه المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿ **إنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين** ﴾ أي كانوا منهمكين في الشر فأغرقناهم جميعاً ولم نُبْق منهم أحداً ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث** ﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان حين يحكمان في شأن الزرع ﴿ **إذ نفشت فيه غنم القوم** ﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ أي كنا مطَّلعين على حكم كلٍ منهما عالمين به .

فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

﴿ **فَفهمناها سليمان** ﴾ أي علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿ **وكلاًّ آتينا حُكماً وعلماً** ﴾ أي وكلاًّ من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون : تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئاً ،

(١) المختصر ٢/٥١٥ .

فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال : يانبيَّ الله لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع ! قال : وما هو ؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود : وُفّقت يا بُنيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبّح قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترنّم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردُّ عليه الجبال تأويباً[1] وإنما قدَّم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ﴿ **وكُنا فاعلين** ﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بإلانة الحديد له قال قتادة : أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلّقها[2] ﴿ **لتحصنكُمْ من بأْسكم** ﴾ أي لتقيكم في القتال شرَّ الأعداء ﴿ **فهل أنتم شاكرونَ** ﴾ استفهامٌ يراد به الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة** ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفةً أي شديدة الهبوب ﴿ **تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها** ﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار ، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿ **وكُنَّا بكُل شيءٍ عالمين** ﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناه تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿ **ومن الشياطين من يغوصون له** ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللآلىء ﴿ **ويعملون عملاً دون ذلك** ﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿ **وكنا لهم حافظين** ﴾ أي نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته .

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ

(١) المختصر ٢/٥١٦ . (٢) القرطبي ١١/٣٢٠ .

كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ وَأيوب إذ نادى ربه ﴾ أي واذكر قصة نبي الله أيوب حين دعا ربَّه بتضرع وخشوع ﴿ **أني مسني الضر** ﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون : كان أيوب نبياً من الروح ، وكان له أولاد ومال كثير ، فأذهب الله ماله فصبر ، ثم أهلك الأولاد فصبر ، ثم سلَّط البلاء والمرض على جسمه فصبر فمر عليه ملأ من قومه فقالوا : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرَّع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿ **وأنت أرحم الراحمين** ﴾ أي أكثرهم رحمة فاحمني ، ولم يصرِّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف ، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه ، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطب ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿ **فكشفنا ما به من ضر** ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات[1] . والمعنى أعطيناه أهله في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ أي من أجل رحمتنا إياه ﴿ **وذكرىٰ للعابدين** ﴾ أي وتذكرة لغيره من الصابرين ليصبروا كما صبر قال القرطبي : أي وتذكيراً للعُبَّاد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه[2] ، يُروى أنَّ أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً : لو دعوت الله عز وجل فقال لها : كم لبثنا في الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة فقال : إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي[3] ﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل** ﴾ أي واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذا الكفل ﴿ **كُلٌّ من الصابرين** ﴾ أي كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر ، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى ﴿ **وأدخلناهم في رحمتنا** ﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم ﴿ **إنهم من الصالحين** ﴾ أي لأنهم من الفضل والصلاح ﴿ **وذا النون** ﴾ أي واذكر لقومك قصة يونس الذي

---

(١) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر ، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوَّضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم . (٢) القرطبي ١١/٣٢٧ .
(٣) النسفي ٣/٨٧ .

ابتلعه الحوت ، والنونُ هو الحوتُ نُسب إليه لأنه التقمه ﴿ **إذْ ذهب مُغاضباً** ﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ ولا يصح قول من قال : مغاضباً لربه قال أبوحيان : وقولُ من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة[1] وقال الرازي : لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي ، والجاهلُ بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً ، ومغاضبتُه لقومه كانت غضباً لله ، وأنفةً لدينه ، وبغضاً للكفر وأهله[2] ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي ظنَّ يونس أنْ نضيّق عليه بالعقوبة كقوله ﴿ ومن قُدر عليه رزقُه ﴾ أي ضُيُق عليه فيه فهو من القدر لا من القُدرة قال الإمام الفخر : من ظنَّ عجز الله فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام ! روي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقتُ فيها فلم أجدْ لي خلاصاً إلا بك ، فقال : وما هي ؟ قال : يظنُّ نبيُّ الله يونس أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدْر لا من القُدرة[3] ﴿ **فنادى في الظلمات** ﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت قال ابن عباس : جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل ، وظلمةُ البحر ، وظلمة بطن الحوت ﴿ **أن لا إله إلاَّ أنت** ﴾ أي نادى لا إله إلا أنت يارب ﴿ **سبحانك إني كنتُ من الظالمين** ﴾ أي تنزَّهت ياربّ عن النقص والظلم ، وقد كنتُ من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عني المحنة وفي الحديث (ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له)[4] .

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

---

(١) البحر ٦/٣٣٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/٢١٤ . (٣) الفخر الرازي ٢٢/٢١٥ .
(٤) أصل الحديث في سنن أبي داود .

﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم** ﴾ أي استجبنا لتضرعة واستغاثته ونجيناه من الضيق والكرب الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿ **وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرني فرداً** ﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً : ربِّ لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس : كان سنُّه مائة وسنُّ زوجته تسعاً وتسعين[1] ﴿ **وأنت خير الوارثين** ﴾ أي وأنت يارب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي : وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء ، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء ، واستمطارٌ لسحائب لطفه عز وجل[2] ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿ **ووهبنا له يحيىٰ** ﴾ أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس : كانت سيئة الخُلُق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخُلُق[3] ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذُكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدّون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿ **ويدعوننا رغباً ورهباً** ﴾ أي طمعاً ورجاءً في رحمتنا وخوفاً وفزعاً من عذابنا ﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾ أي كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿ **والتي أحصنت فرجها** ﴾ أي واذكر مريم البتول التي أعفت نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿ لم يْمسسني بشرٌ ولم أكُ بغياً ﴾ قال ابن كثير : ذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولدٍ من شيخ كبير قد طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها ، وهذه أعجب فإنها إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذكر ولذلك ذكر قصة مريم بعدها[4] ﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ أي أمرنا جبريل فنفخ في فتحة درعها ـ قميصها ـ فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسىٰ ، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف ﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبة للخلق تدل على قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿ **إنَّ هذه أُمتُكم أمة واحدة** ﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب ان تكونوا عليها أيها الناس ملةٌ واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام ، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس : معناه دينكم دينٌ واحد[5] ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ أي وأنا إلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة .

---

(١) الرازي ٢٢/٢١٧ . (٢) روح المعاني ١٧/٨٧ . (٣) القول الأول قول قتاده وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في القرطبي ١١/٣٣٦ . (٤) المختصر ٢/٥٢٠ . (٥) نفس المرجع السابق والصفحة .

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾

﴿ **وتقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن موحِّد ، ومن يهودي ، ونصراني ومجوسّي ﴿ **كل إلينا راجعون** ﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا قال الرازي : معنى الآية جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى[1] ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمنٌ** ﴾ أي من يعمل شيئاً من الطاعات وأعمال البر والخير بشرط الإيمان ﴿ **فلا كفران لسعيه** ﴾ أي لا بُطلان لثواب عمله ولا يضيع شيء من جزائه ﴿ **وإنا له كاتبون** ﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق ﴿ **وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون** ﴾ قال ابن عباس أي ممتنعٌ على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير : والأول أظهر[2] وقال في البحر : المعنى وممتنع على أهل قرية قدرنا إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم الساعة فحينئذٍ يرجعون[3] ﴿ **حَتَّىٰٓ إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ** ﴾ أي حتى إذا فتح سدُّ يأجوج ومأجوج ﴿ **وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴾ أي وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول والمرادُ أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض ﴿ **وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ** ﴾ أي اقترب وقت القيامة قال المفسرون : جعل الله خروج يأجوج ومأجوج علماً على قرب الساعة قال ابن مسعود : الساعةُ من الناس بعد يأجوج ومأجوج كالحامل المتمّم لا يدري أهلُها متى تفْجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً[4] ﴿ **فَإذا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أنَّ أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿ **يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا في غَفْلَةٍ** ﴾ أي ويقولون يا ويلنا أي ياحسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلةٍ تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب ﴿ **بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى لم نكن في غفلة

(١) تفسير الرازي ٢٢/٢١٩ . (٢) المختصر ٢/٥٢١ . (٣) البحر ٦/٣٣٨ . (٤) زاد المسير ٥/٣٨٩ .

حيث ذكَّرتنا الرسلُ ونبَّهتنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿ **حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ أي حطب ووقودها قال أبو حيان : الحَصب ما يحصب به أي يُرمى به في نار جهنم ، وقبل أن يُرمى به لا يُطلق عليه حصبٌ إلا مجازاً[١] ﴿ **أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام ، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمهم وحسرتهم برؤ يتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم .

لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿ **لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوهَا** ﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهةً ما دخلوا جهنم ﴿ **وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ أي العابدون والمعبدون كلهم في جهنم مخلَّدون ﴿ **لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ** ﴾ أي لهؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النَّفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمكلوم ﴿ **وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ** ﴾ أي لا يسمعون في جهنم شيئاً لأنهم يُحشرون صُماً كما قال تعالى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُماً ﴾ قال القرطبي : وسماعُ الأشياء فيها روح وأُنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار[٢] وقال ابن مسعود : إذا بقي من يُخلَّد في نار جهنم جعلوا في توابيت من نار ، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أنه يُعذَّب في النار غيره ثم تلا الآية[٣] ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿ **أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يصلون حرَّها ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرّاً أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً[٤] ﴿ **لَايَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا** ﴾ أي لا يسمعون حسَّن النار ولا حركة لهبها وصوتها ﴿ **وَهُمْ في مَاٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ** ﴾ أي وهم في الجنة دائمون ، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿ **لَايَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ** ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة

(١) البحر ٦/٣٤٠ . (٢) القرطبي ١١/٣٤٥ . (٣) القرطبي ١١/٣٤٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٢/٥٢٣ .

والبعث لأنهم في مأمن منها ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم قائلين ﴿ هَذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَاءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها قال ابن عباس : كطيّ الصحيفة على ما فيها ، فاللام بمعنى « على » ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ أي نحشرهم حفاةً عُراةً غُرلاً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث (إنكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غُرلاً) ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ ألا وإنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام[1] . .) الحديث ﴿ وَعْداً عَلَيْنَا ﴾ أي وعداً مؤكداً لا يخُلف ولا يبدّل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي قادرين على ما نشاء ، وهو تأكيد لوقوع البعث .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ ﴾ أي سجلنا وسطرنا في الزبور المنزل على داود ﴿ مِن بَعْدِ ٱلذِكْرِ ﴾ أي من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أزلاً ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ ﴾ أي أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون قال ابن كثير : أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويُدخلهم الجنة وهم الصالحون[2] وقال القرطبي : أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعْده وأورثنا الأرض ﴾ وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ[1] ، وقال مجاهد : الزبور : الكتب المنزلة ، والذكرُ أمُّ الكتاب عند الله[3] ﴿إِنَّ فِي

(١) رواه مسلم عن ابن عباس . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٥٢٤ (٣) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه .

﴿ هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أي إنَّ في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لكافيةً لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا ، والمؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث (إنما أنا رحمةٌ مهداة)[1] فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة[2] ﴿ قُلْ إِنَّما يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أوحى إليَّ ربي أنَّ إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿ فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿ فَإِن تَوَلَّوا ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواء في الإعلام لم أخصَّ أحداً دون أحد ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ ﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب ؟ ولا متى يكون أجل الساعة ؟ فهو واقع لا محالة ولكنْ لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي اللَّهُ هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السرَّ وأخفى ، وسيجازي كلا بعمله ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ أي وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحانٌ لكم لنرى كيف صنيعكم ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أي ولعلَّ هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمن معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿ قَالَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي استعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب . . ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، فهو نعم الناصر ونعم المعين .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء »

(١) ـ أخرجه الحافظ ابن عساكر .

(٢) لم يقل الله تعالى : رحمةً للمؤمنين وإنما قال ﴿ رحمةً للعالمين ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمةً للعالمين ، حتى الكفار رُحموا به حيث أخر عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمسخ والخسف والغرق .

تم المجـــلد الأول
من تجريد البيان لتفسير القرآن من صفوة التفاسير
ويبدأ المجلد الثاني
بقولـــه تعـــالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
(صدق الله العظيم)

[سورة الحج]

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصفحة
كلمات في هذا التفسير	
مقدمة الطبعة	
الاستعاذة والبسمله	٧
ســـورة الفاتحـــة	
بين يدي السورة وفضلها	٨
التسمية واللغة	٩
التفسير	١٠
البلاغة	١١
الفوائد وخاتمة في بيان الأسرار والقدسية	
في فاتحة الكتاب العزيز	١٢
ســـورة البقرة	
بين يدي السورة	١٤
التسمية وفضلها	١٥
التفسير	١٦
أوصاف الكافرين ومصيرهم في الآخرة	١٧
صفات المنافقين الشنيعة	١٨
ضرب الأمثال للمنافقين	٢٠
بيان من القرآن لظلمة الضلال والنفاق	٢١
الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين	٢٢
كلام الإمام البيضاوي حول كروية الأرض	٢٢
وجوه إعجاز القرآن الكريم	٢٣
القرآن معجز في نظمه ، وتشريعه ، وبيانه	٢٣
عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن	٢٣
كلام الحافظ ابن كثير في إعجاز القرآن	٢٣
بيان لأوصاف الفاسقين	٢٥
استخلاف آدم وذريته	٢٦
تذكير بني إسرائيل بالنعم وتحذيرهم	
من كفران النعم	٢٨
عناد بني إسرائيل	٣٠

الموضـــــوع	الصفحة
نتيجة عناد بني إسرائيل الذل والهوان	٣١
قصة بقرة بني اسرائيل	٣٤
جزاء من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه	٣٨
حرص بني اسرائيل على الحياة الدنيا	٤١
السحر في عهد النبي سليمان	٤٢
أماني وأحلام اليهود والنصارى	٤٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع	
مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾	٤٥
قصة سيدنا إبراهيم وبناء البيت	٤٨
وصية إبراهيم لبنيه	٤٩
تحويل القبلة إلى المسجد الحرام	٥٣
الأدلة العقلية على وحدانية الله تعالى	٥٧
عاقبة الأتباع والمتبوعين	٥٧
البر في كتاب الله تعالى	٦٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا	
كتب عليكم القصاص ﴾	٦١
شهر رمضان المبارك وأحكامه	٦٢
القتال في الأشهر الحرم	٦٥
أشهر الحج وفرضيته	٦٦
ابتلاء وامتحان المؤمنين	٧١
مشروعية القتال في الإسلام	٧٢
أول مانزل في الخمر والميسر	٧٣
التحذير من زواج المشركين والمشركات	٧٤
أحكام الحيض	٧٤
آيات الطلاق	٧٦
قصة طالوت وجالوت	٨٣
قصة سيدنا إبراهيم مع النمروذ	٨٨
آيات الإنفاق في سبيل الله	٩٠
تحريم الربا	٩٤

الموضوع	الصفحة
آية الدَّيْن	٩٦
ســـورة آل عمران	٩٩
بين يدي السورة	٩٩
المحكم والمتشابه في القرآن الكريم	١٠٢
تفسير قوله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات﴾	١٠٤
قتلة الأنبياء	١٠٦
التحذير من موالاة أعداء الله تعالى	١٠٨
قصة آل عمران ومنهم عيسى عليه السلام	١٠٩
رفع سيدنا عيسى إلى السماء	١١٤
دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء بيننا وبينهم	١١٦
بعض أخلاق أهل الكتاب وصفاتهم	١١٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا﴾	١٢٢
مزايا أول بيت للعبادة وضع للناس ببكة	١٢٤
تفسير قوله تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾	١٢٥
قصة غزوة أحد	١٣٠
تفسير قوله تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . ﴾	١٤١
الوعيد الشديد لمن يبخل بماله	١٤٤
صفات أولي الألباب	١٤٧
تفســـير سورة النساء	١٥٠
كفالة اليتيم	١٥٣
آيات الميراث	١٥٥
شروط قبول التوبة	١٥٨
معاشرة الزوجة بالمعروف	١٥٨
المحرمات من النساء	١٥٩
تفضيل الرجال على النساء	١٦٣
سبيل إصلاح المرأة النا شزة	١٦٤
تفسير قوله تعالى﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقربو الصلاة وأنتم سكارى ﴾	١٦٧
تحذير المؤمنين من موالاة أهل الكتاب	١٦٨
إن الله لايغفر أن يشرك به	١٦٩
اليهود عبدة الأوثان	١٧٠
إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها	١٧١
الحث على التمسك بالكتاب والسنة	١٧٢
مواقف المنافقين من المؤمنين	١٧٣
الحث والتحريض على الجهاد في سبيل الله	١٧٤
كفارة من قتل مؤمناً خطأً	١٨١
فضيلة المجاهدين في سبيل الله	١٨٢
صلاة الخوف	١٨٥
لاتكن مدافعاً ومخاصمًا عن المنهمكين في المعاصي والآثام	١٨٦
أقسم الشيطان لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً	١٨٨
ميراث يتامى النساء والمستضعفين من الولدان	١٩٠
العدل المطلق بين الزوجات يستحيل وجوده	١٩٢
من صفات المنافقين	١٩٤
التعنت والعناد عند أهل الكتاب	١٩٨
الراسخون في العلم	٢٠٠
إفراط النصارى في شأن المسيح عليه السلام	٢٠٢
مسألة الكلالة في الميراث	٢٠٤
ســـورة المائدة	
بين يدي السورة	٢٠٥
الوفاء بالعقود	٢٠٧
المحرمات من البهائم والأنعام	٢٠٨
صيد الجوارح المعلمة حلال	٢١٠
الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر	٢١١
من صفات اليهود الخيانة ونقض العهد والميثاق	٢١٢
لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم	٢١٥
بيت المقدس وقصة بني اسرائيل والجبابرة	٢١٦
حد المحاربة	٢٢٠
حد السرقة	٢٢١
اليهود يحرفون الكلم ويأكلوت السحت	٢٢٢
ومن لم يحكم بما أنزل الله	٢٢٣
التحذير من موالاة اليهود والنصارى	٢٢٦
التحذير من موالاة أعداء الدين	٢٢٨

الموضـــوع	الصفحة
نفاق أهل الكتاب	٢٢٩
شناعة الفساد عند اليهود	٢٣٠
لعن بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم	٢٣٥
كفارة اليمين	٢٣٨
تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام	٢٣٩
تحريم قتل الصيد للحرم	٢٤١
صيد البحر حلال	٢٤١
الوصية عند الموت	٢٤٥
معجزات سيدنا عيسى عليه السلام	٢٤٦
تفســـير سورة الأنعام	
بين يدي السورة	٢٥١
العقيدة وأصول الإيمان	٢٥٣
الكفار بين جاهل ومعاند	٢٥٨
حال المشركين حين استماع القرآن	٢٥٩
قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾	٢٦٣
وصية الله نبيه بالضعفاء	٢٦٥
قوله تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾	٢٦٧
قوله تعالى : ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً﴾	٢٧١
مناظرة إبراهيم لأبيه آزر في الشمس والقمر	٢٧٢
قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾	٢٧٦
قوله تعالى : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾	٢٧٨
قوله تعالى : ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾	٢٨١
قوله تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً﴾	٢٨٣
قوله تعالى : ﴿ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾	٢٨٦
قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾	٢٨٧
يوم يجمع الله الثقلين	٢٨٨
قبائح وجرائم المشركين الشنيعة	٢٩١
قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾	٢٩٣
ماحرمه الله على اليهود بسبب بغيهم	٢٩٥
قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾	٢٩٦
قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ﴾	٢٩٨
قوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾	٣٠٠
ســـورة الأعراف	
بين يدي السورة	٣٠٢
الحكمة من الحروف المقطعة	٣٠٤
سؤال الرسل توبيخ للمجرمين والعصاة	
الأدلة على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة	٣٠٦
حوار آدم وإبليس في الجنة	٢٠٨
ما أحله الله من الطيبات وماحرمه من الخبائث	٣١٠
جزاء المستكبرين	٣١٢
من هم أصحاب الأعراف	٣١٥
دلائل القدرة والوحدانية	٣١٧
رسالة نوح إلى قومه	٣١٩
قصة ناقة صالح	٣٢٢
لوط وقومه	٣٢٤
شعيب وقومه	٣٢٥
قوله تعالى : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾	٣٢٨
موسى وفرعون	٣٢٩
موسى والسحرة	٣٣١
أخذ آل فرعون بالسنين والآفات	٣٣٣
مناجاة موسى لربه	٣٣٦
النبي الأمي إلى الناس كافة	٣٤٢
استسقاء موسى لقومه	٣٤٣
قصة أصحاب القرية الذين مسخوا قردة وخنازير	٣٤٦
قصة بلعم بن باعوراء	٣٤٨
الحكمة في إخفاء الساعة عن العباد	٣٥١
ســـورة الانفال	
بين يدي السورة	٣٥٧
قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾	٣٥٩
مدد الله للمؤمنين بالملائكة	٣٦٢
قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم﴾	٣٦٤

الموضـــــوع	الصفحة
نصرة الله للمؤمنين في المدينة	٣٦٦
قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾	٣٦٧
قوله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾	٣٧٦
أسرى بدر	٣٨٠
قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا﴾	٣٨١
ســـورة التوبة	
بين يدي السورة	٣٨٣
التسمية	٣٨٥
قوله تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾	٣٨٦
إذا طلب منك مشرك الجوار	٣٨٨
الحض على قتال الكفار	٣٩٠
قوله تعالى : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله﴾	٣٩١
قوله تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم﴾	٣٩٣
قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾	٣٩٥
مزاعم اليهود والنصارى	٣٩٦
قوله تعالى : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾	٣٩٩
الحث على الجهاد ووعيد تاركيه	٤٠٠
قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾	٤٠١
قوله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾	٤٠٧
ولاية المؤمنين بعضهم لبعض	٤١١
قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾	٤١٢
قوله تعالى : ﴿السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾	٤١٩
قوله تعالى : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ﴾	٤٢٣
توبة المتخلفين عن غزوة تبوك	٤٢٧
ســـورة يونس	
بين يدي السورة	٤٣١
قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾	٤٣٣
قوله تعالى : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾	٤٣٥
الشهوات الفانية تعقبها الحسرات الباقية	٤٤٠
الأدلة على الوحدانية والربوبية	٤٤٣
بيان لصدق النبوه والوحي	٤٤٥
أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون	٤٥١
موسى وهلاك فرعون بالغرق	٤٥٤
قوله تعالى : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾	٤٥٩
ســـورة هود	
بين يدي السوره	٤٦٢
قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾	٤٦٥
قوله تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾	٤٦٨
دعوة نوح إلى قومه	٤٧٠
سفينة نوح ونجاة قومه	٤٧٢
دعوة هود إلى قومه عاد	٤٧٦
دعوة صالح إلى قومه ثمود	٤٧٨
قوله تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾	٤٨٠
قوله تعالى : ﴿وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾	٤٨٢
قوله تعالى : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾	٤٨٤
قوله تعالى : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾	٤٩١
ســـورة يوسف	
بين يدي السورة	٤٩٥
رؤ يا يوسف	٤٩٧
قوله تعالى : ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾	٤٩٩
قوله تعالى : ﴿وراودته التي هو في بيتها﴾	٥٠١
يوسف ومحنة السجن	٥٠٧
قوله تعالى : ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾	٥١١
يوسف على خزائن مصر	٥١٢
قوله تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه ﴾	٥١٢
قوله تعالى : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾	٥١٩
قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾	٥٢٢
قوله تعالى : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾	٥٢٥
ســـورة الرعد	
بين يدي السورة	٥٢٧

الموضوع	الصفحة
دلائل القدرة والوحدانية	٥٢٨
قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾	٥٣٢
هل يستوي من آمن وصدق ومن كفر وكذب	٥٣٥
قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾	٥٣٦
تسلية وتأنيس للنبي ﷺ	٥٣٨
قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه حكمًا عربياً ﴾	٥٤٠
ســـورة ابراهيم	
بين يدي السورة	٥٤٣
القرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين	٥٤٤
قوله تعالى : ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك ﴾	٥٤٦
حوار الأتباع لسادتهم وللشيطان يوم القيام	٥٤٨
تمثيل لكلمة الإيمان وكلمة الاشراك	٥٥٠
قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا	
نعمة الله كفراً﴾	٥٥١
دعاء ومناجاة إبراهيم ربه	٥٥٢
قوله تعالى : ﴿يوم تبدل الأرض غير	
الأرض والسموات﴾	٥٥٥
ســـورة الحجر	
بين يدي السورة	٥٥٧
قوله تعالى : ﴿ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين﴾	٥٥٨
قوله تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾	٥٥٩
دلائل القدرة والوحدانية	٥٦٠
خلق الإنسان من طين وخلق الجان من نار	٥٦١
إبليس ليس من الملائكة	٥٦٣
قوله تعالى : ﴿ونزعنا مافي صدورهم	
من غلٍ إخواناً﴾	٥٦٤
قوله تعالى : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها ﴾	٥٦٦
قصة أصحاب الحجر	٥٦٨
قوله تعالى : ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾	٥٦٩
ســـورة النحل	
بين يدي السورة	٥٧١
قوله تعالى : ﴿ أتى امر الله فلا تستعجلوه ﴾	٥٧٢
دلائل القدره والوحدانية	٥٧٢
قوله تعالى : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾	٥٧٦
عاقبة المستكبرين ومكافأة المتقين	٥٧٧
قوله تعالى : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴾	٥٧٩
قوله تعالى : ﴿فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾	٥٨٠
قوله تعالى : ﴿ وله الدين واصباً ﴾	٥٨٢
قوله تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾	٥٨٤
قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾	٥٨٥
قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾	٥٨٧
دلائل القدرة والوحدانية	٥٨٨
قوله تعالى : ﴿ونزلنا عليك الكتاب	
تبيانا لكل شيء﴾	٥٩١
قوله تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم﴾	٥٩١
قوله تعالى : ﴿ولاتتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ﴾	٥٩٣
حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرهاً	٥٩٥
قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا	
الحياة الدنيا على الآخرة ﴾	٥٩٥
ضرب الأمثال لمن بدل نعمة الله كفراً	٥٩٦
قوله تعالى : ﴿ إن ابراهيم كان أُمَّة ﴾	٥٩٨
قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة	
والموعظة الحسنة ﴾	٥٩٩
ســـورة الإسراء	
بين يدي السورة	٦٠١
قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾	٦٠٢
قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي	
للتي هي أقوم ﴾	٦٠٤
قوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية	
أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾	٦٠٥
قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه	
وبالوالدين احساناً ﴾	٦٠٧
توجيهات ونصائح اجتماعية	٦٠٧
قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾	٦١١

الموضـــــوع	الصفحة
صدود وإدبار المشركين عن سماع القرآن	٦١٢
قوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾	٦١٥
قوله تعالى : ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾	٦١٦
قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾	٦١٨
قوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾	٦١٩
قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾	٦٢٠
قوله تعالى : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾	٦٢٣
قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾	٦٢٥
قوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾	٦٢٦
ســـــورة الكهف	
بين يدي السورة	٦٢٩
قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾	٦٣٠
قصة الفتية الذين آمنوا بربهم ﴾	٦٣٢
قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾	٦٣٧
قصة أصحاب الجنتين	٦٣٩
قوله تعالى :﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾	٦٤١
قوله تعالى : ﴿ ومانرسل المرسلين إلامبشرين ومنذرين ﴾	٦٤٤
قصة موسى والرجل الصالح	٦٤٦
قصة ذي القرنين	٦٥٠
قوله تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾	٦٥٤
ســـــورة مريم	
بين يدي السورة	٦٥٦
قوله تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾	٦٥٧
قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾	٦٥٩
قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم ﴾	٦٦٣
قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى ﴾	٦٦٥
قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل ﴾	٦٦٥
قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس ﴾	٦٦٧
قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾	٦٦٩
قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ﴾	٦٧١
ســـــورة طه	
بين يدي السورة	٦٧٤
قوله تعالى :﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾	٦٧٥
قصة موسى العجيبة الغريبة	٦٧٦
أهوال الحشر والنشر	٦٩٢
قوله تعالى :﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾	٦٩٣
عداوة إبليس لأبينا آدم	٦٩٣
قوله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ﴾	٦٩٥
قوله تعالى :﴿ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً﴾	٦٩٦
ســـــورة الأنبياء	
بين يدي السورة	٦٩٩
قوله تعالى : ﴿ أقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾	٧٠٠
دلائل الوحدانية	٧٠٢
قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنه ﴾	٧٠٦
قصة إبراهيم مع أبيه وقومه	٧٠٩
قوله تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾	٧١١
قصة داود وسليمان يحكمان في شأن الزرع	٧١٣
قصة نبي الله أيوب	٧١٥
دعاء زكريا ربه وإنابته له	٧١٧
مريم الصديقة البتول	٧١٧
قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾	٧١٩
قوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾	٧٢٠
قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾	٧٢١
قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾	٧٢٢

تصـــويب الأخطـــــاء

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطــــأ	الصـــواب
٢٤	٦	وعملو	وعملوا
٦٠	٢١	في الرقاب	وفي الرقاب
٦٣	١١	الداعي	الداع
٨٠	١٠	لا تواعدونهن	لا تواعدوهن
١٠٢	٧	فيه آيات	منه آيات
١٤١	٢٠	على أنفسكم	عن أنفسكم
١٤٥	١١	بما قمت	بما قدمت
١٧١	٢	وكفي	وكفي
١٨٤	٦	غفوراً رحيماً	عفواً غفوراً
٢٠٨	١٩	والمخنقة	والمنخنقة
٢١٦	٢٠	على أعقابكم	على أدباركم
٢١٩	٣	قال ﴾ يا ويلتا	﴾ قال يا ويلتا
٢٣١	٢١	والله	إن الله
٢٣٦	٢٢	قيسين	قسيسين
٢٧٨	٢١	وتركتكم	وتركتم
٢٨٠	٨	نخرج به	نخرج منه
٢٨٤	٢٣	ولا مبدل	لا مبدل
٢٩٠	٧	عما يفعلون	عما يعملون
٢٩٣	٦	جنات معروشات	جنات معروشات وغير معروشات
٣٠٧	١٤	ثم لا تجد	ولا تجد
٣١٦	١٨	حرمها	حرمهما
٣١٧	١٣	لقد جاءت	قد جاءت
٣٢٠	٢١	فقال يا قوم	قال يا قوم
٣٢٢	١٤	آيـة	بيّنــة
٣٢٩	٢٢	بآيـة	ببينـة
٣٣٠	٣	جئتكم بآية	جئتكم ببينة
٣٣١	١١	فما ألقوا	فلما ألقوا
٣٩١	١٧	هم فيها خالدون	هم خالدون
٣٩٤	٢	حتى يأمر	حتى يأتي
٣٩٨	٥	ثم لا ينفقونها	ولا ينفقونها
٣٩٩	٢٢	يضل بها	يضل به
٤٠٢	١٢	لُهَمْ	لَهُمْ
٤٠٨	٢٢	تهزئون	تستهزئون
٤١٠	٦	بخلاقكم	بخلاقهم
٤٢٠	٩	تجري من تحتها	تجري تحتها
٤٤٢	٥	قتُر	قترٌ
٤٧٦	٢٢	ويُزدكم	ويَزدكم
٤٨٦	٢١	أن يصيبكم ما	أن يصيبكم مثل ما

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

١٦٩/ ١٩٨٤م